ما يقوله القرآن

في سورة يس

ما يقوله القرآن في

سورة يس

من مفردات ولطائف وتعاليم

الجزء الخامس

الشيخ فاضِل الصفَّار

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿١﴾

الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٢﴾

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهدِنَا الصِّرَاطَ

المُستَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ

عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ

وَلاَ الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ

يس/ ٥٦

الآية متمِّمة لوصف حال أصحاب الجنة وبيان سبب ما ينشغلون به فيها، وخصَّصته بالذكر لأهميته وجاذبيته القاطعة بالقياس إلى غيره من النعم، أو لأنه خلاصة النعم التي مرَّ ذكرها، وهي المؤانسة بالنساء أو الطعام الطيّب والشراب والتزاور بين الأحبّة، والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾

الضمير يعود على أصحاب الجنة، وصيغة الجمع في أصحاب والمذكر في فاكهون تدلان على أنّهم رجال إلّا أنّ هذه الآية عطفت الأزواج عليهم، وهو أعمّ من الذكور والإناث، ويعزِّزه ما قرره أهل البلاغة وعلماء الأصول والتفسير من أنّ الجمع المذكور يشمل الإناث؛ لأنه يتضمَّن الدلالة عليهن، بخلاف الجمع المؤنث، والقاعدة الأدبية تجيز استعمال اللفظ الخاص وإرادة العام كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ﴾[1] ولا يختصّ الوصف بالرجال، بل يشمل النساء باتفاق الكلمة؛ لفهم العرف عدم الخصوصية للرجال، ومثله يقال في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾[2] إذ لا يمكن تخصيص وجوب الوفاء بالرجال دون النساء وهكذا.

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ١.

ومثله يقال في شمول الذين آمنوا للجنّ وعدم اختصاصه بالإنس؛ لقيام الأدلّة على أنهم مكلَّفون كالبشر، وأنّ القرآن والسنّة حجَّة على الصنفين.

وورود الآيات بتخصيص الناس والإنسان بالذكر دون الجن كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إلى الله﴾[١] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۞ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾[٢] فإنّ التخصيص بذكر الناس والإنسان إمّا لأنهم أشرف وجوداً وكرامة، أو باعتبار أنّ ظاهر القرآن حجَّة على من كان في العالم الظاهر، أو أنّ لغة الجنّ تتوافق مع منطوق هذه الآيات فيفهمونها بلغتهم أنهم معنيون بها، أو لقيام الضرورة عندهم على أنهم مُكلَّفون كالبشر، ومعنيّون بخطاباتهم، كما عرف إبليس وهو من الجِّن بأنه معني بالخطاب للملائكة ﴿اسْجُدُواْ لآدَمَ﴾[٣] أو لأنّ شرفية الوجود تقتضي ثبوت ما يكون حجَّة عليه على غيره من العوالم الدانية، أو لغير ذلك من الوجوه.

نعم ربما يقتضي الحال ذكر الجنّ لبيان سعة الحكم كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾[٥] وفي النار يقول أهلها: ﴿أَرِنَا

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٥.

(٢) سورة الانفطار: الآيتان ٦-٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ٣٤؛ سورة الأعراف: الآية ١١؛ سورة الإسراء: الآية ٦١؛ سورة الكهف: الآية ٥٠؛ سورة طه: الآية ١١٦.

(٤)سورة الأنعام: الآية ١١٢.

(٥)سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

﴿الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾[١] فإنها دالة على أن الجنّ مكلَّف كالإنس، ومنهم من يعادي الأنبياء ويعصي ويخدع بني آدم ويُضلّه الطريق كما يضلّ الجنّ أيضاً.

ويتلخّص: أنّ مرجع الضمير (هم) أصحاب الجنة بلا خلاف، وإنّما الخلاف في قوله: (وأزواجهم) وتحرير الحق فيها يستدعي أولاً بيان معنى الزوج وهو مفرد أزواج، ويطلق على المقارن لغيره[٢]، فكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً زوج[٣]، ومن ذلك يقال للرجل زوج المرأة، ويقال للمرأة زوج الرجل، وفيه وردَ قوله تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[٤] ويقال لفلان زوجان من الحمام أي ذكر وأنثى، وهو كذلك عُرفاً، ويعززه قول أهل الحجاز للمرأة (زوج) على خلاف سائر العرب إذ يقولون (زوجة) بالهاء، والجمع زوجات ولعلّ الآية نزلت بلغتهم[٥].

ويعضده وقوعه كثيراً في الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾[٦] أي نساءً، وفي الفقيه فسرت: بالطينة التي خلقت من ضلعه الأيسر[٧]، فما ورد من أن المرأة خلقت من أضلاع

(١) سورة فصلت: الآية ٢٩.
(٢) معجم مقاييس اللغة: ص٤٤٣، (زوج).
(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٨٤، (زوج).
(٤) سورة البقرة: الآية ٣٥؛ سورة الأعراف: الآية١٩.
(٥) مجمع البحرين: ج٢، ص٣٠٨، (زوج).
(٦) سورة الروم: الآية ٢١.
(٧) انظر الفقيه: ج٣، ص٣٨١، ح٤٣٣٦؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٣٠٧، (زوج).

الرجل يراد به من فاضل طينة ضلعه، وكذا قوله تعالى: ﴿**وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾[(١)] ولم يقل زوجاته، والمراد بهنَّ نساؤهﷺ. هذا وقد اختلفوا في المراد بالأزواج على أقوال:

القول الأول: أنهنَّ الزوجات لقوله تعالى: ﴿**وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ**﴾[(٢)] أي قرنّاهم بهنَّ، وصرنَ زوجات لهم[(٣)]، وهُنَّ النساء في الجنة بعد ظهور سجاياهن وخصالهن وانحشارهن عليها، وحيث إنهُن مؤمنات خيّرات يَظهرنَ في أبهى وجه وأجمل شكل وصورة، أو هُنَّ نساء خاصات في الجنة، ولم يذكر النساء في الجنة لسببين:

الأول: ما ذكرته من انتفاء خصائصهن الدنيوية وصورتهن المُلكية وظهور خصائصهن الجميلة وصورتهن الملكوتية، فتصير كل امرأة في الجنة حورية.

والثاني: لبيان أنّ الزواج في الجنة ليس كالزواج في الدنيا، وفي ذلك تعظيم وتكريم كبير للمرأة وتشويق لها؛ لأنها في الدنيا امرأة، والخصوصيات الدنيوية فيها ما هو جميل وما هو قبيح وما هو مرضيّ وما هو غير مرضيّ، إلّا أنّ في الجنة تخرج عن طبيعتها الدنيوية وتصبح كائناً أعظم وأشرف وأجمل فتكون حورية، والاقتران بها ليس كالاقتران بالدنيا يقوم على النكاح والإنجاب ووظائف البيت، بل حياتهن كلها فكاهة.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٦.

(٢) سورة الدخان: الآية ٥٤.

(٣) مجمع البحرين: ج٢، ص٣٠٥، (زوج).

القول الثاني: أنه مُطلق القرين المشابه في الذات والصفات، أو في الصفات، وبهذا الاعتبار قال تعالى: ﴿**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ**﴾(١) أي أقرانهم الذين اقتدوا بهم وشابهوهم بالأفعال، وكذا قال سبحانه: ﴿**وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً**﴾(٢) أي قرناء متشابهون في الأفعال ثلاثاً، وهم أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون المقربون.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**﴾(٣) أي قرنت بأشكالها وسجاياها، أو بأعمالها، أو الأرواح بالأجساد.

وقيل قرنت نفوس الصالحين بالحور العين والطالحين بالشياطين(٤) لوجود التشابه.

القول الثالث: أنّه الصنف، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾(٥).

أي الأصناف، وقوله تعالى: ﴿**وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ**﴾(٦) أي أجناس، وخالق الأزواج: أي الأصناف والأشكال والأجناس كلها، فالحيوان على شاكلة الذكر والأنثى، والنخل والحبوب أشكال، والتين والكرم والزيتون

---

(١) سورة الصافات: الآية ٢٢.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٧.

(٣) سورة التكوير: الآية ٧.

(٤) مجمع البحرين: ج٢، ص٣٠٦-٣٠٧، (زوج).

(٥) سورة يس: الآية ٣٦.

(٦)سورة ص: الآية ٥٨.

أشكال وفي قوله تعالى: ﴿**فيها مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ**﴾[١] أي صنفان: صنف معروف وصنف غريب، أو متشاكلان كالرطب و اليابس لا يقصر رطبه عن يابسه في الفضل والطيب، وكذا أسود وأبيض وحلو وحامض وهو يعود إلى المعنى الثاني[٢].

القول الرابع: إنه ضد الفرد، كما يقال عندي زوج نعال وتريد اثنين، وزوجان تريد أربعة، فإذا جمعت يقال أزواج، ووجهه أنّ الانفراد يوجب الوحشة والتوحش ما لم يكن له جليس من معارفه، ويدل على أنّ أهل الجنة لا يعيشون غرباء منفردين في وحشة، وهو كسابقه يعود إلى الثاني[٣].

والحق أنّ الأقوال تنحصر في قولين هما الأول والثاني، وبهما قال المفسّرون، فذهب جماعة من أصحابنا ومن العامة بل الأكثر إلى أنّ الأزواج هن زوجاتهم المؤمنات اللاتي كُنَّ لهم في الدنيا، واللاتي أعددن لهم في الجنة بدليل قوله تعالى: ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ**﴾[٤][٥].

---

(١) سورة الرحمن: الآية٥٢.
(٢) مجمع البحرين: ج٢، ص٣٠٥، (زوج).
(٣) مجمع البحرين: ج٢، ص٣٠٨، (زوج)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٠٥-٤٠٦، (زاج).
(٤) سورة الرعد: الآية ٢٣.
(٥) التبيان: ج٨، ص٣٥٤؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٣؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٦٨؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٥٧٣؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٢؛ تفسير الميزان: ج١٧، ص١٠٢؛ تفسير الامثل: ج١٤، ص١٥٦؛ التحرير والتنوير: ص٤٢؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٨٦؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٤٨؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٤١؛ تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٥١.

ويقال للمرأة زوج بغير هاء في الموضع الذي لا يلتبس بالذكر، والآية مورد البحث منه؛ لانصراف قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ إلى الذكور، ولا خصوصية للأنوثة فيه؛ لذا ذهب البعض إلى أنه الأعمّ من زوج المرأة أو زوجة الرجل لاستعمال الأزواج فيهما معاً(١).

وذهب جماعة من الفريقين إلى أنّهم القرناء ومن هم على شاكلتهم في الصفات، ويشمل الأتباع في الأعمال الصالحة سواء كانوا من الزوجات والأزواج أم من غيرهم، فقوله (هم) أي الأصلاء من أصحاب الجنة رجالاً كانوا أو نساء، و (أزواجهم) هم الفروع المشابهون لهم والتابعون رجالاً كانوا أو نساءً(٢)، والحق الذي يقتضيه التحقيق هو أنّ المراد بالأزواج هم نساء أهل الجنة لعدة وجوه:

الوجه الأول: وجود المانع من حمل الأزواج على القرناء؛ لأنهم مشمولون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ فلو أُريد بالأزواج القرناء لزم التكرار.

الوجه الثاني: وجود المقتضي؛ لأن المعاني المتعددة الواردة في القرآن للأزواج لا يمكن الأخذ بها؛ لأنها متعارضة، فلم يبق إلّا الرجوع إلى الظهور، وهو شاهد على أنّ الأزواج في الآية هم النساء لعدة أسباب:

---

(١) تفسير الرازي : ج٩، ص٨٦.

(٢) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٥؛ الفرقان:ج٢٤، ص٤٦-٤٧ ؛ روح البيان: ج٧، ص٤١٤.

الأول: التبادر العرفي، بشهادة فهم الأكثر ذلك، واستعمال مفردة (أزواج) بدلاً عن أهل وأصحاب ونحوهما لخصوصية الدلالة على النكاح فيها، وللإشارة إلى الاكتمال والتكامل بينهما، فإنّ الزوج يكمِّل نفسه لشدة التجاذب بين المتوافقين، وبهذا يمكن الجمع بين المعاني الأربعة، فإنّ الزوجة الموافقة تؤنس وترفع الوحشة وتسد الحاجة.

الثاني: القرينة العقلية؛ لأن لذّات أهل الجنة هي الطعام والشراب والتزاور والنكاح، وقد ذكرت الثلاثة الأول في الآية التي سبقتها والآية التي تلتها، فيتعيَّن أن يكون المراد في هذه الآية النساء ليتمّ المعنى.

الثالث: القرينة المقامية، فإنّ الآية في مقام بيان انشغال أهل الجنة بكل النِعَم، ومعاشرة الحلائل والمؤانسة معهن من ألذّ نِعَم أهل الجنة، فلا يُعقل أن يذكر الأدنى منها ولا تذكر النعمة الأهم أو الأعظم.

الوجه الثالث: الروايات الواردة بطرق الفريقين، فإنّها صريحة في تفسير الأزواج بالنساء كما ستعرف، وتشمل الزوجة في الدنيا وسائر النساء المؤمنات.

يبقى سؤالان:

السؤال الأول: بناءً على أنّ الآية السابقة بقرينة (الأصحاب) و(فاكهون) يفيدان الذكور لا غير، فإنّ الأزواج يكُنَّ النساء، فلماذا جعل الزوج هو الأصل والزوجة هي الفرع دون العكس؟

والسؤال الثاني: أنّ الأزواج جمع وهو يفيد أنّ للزوج أكثر من زوجة وليس للزوجة أكثر من زوج وهذا ظلم؟

والجواب عن الأول: لسببين:

الأول: لأنّ ذلك هو لذة للنساء؛ لأنه يوافق ميلهنَّ الذاتي، فإنّ المرأة تميل إلى الرجل في الغالب بداعيين:

أحدهما: لأنها بطبعها الأولي تحتاج إلى سَند لها يرفع وحشتها ويؤنسها ويسد حاجتها، وهذه الحاجة ذاتية لا تنفك عنها في الدنيا والآخرة.

وثانيهما: لأنّ أعمال الرجال في الدنيا نوعاً كانت أفضل من أعمال النساء من حيث الطاعة واجتناب المعاصي وأعمال البرّ، وهذا ما يؤكده الواقع الخارجي، فالمعصومين في الرجال أكثر من النساء، والمتَّقون والزاهدون وأصحاب المقامات المعنوية العالية هم رجال في الغالب.

بينما المجتمع النسائي في الغالب مبتلى ببعض الذنوب والمعاصي الموجبة لهبوط الدرجات، وبعض الذنوب من شأنها أن تمحي الأعمال أو تحبطها أو تحرقها مثل الغيبة والغيرة والحسد والانخداع بمغريات إبليس ونحوها من معاص تجعلها تابعة في الجنة وإن كانت من أهلها، فإنّ الجنة درجات ومقامات ناشئة من الأعمال في الدنيا.

وهذا لا يمنع من وجود نساء خير من كثير من الرجال، وبلغنَ المقامات العالية بل ولهنَّ درجات عند الله سبحانه إلّا أنّ الكلام في الحالة النوعية.

وأمّا السؤال الثاني ففيه جوابان:

الجواب الأول: لا يستظهر من قوله تعالى: ﴿**هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ**﴾[(١)] التعدد؛ لإمكان انحلال الجمع على عدد الأفراد، كما إذا قال قدم الطعام للضيوف فإنّه يفيد أن يعطي لكل طعاماً واحداً يسد جوعه.

ولم يستفد من الأدلة أنّ نساء أهل الجنة متعددات، بل قد يستفاد منها أنّ لكل رجل زوجة واحدة من المؤمنات الآدميات. نعم للرجل حوريات من الجنة على حسب أعماله ومقاماته، وكذلك للمرأة الصالحة، والحاجة إلى الحورية لا تنحصر بالنكاح بل المؤانسة، وهي حاجة للرجل والمرأة.

ففي الكافي بسنده عن أبي جعفر عليه السلام قوله: «قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن حال أهل الجنة» قال حديثاً طويلاً منه: «والمؤمن ساعة مع الحوراء، وساعة مع الآدمية، وساعة يخلو بنفسه على الأرائك متكئاً ينظر بعض المؤمنين إلى بعض»[(٢)].

وإذا كان هذا حال الرجل الآدمي كانت حال المرأة الآدمية مثله

نعم ربما يُعطى المؤمن أكثر من زوجة آدمية لو تمّنى ذلك وطلِبَه كما يستفاد من الأدلّة، ولعلّه يجد في كمال زوجته ما يُغنيه عن المزيد.

والجواب الثاني: لأنّ النساء بطبعهن الذاتي يكتفين بالزوج الواحد من جهتين:

---

(١) سورة يس: الآية ٥٦.

(٢) الكافي: ج٨، ص٨٢، ح٦٩؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٨١، ح٦٨.

الأولى: جسدية: فإن الملحوظ أنّ النساء المؤمنات في الدنيا يكتفين بالزوج الواحد، ولو حصلن على زوج كامل المواصفات أو يسد ما لهنَّ من حاجات روحية وجسدية لا يتطلَّعن إلى المزيد لعدم الحاجة فكذلك في الآخرة، فإذا لم يكن لهنَّ أكثر من زوج لعدم الحاجة لم يكن ظلماً، لأنّ الظلم هو النقيصة والانتقاص، وأمّا العطاء على قدر الحاجة فهو عدل، كما أنّ إعطاء الجائع رغيفاً واحداً يكفيه لسدّ جوعه هو عدل وليس بظلم، فكذلك ما نحن فيه.

الثانية: روحية، فإنّ المرأة في الجنة تكتمل عقلاً وقلباً وتزكو نفساً، فترى أنّ الاكتفاء بالزوج الواحد الجامع لكل المواصفات الجسدية والروحية هو مقتضى كمالها، كما أنّها في الدنيا كانت كذلك، فإنّ الملحوظ في الواقع الخارجي أنّ الزوج الصالح في الدنيا تغذيه المرأة بروحها وبكل حياتها، وتقدِّم له كل ما لديها؛ لأنّ كمالها به، فكذلك في الجنة.

ولو لوحظ وجود المنغصِّات في نساء أهل الدنيا وما يوجب الخلل فيما ذكرنا فإنّ ذلك يعود لسببين:

الأول: نقص الأزواج وعدم تكاملهم في ذواتهم أو في سلوكهم بما يوجب التطلُّع إلى من هو أفضل منه.

الثاني: وجود الغيرة والحسد والطمع في الدنيا ومصالحها، فإنّ أغلب مشاكل النساء ناشئة من ذلك، وفي الجنة تنتزع منهنَّ الصفات الروحية السيئة كما تنتزع منهنَّ الصفات البدنية القبيحة.

فلو انتزعت منها تلك صَفَت المرأة إلى المرأة واستأنست بها، ووجدت أنّ أنسها ولذّتها بوجود نساء أخريات لأزواجهن من الآدميات والحوريات مما يزيد حياتهن بهجة وسروراً لا غصّة وكدورة، وهذا ما أخبر به الباري عزّ وجلّ بقوله سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[١] أي عداوة وضغينة وخيانة[٢]، فانتزاع الغلّ من الصدور يوجب المحبَّة والأنس والسعادة.

وكم وجدت في الدنيا نساء ضرائر يحببن بعضهن أكثر من الأخوات، ويفدينَ بعضهنَّ ببعض بسبب انعدام الغيرة والحسد والأنانية بينهن، وكم وجدت أخوات حقيقيات لا يتفاهمنَ ولا يحببنَ بعضهنَّ البعض، فالسعادة والشقاء لم يأتيا من التعدد، بل من الصفات الرذيلة، فإذا زالت الكدورة، وصار التعدُّد سبباً للسعادة، وحينئذٍ نجد أنّ مجتمع النساء يلتقين ببعضهن ويأنسن ببعضهن، وكل واحدة منهن مشغولة بمملكتها وجنتها وخدمها وحشمها وتجليل ربها لها، والزوج الواحد الكامل يكون أحد لذاتها ونِعَمِها الدائمة وليس جميع نِعَمِها.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٤٧.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦١٠، (غل).

المفردة الثانية: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾

الظِلال بكسر الظاد على وزن فِعال، وهناك قراءة بضمها. مفردها الظُلَّة أي القُبّة، وفيه نظر عرفته غير مرة، بل هو ممتنع؛ لأن جمع الظُلَّة ظُلَل لا ظِلال، والمقصود واحد على القراءتين(١).

وقيل الظِلّ الفيء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس، ويبدأ من وقت طلوع الشمس إلى زوالها، وبعدها إلى الغروب يقال له فيء(٢)، ويفترقان أيضاً في أنّ الظِلّ هو ما يحصل من السقف والفيء ما يحصل من الشاخص، والحق أنه أعمّ من الفيء؛ لأنه يكون بالغداة والعشي، بخلاف الفيء فإنه لا يكون إلّا بالعشي(٣)، وبعضهم قال الظلّ يكون ليلاً ونهاراً، ولا يكون الفيء إلّا في النهار، ويختص بما كان عن الشمس، بخلاف الظلّ، والشاهد عليه قولهم: (ظلّ الليل) وإطلاقه على كل موضع لم تصله الشمس(٤).

والظِلّ من كل شيء أوّله. يقال: (فلان في ظِلّ الشباب) أي في أوّله، و (أتانا في ظِلّ الليل) أي في أول سواده.

وكما يطلق ظلّ في الماديات كذلك يطلق في المعنويات، ويراد به العزة والمنعة والرحمة، كما يقال الولد يعيش في ظِلّ أبيه أي في كنفه وعزته ومنعته،

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ص٤٢.

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٣٤١، (١٣٦٧)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٥٧٦، (ظلّ)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٠٧، (فاء).

(٣) معجم مقاييس اللغة: ص٦١٥، (ظلل).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٣٥، (ظل).

وفيه ورد في الأحاديث في «ظِلّ العرش» أي رحمته ومنعته وفي الحديث: «السلطان ظِلّ الله في الأرض»[١] أي السلطان العادل، وتوصيفه بالظل من الاستعارة؛ لأنه يدفع الأذى عن الناس كما يدفع الظِلّ أذى الشمس.

وفي حديث الصادق عليه السلام ورد تفسير الظِلّ بالعالم؛ لأنه يدفع عن الناس أذى الجهل والضَلال والخرافة[٢]، وبهذا يعرف سبب قوله تعالى: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ لا في (فيء) لأن الظِلّ يتضمَّن الإشارة إلى نِعَم كثيرة لأهل الجنة لا يتضمّنها الفيء.

فإنّ الظِلّ يدل على وجود الكنّ الذي يكنّ فيه الإنسان، كذلك الستر فهو كنّ مستور لو أراد صاحبه أن يخلو بنفسه وبزوجته لا يراه أحد، وفي نفس الوقت فيه معنى الاكتنان الروحي والجسدي بين أهله، فهم في عزّة ومنعة ومحبّة بعضهم البعض وأنسهم ببعض، فلا يصيبهم أذى ولا ضرّ ولا ينغِّص عليهم صفاءهم ووِدَّهم.

ويعرف أيضاً أنّ أهل الجنة في ظِلّ وليسوا في فيء لأسباب ثلاثة:

الأول: لأنّ الجنة لا شمس فيها حقيقة أو أثراً، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا**﴾[٣] وعدم

---

(١) الأمالي (للطوسي): ص٦٣٤، ح١٣٠٧؛ مشكاة الأنوار: ص٥٤٦؛ عوالي اللآلئ: ج١، ص٢٩٣، ح١٧٦.

(٢) انظر مجمع البحرين: ج٥، ص٤١٦ (ظلل).

(٣) سورة الإنسان: الآية ١٣.

الرؤية قد يكون لعدم الوجود وقد يكون لانعدام الأثر، والثاني أقوى؛ لأنّ الزمهرير البرد الشديد، وهو يُحَسّ ولا يُرى بالعين، ولذا وصف جو الجنة بأنه معتدل لا حرّ شمس فيه يحمي ولا زمهرير يؤذي[١]، وبقرينة المقابلة يحمل عدم رؤية الشمس على عدم الحسّ بها لا عدم وجودها.

وكذا وصف ظلّ الجنة بأنه ممدود كما في قوله تعالى: ﴿**وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ**﴾[٢] وأيضاً فإن الظِلّ فيء بارد مانع من الأضرار بخلاف الفيء فإنه يدفع شعاع الشمس وليس بالضرورة يرفع أذاها. نعم، بناءً على عدم وجود الشمس فإنّ الظلّ يحتمل أن ينشأ من نور العرش إذا أشرق على أشجار الجنة صار له ظلّ لئلّا يبهر أبصار أهلها، وقيل غير ذلك[٣]، والحق أنه يكون الظلّ المعنوي الذي يغمر سكان الجنان.

الثاني: لأنّ نعيم الجنة لا يختصّ بوقت محدود، بل هو دائم في جميع الأوقات ليلاً ونهاراً، وهذا هو مفاد الظِل لا الفيء؛ لأنّه مؤقت بما كان بعد الزوال.

الثالث: لأنّه نعيم يشمل الماديات والمعنويات، والظِلّ كذلك، بخلاف الفيء فإنه في الماديات، وملخَّص ما عليه مجلس الأزواج في الجنة هو أنهم

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٢١٨ (زمهرير)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٠١، (زمهرت).

(٢) سورة الواقعة: الآية ٣٠.

(٣) أسئلة القرآن وأجوبتها: ص٢٩٠.

في أماكن مظلَّلة مستورون بالأشجار والغرف والحجل لا يزاحمهم أو ينغِّص عليهم معيشتهم، وهم في أوائل شبابهم كل منهم في كنف الآخر لا يضرّه ولا يزعجه، ولا يؤذيهم شيء آخر من شمس ولا من غيرها، ونعيمهم دائم لا أذى فيه ولا ضرّ.

المفردة الثالثة: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾

الأرائك جمع أريكة. قيل هي السرير من الحجلة من دونه ستر، وهو اسم لمجموعهما، وهو من الكلمات الدالة على شيء مركب من شيئين مثل المائدة اسم للخوان الذي عليه طعام[١]. وبه وردت الرواية في تفسير القمي[٢]، والحجلة بيت يزين بالثياب والأسرّة والستور[٣]، سميت أرائك إما لكونها في الأرض متخذة من أراك وهو شجرة، أو لكونها مكاناً للإقامة من قولهم: أرك بالمكان أروكاً أي أقام[٤]، ومرجعه إلى رعي الأراك، فالأصل هو المعنى الأول.

وفي المجمع هو سرير منجَّد مزيَّن في قبة أو بيت، وهو الأصل فيه، والباقي تعود إلى اللوازم، وقيل هي كل ما اتكئ عليه من سرير أو فراش أو منصّة[٥].

(١) التحرير والتنوير: ص٤٢.
(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٢١٦؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٦٨.
(٣) لسان العرب: ج١١، ص١٤٤، (حجل)؛ وانظر معجم مقاييس اللغة: ص٥٣، (أرك).
(٤) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٣، (أرك).
(٥) مجمع البحرين: ج٥، ص٢٥٣، (أرك)؛ المعجم الوسيط: ح١، ص١٤، (أركت).

وفي التبيان: الأريكة هي الوسادة وجمعها وسائد[١]، وهو غير سديد، والأقوى أنه جمع الأريكة، وهي السرير المتخذ من شجرة الأراك لغلبة وجوده في محل نزول الآيات لتقريب المعنى إلى الذهن، أو لوجود كرامة معنوية خاصة له تليق بأهل الجنة، أو لوجود آثار هامّة تناسب حياتهم فيها، وهذا ما يشهد له السواك المأخوذ منها، فإنه مطهرة للفم، ومجل للبصر، ومرضاة للرب تبارك وتعالى، ويرغم الشيطان، ويشهي الطعام، ويذهب البلغم، ويزيد في الحفظ، ويضاعف الحسنات، وتفرح به الملائكة[٢]، وهذه كلها مما يحتاجها أهل الجنة.

ومتكئون صيغة اسم فاعل من المتكأ، وهو المكان الذي يتكأ عليه، والمخدة تسمى متكأ لهذه الجهة[٣]، وقوله اتكأ أي جلس متمكناً من مجلسه، فلا يوجد ما يزلزل جلوسه ويسلب قراره ولا ما يضيق عليه الجلوس فيسلب راحته فيه، ويقال المتكأ لكل كرسي منجَّد له ذراعان وظهر لتمكن الجالس عليه[٤]، وهي جلسة الملوك والعظماء من الناس[٥].

والمتكي كل من استوى قاعداً على وطاء متمكناً منه[٦]، وفي العرف

---

(١) التبيان : ح٨، ص٣٥٥؛ مجمع البيان : ج٨، ص٢٨٣.
(٢) الدعوات: ص١٦١، ح٤٤٣.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٦٧، (تكأ).
(٤) المعجم الوسيط: ح٢، ص١٠٥٢، (تكئ).
(٥) التبيان: ج٨، ص٣٥٥.
(٦) معجم مقاييس اللغة: ص١٠٦٣، (وكا) ؛ مجمع البحرين: ج١، ص٤٥٤، (وكا)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٨٣، (وكأ).

العام يطلق المتكي على من مال في قعوده معتمداً على أحد شقيه من الوكاء كأنه أوكى مقعدته وشدّها بالقعود على الوطاء الذي تحته(١).

وعليه استند بعض المفسرين من العامة فقال: الاتكاء هيئة بين الاضطجاع والجلوس، وهو اضطجاع على جنب دون وضع الرأس والكتف على الفراش؛ لأنّ المتكئ يشد قعدته ويرسخها بضرب من الاضطجاع، وهي جلسة أهل الرفاهية، وكان المترفون من الأمم المتحضرة يأكلون متكئين. كان ذلك عادة سادة الفرس والروم ومن يتشبّه بهم من العرب، ولذا قال النبي صلى الله عليه وآله: ﴿أما أنا فلا آكل متكئاً﴾(٢) لأن الاتكاء يعين على امتداد المعدة، فتقبل زيادة الطعام، ولذا كان الاتكاء في الطعام مكروهاً للإفراط في الرفاهية(٣).

وفيه نظر؛ لأنه منقوض بما ورد في حديث ضمام بن ثعلبة وافد بني سعد بن بكر الوارد بطرقهم: أنه دخل المسجد فسأل عن النبي صلى الله عليه وآله فقيل له: ﴿هو ذلك الأزهر المتكئ﴾(٤).

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص١٠٦٣، (وكا) ؛ مجمع البحرين: ج١، ص٤٥٤، (وكا)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٨٣، (وكأ)؛ التحرير والتنوير: ص٤٢.

(٢) البحار: ج٦٣، ص٣٩٢، ح٢٨؛ سنن الترمذي: ج٣، ص١٧٨، ح١٨٩٠؛ السنن الكبرى: ج٧، ص٤٩.

(٣) التحرير والتنوير : ص٤٣.

(٤) التحرير والتنوير: ص٤٢؛ وانظر مسند أحمد: ج٣، ص١٦٨؛ صحيح البخاري: ج١، ص٢٣؛ سنن ابن ماجة: ج١، ص٤٤٩، ح١٤٠٢.

ومحلول بأنّ الاتكاء مأخوذ من اتكأ يتكئ وليس من وكا يكي، ومعناه الاستواء في القعود مع التمكّن منه، وهو المتبادر منه عرفاً، وإليه يعود حديث النبي صلى الله عليه وآله، وبه صرّح أهل اللغة، وبأن الاضطجاع على أحد الجانبين في الأكل يتنافى مع لذة الطعام فينقض غرضه، ولا يوجب زيادة الأكل كما يشهد له الواقع الخارجي.

فيتحصّل: أنّ أصحاب الجنة ومعهم أزواجهم جالسون في ظلالهم جلوس الملوك، ومعهم نساؤهم يفاكهونهنّ ليس لهم من عمل يجهدهم أو ينغّص عليهم لذتهم كما هو شأن الملوكية في الدنيا.

وفي ذلك دلالة على أمور:

الأول: أنّهم ملوك لهم مملكتهم وسلطتهم والخدم يطوفون عليهم ويلبون ما يتمنون.

الثاني: أنّ جلوسهم مستقر ودائم لايزاحمهم فيه أحد، ولا يسلب قرارهم فيه.

الثالث: أنّ لكل زوج و زوجة أكثر من ظل و أريكة كما تفيده صيغة الجمع للظلال والأرائك، وفي كل مكان حجلة وسرير، فإن شاءا جلسا، وإن شاءا اضطجعا، وإن شاءا ناما، وهذه الأوصاف وردت بها الأخبار الشريفة.

ففي تفسير القمي بسند صحيح عن أبي جعفر عليه السلام: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿فإذا جلس المؤمن على سريره اهتز سريره فرحاً، فإذا استقرت لوليّ الله منازله في الجنة استأذن عليه المَلَك الموكل بجنانه ليهنئه بكرامة الله إيّاه، فيقول له خدام المؤمن ووصفاؤه : مكانك، فإنّ ولي الله قد أتكأ على أرائكه، وزوجته الحوراء العيناء قد هيئت له، فاصبر لولي الله حتى يفرغ من شغله. قال: فتخرج عليه زوجته الحوراء من خيمتها تمشي مقبلة وحولها

وصفاؤها تحجبنها عليها سبعون حلة منسوجة بالياقوت واللؤلؤ والزبرجد صبغن بمسك وعنبر، وعلى رأسها تاج الكرامة، وفي رجلها نعلان من ذهب مكللان بالياقوت واللؤلؤ، وشِراكهما ياقوت أحمر، فإذا ادنيت من ولي الله وهمّ يقوم إليها شوقا تقول له: يا ولي الله! ليس هذا يوم تعب ولا نصب، فلا تقم أنا لك وأنت لي فيتعانقان قدر خمسمائة عام من أعوام الدنيا لا يملّها ولا تملّه. قال فينظر إلى عنقها فإذا عليها قلادة من قضيب ياقوت أحمر، وسطها لوح مكتوب أنت يا ولي الله حبيبي، وأنا الحوراء حبيبتك إليك تتأهب نفسي، وإليّ تتأهب نفسك، ثم يبعث الله ألف ملك يهنئونه بالجنة، ويزوجونه الحوراء﴾[١].

ومضمون الرواية يؤكد ما ذكرناه أن كلّ شيء في الجنة حي يدرك وينطق ويتعاطف مع أهلها، وأنّ الزمان منبسط في عالم ما فوق الدنيا، وأنّ أهلها يعيشون معيشة الملوك.

ومن طرق العامة عن ابن عباس أنّ الرجل من أهل الجنة ليعانق الحوراء سبعين سنة لا يملّها ولا تملّه، كلما أتاها وجدها بكراً، وكلما رجع إليها عادت شهوته فيجامعها بقوة سبعين رجلاً لا يكون بينهما مني يأتي من غير مني منه ولا منها[٢]، ولعل وجهه أنّ المني يراد للولد ولا ولادة في أهل الجنة، وأنهم كلما جامعوا نساءهم عدن أبكاراً[٣].

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٢٤٧؛ تفسير نور الثقلين: ج٤، ص ٣٩٠، ح٦٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٤٢؛ تفسير القرطبي: ج١٥، ص٤٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٤١-٤٢؛ روح المعاني: ج٨، ص٣٢٠.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: التنعم في ظلال الجنة

إنّ الآية تدلّ على أنّ الجلوس في الظِلال من النِعَم التي تزيد في شوق بني آدم إلى الجنة، ولعلّ السبب في ذلك يعود لأمرين :

أحدهما: أنّ الجلوس في الظِل يفيد الراحة والاستقرار النفسي، وهو أهم ما يطلبه الناس في وقت اللذة والاستمتاع؛ لأنهم في الدنيا كانوا هكذا، ويقال: إنّ ألذّ شيء لديهم في الدنيا المصايف والمنتجعات التي فيها ظِل وأنهار جارية وأشجار مورقة؛ لأنه يتضمَّن أهم ما تتطلّبه الراحة والسعادة، وهي: المكان الآمن والشراب الطيّب والطعام اللذيذ والستر الواقي من الأذى، وهي تتحقق بالعطايا المذكورة.

ثانيهما: لأنّ الظل يتضمَّن البرودة الملائمة لمزاج الإنسان وطبعه، وحيث إنّ أهل الجنة يرون لهيب أهل النار وعذابهم فيها فإنّ الظِلال يشعرهم بألطف نِعَمهم. هذا مادياً، ومعنوياً فإنّ الظِل يشعرهم بالاكتناف في ظِل الله سبحانه وظِل رسوله ﷺ وأئمتهِ الطاهرين عليهم السلام، فإنهم احتموا

بهم في دنياهم، وكانوا أولياءهم، فكذلك في الآخرة، وهذه لذة تفوق اللذة المادية؛ لذا وصفه الباري بأنّه رضوان من الله أكبر ذلك الفوز العظيم.

وكلا الظِّلين يدلّان على أنّ أهل الجنة منعّمون بأبدانهم وقلوبهم وأرواحهم، فلا يوجد ما يكدر عليهم عيشهم، وينغِّص عليهم حياتهم المادية والمعنوية.

وقد تضافر في الأخبار الشريفة وجود جملة من الأعمال والمحاسن تجعل أهلها في ظِل الله سبحانه كالإمام العادل[١]، والشاب الذي يشب في طاعة الله[٢]، والأخوين المتحابين في الله[٣]، والبكاء على سيّد الشهداءعليه السلام، فإنّ كل عين باكية يوم القيامة إلّا عين بَكت على الحُسينعليه السلام فإنها تكون في ظل الله سبحانه[٤] والنبيّ والأئمةعليهم السلام.

إن قال قائل: إنّ الجنة خالية من المنغِّصات والمكدِّرات وهذا يتنافى مع اطِّلاعهم على أهل النار ومشاهدة عذابهم؛ لأنّ ذلك من شأنه أنْ يؤلِمَهم ويُثير حزنهم؛ لأنّ بعضهم إخوانهم وأصحابهم وربما أرحامهم أو آباؤهم وأبناؤهم، ففيه جوابان:

---

(١) الأحكام: ج٢، ص٥٠٦؛ مستدرك الوسائل: ج١١، ص٢٣٥، ح١٢٨٤٣؛ عوالي اللآلئ: ج١، ص٩٠، ح٢٥.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٢٣٥، ح١٢٨٤٣؛ عوالي اللآلي: ج١، ص٩٠، ح٢٥.

(٣) عوالي اللآلئ: ج١، ص٩٠، ح٢٥؛ وانظر مجمع الزائد: ج١٠، ص٢٧٧؛ المعجم الاوسط: ج٢، ص٨٥.

(٤) الخصال: ص٦٢٥؛ عيون الحكم والمواعظ: ص٣٩٨؛ البحار: ج١٠، ص١٠٣.

الجواب الأول: أنّ الاطِّلاع على عذاب أهل النار اختياري، فمن يعلم بأن في عذابهم تنغيصاً له يتجنّبه، والنصوص الشرعية تفيد عدم وجود منغِّصات فوق إرادة الإنسان تفرض عليه كما كانت الحالة في الدنيا، فإنّ منغِّصاتها بعضها مفروضة على الإنسان لمقتضيات الحال، وأمّا لو أرادَ الإنسان أن يعرِّض نفسه لهذا الشعور فهو مُختار فيه فلا تنافي بين الأمرين.

الجواب الثاني: وهو الأتمّ.

وخلاصته: أنّ أهل الجنة لا يتألمون إذا اطَّلعوا على أهل النار، بل يفرحون ويبتهجون؛ لأنّ المُعَذَّبين في النار جماعتان:

جماعة ليسوا من الخالدين فيها إلّا أنّ أعمالهم السيئة قادتهم إلى هذا المصير، فلابد من تعريضهم للنار لكي يتطهَّروا من رذائل الذنوب، ثم تنالهم الشفاعة، أو ينتهي أمد عذابهم فيخرجون ويدخلون الجنة، فالعذاب لهم تطهير وتكميل لكي يليقوا بحياة الجنة، وهذا أمر ضروري باعث على الرضا لا التنغيص؛ لأنّ أهل الجنة تكتمل عقولهم فيرون أن العذاب ضرورة تغلب المشاعر، وتمنع من تنغيصها، ويمكن تقريب ذلك بالأب الذي يدفع مالاً لأجل أن تجرى عملية جراحية لولده الوحيد، فإن العقل يقول بوجوب ذلك، ويرضى بها. أمّا المشاعر فتتألم إلّا أنّ التألُّم لا يُوجِب التنغيص والكدورة، بل الفرح والسرور؛ لأن ما بعد العملية راحة الولد وسلامته، وهكذا يمكن أن تكون نظرة أهل الجنة لعذاب أهل النار. هذا ما يقال في الجماعة الأولى.

وأمّا الجماعة الثانية وهم المخَلَّدون في النار فإنّهم إذا لاحظوا عذابهم لا يتنغَّصون لسببين:

السبب الأول: لأنّ عقولهم الكاملة وقلوبهم النقيّة ونفوسهم القدسيّة تمنع من ذلك؛ لأنهم يعلمون أنّ ذلك من تقدير الله سبحانه لهم، والله حكيم لا يعذِّب إلّا من استحقّ ذلك، وهم يرضون ما يرضاه الله تعالى.

السبب الثاني: لأنّهم يعلمون أنّ ذلك من الاستحقاق والعدل، وتطبيق العدل الإلهي من دواعي السرور والرضا وليس من دواعي الحزن، ويتلخص أنّ دعوى التنغيص قائمة على النظر إلى المشاعر لا كمال العقل، وهو غير سديد، لأنّ كمال العقل يمنع من التنغيص إذا رأى ذلك مما يقوم عليه العدل والنظام.

اللطيفة الثانية: لماذا الأزواج دون الأرحام؟

إنّ الآية ذكرت الأزواج ولم تذكر الأصدقاء أو الأرحام أو غيرهم للإشارة إلى أمرين:

الأول: أنّ أقرب العلاقات الحميمة التي فيها أُنس الإنسان وسعادته هي علاقة الزوجية، فإنها تشتمل على كل المُتَع واللذات، ففيها لذة الأكل والشرب والنظر والسماع والجماع ونحوها.

بخلاف علاقة الصداقة والرَحِم ونحوها فإنها تشتمل على بعض اللذات لا جميعها.

الثاني: للإشارة إلى أنّ العلاقة الجنسية لا تصحّ إلّا إذا كانت بين زوج وزوجة، وأمّا العلاقة الناشئة من ذكرين أو أنثيين فهي خروج عن الطبيعة، ومخالفة لسنن التكوين، ولا تليق بحياة الجنة؛ لأنّها قائمة على السُنَن والنواميس الصحيحة، وأمّا الزواج بالملكية فهو أمر خاص بالدنيا لمصالح اقتضتها حكمة التشريع، وفي ذلك تعليم للبشر في الدنيا في أن يبنوا علاقاتهم على أساس الزوجية لا العلاقات المحرَّمة والاختلاط غير المشروع.

اللطيفة الثالثة: كيف يلتذون بالأرائك؟

إنّ الآية المباركة تدل على أنّ الاتكاء على الأرائك فيه لذة عظيمة تستدعي تشويق الناس إليها، ولذتها تعود إلى أمور:

الأول: أنّها جلسة الملوك والسلاطين في الدنيا، كما يدل عليه (على) التي تفيد العلوّ والاستعلاء، وهذا يلمِّح لجميع العباد الصالحين بأنّهم ملوك في الآخرة وسلاطين يجلسون في أحسن المجالس، ويأمرون ويطاعون، وهذه النعمة حرِم منها الأكثر في الدنيا، والذين حصَّلوها ابتلَوا بها، ووقعوا في أضرارها، وصارت وبالاً عليهم إلّا مَن شذَّ وندر، فلم ينل ملوك الدنيا من ملوكيتهم إلّا الضير والويل، وأمّا في الآخرة فالملوكية كلها خير ونعمة خالية من الآفات والأضرار.

الثاني: أنّ الاتكاء أفضل حالات الجلوس؛ لأنّ فيه الإشعار بالراحة والأمن والاستقرار والنشاط، وكل الحالات الأخرى للإنسان غير مريحة؛

لأنه إن لم يكن مُتكّئاً كان إمّا قائماً أو قاعداً أو مُضطجعاً، والقيام لا يكون إلّا لأجل إنجاز عمل، أو تحذّر من شيء، والقعود من غير اتّكاء كذلك، بل ويشعر بالقلق وعدم الاستقرار، والاضطجاع يشعر بالتعب والكسل، فتمام الراحة والنشاط في جلوس الاتّكاء لا غير.

الثالث: أنّ الاتّكاء هو الوضع الأنسب لمجالسة الزوجين والاستمتاع ببعضهما في الظِلال، ولا يخفى ما في ذلك من إشارة إلى أنّ الجلسة الملوكية تشمل الزوجات أيضاً، وتكتمل لذة الملك والسلطنة بوجود الزوجات الموافقات المؤانسات إلى جنب الأزواج.

المبحث الثالث : في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: بماذا تضمن حياة سعيدة؟

إنّ الحياة السعيدة تتحقَّق بنظام الزوجية في البعد الأسري بين الزوج والزوجة، وفي البعد الاجتماعي بين الشخص وأقرانه مِمَّن يشتركون معه في الصفات والأعمال، وفي البعد السياسي مع الجهات التي تجتمع على مشتركات المصالح الوطنية والدينية ونحوهما، فلا يمكن أن يكون الإنسان سعيداً ويعيش وحده ويعمل وحده.

ولذا نلاحظ أنّ الشرع حذَّر من العزلة السلبية والتفرّد في الرأي والاستبداد في الأمور، ولعن من أكل وحده، وبات وحده، والراكب في الفلاة وحدهُ[1]، وحثَّ على التعارف والتعاون والتواصل.

---

(١) الخصال: ص٩٣، ح٣٨، وفيه: (عن إبراهيم بن عبد الحميد عن أبي الحسن عليه السلام قال: ﴿لعن رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة الآكل زاده وحده، والراكب في الفلاة وحده، والنائم في بيت وحده﴾.

ومن أسلوب الحياة في الجنة وما أعدَّه الباري عزّ وجلّ لنعيم أهلها نتعلّم أنّ ذلك سنَّة إلهية لا تختصّ بالجنة، بل تجري في الحياة الدنيا أيضاً؛ لأن الدنيا مزرعة الآخرة، فلا يستغني الإنسان عن زوجة تؤنسه وتكمّله روحياً وأسرياً وجماعة يستعين بهم في الحياة.

التعليم الثاني: يجب الإمعان في اختيار الزوجة والزوج

يجب العناية البالغة في اختيار الزوجة واختيار الزوج في الدنيا؛ لأن هذه العلاقة المقدّسة رُبَما تستمرّ إلى الآخرة، وقد وضعت الآية المباركة للاختيار الصحيح ضابطة، وهي أن تكون الزوجة من أهل الجنة وكذلك الزوج، ومعنى ذلك أن تكون من الصالحات ويكون من الصالحين، وليس من علائم الصلاح الثروة ولا الشهادة الجامعية ولا الوجاهة الاجتماعية ولا المنصب الحكومي، وإنّما الصلاح بجمال الأخلاق وكمال العقل وتقوى القلب، فالتشابه بالصفات والأفعال هي المحور الذي تدور عليه الزوجية في الجنة، فكذلك يجب أن يكون في الدنيا، وقد أثبتت التجارب الكثيرة فضلاً عن قواعد العِلْم والدراسات الاجتماعية أنّ الحياة الأسرية المبنية على القيَم المعنوية هي الأكثر سعادةً ودواماً وثماراً من الحياة القائمة على المصالح المادية، بل لا يوجد وجه للقياس بينهما.

وقد أكّد الباري عزّ وجلّ هذه الحقيقة في قوله سبحانه: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١] فأشار إلى أنّ العلاقة الزوجية تبدأ بمزاوجة النفوس لا الأبدان، وقوامها التشابه والتشاكل في الصفات والأفعال، كما يفيده معنى الزوجية في اللغة والعرف، فالزواج مقارنة بين النفوس أولاً، وأمّا تقارن الأبدان فهو مظهر لذلك وليس أساساً.

مقومات الأسرة السعيدة

ولذا لخَّصت الآية أهم ما تقوم عليها الأسرة السعيدة في ثلاثة أركان هي:

١- السَكَن النفسي

٢- المودّة بين الزوجين

٣- الرحمة.

والنكتة اللطيفة فيها أنّ السكن جعل غاية للزواج ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ لأنه حاجة تلازم الزوجين إلى القبر، ويتضمَّن الإشارة إلى حاجة الزوج إلى السكن أكثر من حاجة المرأة؛ لذا ورد الخطاب إلى الأزواج، وجعلت الزوجة هي الملجأ والسَكَن في قوله: ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾.

وأمّا المودّة والرحمة فهما وظيفة؛ لذا وردت بلسان الجعل فقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وقالت: (مودة) ولم تقل: (محبة) لأنها اختيارية، بخلاف الحبّ، ويمكن لكل من الزوجين إظهار المحبَّة في فعله

(١) سورة الروم: الآية ٢١.

وجوارحه وإن لم تكن مستقرّة في القلب؛ لأنّ الحياة الزوجية قِوامها الاحترام والتقدير والانضباط في الحقوق والواجبات لا مُجُرَّد الانفعالات العاطفية، وبعد المودة يأتي دور الرحمة، وفي ذلك نكتة هامة؛ لأنّ المودّة ربما ينتهي أثرها بسبب عوامل كثيرة منها عدم التوافق الأخلاقي والنفسي، إلّا أنه يبقى لديمومة الحياة الزوجية عنصر آخر هو الرحمة والتراحم، وهو أمر اختياري.

ومرجع الرحمة ليس إلى الانفعالات فقط، بل هي ضابطة يشترك في وجودها العقل والقلب معاً؛ لذا يتداخل عنصر الوفاء والصدق والمروءة والشهامة في تكوينها، ولذا اشتهر القول بين أهل القانون والقضاء إنّ الرحمة فوق العدل؛ لأن العدل يرعى مصالح الأفراد عقلاً، وأمّا الرحمة فهي أوسع ممّا يقضي به العقل، بل تلاحظ الجوانب الإنسانية أيضاً؛ لذا يلحظها القضاة إذا لم يكن مخلاً بالحقوق.

ويتحصَّل ممّا تقدَّم: أنّ على المرء أن يؤهِّل نفسه لتكوين حياة زوجية سعيدة وموفّقة في الدنيا والآخرة، وليبدأ ذلك من اختيار الزوج للزوجة الصالحة، واختيارها للزوج الصالح، وهو يقوم على محورية السكونة النفسية، والمودة في العمل، والرحمة في الأسلوب، فالأسرة التي تبنى على هذه القيَم في الدنيا ستكون أسرة في الجنة كذلك، لأن الجنة نتاج أعمال الدنيا وآثارها.

التعليم الثالث: لنجعل البيوت ظِلالاً

إنَّ من أجمل ما في الحياة الإنسانية أن تصبح البيوت ظِلالاً، وكذلك المدارس والجامعات والمديريات والوزارات وكل البلاد وكل ما يجمع بني البشر يكون كذلك، وهي تقوم على ركنين:

الأول: التعامل الإنساني بين الأعضاء.

والثاني: التعامل المهني في الأداء، وأحدهما يكمِّل الآخر، فلو توفر أحدهما وانعدم الآخر تعثَّرت المؤسسة، وخسرت مقومات بقائها ونجاحها، فلو كان في مؤسسات الدولة والمجتمع تعامل إنساني ولا يوجد تعامل مهني أو يوجد تعامل مهني ولا يوجد تعامل إنساني ينتقض غرض وجودها وتفشل، فلا تكون البيوت مباركة والأسر ناجحة إلّا إذا تمتَّعت بالهدوء والسكينة والاستقرار والتعاون والمحبَّة بين أعضائها، وقام كل عضو بواجباته تجاه الآخرين، فإذا كانت كذلك كان البيت ظِلالاً، وأسرته حجلات، وفرشه واحات، وطعامه هنيئاً مريئاً، وصارت مملكة لله ومحراباً لعبادته، فإذا ضجت بالمعاصي وسوء الأخلاق والمشاكل صارت مرتعاً للشيطان ومملكة للشر.

وهكذا يعلمنا الباري عزّ وجلّ أن نعيش سعداء، ونجعل من بيوتنا واحات، ومن مؤسساتنا مزارع للخير والعطاء بالجمع بين التعامل الإنساني والمهني معاً.

التعليم الرابع: الأرائك أفضل وسيلة للجلوس

إنّ الأرائك أفضل وسيلة للجلوس والراحة والاستجمام؛ لأنها مرتفعة عن الأرض فتؤمن من الحشرات والديدان ورطوبات الأرض وآثارها السلبية، وأفضل لعظام البدن ومفاصله، وفي عين الحال ساترة للعيوب، وكون الأرائك في الظِلال يضيفها رونقاً وجمالاً وستراً.

وتعلّمنا الآية أيضاً أن النوم ينبغي أن يكون في حجال مرتفعة ومستورة، وفيها فراش وستار مبهج للنفوس بنظافته ولونه، فإنّ المكان واللون والارتفاع والسِتْر -هذه الأربعة- لو اجتمعت أفاضت على المقيمين فيها الراحة والبهجة والسرور.

نعم ورد في بعض الأخبار أنّ الجلوس على الأرض من صفات المتواضعين والزاهدين، وهذا تامّ في نفسه لو كان بداعي التواضع والتذلل لله سبحانه، ولا ينفي أنْ يكون النوم على السرير والجلوس على الأريكة بداعي الصحة والسلامة والراحة مطلوباً أيضاً.

لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا
يَدَّعُونَ

يس/ ٥٧

وهي تتمّة لمفاد الآيتين السابقتين وقد تحدثت عن معاشرات أهل الجنة مع أصحابهم ومع أزواجهم، وهذا لا يكفي لوجود حاجة أخرى لا يستغنون عنها، وهي الأكل والتفَكُّه، وهو الآخر لا يكفي؛ لأن طموح الإنسان كبير، ورغباته كثيرة، وأمنياته واسعة، فلا يحرمه الباري عزّ وجلّ منها؛ لأن الجنة دار الجزاء والتكريم والتعظيم، وقد وردت بصيغة الاستئناف دون العطف للإشارة إلى جواب على سؤال مُقدَّر يدور في الأذهان، وهو أنهم إذا كانوا في مجالس دائمة ومعهم أزواجهم كيف يكون طعامهم وشرابهم وسائر مُتَعِهم؟

قال: ﴿**لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ**﴾ وحيث إنّ الفاكهة وحدها لا تُلبّي الطموح وتبقى للإنسان حاجات ومشتهيات قال: ﴿**وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ**﴾، وتفصيل البحث في ذلك يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي ثلاث:

المفردة الأولى: ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾

ومرجع الضمير في (لهم) أهل الجنة، وفي (فيها) يمكن أن يعود للجنة، وبه قال بعض المفسرين، بل ولعلّ الجلّ أو الكلّ(١)، وشاهده السياق، ويمكن أن يعود للظِلال.

وكلا الأمرين محتمل، والثمرة تظهر في مكان الفاكهة، فإنّها على الأول تكون على الأشجار، وعلى الثاني تكون بين أيديهم بأغصانها كما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾(٢) أو هي عندهم مقطوفة جاهزة.

---

(١) انظر التبيان: ج٨، ص٣٥٥؛ مجمع البيان : ج٨، ص٢٨٣؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٢؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٤ ؛ تفسير الميزان: ج٢٣، ص١٠٢؛ تقريب القرآن إلى الاذهان: ج٤، ص٤٥٥؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٤٢؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٨٦؛ روح البيان: ج٧، ص٤١٥؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٥٠ ؛ تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٥٣.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٢٣.

و الأظهر عودها إلى الظلال، والمعنى لهم في ظِلالهم فاكهة لسببين:

الأول: لأنّ القاعدة تقضي برجوع الضمير إلى أقرب المراجع.

والثاني: لأنّ إرجاع الضمير إلى الجنة ممتنع لاستلزامه توضيح الواضح، إذ لا خلاف في أنَّ الجنة فيها كلّ النِعَم ولكنها مكان عام لأهلها، وإنّما يكون له أثر بالغ إذا عادَ إلى الأشخاص أنفسهم؛ لأن الآية في معرض بيان خصائص أهل الجنة وما يتمتّع به كل شخص منهم فيها، فقالت له ما يسكنه، وعنده ظِلال وجلوس مع أزواجه. هذا التخصيص في نعيمهم يستدعي التخصيص في أكلهم وفاكهتهم، فقرينة الحال تقتضي حمل الضمير على الظِلال وإرجاع الفاكهة إلى كل واحد منهم في ظِلاله.

ووجود الفاكهة فيها دلالة هامة على أنّهم في حِجالهم مكفولة أرزاقهم، ومُلبّات دعواتهم، فلا يحتاجون إلى الخروج منها طلباً لطعام أو شراب أو حاجة أخرى.

وبهذا يصبح لوجود الفاكهة وما يدَّعون خصوصية لأهل الجنة، وتوجب النعيم، وأمّا لو كانت في الجنة فليس بالضرورة يتنعَّمون بها، فمثلها مثل من يدخل البلد العظيم الذي فيه من كل الثمار وأسواقه ممتلئة بها، ولكن امتلاء الأسواق لا يلازم امتلاكه لها، وإنّما يملكها ويتنعم بها متى ما صارت رزقاً خاصاً له وتكون طعامه الخاص، وتؤيده قرينة الحال؛ لأنهم جالسون مع أزواجهم في ظِلالهم، وهذا لا يتم أنسه إلاّ إذا كان طعامهم وفاكهتهم عندهم.

يبقى الكلام في (اللام) وأنّها للملْك أم للاختصاص أم لبيان الإباحة والترخيص أم للغاية. والأصل فيها هو الملك، وهو الأنسب بمقامات أهل الجنة؛ لأنهم ملوك مُسلَّطون فيها لا يمنعهم منها مانع ولا يحدد من تصرفهم بها شيء.

وأمّا الاختصاص والإباحة فهما من ملازمات التمليك؛ لأن الأول رتبة ضعيفة من الملك، والإباحة ملازمة له، كما أنّ الملك لا يتنافى مع كونها للغاية للملازمة بينهما.

والحاصل: أنّ (اللام) تفيد فائدتين:

الأولى: إثبات سعة اختيارهم وسُلْطَتِهم على نِعَم الجنة، وإنّهم يتصرفون فيها تصرّف المالكين، فإنّ الفاكهة في الجنة وجدت لأهلها لا لغيرهم.

والثانية: بيان أنّهم يأكلونها لا عن جوع ولا عن مرض أو عَرَض لفساد المزاج ونحوه، فأكلهم رغبة وشهوة وتلذذ لا عن ضرورة واضطرار؛ لأن ما تفرضه الضرورة والاضطرار مُلازِم للألم.

المفردة الثانية: ﴿فَاكِهَةٌ﴾

الفاكهة قيل هي الثمار كلها سُمّيت بذلك؛ لأنها مُوجِبَة لسرور النفس والتلذذ وسلامة البدن[1]، وقيل ما يتفكَّه به الإنسان أي يتنعَّم بأكلِهِ ويتلذَّذ رَطِباً كانَ أو يابِسَاً كالزبيب والرُطَب والتين والرُّمان[2]، وإطلاقه يشمل

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٤٣، (فكه).

(٢) انظر مجمع البحرين: ج٦، ص٣٥٧، (فكه).

الحلويات والنقول والمكسرات كالجوز واللوز والفستق والبندق لو لم تكن من الثمار، وكل ما يوجب اللذة و التنعّم والاستطابة غير الطعام[١]، ويشمل الفاكهة المعنوية كالعلم والمعرفة والعبادة، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ**﴾[٢] أي ناعمي العيش ومتلذذين بمختلف النِعَم.

والحق هو الثاني، وتبادر الثمار من الفاكهة ناشئ من كثرة الوجود أو الاستعمال؛ لأنه الأنسب حتى يوجب الظهور المانع من الغير.

وهذا ما تقتضيه القرينة الحالية؛ إذ لم يعهد التعبير عن الحلويات والنقول – ما عدا العسل – في ضمن بيان نعيم الجنة في الآيات، ولعله في الروايات كثير مع أنّها من أرقى النِعَم، وفيها لذة عظيمة، ولعلَّه لدلالة الفاكهة والتفَكُّه عليه.

نعم ربما يقال إنّ ﴿**مَّا يَدَّعُونَ**﴾ يشمله، فيمكن حمل الفاكهة على الثمار حصراً ولابأس به، ولأنّ الاختلاف لا أثر له نعرض عن تفصيله وإن كان ظاهر (فاكهة) هو كل ما يلذ ويطيب للنفس ويوفر العيش الناعم الرغيد من ثمار وغيرها، ويشهد له تنكير فاكهة الدال على سعة المدلول ليشمل كل ما ذُكِر.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٧٩٦، (فكه)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٩٩، (فكه).

(٢) سورة الدخان: الآية ٢٧.

المفردة الثالثة: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾

(الواو) عاطفة على الجملة السابقة، ولهم كالسابقة في معناها، و(ما) إمّا موصولة أو مصدرية والأولى أظهر.

وأمّا ﴿يَدَّعُونَ﴾ فقد اختلف المفسرون فيها، وذكروا لها عدة معان:

الأول: أنّها من الدعاء[١]، أي الطلب، ومعناه أنّ لهم ما يطلبونه؛ لأن دعاءهم مستجاب، ولازمه أن يكون في الموجود؛ لأنّ الطلب لا يتعلق بالأمور المعدومة، وصيغة الجمع تفيد تلبية طلباتهم فردية كانت أو جماعية كطلبات مجالسهم، وهو ضعيف؛ لمخالفته لنص الآية، ولاستلزامه التخصيص من نعيم أهل الجنة، وقد دلت النصوص على أنّ نعيمهم يشمل ما هو موجود وما هو غير موجود إذا اشتهاه الناس.

الثاني: أنّها من الادِّعاء أي التمنّي لأنفسهم[٢]، ومعناه أنّ لهم ما يشتهون من المأكولات اللذيذة والأشربة الطيّبة وغيرها، وعليه جلُّ مفسرّي الخاصة والعامة، ويمتاز عن المعنى الأول بسعة الدلالة ومطابقته للنصوص، وفيه دلالتان:

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٣ ؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٥٧٤؛ روح البيان: ج٧، ص٤١٨؛ التحرير والتنوير: ص٤٣.

(٢) التبيان: ج٨، ص٣٥٥؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٣؛ تفسير الميزان: ج١٧، ص١٠٢؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٤؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٥؛ الفرقان: ج٢٤، ص٤٨؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٤٢؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٨٧؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٥١.

الأولى: أنّه يوسع من خيارات أهل الجنة فيما يحبون ويشتهون.

الثانية: ملازمة الادِّعاء للتمني[1]، فلا يتوقف حصول ما يتمنونه على قول أو طلب، بل كل ما يخطر في نفوسهم يحضر لديهم، بخلاف الدعاء فإنه يستدعي وجوب إجابة وواسطة لتلبية المطلوب.

وقوله: ﴿**وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ**﴾[2] يفيد الترخيص في تمني ما يريدون بلا مانع أو حاضر، فيشمل نعيمهم حتى حديث النفس.

الثالث: أنّها من الادِّعاء بمعنى طلب المخاصمة والمقاضاة بالعدل، وفي القانون يطلق الادِّعاء على توجيه الطلب ضد الخصم أمام القضاء[3]، ومعناه أنّ لأهل الجنة مطالبة خصومهم الذين ظلموهم في الدنيا واعتدوا عليهم بالحضور لأجل المقاضاة والمحاسبة، وفي ذلك تطييب لخواطرهم؛ لأنّهم في الدنيا كانوا محرومين من العدالة عادةً، وهناك مجرمون كبار لا يستطيع أحد أن يحاكمهم ويطالبهم للحضور أمام القضاء على مستوى الأفراد العاديين بسبب قدرتهم ونفوذهم، أو مستوى أصحاب السلطة والنفوذ، وكذا على مستوى الدول، فإنّ الظلم الحاصل في العالَم اليوم ممّا يستحق أن يحاكم، وفي القوانين والأنظمة العالمية ما يؤكد هذه الحقيقة ولكن من يطبقها.

---

(١) مجمع البحرين: ج١، ص١٣٥، (دعا).

(٢) سورة يس: الآية ٥٧.

(٣) المعجم الوسيط: ج١، ص٢٨٦، (دعاء).

نعم الأقوياء يحاكمون من يشاؤون ومتى ما شاؤوا، وإذا كانت مصالحهم تقتضي العفو عن المجرمين أو تخلية سبيلهم للظلم تركوهم يصنعون ما يشاؤون، فالقانون لا يطَبَّق إلّا على الضعيف. كل ذلك بمعايير الدنيا القائمة على الظلم والجور.

وأمّا في الآخرة فلكل مظلوم أن يطلب من اعتدى عليه وظلمه للقضاء العادل، وهو معنى لطيف وموافق للقواعد والأدلة، ويعززه أنّ الادِّعاء يستبطن معنى الدعاء، وهو لا يكون إلّا أن يضمّ إليه الاسم نحو يا فلان، وهو أخص من النداء؛ لأنه يطلق مع ضميمة الاسم وغيره[1]، ولعلَّ قوله ﴿**وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ**﴾[2] وليس (ولهم ما ينادون) للإشارة إلى أنّهم يطلبون من يريدون التقاضي معهم بأسمائهم، وربما يقال إنّ الادِّعاء بالمفهوم القانوني مصطلح مستحدث فلا تحمل عليه دلالة الآية.

فالجواب: أنّ استعماله مستحدث وليس معناه ووصفه في اللغة، بل هو موضوع في اللغة، ففي معجم المقاييس الادِّعاء أن تدّعي حقّاً لك أو لغيرك[3]، ويتضمَّن الأصل اللغوي للدعاء، ويوافقه الظهور، بل ورد في الأخبار البيّنة على المُدَّعي واليمين علي[4]، وحيث لا مانع عقلي أو شرعي

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣١٥، (دعا).

(٢) سورة يس: الآية ٥٧.

(٣) معجم مقاييس اللغة: ص٣٣٧، (دعو).

(٤) الفقيه: ج٣، ص٣٢، ح٣٢٦٧؛ علل الشرائع: ج٢، ص٥٤١، ح١؛ التهذيب: ج١٠، ص١٦٦.

منه فلا مانع من الأخذ به، ولكن لا يصحّ حصر المعنى به؛ لأنّ الإطلاق يتسع لغيره أيضاً.

الرابع: أنّها من الادِّعاء بمعنى نسبة الشيء إلى النفس، كما يقال فلان يدَّعي بالأرض أي أنّها له، ويتضمَّن ادِّعاء ما هو موجود حاضر أو غير حاضر أو معدوم، وبهذا الاعتبار لم يطلق على القول والمذهب من دون دليل ادِّعاء؛ لأنه مبني على توهّم أو تصوُّر مختلق[١]، وبهذا الاعتبار يطلق على من لا يعرف له أبّ دعيّ، وهو أوسع المعاني، وفيه تندرج المعاني الثلاثة المتقدمة، وكذا قول من ذهب إلى أنّ لهم ما كانوا يدَّعونه في الدنيا ودرجاتها ونِعَمِها[٢]، ولو استند إلى رواية ضعيفة أو فهم غير دقيق للنصوص، ومعناه أنّ له كل ما يطلبه ويتمنَّاه سواء كان موجوداً بالفعل أو يتخيَّله في نفسه ويطلبه فإنه يتحقق له بإرادة الله سبحانه، أو بإحضار الملائكة، أو أنّه يملك سُلْطة على الأشياء بحيث يُحضرها متى شاء وكيف شاء.

ويقويه اللام في قوله: ﴿**لهم**﴾ فإنّ الجنة وما فيها مأمورة بإطاعة المؤمن والاستجابة له، فيتحقق له كل ما يتمناه مما هو موجود أو غير موجود ويتمنى وجوده. وهذا ما تعززه الآيات الأخرى كقوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ**﴾[٣] فإن ما تشتهي الأنفس

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٥٣٤، (٢١٥٠).

(٢) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٤، تفسير البيضاوي: ج٢، ص٢٨٥.

(٣) سورة فصلت: الآية٣١.

يشمل كل الأشياء الموجودة، فلا بد وأن يحمل ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ على الأشياء غير الموجودة دفعاً للغوية.

وكذلك قوله عليه السلام: ﴿فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وما لا يخطر على بال﴾[1] فإن الأولين يشملان جميع النعم الموجودة، فلابد وأن يحمل ﴿وما لا يخطر على بال﴾ على أنّ الخزائن الإلهية مفتوحة لأهل الجنة تحقق لهم ما يشاؤون وما يتصورون وما يدعون.

فالحق أنّ لأهل الجنة كل ما يريدون ويخطر ببالهم بولايتهم التكوينية وسلطتهم على الأشياء وكمالهم وعلو درجاتهم لا تنفك عن الدعاء، وهو يشمل ما هو موجود من لذات ونعم، وما هو غير موجود يتحقق لهم كما يشير إليه قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[2] كما يشمل التقاضي بالحق عند العدل الإلهي.

هذا وذكر الفخر الرازي معاني أخرى لا يساعد عليها دليل.

منها: أن الادعاء بمعنى الدعاء، والمعنى أن ما يصح أن يطلب يكون حاصلاً لهم قبل الطلب فلا يدعون ولا يطلبون[3]، وهذا تناقض؛ لأن الدعاء حقيقته الطلب والمسألة، ولا يكون إلّا في غير المتحقق لدى الحاجة إليه، فلو كان حاصلاً انتفى غرض الدعاء، ولو صح الدعاء وجب أن لا يكون حاصلاً.

---

(١) الأمالي (للصدوق): ص٣٦٨، ح٤٥٩؛ ثواب الأعمال: ص٤٤.

(٢) سورة ق: الآية ٣٥.

(٣) تفسير الرازي: ج٩، ص٨٧.

ومنها: أنّه بمعنى الطلب والإجابة؛ لأنّ الطلب من الله فيه لذة، فلو قطع الله الأسباب بينهم وبينه لما كان يطيب لهم، فأبقى أشياء يعطيهم إيّاها عند الطلب ليكون لهم عند الطلب لذة[١]، وفيه أنّه مخالف للوعد الإلهي لهم بأن فيها ما تشتهي الأنفس، وأنّهم ملوك في الجنة يخدمون بلا طلب. **هذا أولاً**.

وثانياً: أنّ أهل الجنة لكمال عقولهم وتنّور قلوبهم ويقينهم وحبهم لربهم ومعرفتهم لفقرهم الدائم المستمر لا يفترون عن الذكر والتسبيح والتهليل والدعاء، ولذتهم فيها متواصلة، فلا خصوصية لما ذكر، ولذا لم يذهب إلى هذا القول أكثر المفسرين.

ومنها: أنه بمعنى التداعي من التفاعل، والمعنى أن كل ما يطلبه أحد من صاحبه حاصل له[٢]، وضعفه أظهر؛ لمخالفته الصريحة للمنطوق، فإنّ الآية نصت على أنّ لهم ما يدعون لا ما يتداعون، بل ممتنع لمخالفته لمقام أهل الجنة، فإنّ الطلب فيها لا يكون من غير الرب تبارك وتعالى، بل بعد إباحة الأشياء لهم لا يكون الدعاء طلباً بل عبودية.

وبذلك يتضح السر في التعبير بالدعاء دون الاشتهاء والتمني واللذة وغيرها من المفردات؛ لأنّها أوسع دلالة، وأدق مضموناً من جهات:

---

(١) تفسير الرازي: ج٩، ص٨٧.

(٢) تفسير الرازي: ج٩، ص٨٧؛ وانظر تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٦٩-٧٠.

الأولى: أنّ الادعاء فيه تلميح بالدعاء وهو أفضل العبادة، بل مخها، فيتضمن الشعور الدائم عند أهل الجنة بالفقر والحاجة والشكر للنعمة، وهي من أرقى مراتب العبودية المناسبة بمقامات أهل الجنة، بخلاف المفردات الأخرى فإنّها فاقدة لذلك.

الثانية: أنّ الادعاء يشمل الموجود والمعدوم والنعم المادية والمعنوية والمقررة والمتخيلة بخلاف غيره.

الثالثة: أنّه يدل على عدم وجود نقص أو فقدان أو حرمان في الجنة بخلاف غيره، ولعل البعض يسأل أنّ إطلاق قوله: ﴿**وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ**﴾(١) ربما يفتح الباب أمام أهل الجنة بطلب المحال، أو ما يخالف الحكمة، كما لو طلبوا رؤية الباري عز وجل بأبصارهم، أو طلبوا إخراج من هم حطب جهنم منها وإدخالهم الجنة، أو إخراج بعض من يستحق الجنة منها.

والجواب: أنّ السؤال في نفسه لا موضوع له، بل فرضه محال؛ لاستلزامه الخلف؛ لأنّه يفترض النقص والجهل والغفلة في أهل الجنة، وهو باطل؛ لأنهم كاملون عقلاً، منيرون قلباً، عارفون بالحقائق والأشياء معرفة عين اليقين، فلا يطلبون ما لا يليق أو هو ممتنع في ذاته أو بالعرض.

---

(١) سورة يس: الآية ٥٧.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: لماذا ذكرت الفاكهة دون غيرها؟

الآية المباركة خصَّصت الفاكهة بالذكر دون غيرها من المأكولات والمشروبات، والسرّ في ذلك يعود إلى أسباب:

الأول: لأنّ الفاكهة تناسب مجالس أهل الجنة تُؤكَل في وقت الراحة والتكريم والاستجمام، وأكلها يناسب مجالس أهل الجنة؛ لكونهم على الأرائك متكئون، ولا يمكن الأكل كذلك إلّا للفاكهة، بخلاف غيرها كالخبز واللحم والرز ونحوها، فإنّها لا تُؤكَل عن اتِّكاء، بل عن جلوس خاص، كما أنّ الفاكهة تستعمل للتكريم والتشريف، ولذا تقدَّم في الأفراح والمناسبات، ويتمّ تداولها وتبادلها بلا مؤونة، ولا يحتاج إلى إعداد مسبق من طبخ وطهي، ولا إلى موائد أو أدوات أكل كالأطعمة الأخرى، كما أنّ أهل الجنة في شغل فاكهون -أي في فكاهة دائمة وتبادل في النِعَم بينهم- ناسب أن تكون الفاكهة معهم.

الثاني: لأنّ في الفاكهة خصائص للروح والبدن لا توجد في غيرها من المطعومات:

منها: أنّها بمنظرها ولونها تسرّ الناظرين، ففيها لذة للعين.

ومنها: أنّ ريحها الطيب يشمّ فتشدّ العقل وتطيب النفس، ففيها لذة للأنف.

ومنها: أنّ طعمها طيّب ففيها لذة للفم.

ومنها: أنّها تشتمل على الطعام والشراب معاً، وتغذي مجموع البدن.

ومنها: أنّها تطيب ريح آكليها، وتعدِّل مزاجهم، وتعطيهم النشاط، وتجمِّل الوجه.

وقد أثبتت الدراسات العلمية الكثير من الخصائص المفيدة لبدن الإنسان وروحه وعقله في فاكهة الدنيا، فما بالك بفاكهة الآخرة، وممّا أثبتته الدراسات أيضاً أنّ الإنسان لو جعل قوته وأكله وشرابه الفاكهة كان أكثر صحة وسلامة، وأطول عمراً، وجميع خلايا جسده تكون سليمة.

بخلاف غيرها فإنّها في الغالب تضرّ ببدنه إضراراً بالغاً، وربما أهلكته، كما لو جعل الإنسان قوته اللحوم خصوصاً الحمراء أو الحبوب أو الخضر فإنها في الغالب تحرف مزاجه وتضرّه.

الثالث: لأنّ الفاكهة تشمل جميع الأطعمة التي بها تستطيب النفس ويتقوّم البدن فأستغني عن ذكرها من وجوه ثلاثة:

أحدها: أنّ أهل الجنة لا يجوعون فيها ولا يضمؤون ولا يعرون؛ لأنها آلام وهم منزَّهون منها: ﴿**إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى**﴾[1] ومن لا يجوع لا يحتاج إلى طعام للأكل، بل إلى فاكهة للترويح والتمتع.

---

(١) سورة طه: الآية ١١٨.

ثانيها: أنّ الفاكهة تشريفية بخلاف الطعام فإنه حاجة، والمحتاج يطالب بما يسدّ حاجته، فيندرج فيما يدّعون، وأمّا الفاكهة فتُقدَّم لأهلها بلا طلب ولا حاجة بل للأنس.

ثالثها: لأنّ الفاكهة تؤكل بعد الفراغ من الأكل والشَبع؛ لأنّها كمال وجمال وليست ضرورة، فلو ذكرت الفاكهة وهي كمالية وتشريفية دلّت على وجود ما هو ضروري من الطعام؛ لأنه مفروغ منه، إذ لا يذكر الفرع إلّا بعد وجود الأصل.

والنكتة اللطيفة فيها أيضاً أنّها قالت: ﴿**لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ**﴾[1] ولم تقل: (يأكلون) لأنّ فوائد الفاكهة لا تنحصر بالأكل، ولبيان أنهم يملكونها، وشعور المالك للشيء أعظم وأرقى وأكثر استقراراً من الأكل؛ لأنه يلتذّ بسائر وجوه اللّذات ومنها الأكل، بخلاف الآكل غير المالك فإنه يلتذّ بما يأكل فقط.

اللطيفة الثانية: معارف أهل الجنّة

إنّ فاكهة الجنة لا تنحصر بالأطعمة والأشربة المادية، بل تشمل الأطعمة والأشربة المعنوية؛ لوضوح أنّ الثمار ونحوها طعام البدن، وفي النصوص الشرعية ما يؤكد أنّ لأهل الجنة فكاهة أرقى وأعظم من فكاهة البدن، وهي فكاهة العقل والقلب والروح، وطعامها المعرفة والعبادة

---

(١) سورة يس: الآية ٥٧.

والذِكْر ومرافقة الأنبياء والأولياء والصالحين من العباد، بل إنّ أهل الجنة بعد كمال عقولهم وقلوبهم وأرواحهم يتلذذون بالنِعَم المعنوية أكثر، وهذا أمر بديهي؛ لأن المعرفة والعِلم لا نهاية ولا حدّ لهما. كما أنّ كمال العقول لا حدّ له، فليسَ من المعقول أن يتنعّم أهل الجنة بالنعم المادية ولا يتنَّعمون بالنعم المعنوية، وفي بعض الأخبار أنّ لأهل الجنة مجالس وخطابات ومناظرات، وأنّ النبي المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خطيب أهل الجنة[١]، وأنهم يجتمعون تحت لواء أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فقد ورد عن عليٍّ بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أبيه عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿قال لي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: أنت أول من يدخل الجنة، فقلت: يا رسول الله! أدخلها قبلك؟ قال: نعم؛ لأنّك صاحب لوائي في الآخرة، كما أنّك صاحب لوائي في الدنيا، وصاحب اللواء هو المتقدِّم، ثم قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا عليّ! كأنّي بك وقد دخلتَ الجنة وبيدكَ لوائي وهو لواءُ الحَمْد تحتهُ آدم فمَن دونه﴾[٢] أي كل الصالحين، وفيه إشارة إلى التطابق بين الدنيا والآخرة.

واللواء العلم الكبير يوضع للشهرة، ويرمز فيه للجهة والجيش والبلد والجماعة[٣]، ووجود اللواء ربما لبيان مكانة أهله وتمييزهم بين أهل الجنة، أو لبيان مكانهم في الجنة، أو لبيان كرامتهم عند الله، أو لها جميعاً وهو الصواب.

---

(١) البحار: ج٨، ص١٤٧، ح٧٢؛ ينابيع الحكمة: ج١، ص٤٠٩، ح١٦.
(٢) البحار: ج٨، ص٦، ح٩؛ وانظر علل الشرائع: ج١، ص١٧٣، ح١.
(٣) مجمع البحرين: ج١، ص٣٨١، (لوا).

ولعلّ تسمية اللواء بالحَمْد يعود إلى معنى الحَمْد من وجوه:

أحدها: أنه مقام الثناء الجميل وتعظيم الخالق وشكر نعمه وأداء حقها بالذِكْر والتسبيح والتهليل.

ثانيها: أنه مقام الثناء على صاحب اللواء وهو رسول اللهصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ؛ لأنه يُبْعَث في مقام محمود كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾[1] أي المقام الذي يحمده فيه جميع الخلائق، وينالون منه الخير والرحمة والشفاعة.

كما أنه سمّي بمحمّد في القرآن؛ لأن الله وملائكته وجميع أنبيائه ورسله وجميع أممهم يحمدونه ويصلّون عليه[2].

ثالثها: أنه مقام الشكر والثناء لحامِل اللواء والتعظيم لولايتهعَلَيْهِالسَّلَامُ؛ لأنها أَتَّم نعمة وأكمل نور أعطاه الباري عزّ وجلّ للبشر بجميع مقاماتهم حتى الأنبياء لا يصلون إلى مقام النبوّة إلّا بمعرفتها والتصديق بها، ولم يدخل الجنة أحد إلّا بها، وقد وردَ في الآيات والروايات أنّ النعيم الذي يُسأل عنه الناس يوم القيامة هي الولاية لآل محمدعَلَيْهِمُالسَّلَامُ، وكون اللواء بيد أمير المؤمنين يشير إلى ذلك، ولا تنافي بين المعاني الثلاثة، والإطلاق يتحملها.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٩.

(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص٤٠، (حمد).

ويستفاد من الأدلة أنّ أهل الجنة يتفكَّهون بالمعنويات كما يتفكَّهون بالماديات، وأنّ هناك أعمالاً لو عملها المؤمنون يضمنون العيش في ظِل لواء أمير المؤمنين عليه السلام، ويدخلون الجنة قبل غيرهم.

منها: ما وردت به الأخبار وهو الارتباط بسيّد الشهداء عليه السلام وبزيارته، فبسند مُعتبر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين زوّار الحسين بن عليّ عليه السلام؟ فيقوم عنق من الناس لا يحصيهم إلّا الله تعالى ... إلى أن قال: فينطلقون إلى لواء رسول الله صلى الله عليه وآله فيكونون في ظِلّه- واللواء في يَدّ عليّ عليه السلام – حتى يدخلوا الجنة جميعاً فيكونوا أمام اللواء، وعن يمينه وعن يساره ومن خلفه»[1].

وفي رواية أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله أو أبا جعفر عليهما السلام يقول: «مَن أحبَّ أن يكون مسكنهُ الجنة ومأواه الجنة فلا يدع زيارة المظلوم» قلت: ومن هو؟ قال: «الحسين بن علي عليه السلام صاحب كربلاء. مَن أتاه شوقاً إليه وحبّاً لرسول الله وحبّاً لأمير المؤمنين وحبّاً لفاطمة صلوات الله عليهم أجمعين أقعده الله على موائد الجنة يأكل معهم والناس في الحساب»[2] وفيها إشارة إلى زيارة القلب فضلاً عن زيارة البدن.

---

(١) انظر كامل الزيارات: ص٢٦٨-٢٦٩، ح٤١٥؛ جامع أحاديث الشيعة: ج١٢، ص٤٥٥، ح٤٧٤٩.

(٢) كامل الزيارات: ص٢٦٩، ح٤١٦؛ الوسائل: ج١٤، الباب ٦٤ من أبواب المزار وما يناسبه، ص٤٩٦، ح١٩٦٧٧.

وفي رواية داود بن فرقد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من زار قبر الحُسين عليه السلام في كل جمعة غفر الله له ألبتّة، ولم يخرج من الدنيا وفي نفسه حسرة منها، وكان مسكنه في الجنة مع الحُسين بن عليّ عليه السلام، ثم قال: «يا داود مَن لا يسرّه أن يكون في الجنة جار الحُسين عليه السلام؟» قلت: من لا أفلح[(١)].

وقوله: «لم يخرج... وفي نفسه حسرة» كناية عن تحقُّق جميع آماله وأمانيه في الدنيا.

وفي رواية أخرى: أنّ المواظبة على زيارته عليه السلام تجعل الزائر مجاوراً لعليٍّ وفاطمة عليهما السلام في الجنة[(٢)]، أي جاراً لهما، وفي رواية أخرى أنه يكون معهم في درجتهم[(٣)].

وفي رواية صالح بن ميثم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَن سَرَّه أن يكون على موائد النور يوم القيامة فليكن من زوّار الحُسين بن عليٍّ عليهما السلام »[(٤)].

وموائد النور هي الموائد التي يتلقّى فيها النور والعلم والمعرفة والكرامة الإلهية، وسُمّيت مائدة لأن المعارف والعلوم غذاء القلوب والعقول كما أنّ الطعام غذاء الأبدان[(٥)].

---

(١) كامل الزيارات: ص٣٤١، ح٥٧٤.

(٢) كامل الزيارات: ص٢٦٠، ح٣٩٢.

(٣) كامل الزيارات: ص٢٦٨-٢٦٩، ح٤١٨.

(٤) كامل الزيارات : ص٢٥٨، ح٣٨٩؛ البحار: ج٩٨، ص٧٢، ح١٩.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص ٤٩٨، (ميد).

وفي روايات أخرى أنّ بعض زائريه الذين تحمَّلوا الأذى والمشقّة يكون محدِّثهم رسول الله والحسين عليه السلام(١)، ومعلوم أنّ النبيّ إذا حدَّث وكذلك الإمام يتحدَّثون بما عندهم من عِلم ومعرفة، ويكشفون لمحدثيهم الكثير مما لم يكن التحديث به في الدنيا ميسوراً؛ لقصور عقول أهل الدنيا، أو للتقيّة، وأمّا في الجنة فالموانع مفقودة، والمقتضيات موجودة.

وفي الأخبار ما يدلّ على أنّ أهل الجنة يزدادون معرفة ويقيناً بربهم في كل يوم جمعة(٢)، وفيها ما يدلّ على أنّ في الجنة أسواقاً ومجمّعات كما ستعرفه في اللطيفة التالية.

اللطيفة الثالثة: لأهل الجنة ما يدّعون

إنّ الآية المباركة أشارت إلى أنّ لأهل الجنة ما يدَّعون، أي ما يتمَّنون ويتصوَّرون سواء في تكوينهم البدني أو حاجاتهم البدنية، وتعزِّز ذلك الأخبار الشريفة، بل في بعضها ما يَدلّ على أنّ لهم أنْ يغيّروا صُوَرَهم متى شاؤوا.

فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «قال النبي صلى الله عليه وآله: إنّ في الجنة سوقاً ما فيها شِرى ولا بيع إلاّ الصور من الرجال والنساء. من اشتهى صورة دخل فيها، وإنّ فيها مجمع حور العين يرفعنَ أصواتهنَّ بصوت لم يسمع الخلائق بمثله: نحن الناعمات فلا نبأس أبداً، ونحن الطاعمات فلا

---

(١) انظر كامل الزيارات: ص٢٣٩-٢٤١، ح٣٥٧، ص٢٤٣- ٢٤٤، ح٣٦١.

(٢) انظر البحار: ج٨، ص١٢٦، ح٢٧؛ تفسير القمي: ج٢، ص١٦٨.

نجوع أبداً، ونحن الكاسيات فلا نعرى أبداً، ونحن الخالدات فلا نموت أبداً، ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً، ونحن المُقيمات فلا نظعن أبداً، فطوبى لمن كُنّا له وكان لنا، نحن خيرات حِسان، أزواجنا أقوامٌ كِرام﴾(١).

وقوله: ﴿مَن اشتهى صورة﴾ إمّا يشير إلى اختيار الصورة العَرَضية كمن يلبس وجهاً فوق وجههِ - ولعلَّ هذا هو ظاهر النص - وإمّا إلى تبديل الصورة حقيقةً باعتبار أنّ أجسام أهل الجنة ملكوتية خفيفة قابلة للتبدُّل والتشَكُّل.

اللطيفة الرابعة: النعيم المادي في الجنة

إنّ الآية المباركة والآيات التي قبلها صريحة في أنّ فاكهة أهل الجنة وأزواجهم وأرائكهم وظِلالهم أمور حقيقية لها أجسام مادية، وأنَّ أهل الجنة في الجنة يكونون بأجسام مادية حقيقية، فليس نعيم الجنة روحياً فقط، وأنّ أهل الجنة أرواحهم تكون فيها، بل هم وأزواجهم وفاكهتهم بوجودهم الجسدي المادي مع أرواحهم فيها، وهذا يعزز ما تقدَّم من أنَّ المعاد يكون جسمانياً بأحد وجهين:

أحدهما: ظهور الآيات.

وثانيهما: اندراجه فيما يدَّعون، فلو تمَنَّى المؤمن أن يعيش الجسد المادي الدنيوي في الجنة فإنه لا يحرم منه، وعلى كلا التقديرين تبطل دعوى استحالة ذلك؛ لأن نقض السلب الكلّي يتم بالإيجاب الجزئي كما يقول المناطقة.

(١) جامع الأخبار: ص١٧٣؛ ينابيع الحكمة: ج١، ص٤٠٣، ح٨.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: تشريف المجالس بالفاكهة

يتضح من الآية أنّ طعام التكريم والتشريف في المجالس وبين الناس يجب أن يكون الفاكهة، أي ما تستطيبهُ النفوس ويبعث على السرور والراحة وتسلية الخواطر، وتقديم الثمار فيها أفضل وأشرف من غيره، وأمّا ما يُقدِّمه أهل المعاصي من مُنكرات فهو يقودهم إلى النار.

التعليم الثاني: الفاكهة ضرورة للبدن

أنّ أكل الفاكهة ضروري لتقويم البدن وترويح النفس وتغذية العقل والقلب، وأنّه علاج طبيعي للكثير من الأمراض، وأنّ جنان الأرض تُعَمَّر بأشجار الفواكه والثمار لا بالأبنية والشوارع والمطاعم والمقاهي.

وأنّ البلاد التي تتمتّع بغابات الفواكه أهلها أكثر سعادة وصحة وسلامة وغِنى، ولا ينالها جوع ولا ظمأ ولا فقر، وأيضا أكثر أمناً واستقراراً.

التعليم الثالث: الاستماع واجب على المسؤول

هذا التعليم لأصحاب القرار السياسي والإداري وكل مَن للناس عليه حق إذ يجب الركون للحق والاستجابة له، وعلى كل مسؤول أن يستمع لكل مدَّعٍ مدعاه حتى يثبت الحق له أو يقام عليه.

فإن تجاوز ذلك وأضاع حقوق الناس وأخفى الحقائق عليهم فإنه إن مرَّ في الدنيا فلا يمُّر في الآخرة وسيطالب به، ولا يفلت الظالم من جزاء ظُلْمه في العدل الإلهي، فالخضوع للحق هو السبيل الوحيد لبراءة الذمّة والخلاص من المؤاخذة.

سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ

يس/ ٥٨

السلام قلب سورة يس

قيل إنّها أهم آية وهي قلب سورة يس، وصفت بذلك إمّا لأنّها تحقّق غايتها وهي إيصال الناس إلى السعادة الروحية والبدنية في الدارين، أو لأنّها المعد المعنوي لتلقي مضامينها العالية والتي تتلخص في أصول العقيدة الحقَّة في التوحيد والنبوّة والولاية والمعاد، فإنّ هذه الحقائق الاعتقادية لا تستقرّ إلّا في العقول والقلوب السليمة البريئة من أمراض الشكّ والوسوسة والنفاق والجهل، والآية المباركة تنقي القلوب والعقول من ذلك؛ ليكون العبد مؤمناً حقاً، وهذا هو قلب الوجود الإنساني والمحرِّك لحياته السعيدة في الدنيا وفي الآخرة، ولا تنافي بين المعنيين، فالقول بهما وجيه، ويزداد على ذلك أنّ الآية المباركة دقيقة من جهة الإعراب لقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً﴾ من جهة الدلالة، وتعددت فيها الآراء والأقوال.

وقد وقع الكلام بين المفسِّرين في أنّها معطوفة على ما قبلها أم مستقلة فتكون استئنافية، فذهب جماعة إلى أنّها معطوفة والتقدير أنّ أصحاب الجنة ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾[1] ولهم ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

يسمعونه من الله سبحانه يؤذنهم بدوام الأمن والسلامة مع سبوغ النعمة والكرامة[2]، وحذف حرف العطف لظهوره، وذهب آخرون إلى أنها

---

(١) سورة يس: الآية ٥٧.

(٢) انظر التبيان: ج٨، ص٣٥٥؛ تفسير الرازي: ج١١، ص٨٨.

جملة استئنافية ومفادها الإخبار عن حالهم بذلك، ومعناها أنّ الباري عزّ وجلّ يخاطبهم بالسلام، ونصبَ (قولاً) بتقدير الفعل أي يقال لهم قولاً من الله إمّا بالمباشرة أو بالواسطة[١]، أو أنّ الملائكة تدخل عليهم من كل باب تقول لهم: سلامٌ عليكم من ربكم الرحيم[٢]، أو على أنّه حال، والمعنى سلام حال كونه قولاً من ربّ رحيم، وهو الأقوى لوجوه ثلاثة:

الأول: لأنّه وعد إلهي أعطاه الباري للمؤمنين في الدنيا؛ إذ دعاهم إلى دار السلام وهي الجنة؛ إذ قال: ﴿**وَاللّه يَدْعُو إلى دَارِ السَّلاَمِ**﴾[٣] ولمّا دخلوها وَفى بوعده لهم فقال: ﴿**سَلَامٌ قَوْلًا**﴾[٤] أي كان قد قطعه لهم في الدنيا وهو يناسب الحال.

الثاني: لأنّ السلام للتشريف والتكريم الدائم وهو ما يقتضيه الحال.

والثالث: لشمول القول لكل مراتب معناه ومصاديقه كما ستعرفها، بخلاف المفعول المطلق فإنّه يحصر دلالة السلام بالكلام مع أنّ حياة الجنة والسلام فيها لا ينحصر بالقول الكلامي، بل بالعقل أيضاً، وهناك وجوه أخرى للنصب[٥] عمدتها ما ذكرنا، ولا يهم التعرض لها بعد إحراز ظهور المعنى.

---

(١) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٠؛ التحرير والتنوير: ص٤٤.

(٢) مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٣.

(٣) سورة يس: الآية ٢٥.

(٤) سورة يس: الآية ٥٨.

(٥) انظر تفسير الرازي: ج٩، ص٨٨.

ولا تنافي بين المعنيين المذكورين؛ لأنّ مفاد العطف والاستئناف واحد، والسلام إذا كان في الجنة فهو لأهلها، وقد ذكر السلام في سياق الحديث عن نعم الجنة وما يشغل أهلها لسببين:

الأول: لأنّه أرقى ما يتمناه أهل الجنة فيها، كما أنّه أرقى ما يتمناه أهل الدنيا، ومعناه تحصيل الأمان من كل سوء ومكروه، وبه تتحقق سائر النِعَم الروحية والجسمية، فيكون ذكره بيان لعلّة التنّعم والالتذاذ بنعم الجنة، فإنه لا يمكن أن يستمتع أحد بما ينال من النِعَم لو كان فاقداً للأمان والسلامة.

الثاني: لأن به يندفع توهّم البعض بأنّ كثرة الأكل والشرب والجماع والذي يتمَّتع به أهل الجنة قد يستلزم الضرر أو المرض أو سوء المزاج كما هو المعهود في الدنيا، فإنّ الإفراط والتفريط في الاستفادة من النِعَم يوجب الأضرار والأمراض، وأكثر أمراض الدنيا تعود إلى ذلك، فالآية المباركة تنفي هذا الوهم، وتؤكد أنّ كل ما يتنعَّم به أهل الجنة خالٍ من الأذى والضر؛ لذا وصف نعيمها بالدائم، وهو نوع من السلام الروحي والبدني يعيشونه فيها، وقد وردَ أنّ للآية آثاراً عظيمة منها معالجة الأمراض والآلام.

وبهذا يتضح وجه الترابط الموضوعي بين الآيات السابقة وهذه الآية، ويتضح منه أنّ ختام النعم الإلهية في الجنة يكون بالسلام الدائم والذي لا نقْص فيه ولا حرمان، وتفصيل الكلام فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي ثلاث:

المفردة الأولى: ﴿سَلَامٌ﴾

وقد قُرِئَت بأكثر من قراءة لا تستند إلى وجه صحيح[1]، والحق هو الرفع كما وردت في الآية، وتقديرها سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار[2]، والسلام هو البراءة من العيوب الظاهرة والباطنة[3]، والقلب السليم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[4] أي بريء من العيوب الباطنية كالحقد والحسد والشرك والنفاق، وفي قوله تعالى في وصف بقرة بني اسرائيل: ﴿مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا﴾[5] أي سليمة البدن بلا عيب أو عاهة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ج٨، ص٤٢ ؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٥٣.

(٢) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٤.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٢١، (سلم)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٤٦، (سلم).

(٤) سورة الشعراء: الآية ٨٩.

(٥) سورة البقرة: الآية٧١.

والباري عزّ وجلّ هو السلام؛ لتنزّهه عمّا يلحق المخلوقين من العيوب والنواقص(١)، فهو السلام، وداره أي الجنة التي يدعو إليها هي دار السلام ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾(٢) ولا تكون السلامة الحقيقية الشاملة إلّا فيها؛ إذ فيها بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزّ بلا ذلّ، وصحة بلا سقم، ومحبَّة بلا بُغْض، وسرور بلا حزن، وخير بلا شر، وحلاوة بلا مرارة، وفيها كل كمال وجمال دون نقص أو عيب(٣).

وبه وردت بعض الأخبار(٤)، وعن ابن عباس أن دار السلام الجنة، وأهلها لهم السلامة من جميع الآفات والعاهات والأمراض والأسقام، ولهم السلامة من الهَرَم والموت وتغيّر الأحوال عليهم. هذا فضلاً عن دخول الملائكة عليهم من كل باب يُسلّمون عليهم ويقولون سلام عليكم(٥).

وبهذا يتضح السرّ في ورود السلام في الآية دون الأمن؛ لأنّ الأمن عدم الخوف والوثوق بعدم وجود ضرر خارجي، بخلاف السلام فإنه يدفع الخوف الباطني والظاهري والداخلي والخارجي، فهو أنسب بنعيم الجنة، ولا يستعمل إلّا فيها، ويرد في موارد التشريف والتكريم، ويشهد له

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٤٦٥، (سلم).

(٢) سورة يونس: الآية٢٥.

(٣) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٢١، (سلم).

(٤) معاني الأخبار: ص١٧٦، ح١؛ البحار: ج٨، ص١٩٤، ح١٧٦؛ مستدرك سفينة البحار: ج٥، ص١٢٠.

(٥) البحار: ج٨، ص١٩٤، ح١٧٦؛ مستدرك سفينة البحار: ج٥، ص١٢١.

التنكير فيه الظاهر في العموم، وأمّا في موارد الخوف والحذر من العقاب والعذاب يرد الأمن.

وأمّا ما ورد في تفسير القمي من تفسير السلام بالأمان[١] فبناءً على أنه رواية وليس قولاً لعليٍّ بن إبراهيم محمول على أظهر المصاديق، أو على الأمان بمعناه الأعمّ، أي كل ما يدفع الخوف من العيوب والآفات المادية والمعنوية فيساوق السلام.

أو يحمل على الأمان في اللغة والعرف الظاهر في كل ما يوجب السلامة والسكينة في مقابل القلق والاضطراب الظاهري والباطني بخلاف الأمن.

والخلاصة: أنّ ما ورد في رواية القمي يساوق السلام في المؤدّى، ولذا عرَّفَ بعض أهل اللغة الأمانة بسكون القلب[٢].

والآيات الشريفة تدل على أن الجو العام المنتشر في الجنة هو السلام، فالخالق يسلِّم على خَلْقِه في الجنة فيقول: ﴿**سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾[٣].

والوسائط بين الخالق والخلق في تدبير الأمور وهم الملائكة يسلّمون عليهم ﴿**وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَامٌ عَلَيْكُم**﴾[٤] وكذلك أهل الأعراف وهم آل محمد عليهم السلام ينادونهم بالسلام[٥].

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص١٩٠.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص٧١، (أمن).

(٣) سورة يس: الآية ٥٨.

(٤) سورة الرعد: الآيتان ٢٣- ٢٤.

(٥) انظر سورة الأعراف: الآية ٤٦.

وأهل الجنة أنفسهم يتخذون السلام شعاراً وتحيةً فيما بينهم ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[١] ويظهر من الأدلة أنّ التحية بين أهل الملكوت والدعاء يقومان على السلام[٢]، ولعلّ السرّ في ذلك يعود لأمرين:

أحدهما: أنّ السلام فيه إشعار بالطمأنينة وسكون النفس واستقرارها.

وثانيهما: أنه يعبِّر عن الخُلُق العالي والكمال الخَلقي والخُلقي لأهل الجنة، فلا أبدانهم ناقصة ومعيوبة ولا قلوبهم ونفوسهم، بخلاف ما يكون عليه الناس في الدنيا عادة.

المفردة الثانية: ﴿قَوْلًا﴾

القول يطلق على معان عديدة:

منها: الكلام، وهو المتبادر منه أولاً.

ومنها: الوعد كما في قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ﴾[٣] أي حصل ما وعد الله من علامات قيام الساعة وظهور أشراطها.

ومنها: الرأي والمعتقد وهو متعارف في الأبحاث العلمية. يقال في المسألة أقوال أي آراء، ويقال فلان يقول بالجبر أو التخيير، وفلان يقول بالأمرين أمرين أي يعتقد.

---

(١) سورة يونس: الآية ١٠.

(٢) انظر سورة النمل: الآية ٣٢.

(٣) سورة النمل: الآية ٨٢.

ومنها: التصور النفسي قبل الإبراز باللفظ، كما يقال: في نفسي قول لم أظهره، وفيه قال تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ**﴾[1].

ومنها: الاختصاص كما في الحديث: «سبحان الذي تعطف بالعزّ والوقار وقال به»[2] أي اختصه لنفسه، وفي العُرْف يقال فلان يقول بفلان أي يختص به.

ومنها: الإرادة كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[3] فإن أيجاد الأشياء وخلقها لا يتوقف على القول بل الإرادة.

ومنها: الحال كما في قوله تعالى: ﴿**فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾[4] أي واقع حالهما الطاعة والخضوع لأمر الله وإرادته.

ومنها: الأعمّ من القول والعمل كما في قوله تعالى: ﴿**سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾[5] فإن القائل إن كان الملائكة فهو كلام تقوله، وإن كان من الله فهو إعطاء السلامة من الآفات الظاهرة والباطنة، وهناك معان كثيرة يستعمل القول للدلالة عليها. ذكر منها الطريحي في المجمع والراغب في المفردات[6].

---

(١) سورة المجادلة : الآية ٨.

(٢) عوالي اللآلئ: ج١، ص١٩٤، ح٢٨٣؛ كتاب الدعاء: ص١٦٥، ح٤٨٢، وفيه: ((سبحانه الذي تعطف بالعزّ وقال به)).

(٣) سورة يس: الآية ٨٢.

(٤) سورة فصلت: الآية ١١.

(٥) سورة يس: الآية ٥٨.

(٦) مجمع البحرين: ج٥، ص٤٥٩، (قول)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٨٨، (قول).

والذي يقتضيه التحقيق إنّ القول له معنى واحد جامع وهو نطق المعنى وإظهاره باللسان ونحوه[١]، ويشهد له التنكير والإطلاق، وباقي المعاني مصاديق له ناشئة من الحيثيات، فإنّ القول في كل شيء بِحَسَبِهِ، فإن كان من ذوي الألسنة يكون بالنطق، وإنْ كان من غيرهم كالسماء والأرض يكون بالحال، وإن كان من الله سبحانه فهو بالإرادة والفعل؛ لأن الجميع فيها إظهار، فتارةً يكون الإظهار بالكلام، وتارةً بالحال، وتارةً بالفعل، وللمسألة تفاصيل تهم البحث اللغوي.

يبقى الكلام في القائل مَن هو؟ فقد اتفقت الكلمة على أنّ القول من الله سبحانه؛ لأنّه الرب الرحيم، واختلفت في أنّه منه مباشرةً أم بالواسطة؟ وهما واسطتان:

الأولى: أنّهم الملائكة الموكلين بالجنة، وهو المروي عن ابن عباس[٢].

الثانية: خلق الصوت لأجل إسماعهم هذا المعنى تكريماً وتطييباً لخواطرهم، كما سمع موسى كلام الله حين ناداه من جانب الطور.

وأكثر مفسري العامة ذهبوا إلى أنّه الباري عزّ وجلّ يتجلّى لهم ويقول لهم القول مباشرةً[٣]، وذكروا فيه رواية عن النبي صلى الله عليه وآله وردت بطرقهم.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٨٣٩، (قول).

(٢) روح المعاني: ج٢٣، ص٥٢.

(٣) روح المعاني: ج٢٣، ص٥٢؛ التحرير والتنوير: ص٤٤.

ففي تفسير القرطبي روى عن بعضهم وعن صحيح مسلم، وكذا الآلوسي عن ابن ماجة وجماعة[١] (بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تعالى قد اطلع عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله: ﴿**سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾[٢] فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، فيبقى نوره وبركاته عليهم في ديارهم)[٣].

وصرَّح الكثير منهم أن الرؤية تكون بصرية، وأنّ الإشراف يكون مكانيّاً، وظاهرها أنّه سبحانه يكلمهم بجارحة ونحوها، ويتوافق هذا مع مبانيهم العامة في التشبيه والتجسيم، وهو ظاهر بعضهم[٤]، كما يتوافق مع دعواهم إمكان رؤية الباري في الآخرة بالبصر بل ووقوعها، وهو باطل من وجوه:

أولاً: لاستحالة تحقق رؤية الباري جلّ وعزّ بالرؤية البصرية، واستحالة أن يكون سبحانه في جهة أو يتكلم بجارحة وغيرها، والنقل إذا ورد بما يستحيل مضمونه حَكَم العقل بوجوب ردَّه أو تأويله.

---

(١) روح المعاني: ج٢٣، ص٥٢.

(٢) سورة يس: الآية ٥٨.

(٣) تفسير الأمثل: ج١٤، ص٢١٥؛ تفسير القرطبي: ج١٥، ص٤٥؛ وانظر تفسير الآلوسي: ج٧، ص١١٤؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٤٢؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٥٢؛ وانظر روح البيان: ج٧، ص٤١٦.

(٤) تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٥٤.

ثانياً: أنّ الرواية التي استدلّوا بها لا تصلح للاستدلال لو كانت هي مستندهم الوحيد؛ لأنّها مخالفة للقرآن، فقد قال سبحانه: ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾[١].

وثالثاً: أنَّ الرواية ذاتها لا تثبت مدَّعاهم؛ لأنّها رويت أيضاً هكذا: (فيقال: السلام عليكم يا أهل الجنة)[٢] وصيغة المبني للمجهول ظاهرة في أن القائل غير الخالق عزّ وجلّ، فالقول الذي يسمعونه ليس هو قوله سبحانه مباشرة، بل هو قوله بالواسطة كالملائكة والخلق ونحوهما، وأمّا قوله: (وينظرون إليه) فالنظر البصري مستحيل، فيتعيَّن أن يكون نظر القلب والمعرفة، وبه قال أصحابنا[٣].

هذا ما قاله المفسرون، ويمكن القول بوجود معان أخرى، لقوله: ﴿**سَلَامٌ قَوْلًا**﴾[٤] نأتي إليها في اللطائف.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

(٢) تفسير القرطبي: ج١٥، ص٤٥؛ وانظر تفسير الآلوسي: ج٧، ص١١٤؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٤؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٥٨.

(٣) الكافي: ج١، ص٩٧، ح٥؛ الأمالي (للصدوق): ص٤٢٣، ح٥٦٠، وفيهما: ((لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان))؛ انظر أضواء على الصحيحين: ص١٥١.

(٤) سورة يس: الآية ٥٨.

المفردة الثالثة: ﴿مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾

(من) حرف جر يتضمن معنى الابتداء للإشارة إلى أنّ السلام لأهل الجنة يبدأ من الرب الرحيم، وفي ذلك دلالة على شدة أمانهم واستقرارهم؛ لأنه القادر الوحيد الذي يملك زمام المقادير، وبيده أن ينعّمهم ويدفع عنهم الأذى والضر، فإذا ابتدأهم بالسلام كانوا في كنفه وعنايته، وهو يقتضي الاستمرار والدوام فيه؛ لأنّ فعل الباري ورحمته تنزل على العباد بقدر القابليات والاستحقاق، وحيث إنهم استحقوا السلام في بادئ أمرهم ودخلوا الجنة استحقوه دائماً؛ لعدم وجود ما يوجب انقطاعه؛ لأنّ الانقطاع يعود لأسباب وكلها ممتنعة:

الأول: أن يفعلوا الذنوب والمعاصي ويقعوا في الظلم فيستحقوا العقوبة، وليس ذلك في الجنة.

الثاني: أن يقطع الباري عزّ وجلّ ذلك عنهم بلا سبب أو بسبب، وهو التشفّي أو البخل، وكلّها ممتنعة، ولا يليق به سبحانه وتعالى؛ لأنّ الأول عبث والثاني ظلم والثالث فقر.

الثالث: أن يقطعه خلفاً منه بوعده الذي قطعه لهم في الدنيا، وهو الآخر ممتنع.

فيتحصّل: أنّ الآية المباركة تعطي ضماناً لأهل الجنة بالسلام الدائم الذي لا ينقطع، ويبتدئ من الله سبحانه الذي بيده كل شيء إلى سائر أهلها، فيدلّ على أمرين:

أحدهما: أنّ البراءة من العيوب الظاهرة والباطنة في الجنة دائمة، فأهل الجنة في كمال مستمرّ روحياً وبدنيّاً، ويرتقون في المقامات والمراتب؛ لأنّ الكمال لا حدَّ له.

وثانيهما: لا معنى للخوف والقلق والاضطراب ونحوها من الحالات المنغِّصة لأهلها. هذا ما تقتضيه صفاته الجلالية، بل هو ما تقتضيه صفاته الجمالية أيضاً، ولذا قال: ﴿**رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾.

لأنّ الرب يتضمن أمرين هما المربّي والمالك، ويدل على الأول بالمنطوق والثاني بالملازمة؛ لأنّ التربية تستلزم السلطة على التصرف في الشيء، ومن هنا ورد في اللغة تعريف الرب بهما، ففي المفردات الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حَدّ التمام، ولا يقال مطلقا إلّا لله تعالى[(١)].

ويقال لمن يتولّى التربية وإصلاح الأمر رب بالإضافة، فيقال رب المدرسة ورب الأسرة، وأطلق الرب على معان عديدة منها الصاحب والسيّد والقيّم والمنعم والمدبِّر والمصلح[(٢)]، والحق أنّ جميعها تعود إلى أصل واحد وهو إصلاح الشيء والقيام عليه، والباقي مصاديق له من حيثيات مختلفة على القاعدة عندنا، والله جلّ ثناؤه الرب؛ لأنه مصلح أحوال خلقه كما صرَّح به بعض أئمة اللغة[(٣)]، وإنّما خص الرب بالذكر دون المالِك لأن

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٣٦، (رب).

(٢) مجمع البحرين: ج٢، ص٦٤،(ربّ)؛ بصائر ذوي التمييز: ج٣، ص٢٩؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٣٢١، (ربّ)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٣٧٨، (ربّ).

(٣) معجم مقاييس اللغة: ص٣٧٨، (ربّ) ؛ معجم الفروق اللغوية: ص٢٤٧، (٩٧٥).

المالِك أعمّ؛ إذ قد يتولىّ تربية المملوك ورعايته وقد لا يتولّاه، أو لأنّ الرب يختصّ بتربية ذوات الأرواح أو بالإنسان فقط، والمالِك أعمّ.

وبهذا الاعتبار ورد قوله تعالى: ﴿**كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾[١] أي كاملين في العلم والعمل لانتسابكم إلى الرب تبارك وتعالى، ويطلق هذا الوصف على الفقهاء العدول ومن يربّي القلوب والأرواح؛ لأنّهم يربّون العلم، أي يقوّمونه وينمّونه ويصلحون أمر الناس به.

وقال الطبرسي: الربّاني هو الربّ يربّ أمر الناس بتدبيره وإصلاحه[٢]، وفي الحديث: «لا عِلْم إلّا مِن عالِمٍ ربّاني»[٣] وهو شديد التمسّك بدين الله وطاعته، والعارف بالله سبحانه وأحكامه، ومنطوقه ينفي جواز أخذ العلوم الإلهية من كل أحد إلّا مَن عُرِفَ بالعِلم والتقوى والطاعة[٤]، وأمّا غيره فنفى الحديث ما يحمله أو يقوله أن يكون علماً من باب الحكومة في الموضوع.

وفي الآية دلالة صريحة على أن الرباني هو الذي يدرس الكتاب الإلهي ويعلمه وهو القرآن، فلا يؤخذ العلم إلّا منه، وأمّا من لم يدرس الكتاب أو درسه ولكن لا يعلمه وإنّما يستند إلى غيره في التعليم فهو ليس برباني[٥].

---

(١) سورة آل عمران: الآية٧٩.

(٢) مجمع البيان: ج٢، ص٣٣٠.

(٣) طرائف المقال: ج٢، ص١٧٥؛ مجمع البحرين: ج٢، ص١٢٨، (رب).

(٤) مجمع البحرين:ج٢، ص١٢٨، (ربّ).

(٥) تفسير كنز الدّقائق: ج٣، ص١٣٥؛ انظر مواهب الرحمن: ج٦، ص٩٧.

و(الباء) في قوله (بما) سببية. وإن كان يتصوره عِلماً، وبه يعرف لماذا يختص هذا الوصف بعلم الشريعة دون غيره من العلوم كالفيزياء والطِّب ونحوها؛ لأنها تتعلق بالأبدان لا القلوب والأرواح.

وفي الحديث الوارد بطرق الفريقين في وصف أمير المؤمنين: «أنا ربانّي هذه الأمة»[(١)] أي المعلم والمربّي والمصلح لأمر الأمة والقائم عليها بأمر الله سبحانه والرسول صلى الله عليه وآله، ولكنها حين أعرضت عنه ضيَّعت حظها، وعَلّمّها الجبابرة والطغاة وربوها على الفساد، وساقوها إلى الهلاك.

وبهذا يتضح أمران:

الأول: أن الرب يطلق على الباري عزّ وجلّ وعلى غيره بحسب الاعتبارات المختلفة، فكما يطلق على رب الأسرة ورب العمل يطلق على من يربي الأمة ويصلحها.

الثاني: أنّ الربوبية تلازم الولاية على الشيء والمالكية لأمره، وتختلف بحسب مراتبها، فرب الأسرة ولايته منحصرة بأسرته، ورب العمل بعمله، ورب الأمة في عموم الأمة وكل شؤونها وهذا ما أشار إليه الباري بقوله تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾[(٢)] فإنه أثبت للمؤمنين ولاية

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٣٧، (ربّ)؛ شرح إحقاق الحق: ج٤، ص٢٧٣؛ وانظر مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٣٢٣؛ البحار: ج٤٠، ص١٦٠؛ نهج الإيمان: ص٢٧٧.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٦.

على أنفسهم أولاً لأنهم يملكونها، ولكن جعل ولاية النبي عليهم أولى وأعلى من ولايتهم على أنفسهم، فإذا حكمَ النبيﷺ بحكم أو أمر بأمر لا مجال للمؤمن أن يخالف ذلك أو يعترض عليه؛ لأن ولايته على نفسه تأتي في الرتبة الثانية بعد ولاية النبيﷺ، ولذا قال في آية أخرى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾(١) وهذه هي صفة الإيمان، فلا يتّصف الرجل بصفة المؤمن ولا المرأة بصفة المؤمنة إلّا إذا استجابا للنبي فيما يأمر وينهى؛ لأنّه مربيهما ومعلمهما وهاديهما ومصلحهم وولايته فوق ولايتهما على نفسيهما؛ وما يقال في النبي يقال في الإمام؛ لتضافر الأدلة العقلية والنقلية على أن النبي والإمامعليهما السلام لهما ذات المقامات والمزايا إلّا ما خرج بدليل وكان من مختصات النبيﷺ(٢).

وتتضافر الأدلة العقلية والنقلية فضلا عمّا تقدَّم من معنى الرب لغةً وعرفاً على أنّ إطلاق اسم الرب على النبي ﷺ والإمام يصح باعتبارات أربعة:

الأول: باعتبار أنّهم حجج الله وخلفاؤه على خلقه، وهم الواسطة في الفيوضات الإلهية بمقتضى ولايتهم التكوينية على الأشياء.

الثاني: باعتبار أنّهم قائمون على أمر الدين والأحكام والذابون عنه الشبهات والمخاطر بمقتضى ولايتهم التشريعية على الأحكام.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٢) انظر مبادئ وأصول المعارف الإلهية: ص٢٤٧.

الثالث: باعتبار أنّهم قائمون على شؤون الناس والمصلحون لأمورهم في الحكم والعدل بمقتضى ولايتهم التدبيرية على الخلق.

الرابع: باعتبار أنّهم المعلمون والمربون والهادون لهم في المعارف والفضائل بمقتضى ولايتهم العلمية.

وكل هذه المراتب الأربع للولاية ينطبق عليها معنى الرب لغةً، فإذا صح إطلاق الرب على الأب لأنّه يربي الولد، وعلى المعلم لأنّه يرشد ويعلم، وعلى المالك لأنّه يقوم بأمر ما يملك ويصلح شأنه صح إطلاقه على مَن يملك الولاية الأوسع ويرشد ويعلم ويربي تكويناً وتشريعاً بشهادة صحة الحمل وعدم صحة السلب.

ووصف الرب بالرحيم مأخوذ من الرحمة، وهي في ذوي القلوب رقة القلب ثم عطفه، وفي الله سبحانه عطفه وبره ورزقه وإحسانه، والرحمن هو ذو الرحمة من صفات الذات الإلهية، ولا يوصف به غيره عزّ وجلّ، بخلاف الرحيم وهو صفة مشبهة تتضمن المبالغة، أي عظيم الرحمة[١]، وهو من صفات الفعل، ويعني وصولها للغير، وتضافرت الأدلة على أنّ الموصوف بالرحيم هو النبي المصطفى صلى الله عليه وآله منها قوله سبحانه: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[٢] والإثبات بعد النفي يفيد الحصر، ومفاده أن

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٤٧، (رحم)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٦٩، (رحم)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٤٢٥، (رحم).

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

النبي صلى الله عليه وآله هو الرحمة الإلهية للعالمين، ومثله قوله سبحانه: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى﴾(١).

وقد تضافرت الأخبار بوصفه بأنه رحمة مهداة(٢)، وأنه مظهر الرحمة الإلهية والعناية الربانية لاسيّما بالمؤمنين كما شهد له الباري عزّ وجلّ بذلك في قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٣) ووصفه صلى الله عليه وآله بالرحمة مما اتفقت عليه كلمة المسلمين طراً، بل وشاع، وعرف بين أهل الأديان كافة، وأنّ أهل بيته عليهم السلام وصفوا بأنّهم أهل بيت الرحمة(٤)، كما تضافرت على أنّ الخلق طرّاً حتى الأنبياء والأولياء يدخلون الجنة بشفاعته صلى الله عليه وآله ورحمته، وأنهم يجتمعون تحت لوائه فيها، وهو ما يقضي به العقل من وجوه عديدة:

منها: لأنّه الحجة على الخلق في الدنيا، والشاهد عليهم في الآخرة، وخليفة الله فيهم، وأنّه معلمهم ومربيهم والأوْلى بهم من أنفسهم، فلابد وأن يكون جزاؤهم وحسابهم عليه.

إذا اتضح هذا تثبت نتيجتان:

الأولى: أنّ الرب الرحيم اسمان لله سبحانه أولاً وبالذات، ويصدقان عليه بمقام الخالقية والربوبية الأصلية لكل الوجود بما فيهم النبي صلى الله عليه وآله، وهما

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٧.

(٢) البحار: ج١٦، ص١١٥، ح٤٤؛ رياض السالكين: ج١، ص٤٥٧؛ سنن الدارمي: ج١، ص٩.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

(٤) انظر الكافي: ج٣، ص٢٢١، ح٥؛ البحار: ج٢٢، ص٥٢٥، ح٣٠.

اسمان للنبي صلى الله عليه وآله ثانياً وبالعرض، ويصدقان عليه باعتبار مراتب ولايته الأربع المتقدمة بإذن الله سبحانه وأمره.

الثانية: أنّ قوله سبحانه: ﴿**سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾[1] ينطبق على الباري عزّ وجلّ كما ينطبق على النبي المصطفى صلى الله عليه وآله إما باعتبار السلسلة الطولية بين الذاتي والعرضي والأصيل والتابع، وإمّا باعتبار المظهرية وتجلّي الرحمة الإلهية فيه صلى الله عليه وآله، وهذه النتيجة مما ينبغي أن تتفق عليها جميع الآراء، ولا يختلف عليها أحد بعد استحالة أن يكون القائل هو الله سبحانه مباشرة، فيتعيّن أن يكون القائل هو خليفته وهو النبي صلى الله عليه وآله، فينسب قوله لله سبحانه بالاعتبارين المتقدمين، أو أنّه قائل بالوساطة عنه سبحانه.

وعليه فسواء حمل القول على الكلام أو المعنى الأعمّ منه ومن الفعل فإنه ينطبق على النبي صلى الله عليه وآله، وهذا ما أكدته الرواية التي نصت على أنه صلى الله عليه وآله خطيب أهل الجنة[2]، وأمّا القول بأنّ القائل هم الملائكة أو خلق الصوت في الأشياء فهما لا يتنافيان مع ما ذكرنا؛ لأن الملائكة إن قالت فهي بأمره وإذنه صلى الله عليه وآله، وكذا خلق الصوت.

فيتحصّل: أنّ القائل في الآية الموصوف بالربوبية والرحمة هو النبي المصطفى صلى الله عليه وآله.

---

(١) سورة يس: الآية ٥٨.

(٢) البحار: ج٨، ص١٤٧، ح٧٢؛ معارج اليقين: ص٣٤٨، ح٩٦١.

كما أنّ بهذا يتضح معنى الرواية التي وردت في طرق العامة؛ إذ يمكن أن يحمل الرب الذي يشرف عليهم، ويقول لهم (سلام) هو النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ فينظر إليهم وينظرونه.

وبه يعرف وجه السرّ في وصف الآية بأنّها قلب سورة يس، وأنّ سورة يس هي سورة النبي المصطفى صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، وأنه صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قلْب عالَم الإمكان؛ لأن ختام الدنيا وحسابها وثوابها يكون في الجنة، وختام نعيم الجنة هو سلام يقوله النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ لأهلها، وهذا أحد معاني خاتمية النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ لكمال التكوين والتشريع؛ إذ منه بدأ الوجود والإمكان وبه يختتم.

فيتحصّل من كل ما تقدَّم من المفردات أنّ تنزيه أهل الجنة وتكميلهم وتربيتهم في الجنة يكون بعناية رب رحيم وهو النبي المصطفى صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، فكما أنه كان كذلك للناس كافة في الدنيا هو كذلك في الآخرة؛ لتطابق عالم الدنيا والآخرة في الآثار والجزاء، فهو الحاكم في عالم الإمكان في الدنيا والآخرة صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ.

وهذه النتيجة مما لا ينبغي أن يختلف فيها؛ لتضافر الأدلة النقلية والعقلية القطعية عليها.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: مراتب السلام وأصنافه

قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ﴾[1] إمّا إخبار عن واقع حال أهل الجنة وأنّ معيشتهم فيها سالمة من الكدورات والنواقص، وإخبار عن أسلوبهم في المعاشرة وأنّ تحيتهم فيها سلام، أو إنشاء يراد به الدعاء لهم[2] من النبي ﷺ والقائمين بشؤون الجنة بالسلام الدائم، أو هما معاً، و هو الحق، فإنّ الجمل تارةً تكون خبرية محضة يراد بها الإخبار عن واقع كالآيات التي تتحدَّث عن الأُمم السابقة، وتارةً تكون إنشائية محضة تتضمَّن معاني تأسيسية، وربما فيها تكليف مثل: ﴿أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾[3] وتارةً تتضمَّن الاثنين كما في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[4] فإنّه إخبار عن واقع الدين وأنه خالٍ من الأحكام الحرجية على الناس، فالآية تخبر أنّ الشريعة سهلة

---

(١) سورة يس: الآية ٥٨.

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٤٦٥، (سلم).

(٣) سورة الأنعام: الآية ٧٢.

(٤) سورة الحج: الآية ٧٨.

ميسورة، وفي عين الحال تجعل حكماً وهي أنّ الأحكام الحرجية مرفوعة إمّا برفع أصل التكليف على قول جماعة، أو رفع فعلية التكليف على قول جماعة، ومثلها قوله تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾(١) هو إخبار عن واقع المؤمنين وأنّهم لا يتفردون ولا يستبدون؛ لأنه قبيح عقلاً، ويوقع في الكثير من الأخطاء، ويوجد تكليفاً على الذمم، وهو وجوب التشاور في أمورهم.

وكذلك هذه الآية تتضمن الإخبار والإنشاء، وعلى التقديرين تفيد دوام الصحة والسلامة والعافية لهم، فهم خالدون، وسلامهم معهم، ويتضمَّن التحيّة لهم، وتؤكد ما ذكرناه وأنّ القائل هو النبي صلى الله عليه وآله.

أمّا المعاني الأخرى التي ذكرت للسلام:

فمنها: أنّ السلام هو الله سبحانه، ومن أسمائه الحسنى، ومنه قوله تعالى: ﴿**السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ**﴾(٢) وورد في معنى قولهم عليهم السلام اسم الله عليك. أي أنت في كَنَفِه وحِفظه، كما يقال في التوديع: الله معك أي يحميك و يسلّمك(٣)، والمعنى أنّ الله معكم في الجنة تعيشون خالدين في ظّل رحمته وعنايته فلا يصيبكم ضرّ أو ضَرَر.

ومنها: الوفاء بالوعد يأتي من النبي والأئمة عليهم السلام؛ لأنّهم علّموا الناس بهذه المعرفة، ودَعَوهم إليها في الدنيا، وفي الآخرة يجدون ذلك وفاءً بوعدهم، وتصديقاً لأقوالهم في الدنيا.

---

(١) سورة الشورى: الآية ٣٨.

(٢) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(٣) مجمع البحرين: ج٦، ص٨٧، (سلم).

ففي الدنيا قالوا لهم: ﴿قولوا لا إله إلّا الله تُفلِحوا﴾[١] و: ﴿مَن كان مع الله كان الله معه﴾[٢] و: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣] وعندما يدخلون الجنة يتحقق هذا الوعد منهم.

ويستفاد من الآيات أنّ الباري عزّ وجلّ وصف الوعد للكافرين بالقول أيضاً كما في قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾[٤] وهم الشياطين وأئمة الضلال، والقول الذي حقّ عليهم هو قوله تعالى: ﴿**لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾[٥] فوصف ما وعد به الكفار من العذاب بالقول، فكذلك ما وعد أهل الجنَّة من النعيم بالقول.

ومنها: الجزاء بالمِثل، فقد ورد في الآيات الشريفة أنّ الباري عزّ وجلّ جعل السلام على آل ياسين بقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾[٦] وباتفاق كلمة المسلمين أنهم محمد وآل محمد عليهم السلام، وهو إخبار وإنشاء معاً، وسلامهُ سبحانه عليهم يدلّ على أنّهم منزَّهون من كل شائبة مادية ومعنوية في الدنيا والآخرة، وقد أمر بهذا حتى المتعصبين من علماء العامّة، ومن معاني سلامه عليهم هو الوفاء بوعده للميثاق الحاصل بينهم و بينهُ كما أشارت إليه الروايات.

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٥١؛ البحار: ج١٨، ص٢٠٢، ح٣٢؛ شجرة طوبى: ج٢، ص٢٣١.
(٢) كشف الخفاء: ج٢، ص٢٧٢، ح٢٥٧٨.
(٣) سورة هود: الآية ٤٩.
(٤) سورة القصص: الآية ٦٣.
(٥) سورة السجدة: الآية ١٣.
(٦) سورة الصافات: الآية ١٣٠.

ففي الكافي الشريف بسنده عن داود الرِقي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام ما معنى السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: ﴿إنّ الله تبارك وتعالى لمّا خلق نبيّه ووصيّه وابنته وابنيه وجميع الأئمة وخلق شيعتهم أخذ عليهم الميثاق وأن يصبروا ويُصابروا ويرابطوا، وأن يتّقوا الله، ووعدهم انْ يُسلِّم لهم الأرض المباركة والحَرَم الآمِن، وأن يُنزِّل لهم البيت المعمور، ويُظهِر لهم السقف المرفوع، و يُريحهم من عدوِّهم والأرض التي يُبدّلها الله من السلام، ويسلم ما فيها لهم لاشيةَ فيها، قال: لا خصومة فيها لعدوِّهم، وأن يكون لهم فيها ما يُحِبّون، وأخذَ رسول الله صلى الله عليه وآله على جميع الأئمة و شيعتهم الميثاق بذلك، وإنّما السلام عليه تذكرة نفس الميثاق وتجديد له على الله لعله أن يعجله جلّ و عزّ، ويُعجِّل السلام لكم بجميع ما فيه﴾[1].

ومن وعده تبارك وتعالى بالسلام لهم ولشيعتهم ما ذكره السيد ابن طاوس في كتاب سعد السعود قال: إنّي وجدتُ في صحف إدريس النبيّ عليه السلام عند ذِكر سؤال إبليس وجواب الله له. قال: ﴿**رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۞ إلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ**﴾[2].

﴿فإنّه يوم قضيتُ وحتّمتُ أن أُطهِّر الأرض ذلك اليوم من الكفر والشرك والمعاصي، وانتخبتُ لذلك الوقت عباداً امتحنتُ قلوبهم للإيمان وحَشَوتُها بالورع والإخلاص واليقين والتقوى والخشوع والصِدق والحِلْم

(١) الكافي: ج١، ص٤٥١، ح٣٩.
(٢) سورة ص: الآيات ٧٩-٨١.

والصبْر والوِقار والتُقى والزُهد والرغبة فيما عندي، وأجعلهم دعاة الشمس والقمر، وأستخلفهم في الأرض، وأُمَكِّن لهم دينهم الذي ارتضيته لهم، ثم يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، يُقيمون الصلاة لوقتها، ويؤتون الزكاة لحينها، ويأمرون بالمعروف، وينهَون عن المنكر.

والقي في ذلك الزمان الأمان على الأرض، فلا يضر شيء شيئاً، ولا يخاف شيء من شيء، ثم تكون الهوام -الحيات وكل ذي سم يقتل سمه(١)- والمواشي بين الناس فلا يؤذي بعضهم بعضاً وأنزع حمة كل ذي حمةٍ من الهوام وغيرها، وأذهِب سمَّ كل ما يلدغ، وأنزل بركات من السماء والأرض، وتزهر الأرض بحسن نباتها، وتخرج كل ثمارها وأنواع طيبها، وألقي الرأفة والرحمة بينهم فيتواسون ويقتسمون بالسويّة، فيستغني الفقير ولا يعلو بعضهم بعضاً، بل يخضع بعضهم لبعض، ويرحم الكبير الصغير، ويوقّر الصغير الكبير، ويدينون بالحق وبه يعدلون ويحكمون، أولئك أوليائي اخترت لهم نبياً مصطفى، وأميناً مرتضى، فجعلته لهم نبياً ورسولاً، وجعلتهم له أولياء وأنصاراً، تلك أمة اخترتها للنبي المصطفى وأميني المرتضى، وذلك وقت حجبته في علم غيبي ولا بد أنه واقع، أبيدك يومئذ وخيلك ورجلك وجنودك أجمعين، فاذهب فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾(٢).

---

(١) لسان العرب: ج١٥، ص١٣٨، (همم).

(٢) البحار: ج٥٢، ص٣٨٤-٣٨٥، ح١٩٤؛ سعد السعود: ص٣٤.

ومعلوم أنّ هذا الوقت المعلوم عند الله والمخفي عن الناس هو يوم الظهور المبارك لولي الله الأعظم عجل الله تعالى فرجه الشريف، فإنّ الأوصاف المذكورة لا تقع إلّا في زمان العدل الإلهي على الأرض، وهو وقت ظهوره صلوات الله عليه(١).

والروايات بهذا المعنى كثيرة، والمضمون متواتر، وهو معنى من معاني سلام الله سبحانه على آل يس عليهم السلام، وفي مقابله هناك قول لآل يس لعباد الله في الجنة يقولون (سلام) والتكبير يفيد كل ما يوجب السلام الإلهي والتنزيه من شوائب النواقص، وربما يكون القائل (سلام على آل يس) هو الله سبحانه، والقائل (سلام قولاً) هو النبي صلى الله عليه وآله. يتضح وجه الفرق في المقامين والرتبتين بين السلامين، وبذلك يتضح أن بدء الوجود تم بالسلام على أشرف الخلق وختمه بالسلام، فالوجود كله قائم على السلام في المبدأ والمنتهى.

اللطيفة الثانية: آثار السلام في الجنة

وصفت الآية السلام بأنّه قول، وقد عرفت أنه يطلق على الكلام والفعل وبينهما ملازمة، إلّا أن الآية قالت (قولاً) لا (فعلاً) - مع أن الفعل هو الغاية ومنشأ الأثر- لأنّها في مقام التكريم والتشريف فيمكن أن يقع على ثلاثة أنحاء:

الأول: التشريف بالقول دون الفعل.

الثاني: التشريف بالفعل دون القول.

الثالث: التشريف بالقول والفعل.

---

(١) البحار: ج٥٢، ص٣٨٤-٣٨٥.

والأول منه ممتنع لا يصدر من الكامل من الناس فضلاً عن الباري عزّ وجلّ ونبيّه المصطفى صلى الله عليه وآله؛ لأنه مجاملة، وهي في بعض مراتبها قبيحة، بل وبعض علماء الأخلاق يُدرجونها في الكذب والنفاق، فإنه لو قال لهم سلام في القول فقط ولا يعطيهم السلام في الفعل كان من الكذب، وإظهار أمر وإخفاء غيره.

والثاني ممكن الوقوع، بل هو واقع في الجنة، إلّا أنه لا يتضمَّن تمام التكريم والتشريف؛ لأنّ لذّته لا تشمل لذّة السماع ولا لذّة الإشهار والإعلان، فأنّ لذّات أهل الجنة شاملة لجميع أعضائهم وجوارحهم، ولا تكتمل لذّاتهم إلّا بإعطائهم السلام وإظهاره بالقول؛ لذا قال: ﴿**قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾[1] فإن الشعور المعنوي في القول، وكونه وارداً من ربٍّ رحيم، والالتذاذ به لا يدركه إلّا مَن يسمع القول ويملأ الفضاء العام، ومن هنا نلاحظ أن من المراسيم الجارية بين الناس أنهم لو أرادوا تكريم أحد لا يُكرّمونه في الخَفاء بل في العَلن، فيُشيدون بمناقبه أمام الملأ العام، ويُصرِّحون بما يستحقه من التكريم؛ لأن للسماع والاشهار لذّة لا توجد في التكريم بالفعل فقط.

وبذلك يتضح أن ذِكر السلام بالقول وإشهاره لأهل الجنة له آثار وفوائد عديدة منها ما تقدَّم بيانه، ومنها لإتمام تكريمهم وتشريفهم به الذي لم يكن يتم لولاه.

---

(١) سورة يس: الآية ٥٨.

اللطيفة الثالثة: سلام الجنة امتداد للدنيا

إنّ السلام الذي يناله المؤمنون في الجنة هو امتداد لسلام عاشوه في الدنيا أكملهم من نواقصهم البدنية والمعنوية، وهو سلام التقوى والعبودية الخالصة لله سبحانه، فإنّ عباد الله الكاملين في الدنيا يعيشون السلام البدني؛ لأنّهم لا يفرطون في أكلهم وشربهم، ولا يتهالكون على الدنيا ويفنون أنفسهم لأجلها، بل يأخذون منها على قدر الحاجة التي تقوِّم حياتهم البدنية، ويتزوّدون بالمعرفة والطاعة والعمل الصالح؛ لأن المؤمن الكامل لا يفرط في طعامه وشرابه ونومه، وكل ما يتنعَّم فيه بالدنيا بميزان، والذي يسبب العناء والمرض للناس في الدنيا هو اختلال الميزان في الاستفادة من النعم، فالمؤمن لا يأكل إلّا بمقدار حاجته، وقد جاء في الحديث: «لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع»[1] أي لا نأكل طعاماً على طعام مالم نحسّ بالجوع؛ لأنّ الأكل على الشبع أحد أهم مفاسد البدن، وإذا أكل لا يضيق نفسه بالأكل، بل يقوم عن الطعام وهو يشتهيه، وهذه صفة المؤمن في الاستفادة من كل النِعَم، ومِثْله دائماً جسمه يكون سالماً، ونومه لا هو قليل ولا كثير، وينام في الوقت المناسب فتكون له صحة، وإلّا كان ممرضاً له.

فالإفراط والتفريط في الاستفادة من متع الدنيا هو الذي يضرُّهم، فلذا تكون أبدانهم صحيحة وسليمة من الآفات غير الطبيعية، وأرواحهم في

---

(١) مكاتيب الرسول: ج٢، ص٤٢٦؛ تفسير الأمثل: ج٢، ص٥٤٢؛ السيرة الحلبية: ج٣، ص٢٩٩.

ازدياد وتكامل دائم، ولو أصيبوا بمرض أو عرض فهو من الابتلاء الذي به تعلو درجاتهم، أو تمحى ذنوبهم. هذا على مستوى ذواتهم، وأمّا على مستوى أعمالهم فهم ينزِّهون أنفسهم من القبائح، ويحلّونها بالفضائل، ويراقبون أنفسهم لكيلا تنحدر؛ لذا يعيشون السلام بأبدانهم وأرواحهم وأعمالهم، وهذا السلام اختياري هم أوجدوه لأنفسهم باتّباعهم لأوامر الله وأحكامه، فينالون في الآخرة سلاماً أرقى وأعظم منه بالعطاء والتشريف الإلهي، وبخلافهم غير المؤمنين، فإنّهم عاشوا حياتهم في النار والعذاب البدني والروحي فينالون ما هو أعظم منه في الآخرة.

ففي رواية الحارث بن المغيرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «ستة لا تكون في المؤمن: العسر والنكَد، واللجاجة، والكذب، والحسد، والبغي»[1].

وهذه الصفات تحرق أهلها في الدنيا كما تحرقهم في الآخرة، وهي خلاصة الرذائل التي تتبدَّل إلى ملكات نارية في النفوس، والمراد بالعسر أي الصعب الشديد في المعاملات فلا يستسهل الأمور، ولا يسهل التعامل معه؛ لأنه لا يتسامح[2]، والنكَد كل شيء يجرّ شراً لصاحبه بسبب البخل والشؤم والمضايقة[3]، واللجاجة الخصومة والإلحاح في

(١) الخصال: ج١، ص٣٢٥، ح١٥؛ الوسائل: ج١٥، الباب ٤٩ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٣٤٩، ح٢٠٧٠٦؛ البحار: ج٦٩، ص١٩٣، ح١٢.

(٢) المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٠٠، (عسر).

(٣) المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٥١، (نكد).

الشيء[1]، والبغي الاعتداء والتسلّط والظلم[2]، وواضح أن من يتّصف بهذه الصفات يكون ناقص الإيمان، وحياته محفوفة بآثارها النارية السلبية.

وبخلاف ذلك صفات الإيمان والتقوى فإنّها تجعل حياة أهلها جنة وسلاماً، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم، وبصر عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطَهور دَنس أنفسكم، وجَلاء غشا أبصاركم، وأمن فزع جأشكم، وضياء سَواد ظُلمتكم﴾[3].

والجأش ما يضطرب في القلب عند الخوف، أو التهيُّب، أو توقُّع المكروه، ومن كان قلبه سليماً وفؤاده مبصراً الحقائق وجسده معافى ونفسه طاهرة مطمئنة وحياته نوراً كان في جنة الدنيا ينعَّم بالسلام الروحي والبدني، ومنشأ ذلك تقوى الله سبحانه.

---

(١) المعجم الوسيط: ج٢، ص٨١٦، (لج).
(٢) المعجم الوسيط: ج١، ص٦٤، (بغي).
(٣) نهج البلاغة: ج٢، ص١٧٣، خطبة ١٨٩؛ البحار: ج٦٧، ص٢٨٤، ح٦، وفيه: ((جلاء غشاء أبصاركم)).

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: الرحمة والسلام في الشخصيّة الإلهية

إنّ الآية اتصفت بأنها قلب سورة يس، وسورة يس قلب القرآن، والقرآن قلب النبيﷺ، وهو قلب عالم الإمكان، ومعنى ذلك أن هذه الآية قلب عالم الإمكان تكويناً وتشريعاً، فتفيد أن العالم تكويناً وتشريعاً يقوم على الرحمة والسلام، وهما صفات رسول الله والأئمةعليهم السلام.

وتوضيح ذلك: أنّ الباري بدأ الخلق بالرحمة وقال: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾[1] وسلامه على آل ياسين متواتر عليهم منذ أولّ الخليقة، والمنهج الذي وصفه الباري للعباد يقوم على السلام والرحمة، وهو ما يقضي به العقل والنقل، فإن الرحمة الغاية الحدوثية لعالم الإمكان، فلولا الرحمة ما وجد، ولولا السلام ما بقي.

وأعظم شخصية إلهية أرسلها للبشرﷺ هو رحمة، ومنهجه يقوم على ركنين هما السلام والرحمة. فدينه السلام، وتحيته السلام، ومنهجه

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٤.

السلام، فإن الناس تجاه النبي صلى الله عليه وآله بين فئتين: فئة مخالفة وأخرى تناصره وتتبّعه، وأسلوبه مع الاثنين يقوم على السلام مع المخالفين، والرحمة مع المناصرين، وتقرير ذلك:

الأول: السلام الدائم في التعامل مع الجاهلين والمخالفين؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾[1] والهَوْن اللين والرِفق، والمشي يشمل السير والنهج الأخلاقي، ونسبة العباد إلى الرحمن دون الرحيم يشير إلى أنّهم عباد مخصوصون اصطفاهم ربُّهم فارتضاهم عباداً له، وأقرَّ لهم بذلك، وأرقاهم رتبةً هم محمد وآل محمد عليهم السلام، فهم عباد للرحمن وليس بوصف الرحيم؛ لأن الرحمن صفة ذات، فعبادتهم له تتنزه عن كل الدواعي والأغراض سوى العبودية، بخلاف الرحيم لأنّها صفة فعل، ولو قال (عباد الرحيم) فربما دلَّت على أن عبوديتهم له ناشئة من الفائدة والمنفعة، وهي لا تليق بمقام محمد و آل محمد عليهم السلام للعبودية.

وهذه الشخصيات الإلهية العظيمة يبتلون عادةً بالجاهلين بمكانتهم ومقامهم، أو يجهلون نهجهم، إما يحسدونهم أو يخالفونهم ويؤذونهم، أو يُعرِضون عنهم فيواجهونهم بالكلام غير اللائق، أو المواقف السلبية، فماذا يكون الموقف؟ إنهم لا يَردّون الإساءة بمثلها، ولا الجهل بمثله، بل بالسلام؛ لأنّ السلام عندهم أصل عام قرّره الباري لأوليائه، وقد

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

ورد السلام بصيغة النكرة والإطلاق للإشارة إلى ترقّيهم وتنزههم من الهبوط إلى المستويات الدانية للجاهلين، وهذا هو شأن العبودية لله، فإنها ترتقي بأهلها إلى مصاف الكمالات العالية التي تنزِّه أهلها من صغائر الأمور والقبائح.

فالمحور الأول الذي تقوم عليه منهجية أولياء الله وعباده هو السلام مع الجاهلين، ومعلوم أن هذا السلام لا يعني الاستسلام والضعف، بل السلام المنهجي الذي يقوم على القوة والثقة بالنفس والمواقف الواعية، وحفظ المصالح العامة والسيادة الكاملة، كما أنّه لا يعني أنّهم لا يدافعون عن أنفسهم إذا تعرضوا إلى عدوان؛ لأنّ الدفاع عن النفس والدين والعرض حق مشروع، وهو من منهجية السلام، فإن السلام يعني أن لا تمارس العنف، ولا تدخل الحرب، ولا تستعمل القوة إلّا للدفاع، ومن هنا كانت حروب النبي والإمام أمير المؤمنين حروباً دفاعية لا هجومية ولا توجد حرب لأولياء الله هجومية طلباً لفتح أراض أو كسب غنائم أو إلزام الناس بالدخول في الاسلام، وما ورد في التأريخ فهو ليس سياسة النبي وإنما سياسة من خرج عن نهجه، والمسألة لها تفاصيل ليس هنا محل بحثها، وقد ذكرنا بعض تفاصيلها في كتابنا (الخلفاء والملوك) و (فقه الدولة)[1].

الثاني: الرحمة واللين مع الأتْباع والمناصرين؛ إذ قال سبحانه: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**

---

(١) فقه الدولة: ج٢، ص٥٠٦؛ وانظر الخلفاء والملوك: ج١، ص٦٨-٦٩.

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[١] فبسبب الرحمة الإلهية تكونت شخصية النبي ﷺ وسجاياها النفسية وصفاتها الأخلاقية، وهي أكمل وأعظم شخصية قيادية في تأريخ البشر باتفاق الكل، وعيَّنت النهج العام للنبي ﷺ في التعامل مع الناس، وأبرز الصفات التي تقوم عليها ست:

الأولى: اللين في المشاعر والتعامل. وهي ما تقابل الخشونة، أي اللطف والسهولة والرفق، فلو كان القائد فظّ اللسان والأسلوب وقاسي القلب في مشاعره تجاه الناس أوجب انفضاض الناس من حوله، فلا يحصل على أتباع ومناصرين، والقائد مهما عَظُم لا يستطيع أن يصنع شيئاً بلا مناصرين، وجذب المناصرين يوجب على القائد الصبر والتحمل ومعالجة أخطائهم وزلاتهم؛ لأن الرحمة في التعامل تعطي للأتباع حرية الرأي والموقف والعمل، وهذا من شأنه أن يُوجِد الحزازات والزلات؛ لذا ذكرت الآية ما ينبغي أن يتعامل به معهم في الصفتين الأخريين.

الثانية: العفو عن الزلات.

الثالثة: الاستغفار لهم.

وكلاهما تسامح إلّا أنّ العفو يأتي في محو الذنب من القلب، وأما الاستغفار فهو طلب المغفرة، أي ستر الذنب ظاهراً وليس بالضرورة يُمحى من النفس، وقد قدمت العفو على الاستغفار لسببين:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

الأول: لبيان طهارة قلب النبيصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ونفسه من الأحقاد والضغائن التي تحصل عادة من مواقف الناس وأفعالهم.

الثاني: لبيان ضمان المغفرة لهم؛ لأنّ رضا النبيصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وعفوه هو رضا الله وعفوه، فإذا هو عفا عنهم عفا عنهم ربهم، وإنما ذكرَ الاستغفار بعد العفو لأنّه إظهار للعفو، فإن من يطلب المغفرة للناس ويستغفر لهم لابد وأن يكون قد أزال الكراهية من قلبه، وكشف عن مدى حبه لهم، وفي ذلك تعليم لنا في جعل العفو والتسامح نهجاً في المعاملة.

فالعفو والاستغفار أحدهما يتعلق بالقلب والباطن والثاني باللسان والظاهر، فلا يمكن أن تكون الشخصية القيادية محبوبة للناس إلّا إذا هي أحبت الناس، وعفت عن زلاتهم، واستغفرت لأخطائهم، والآية نصت على ذلك مما يدل على وجوبه.

الرابعة: المشاورة، أي الذين يخطؤون ويزلون استشرهم وقرِّبهم إلى نفسك، واستخرج آراءهم، والأمر بها يفيد الوجوب، وإطلاقها لا يفرق بين جماعة وجماعة أو شخص وآخر، فإن تشريكهم بالقرار، والمشاركة فيه توجب المشاركة في العمل والتنفيذ، والمشاركة في ذلك مشاركة في النتائج وتطييب للخواطر والنفوس، وتصبح نهجاً عاماً يعمل به في الحياة العامة، فإذا كان النبي وهو اشرف الخلق وأعلمهم وأعدلهم ومسدد من الغيب يستشير فالباب ينسدّ أمام الظلمة والمستبدين، ويتضح أن التفرد والاستبداد نهج بعيد عن رضا الله وعن سنّة رسوله دينياً، وهو ملازم للظلم والأخطاء دنيوياً.

وقد ورد عن الإمام الحسن عليه السلام: «قد علم الله أنه ما به إليهم حاجة، ولكن أراد أن يستنّ به من بعده»[1] وقد وردت روايات كثيرة في بيان فضل الشورى في الأمور وآثارها الإيجابية، ومجال الشورى لا يتعلق بأحكام الدين وشؤونه، بل بتطبيقها في الخارج، فمجالها تنفيذي لا تشريعي. فإن التشريع يخضع لضوابط النص المعصوم أو الاجتهاد من قبل الفقهاء.

نعم يمكن جعل التشريع شورياً إذا كان من باب ترجيح أحدى الفتويين على الأخرى بعد استنباطها بحسب مقتضيات الحكمة.

الخامسة: العزم، أي قوة الإرادة والتصميم على العمل وترتيب الأثر على المشاورة، ولأن العزم على نتائج المشورة لا يلازم الصواب؛ لأنه نتيجة العقول والأفكار، فربما أصابت وربما أخطأت، وعبّر عن ذلك بالعزم لبيان شدة الحزم في الأمور؛ لأنّ القرار بلا عزم تراخ وتسيُّب، وبلا مشورة استبداد وتفرُّد، والنجاح في العزم وحده غير مضمون، فلا بد من تعزيزه بصفة أخرى لضمان التوفيق والنجاح.

السادسة: التوكل، أي تفويض الأمر إلى الله سبحانه والركون إلى قوله وإرادته النافذة في الأشياء، والتوكل صفة القلوب، والعزم صفة الجوارح، وبذلك تتضح معادلة هامة جداً للقادة والزعماء والتابعين لهم، وهي أنّ

---

(١) انظر تفسير جوامع الجامع: ج١، ص٣٤٣؛ السنن الكبرى: ج١٠، ص١٠٩؛ فتح الباري: ج١٣، ص٢٨٣؛ مواهب الرحمن: ج٧، ص٩.

النجاح يفتقر إلى العمل والجهد والسعي الحثيث، ولكن ذلك وحده لا يكفي فلابد من أن يتعزز بعمل القلوب، فالأبدان تعمل، والقلوب تتوكل؛ لان النتائج تترتب على سببين: ظاهر يتعلق بالعمل، وباطن يتعلق بالارتباط بالله والاستمداد منه والتوكل عليه.

فالعزم الصحيح يعني أن لا تعتمد على التوكل، ولا التوكل الصحيح يعني ان تعتمد العزم والعمل وحده؛ لأنّ الأول تواكل وكسل، وأبى الله سبحانه أن يوفق من لا يسلك طريق الأسباب لتحصيل النجاح، والثاني ركون إلى النفس، وسنّة الله سبحانه أن من يركن إلى غيره يتركه وشأنه، فتكون النتائج حاصل جهده، وبها يفقد الأجر والثواب عليها، ويفقد ضمان النجاح فيها، فلا تكون الأعمال مضمونة النجاح والأجر والثواب إلّا بالتوكل على الله سبحانه معها، فالقائد الناجح بالمشورة والعزم في القرار يضمن الأسباب الطبيعية، وبالتوكل يضمن النتائج.

ونلاحظ أنّ مجموعة الصفات الست تكون أهم سجايا وأساليب الشخصية الإلهية والقيادة الربانية، وهي في مجموعها تقوم على محور واحد هو الرحمة، فالسلام والرحمة هما المحوران اللذان يقوِّمان القيادة الإلهية، وكلاهما كشفت عنهما الآية المباركة، وبها تعلِّم القادة والزعماء ليتميزوا بالمواهب الفكرية والنفسية والعملية العالية ليكونوا ناجحين موفقين في قيادتهم.

التعليم الثاني: للتربويين وكل مَن يعمل في حقل تعليم الناس وتنميتهم سواءً على الصعيد الشخصي كالأسرة والأبناء، أو العام كالمدارس والجامعات، أو تربية الكوادر في التجمعات والروابط والنقابات أن النهج القويم لذلك هو المحبة والرحمة والسلام، فلا يمكن أن يتربى الولد والطالب والكادر في جو الغلظة والعنف والتشدد، بل ينشأ نشأة معقدة فيها الكثير من الاضطراب النفسي والقلق والحقد، فينفلت في الفكر والسلوك، وتكون النتائج على عكس الغايات، والسبب هو الخطأ في المنهج.

وهذا المضمون متواتر في الأخبار الشريفة، وتؤكده الدراسات العلمية، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الرفق مفتاح النجاح»[1] و: «مفتاح الصواب»[2] وبه: «تُدرَك المقاصد»[3] و: «تتم المروة»[4] و: «وتهون الصعاب»[5] و: «وتدوم الصحبة»[6].

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ص٦٢.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ص٣٩.

(٣) عيون الحكم والمواعظ: ص١٨٦.

(٤) عيون الحكم والمواعظ: ص١٨٧.

(٥) عيون الحكم والمواعظ: ص١٨٩.

(٦) عيون الحكم والمواعظ: ص١٨٦.

التعليم الثالث: سلامة الدنيا والآخرة عند آل محمد عليهم السلام

إنّ سلامة الإنسان في فكره ومعتقده وعمله ومصيره في الدنيا تلازم سلامته في الآخرة، وسلامة الآخرة بيد محمد وآل محمد عليهم السلام، فكذلك تكون سلامة الدنيا وبالعكس، فإنّ من يكون في ظلهم في الدنيا ويتبعهم يكون في ظلهم في الآخرة، فهم السلام والرحمة بالآخرة وفي الدنيا، وهذا المعنى الذي تفيده الآية المباركة تواتر مضمونه في الأخبار الشريفة.

ففي الكافي الشريف عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله مَن أحبَّ أن يحيا حياة تشبه حياة الأنبياء ويموت ميتة تشبه ميتة الشهداء ويسكن الجنان التي غرسها الرحمن فليتولَّ عليّاً، وليوالِ وليَّه، وليقتدِ بالأئمة من بعده، فإنّهم عترتي خُلِقوا من طينتي، اللهم ارزقهم فَهمي وعِلمي، وويل للمخالفين لهم من أمتي، اللهّم لا تنلهم شفاعتي﴾(١). ودعاء النبي صلى الله عليه وآله مستجاب، وقد وردت بهذا المضمون روايات كثيرة(٢)، وفيه دلالات عديدة:

الأولى: أنّ ميتة الشهداء تعني أنّها ميتة يحبها الله ويحب أصحابها فيختارهم للشهادة، فيكون الميت له أجر الشهيد وليس بشهيد، وتعني أيضاً أنّهم يعيشون حياة كريمة في البرزخ، فهم أحياء عند ربهم يُرزَقون؛ لذا عطف عليه قوله: ﴿ويسكن الجنان﴾.

---

(١) الكافي: ج١، ص٢٠٨، ح٣؛ وانظر الإمامة والتبصرة: ص٤٥، ح٢٧..

(٢) بصائر الدرجات: ص٦٩، ح٥؛ الإمامة والتبصرة: ص٤٣، ح٢٤.

الثانية: أنّ ذلك جزاء لمن يتولى عليّاًعليه السلام ويوالي وليّه ويصدق وليّه على النبي والصدّيقة الطاهرة والأئمة الأطهارعليهم السلام والعلماء الربانيين الذين يتبعونهم، وكذا المؤمنين من الموالين، وفي ذلك إشارة إلى وجوب ذلك وحرمة المخالفة والمعاداة للمؤمنين، سواء لأمور الدين أو لأمور الدنيا.

الثالثة: أنّ التعليل الذي ذكره ﴿فإنّهم عترتي خلقوا من طينتي﴾ إرشاد لعموم الأمة في أنّ فهم النبيصلى الله عليه وآله وعلمه ومقامه عندهمعليهم السلام لا عند غيرهم؛ للاتفاق على أنّ هؤلاء ليسوا من طينة النبي، ولم يرزقوا فهمه وعلمه فاتباعهم ملازم لعدم اتّباع النبي، فعلى المسلم والمؤمن أن يعرف ما هو موقفه وأين يضع قدمه.

الرابعة: أن المخالفة لعليٍّ وللأئمة تتحقق بعدم الاقتداء بهم؛ لذا قال: ﴿وليقتدِ بالأئمة من بعده﴾ والاقتداء يتحقق باتباعهم في العلم والعقيدة والعمل، فلا ينبغي أن يغفل المسلم عن هذه الحقيقة ويتصوَّر أنه يحب عليّاً كما يحب غيره، وأن ذلك يكفي في دخول الجنة ونيل شفاعة النبيصلى الله عليه وآله.

فالإسلام وحده لا يكفي، والمحبة وحدها لا تكفي للإيمان والنجاة في الدنيا والآخرة، بل لابد من الولاية والاقتداء.

وهذا ما تؤكده الرواية الأخرى عن أبي جعفرعليه السلام قال: ﴿قال الله تبارك وتعالى: لأعذبنَّ كل رعية في الإسلام دانت بولاية كل إمام جائر ليس من الله، وإن كانت الرعية في أعمالها برة تقية، ولأعفونَّ عن كل رعية في الإسلام دانت بولاية كل إمام عادل من الله وإن كانت الرعية في

أنفسها ظالمة مسيئة﴾[1] وبهذا المضمون وردت روايات كثيرة وفيها دلالة على أمور:

الأول: أنّ الإمام الذي يصح توليه واتباعه يجب أن يكون من الله، أي بواسطة النبي صلى الله عليه وآله وليس باختيار الناس وتنصيبهم، فلا ينبغي للمسلم أن ينخدع في هذه الحقيقة و يؤوّل التأويلات لمن جعلهم الناس أئمة خلافاً لأمر الله ورسوله.

الثاني: أنّ البرّ والتقوى ليسا هما سبب النجاة من العذاب ودخول الجنة، بل اتباع الإمام المنصوب من الله سبحانه، ووجهه أن التقوى في اتباع الإمام الإلهي؛ لأنّ منه يؤخذ الدين وتؤخذ التقوى والطاعة، فلو أخذ من غيره لم يكن ديناً ولا تقوى وإن توهم أنها تقوى.

الثالث: أنّ النجاة الحقيقية في اتباع الإمام الإلهي، وأما العصيان والظلم في الأمة المتبعة فإما ينتهي إلى توبة الظالمين قبل موتهم والله سبحانه يتقبل توبتهم فلا يعذبون، أو تنالهم شفاعة الإمام الإلهي لهم في الآخرة، فلذا جعل الحديث الشريف السعادة والشقاء والعذاب والنعيم تدور مدار ولاية الإمام العادل من الله سبحانه وعدمها.

---

(١) الكافي : ج١، ص٣٧٦، ح٤؛ وانظر فضائل الشيعة: ص١٢، الحديث الثاني عشر.

التعليم الرابع: للقضاة والمعنيين بالحكم

عليهم أن يلجؤوا إلى السلام والرحمة في أحكامهم، ويسلكوا سبيل السلام أولاً بإيجاد التصالح بين الأطراف المتنازعة، ولذا ورد أن الصلح خير، وأنه سيد الأحكام[1]؛ لأنه الصيغة التي تخرج بنتيجة يرتضيها جميع الأطراف، فإن تعذَّر ذلك يؤخذ بطريق الرحمة؛ لأنّ بها تسود الإنسانية والقيم الأخلاقية على المصالح. نعم على القاضي والحاكم أن يراعي التوازن بين الرحمة والعدل في كل قضية، ويحكم بهما، وإلّا وقع في الظلم وعدم الإنصاف.

وهذه مسألة عميقة ودقيقة تحتاج إلى دراسة ومنهج لبلوغ غايتها.

التعليم الخامس: تحية السلام

إنّ التحية الكاملة في أسلوبها ومعناها في المعاشرات هي تحية السلام، أي السلام عليكم، ولها آثار روحية ومعنوية، بل وبركات مادية على الناس كثيرة؛ لأنّها تتضمن إلقاء السلام والمبادرة إلى الخير وإظهار المودة والمسالمة بين الناس كما تتضمن الدعاء لهم بذلك، وأما قولهم: (مرحباً) أو: (صباح الخير) و: (مساء الخير) ونحو ذلك كما يلحظ في العُرف فليس لها تلك الآثار، ولذا جعل الباري السلام تحية الخلق في أول نشأته وفي الدنيا وفي الجنة.

---

(١)البحار: ج١٠٧، ص١٠٧، الحاشية؛ منهاج الهداية: ص٢٧٧؛ الحدائق الناضرة: ج٢١، ص١٧٨؛ التبيان: ج٣، ص٣٤٦.

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ

يس/ ٥٩

الآية إما خطاب جديد يُوجَّه إلى المجرمين بعد الفراغ من بيان أوضاع وأحوال أهل الجنة، فـ (الواو) استئنافية، وإما عاطفة على ما سبق، وفيها احتمالان:

أحدهما: أن تكون معطوفة على قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ**﴾(١) وغايتها بيان صورتين متقابلتين لأهل الجنة وأهل النار في يوم واحد، فأهل الجنة فيه مشغولون بنعيمهم، وأهل النار يتميزون عنهم لينالوا مصيرهم، وكأنّ الآية طَوَت صفحة الحديث عن أهل الجنة وابتدأت بالحديث عن أهل النار.

ثانيهما: أن تكون معطوفة على قوله تعالى: ﴿**سَلَامٌ قَوْلًا**﴾(٢) ومعناها يقال لأهل الجنة سلام، ويقال لأهل النار امتازوا، فتكون من موارد توزيع الخطاب بالعطف على مخاطَبَيْن في مقام واحد، كما في قوله تعالى: ﴿**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**﴾(٣) فإنه خطاب واحد وُجِّه لمخاطبَيْن بمعنيَين مُتقابلَين هما طلب الكتمان وستر خطيئة زليخا و موجَّه إلى يوسف، وطلب الاستغفار منها و موجَّه إلى زليخا(٤).

والأول أظهر بناءً على العطف. وسواءً كانت الواو استئنافية أو عاطفة فإنّ المعنى والغاية والمفاد واحد، فلا داعي لتفصيل الكلام فيه، وإنما الكلام يقع في مباحث:

---

(١) سورة يس: الآية ٥٥.

(٢) سورة يس: الآية ٥٨.

(٣) سورة يوسف: الآية ٢٩.

(٤) انظر مجمع البيان: ج٥، ص٣٩١؛ نفحات الرحمن: ح٣، ص٣٨٨.

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿وَامْتَازُوا﴾

هو من الميز والتمييز أي الفصل والفرز بين المتشابهات صورة[1]، أو المتداخلات وجوداً، فمن الأول قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللّٰهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[2] فإنّ الناس يتشابهون في صورهم ويتميزون في واقعهم؛ لذا لابدّ من إظهار مزايا كل طرف منهم ليندرج فيه مَن يُشابِهُ في الصفة، ومن الثاني كفصل الذكور عن الإناث في المجموعة، والامتياز هو ظهور الشيء وتمييزه عن غيره وانفصاله عنه، وهذا ما وَردت به الآية، وسبب الامتياز يعود إلى وجوه:

الوجه الأول: لأنّ الناس يحشرون أخلاطاً المؤمن والكافر والمخلص والمنافق، فلابدّ من تمييز أهل الجنة وأهل النار، وهذا التمييز إما تشريفي وتوهيني ليتميز كل طرف عن الآخر، أو تمييز مقامي، فإن مقام أهل الجنة

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٨٣، (ميز)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٩٣٥، (ميز)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٩٣، (ماز).

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٧.

أرقى وأعلى، ولا يليق بهم حشر أهل النار معهم، وإليه يُشير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[١] أو تمييز جزائي، فإنّ أهل النار يكونون في عذاب في المحشر وأهل الجنة في نعيم فيتميزون.

وبه وردت رواية علي بن ابراهيم في معنى الآية. قال: «إذا جمع الله الخلق يوم القيامة بقوا قياماً على أقدامهم حتى يلجمهم العرق فينادون: يا رب حاسِبْنا ولو إلى النار، فيبعث الله عزّ وجلّ رياحاً فتضرب بينهم وينادي منادٍ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[٢] فيُميَّز بينهم، فصار المجرمون إلى النار ومَن كان في قلبه إيمان صار إلى الجنة»[٣].

والعرق قد تُقرأ بفتح العين والراء وهو الذي يرشح من البدن[٤] وهو الأظهر، وهو عام يشمل كل ما يخرج من البدن، وبعضهم خصَّصه بما يَرشح من الجلد خاصة[٥]، وهو المُتبادَر منه عُرفاً فيختصّ بما لا يَرشح من المَخرَجين.

و(يُلجمهم) أي يبلغ أفواههم[٦]، وفيه دلالة على أنّ أهل المحشر يَعرقون كثيراً حتى يكادوا يَغرقون به ويختنقون ويجدون انَّ دخولهم النار أهون عليهم

(١) سورة الروم: الآية ١٤.
(٢) سورة يس: الآية ٥٩.
(٣) تفسير القمي: ج٢، ص٢١٦؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٠
(٤) مجمع البحرين: ج٥، ص٢١٤، (عرق).
(٥) معجم مقاييس اللغة: ص٧٣٣، (عرق)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٥٩٦، (عرق).
(٦) المعجم الوسيط: ج٢، ص٨١٦، (ألجم).

من البقاء فيه؛ لأن عَرق البدن نتيجة تكوينه وطعامه وشرابه، وحيث إنّ طعامهم وشرابهم وتكوينهم البدني كان من القذارات المادية والمعنوية فإن ما يَنضح من أبدانهم يكون كذلك، فتمجّه النفوس وتتأذى منه.

فإنّ أكل غير المؤمنين وشربهم يشتمل على المحرمات الكثيرة كشرب المسكر واللحم غير المذكّى وصيد البحر والحشرات ونحوها من الخبائث والقذارات المادية والمعنوية، وبها يتكوَّن البدن، فماذا يرشح منها إذا تعرّق؟

ووَجه غلبة عرقِهم يعود إمّا إلى خجلهم من انفضاح أمرهم وظهور مساوئهم، فإن الخجول يعرق، أو من تَعبِهم ورهقهِم وذِلّة حالهم كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ**﴾[1] والذلّ يرهق أهله ويتعبهم، وفي إسناد الذلّة إليهم دون وجوههم دلالة على إحاطتها بهم[2] فيَعرقون ويَغرقون.

أو لظهور النار ودنوِّها منهم فتُلهبهم بحرارتها، والشاهد عليه قوله تعالى: ﴿**وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ۞ فَأَمَّا مَن طَغَى ۞ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾[3] أي أُظهِرَت جهنم لهم فيرونها تتلظّى.

وربما تُقرأ بكسر العين وسكون الراء أي (العِرْق) وهو أصل كل شيء، والجمع أعراق، وفي حديث أبي عبد الله عليه السلام: ﴿أنا ابن أعراق الثرى﴾[4] أي

---

(١) سورة يونس: الآية ٢٧؛ سورة القلم: الآية ٤٣.

(٢) نفحات الرحمن: ج٣، ص٢٤٨.

(٣) سورة النازعات: الآيات ٣٦-٣٩.

(٤) البحار: ج٤٧، ص١٣٦.

أصول الأرض وأركانها من الأئمة والأنبياء كإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ومُحصّله أنا ابن خير أصول الأرض[1]، وبهذا الاعتبار يقال لأصول الشجرة في الأرض عروق[2].

والمعنى أنّ أهل النار يتميزون بأصولهم، وهي سجاياهم وأعمالهم السيئة، فتَلجمهم وتمنعهم من الكلام أو الاعتذار، ولشعورهم الكبير بالفضيحة والخجل أمام أهل الإيمان الذين كانوا يستهزئون بهم و يؤذونهم في الدنيا ويُكذّبون حججهم يتمنون دخول النار؛ لأنّ ذلك يَسترهم، وأن هؤلاء في الدنيا كانوا يحتكمون إلى الأعراف والعادات أكثر من غيرها، ولا تنافي بين المعنيين، فالقول بهما معاً راجح لوجود المقتضي وانعدام المانع.

الوجه الثاني: لأنّ ذاك اليوم تظهر فيه السجايا والأعمال، وتتطاير الكتب، فتظهر حقائق أهل الجنة كما تظهر حقائق أهل النار، وتتميَّز بأمور:

منها: ابيضاض الوجه واسوداده.

ومنها: إيتاء كل منهما كتابه، فمن أوتيَ كتابه بيمينه يتميَّز أنّه من أهل الجنة، ويمتاز أهل النار بأنّ كتبهم في شمائلهم.

ومنها: النورانية والظُلمانية، فإنّ أهل الجنة نورهم يسعى بين أيديهم، بخلاف أهل النار فإنّهم يكونون في ظُلمة دامسة لا يرون فيها حتى أقدامهم، ومنها ثِقْل الميزان وخِفّته.

---

(١) مجمع البحرين: ج٥، ص٢١٣، (عرق).

(٢) مجمع البحرين: ج٥، ص٢١٣، (عرق).

ومنها: ثبات الأقدام على الصراط وزلّتها.

وحيث إنّ هذه المميزات نتائج وآثار للعقائد والأخلاق والأعمال فإنها تكون مُتميّزة في نفسها، ولا تحتاج إلى مُميّز؛ لذا قال: ﴿**وَامْتَازُوا**﴾[١] أي بأنفسكم وخصائصكم.

الوجه الثالث: لأنّ ذاك اليوم يتميَّز حال كل فريق، فأهل الجنة عالية درجاتهم، مستبشرة وجوههم، مجتمعون مع بعضهم وأزواجهم، يتزاورون وآمنون مستقرون بالسلام الذي قيل لهم، بينما أهل النار متفرقون لا شفيع لهم ولا قرين، وقد تبرأ بعضهم من بعض حتى أئمتهم تنكّروا لهم، ولا يجدون لأنفسهم حيلة، و يَفرّ كل واحد منهم من أُمِّه وأبيه وولَده وصاحبته، ويتبرّأ منهم الشيطان، ويلقي بلوم عصيانهم ومخالفتهم عليهم فيندمون ويتحسرون، فينفصل كل واحد منهم عن جماعته وأصحابه، وينكفئ على نفسه كما تقتضيها طبيعة الغريب المحزون المتندِّم، فيعيشون نوعين من العزلة عزلة عامّة عن أهل الجنة، وعزلة خاصّة عن بعضهم البعض، كما أنهم ينعزلون حتى في النار، وقد ذكر البعض أنّ لكل واحد منهم بيتاً فيها يدخله، فيردم بابهُ لا يرى أحداً ولا يرى[٢]، فيكون ذلك نوعاً من الحبْس الانفرادي لهم.

---

(١) سورة يس: الآية ٥٩.

(٢) مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٤؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٥؛ روح البيان: ج٧، ص٤١٧.

المفردة الثانية: ﴿الْيَوْمَ﴾

و(الألف واللام) عهدية، ويراد به اليوم المعهود ذِكْراً أو ذهناً وهو يوم القيامة، واكتفت الآية بذكر اليوم دون وصف أو إضافة؛ لحضور هذا اليوم في أذهان الناس وقلوبهم، فإنّ الاعتقاد بضرورة وجود يوم يقام فيه العدل وتظهر فيه آثار الأعمال وعواقبها أمر بديهي تحكم به العقول السليمة، ولولاه لكان الوجود عبثياً ولا غاية له. يشهد لذلك قرينة المقابلة؛ إذ قال سبحانه في وصف أحوال أهل الجنة: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ وفي أهل النار قال: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[١] وهذا يدل على أنّ اليوم الواحد وهو حاضر في أذهان المؤمنين والكافرين يتميز به كل فريق بخصائصه ومصيره، وينال كل منهما جزاؤه، وقد ذكر اليوم لتقريع أسماع الكفار الذين ينكرون هذا اليوم جحوداً أو مكابرة، ويستهزئون به، ووعدهم الأنبياء المؤمنون بوقوعه.

المفردة الثالثة: ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾

أيُّها خطاب موجّه لجماعة أهل النار أو لرؤسائهم وأئمتهم الذين يُحشرون معهم، ولعلّ (أيّ) مع (هاء التنبيه) يفيدان أنّ الخطاب موجَّه إلى جماعة خاصة، وهو ما يتوافق مع الآيات الأخرى التي نصَّت على أنّ الناس يُحشَرون مع أئمتهم فيكونون فرقاً وجماعات، ووصف الجميع بالمجرمين

---

(١) سورة يس: الآية ٥٩.

لأن الكل مجرم سوى أنّ بعضهم مجرم بالأصالة وبعضهم بالتَبَع، فليس للأتباع عذر إذا اتَّبَعوا أئمتهم؛ لأن تبعيتهم لهم اختيارية.

و ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾: جمع مجرم وهو المذنب[١]، والمعنى المذنبون، وإنّما عبَّر عنهم بالمجرمين لأسباب ثلاثة:

أحدها: لأنّ الإجرام أخص من الذنب؛ لأنه مأخوذ من القطع عن الواجب[٢]، فالمجرم المنقطع عن الحق إلى الباطل، ويشمل ما ينقطع عن الواجب عقلاً أو شرعاً أو قلباً، والأول كالظلم، والثاني كترك الصلاة، والثالث كأكل حقوق الناس من الضعفاء فإنه قطع للمشاعر الإنسانية.

وثانيها: لأنّ الجرم يتضمَّن الدلالة على ارتكاب القبائح الجارحية التي فيها عقوبات صارمة، ولذا يطلق على الجنايات جرائم لا ذنوب[٣].

فالجُرم أخصّ من الذنب؛ لأنّ الذنب يطلق على كل ما له تبعة من القبائح، ويشمل ما يتعلق بالجوانح والجوارح، بخلاف الجُرم فإنه يختصّ بما كان له قطع عن الواجب بالجوارح.

والمجرمون في الآخرة لهم علائم يتميزون بها؛ وبها يُعرَفون لتجسُّم أعمالهم وظهور سجاياهم. قال سبحانه: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾[٤].

---

(١) مجمع البحرين: ج٦، ص٢٨، (جرم).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٢٤٤، (٩٥٩)؛ معجم مقاييس اللغة: ص١٩٤، (جرم)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٩٢، (جرم).

(٣) انظر المعجم الوسيط: ج١، ص١١٨، (جرم).

(٤) سورة الرحمن: الآية ٤١.

وثالثها: أنّ الذنب لا يلازم العقوبة؛ لإمكان العفو فيه، بخلاف الجُرم فإنه يُلازم العقوبة الصارمة، وحيث إنّ الحديث عن عقوبة أهل النار لا العفو عنهم وصِفوا بالمجرمين، ويظهر من الرواية المتقدمة أنّهم كانوا مسلمين مذعنين بذلك؛ لذلك لم يطلبوا العفو والمغفرة، بل التعجيل بدخول النار تخلصاً من عذاب العَرَق، وإجرامهم على أصناف عديدة عمدتها ثلاثة:

الأول: الإجرام في العقيدة، ويتحقق بإنكار أصول الدين الخمسة وما يتعلق بها من حقائق ثابتة بحكم العقل والنقل كالشفاعة وظهور الحجة المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف في آخر الزمان[١]، وأجلاها مخالفة الإمام المنصوب من قِبَل الله سبحانه، فإنه يندرج في الإجرام العقدي والعملي معاً. أمّا الأول فلأنه بخْس لحق الإمام الحق وتقوية لإمام الباطل، وأمّا الثاني فلأنّ الاقتداء بإمام الباطل ملازم للظلم والجور والعدوان، ولذا وردَ في النصوص الكثيرة لعن الذين بدَّلوا نعمة الله وأحلّوا قومهم دار البوار، ووجوب التبري ممَّن أسس أساس الظلم والجور؛ لأنّه لولاهم لَمَا خلقَ الله سبحانه النار كما ورد عن النبي صلّى الله عليه وآله[٢]، والروايات بهذا المضمون متواترة[٣]، وإنما

(١) انظر نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٥.

(٢) الأمالي (للصدوق): ص٧٥٥، ح١٩١٦؛ الجواهر السنية: ص٢٣٦؛ البحار: ج٣٩، ص٢٤، ح٤.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٧٤، ح٦٧؛ روضة الواعظين: ص٨٤؛ شرح الأخبار: ج٢، ص٥٠، ح٨٨٤.

صارت الإمامة والولاية الركن الأهم في المعتقد لأنّها آخر مرتبة للإيمان من جهة التسلسل الطولي النزولي، فإنّ الاعتقاد بها لا يتم لولا الاعتقاد بالنبوَّة والتوحيد، ومن جهة التسلسل الطولي الصعودي لأنّ الاعتقاد بها يلازم الاعتقاد بالنبوّة والتوحيد.

ولهذا النحو من الإجرام سيماء تظهر في الآخرة منها أنّهم يحشرون مع أئمة الباطل، وبعضهم يحشر أعمى لِعمى قلبه في الدنيا.

الثاني: الإجرام في الفِكْر والأخلاق، فإنّ الحقد والحسد والضغينة والغيبة والتهمة والكذب وسوء الظن والفظاظة والعصبية وغيرها من رذائل أخلاقية ملازمة للذنوب الجارحية، وبعضها يلازم الجنايات كالقتل، وكم من مظلوم قتل شخصاً بسبب عصبية أو حقد أو حسد، وكم من مقتول شخصية بسبب هذه الآثام، ونتائج هذه القبائح هو النار، وأول جريمة وقعت على الأرض كانت قتل الأخ لأخيه بدافع الحسد.

الثالث: الإجرام في العمل، لاسيّما ما يتعلق بحقوق الناس كأكل أموال اليتامى والغش في المعاملة والتخلي عن دفع الحقوق الشرعيّة والكفارات ومظالم العباد، فإنّها من الذنوب التي لا تُغتَفَر ولا يُعفى عنها إلّا برضا أهلها[1].

ولا يخفى أنّ الإجرام العملي والأخلاقي يعود إلى الإجرام العقدي؛ لأنّ أخلاق الإنسان وعمله فرع معتقداته، وبذلك يُعْرَف السرّ في تركيز

---

(١) انظر الكافي: ج٢، ص٣٣١، ح٣؛ الوسائل: ج١٦، الباب ٧٨ من أبواب جهاد النفس، ص٥٢، ح٢٠٩٥٩؛ البحار: ج٧٢، ص٣٢٩، ح٥٩.

النصوص الشرعية على صحة العقيدة وجعْلها المحور الذي تقوم عليها الأعمال والثواب والعقاب، ولا يكفي أن يكون الإنسان صاحب عقيدة، بل لابد وأن تكون عقيدته صحيحة حقَّة حتى يكون من أهل الجنة؛ لأن العقيدة هي التي تحدِّد حاضر الإنسان ومستقبله ومصيره.

فيتحصّل من مجموع المفردات: أنّ أهل النار يمتازون بمزايا عن أهل الجنة بها ينعزلون ويتعذبون، كما أنّ لأهل الجنة مزايا ونِعَم بها يجتمعون ويتنعّمون.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: السلسلة الطولية لملوك الوجود

إنّ قوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[1] ورد بلسان الخطاب، وهو يقتضي وجود مخاطِب ومخاطَب، والثاني معروف، وأما الأول فربما يرد فيه ما ورد في البحث المتقدم في قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[2] من اختلاف الآراء في القائل، ولم يتعرَّض المفسرون لبيان ذلك هنا، ولعلَّهم اكتفوا بما ذكروه في بيان القائل، إلّا أنّ القرائن العقلية والحالية تفيد أنّ القائل هو رسول الله وأمير المؤمنين عليهما السلام، فكما أنّهما يقولان لأهل الجنة (سلام) يقولان لأهل النار امتازوا، وقد تضافرت الأدلة على أنّ الحساب عليهم، وأنّهم سادة أهل المحشر، وأنّهم قسيمان لأهل الجنة ولأهل النار، وقد تواتر هذا المضمون في روايات الفريقين[3]، وهو جزء من

(١) سورة يس: الآية ٥٩.

(٢) سورة يس: الآية ٥٨.

(٣) انظر البحار: ج٣٩، ص١٩٣ وما بعدها؛ البحار: ج٥٣، ص٤٦، ح٢٠.

معتقدات المسلمين الذي اتفقت عليه الأمة بعلمائها[١] وسلاطينها[٢]، وأتيمّن بذكر رواية واحدة رواها الشيخ الصدوق قدس سره في الأمالي بسند عال عن الصادق عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله إذا كان يوم القيامة يؤتى بك يا عليّ على ناقة من نور، وعلى رأسك تاج له أربعة أركان، على كل ركن ثلاثة أسطر: لا إله إلّا الله محمد رسول الله عليّ وليّ الله، وتُعطى مفاتيح الجنة، ثم يوضع لك كرسي يُعرَف بكرسي الكرامة فتقعد عليه، ثم يُجْمَع لك الأولون والآخرون في صعيد واحد، فتأمر بشيعتك إلى الجنة، وبأعدائك إلى النار، فأنت قسيم الجنة، وأنت قسيم النار، ولقد فازَ مَن تولّاك وخسرَ مَن عاداك، فأنت في ذلك اليوم أمين الله و حجة الله الواضحة﴾[٣]. وهي شاهدة على أنّ مدار النعيم والجحيم على العقيدة الحقَّة كما ذكرنا، وأنّ ركن العقيدة هي الإمامة والولاية الحقة. والتاج ربما يراد به المعنى الكنائي أي الإجلال والتوقير[٤]، والحق أنه ظاهر في المعنى الحقيقي أي الإكليل الذي يوضع على رأس الملك، ويرمز إلى مملكته وسلطته، والكرسي يرمز إلى التسلط والاستيلاء والملوكيّة العامّة على جميع الوجود بأركانه الأربعة، وذكر الأسطر الثلاثة يشير إلى التسلسل

(١) انظر الأمالي (للطوسي): ص٩٤، ح٥٥؛ البحار: ج٣٩، ص١٩٧، ح٧؛ النهاية (لابن الأثير): ج٤، ص٦١.

(٢) انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٨٦؛ البحار: ج٣٩، ص١٩٤، ح٣.

(٣) الأمالي (للصدوق): ص٧٦٨، ح١٠٤٠.

(٤) انظر مجمع البحرين: ج٢، ص٥٠٩، (توج).

الطولي في الذكر فالسطر الأول فيه لا إله إلاّ الله، والثاني محمد رسول الله، والثالث عليّ ولي الله، وفي ذلك بيان للسلسة الطولية في ملوك الوجود والحاكمين فيه.

واختصاص هذه الأذكار دون غيرها بالتاج يشير إلى أنها شعار عالَم الملكوت، وفيه دلالة على أنَّ الشهادة لعليٍّ عليه السلام بالولاية لا تفارق الشهادة للنبيّ صلى الله عليه وآله بالنبوّة، وللخالق بالوحدانية، فإذا كان شعار عالم الملكوت ذلك كان كذلك الشعار في الأذان والإقامة وتشهّد الصلاة والعبادة؛ لأنها من ذاك العالم ووسيلة الارتباط به.

وهذه الدلالة تفيدها الرواية بدلالة الإشارة، فإن الصلاة معراج المؤمن التقي وقربان كل تقي[1]، وربما بدلالة العبارة من جهة الملازمة بين واقع عالم الملكوت وعالم الملك، أو بالأولوية فإنه لو كانت الشهادة الثالثة مقترنة في ختام الأعمال كانت في أولها بالأولوية.

اللطيفة الثانية: بماذا يمتاز المجرمون؟

إنّ قوله ﴿وَامْتَازُوا﴾[2] صيغة أمر، ويحتمل أن يكون الأمر تشريعياً، والمعنى أنهم مأمورون بأن ينحازوا جانباً ويقفوا في الموقف اللائق بهم بعيداً عن أهل الجنة لكي يتمّيزوا ولا يَضرّوا أهل الجنة بعذابهم، أو مأمورون بإظهار مزاياهم التي تنجيهم من الحساب وتنقذهم من النار، ويحتمل أن

---

(١) سورة يس: الآية ٥٩.

(٢) مستدرك سفينة البحار: ج٦، ص٣١٧.

يكون تكوينياً فيكون الأمر حكاية عن الواقع الحاصل لهم من ظهور مزاياهم وسماتهم التي يعرفون بها، ويحتمل الأمران معاً لعدم التنافي، وظهور المزايا يعود لثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أنّه من باب المسانخة للفعل، فإن أهل النار في الدنيا كانوا مختلطين بالناس في الدنيا وهم صنفان سلطويون وشهوانيون. صنف تمظهر بمظهر الإيمان والصلاح لكسب المغانم وطلب الرئاسات فتميزوا بذلك، وصنف تميَّزَ بما عنده من نِعَم تمتَّع فيها وصيَّر دنياه جنة – بزعمه – يمارس فيها كل ما يحب ويشاء دون ضابط من حلال وحرام أو عقيدة أو دين، وقد ورد في الأخبار الشريفة أنَّ الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن(١)، بخلاف الآخرة فإنها جنة المؤمن وسجن الكافر، ومَن كان هذا وضعه في الدنيا لابد وأن يتميز في الآخرة كذلك، وحيث إنّ تميّزهم في الدنيا كان في القبائح ورذائل الصفات فكذلك يكون وضعه في الآخرة وأعماله القبيحة، وتكون سماته التي يمتاز بها؛ لأنّ الدنيا مزرعة الآخرة.

وفي الأخبار ما يشهد لهذه الحقيقة، ففي المجتمعات طبقات تعتبر متميزة عن غيرها. بعضهم يتميزون بالعلم، وبعضهم بالسلطة، وبعضهم بالمال، وبعضهم بغير ذلك، فيوظفونها في المعاصي فيمتازون عن غيرهم في العذاب أيضاً.

---

(١) كشف الخفاء: ج١، ص٤١١؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٠٥، (سرر)؛ البحار: ج٦، ص١٦٩، ح٤١.

فقد ورد عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام أنّ علياً عليه السلام قال: ﴿إنّ في جهنم رحى تطحن خمساً، أفلا تسألوني ما طحنها؟﴾ فقيل له: وما طحنها يا أمير المؤمنين؟ قال: ﴿العلماء الفَجَرَة، والقُرّاء الفَسَقَة، والجبابرة الظَلَمَة، والوزراء الخَوَنَة، والعُرفاء الكَذَبَة، وإنّ في النار لمدينة يقال لها: الحصينة أفلا تسألوني ما فيها؟﴾ فقيل: وما فيها يا أمير المؤمنين؟ فقال: ﴿فيها أيدي الناكثين﴾(١).

وفيها دلالة على أمور:

الأول: أنّ الإجرام الذي يؤدّي بأهله إلى النار يشمل إجرام العقيدة والأخلاق والعمل.

والطحن يفيد سحق الشيء حتى يصير دقيقاً، كما يقال طحن الحَب أي صار دقيقاً، ويستعمل في كل مهلكة عظيمة، ومنه قولهم طَحَنَتْهُم الحرب وأَحداث الأيام(٢) كناية عن إذلالهم وتصغير شأنهم وإهلاكهم بوقائعها.

وهكذا يكون العلماء الفجرة ومَن ذَكَرَتْهُم الرواية، وفجور العلماء باتباعهم المعاصي والتوسُّع فيها غير مكترثين(٣)، وإطلاق العلماء يشمل مختلف العلوم، فإن فساد العالم بصنفين من الناس هم العلماء والأمراء، واليوم نلاحظ كيف صار العِلْم بيد السياسة يُسخَّر لخدمة أغراضها،

---

(١) البحار: ج٨، ص٣١١، ح٧٨؛ وانظر الخصال: ص٢٩٦، ح٦٥.

(٢) المعجم الوسيط: ج٢، ص٥٥٢، (طحن).

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٤٠٥، (١٦٢١).

مأخوذ من الفجور وهو الميل عن الحق والانشقاق عليه وهو الأصل فيه[١].

والقُرّاء الفَسَقَة واحدها قارئ فاسق ويحتمل ثلاثة معان:

أحدها: الذي يعرف بقراءة القرآن، ولعلَّ هذا ما يظهر أولاً من اللفظ، إلّا أنه ظهور بدوي لا ينفي ما عداه، ووجه عذابه أنه لا يعمل بالقرآن، بل يخالفه فيفسق عن نهجه.

ثانيها: المتنسِّك العابد كما ورد في اللغة في معنى قرأ[٢]، ويعذَّب في النار؛ لأنه يتخذ النسك والعبادة طريقاً للدنيا وخديعة الناس.

ثالثها: الغني كثير العطاء والضيافة الذي يتخذ من المال طريقاً للهوه ومعاصيه، مأخوذ من (القِرى) أي الضيافة[٣].

والفسق الخروج عن نهج الاستقامة تكويناً، كخروج الثمرة من قشرها، وشرعاً يقال لِمَن التزم حكم الشرع وأقرَّ به وأخلَّ به، ويطلق على الكافر؛ لأنه أخلَّ بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة[٤]، وبه يكون خارجاً عمّا يليق.

ويتلخَّص: أنّ القرّاء يتميزون في الدنيا بمزايا القراءة والعبادة والمال فيوظفونها في المعاصي، فتطحنهم النار، ولا تنافي بينها، فالكل صحيح.

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٤٣٥، (فجر)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٧٤، (فجر).

(٢) المعجم الوسيط: ح٢، ص٧٢٢، (قرأ).

(٣) مجمع البحرين: ج١، ص٣٤٠، (قرا).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٣٦، (فسق).

الثاني: المقصود بالوزراء كل مؤتمَن على شيء يستعان به[١]، وتعظم الأمانة والوزارة إذا كانت للأمَّة، فإنّ خيانة الوزراء أعظم الخيانات كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ أعظم الخيانة خيانة الأُمّة، وأفظع الغش غش الأئمة»[٢].

والعرفاء يحتمل معاني:

أحدها: القيِّم بأمور الجماعة الذي يتعرّف على أحوالها بواسطته.

وثانيها: الخبير في كل عِلْم وفن[٣].

وثالثها: مدَّعي المعرفة بالدين وشؤون الخالق عزّ وجلّ وما يتعلّق بالروحانيات، فإن كذب هؤلاء يؤدّي بهم إلى نار جهنّم يُطحنون فيها؛ لأنهم استعلوا وكبروا واستقووا بالكذب، فيكون جزاؤهم أنْ يُدقّوا ويُذلّوا.

الثالث: أنّ أيدي الناكثين تحتمل معاني:

الأول: كل مَن نكثَ بيعته مع الإمام عليه السلام وعبّر عنهم بالأيدي من باب إطلاق لفظ الجزء وإرادة الكل، مثل الرقبة تُطلَق على الشخص، وإنما عبَّر عنهم بالأيدي لأنّ بها بايعوا إمام الحق.

الثاني: اليد العضو فيحمل على المعنى الحقيقي، فيدلّ على أنّ الأيدي نفسها تحترق، وهو خلاف ظاهر الأدلة.

---

(١) المعجم الوسيط: ج٢، ص١٠٢٨، (وزر).

(٢) نهج البلاغة: ج٣، ص٢٧، كتاب ٢٦؛ البحار: ج٩٣، ص٩٢، ح٩.

(٣) المعجم الوسيط: ج٢، ص٥٩٥، (عرف).

والثالث: أنّ المراد الأتباع الذين يؤتمنون على الشيء ويبايعون ثم ينقضون؛ إذ يعبَّر عنهم بالأيدي أيضاً من باب إطلاق لفظ الجزء وإرادة الكل، أو من باب الكناية عن القوة؛ لأن بهم يتم الاستقواء، وأمّا المبتدعون فيكونون في أصل النار.

والأول أظهر، ويشمل ثلاثة مصاديق كما يستفاد من النصوص:

أحدها: مَن بايع ونكث في زمن الحضور.

وثانيها: مَن بايع ونكث في زمان الغيبة بالانقلاب في المعتقد، وبدلاً من أن يكون ناصراً لإمام الحق يكون خاذلاً.

وثالثها: مَن نكث في العمل، فيوالي إمام الحق ولم يتّبعه في العمل، مع أنّ التولّي عهد والتزام، فنهج الإمام عليه السلام اللّين وهو عنيف، ونهجه حقن الدماء وهو يسفك الدماء إلى غير ذلك من المخالفات، فالناكثون مأخوذ من النكْث أي النَقْض، ويطلق على التخلّي عن كل عهد والتزام(١)، وإطلاق الناكثين على أهل الجَمَل لأنهم نقضوا بيعتهم لأمير المؤمنين عليه السلام، فهم مصداق النكث وليس معناه المنحصر(٢).

وفي الأخبار الشريفة أنّ نَقْض العهود من أعظم الخيانات(٣).

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص١٠٠٩، (نكث)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٢٢، (نكث)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٥١، (نكث).

(٢) انظر مجمع البحرين: ج٢، ص٢٦٦، (نكث).

(٣) غرر الحكم: ٦٣٧٤.

والنتيجة: أنّ هذه الجماعة تميزوا في دنياهم وانحرفوا عن الحق، فلابد أن يتميزوا في الآخرة، وما يتميزون به جزاؤهم؛ لذا يطحنون في النار ولا يحترقون فقط كسائر أهلها.

الوجه الثاني: أنّه من باب تجلّي السجايا والصفات، فإنّ في الآخرة ﴿**تُبْلَى السَّرَائِرُ**﴾[١] أي يكشف عنها[٢].

والسرائر : ما أسرَّ في القلوب والعقائد والنيّات وغيرها وما خَفيَ من الأعمال[٣]. فالناس مخفيون وراء أشكالهم وصورهم في الدنيا، فلهم ظاهر وباطن، ولكن في الآخرة كل شيء ظاهر لا يوجد باطن، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ**﴾[٤] أي تظهر علائم كل فئة، فالمجرمون يُعْرَفون بسيماهم[٥]، وحينئذٍ يتميزون.

الوجه الثالث: أنّهم في ذاك اليوم يدركون الحقائق، ويعرفون نتائج أعمالهم فينقادون إلى مصيرهم بعيداً عن أهل الجنة، آيسين من النجاة، ولعلّ ما ورد في الرواية المتقدمة يشير إليه.

---

(١) سورة الطارق: الآية ٩.

(٢) تفسير القمّي: ج٢، ص٤١٥.

(٣) مجمع البحرين: ج٣، ص٣٢٨، (سرر).

(٤) سورة الحاقة: الآية ١٨.

(٥) انظر سورة الرحمن: الآية ٤١.

اللطيفة الثالثة: لماذا أمروا بالامتياز؟

والجواب لأسباب عديدة:

أحدها: لأجل تشريف أهل الجنة بذلك وتوهين أهل النار.

ثانيها: لأجل إظهار العدل الإلهي وصدق دعوات الأنبياء والأولياء وإبراز آثار الإيمان ونتائجه على أهله، وفي ذلك تعزيز للحق وإبطال للباطل، وهي قيمة عظمى يجب أن تحفظ في مختلف العوالم.

ثالثها: لأجل بيان مصير العصاة والمجرمين وعواقب أعمالهم في مقابل مصير المؤمنين، وقد حكاه الباري عزّ وجلّ لتعليم البشر هذه الحقيقة، وهي أنّ النتائج ثمار الأعمال، فمَن يعمل سوءاً يُجْزَ به، ومَن يعمل الحسنى يجني ثمارها الطيّبة.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: الدين الحق يقوم على أركان

الآية المباركة نصت على أنّ المجرمين يتميزون في الآخرة بمزايا وسِمات مرّ ذكرها، وهذه السمات التي تظهر لهم في الآخرة هي عبارة عن تكوينهم الشخصي، فإن الشخصية التي يعيشها الإنسان في الدنيا هي ذاتها التي يعيش بها في الآخرة من حيث الاعتقادات والسجايا النفسية، ونتائج الأعمال فالتركيبة الشخصية للإنسان في اعتقاداته وسجاياه وأعماله ذاتية له، وهي السمات التي سوف تظهر له في الآخرة، وتكون حجة عليه، فالشخص إذا أجهد نفسه لتحصيل العقيدة الصحيحة في الدنيا ستكون سمته في البرزخ والآخرة، ولو أهمل ذلك ولم يبالِ بصحة معتقده سيكون ناقص العقيدة في الدنيا وفي البرزخ والمحشر وهي سِمته.

وذات القضية تكون في سجاياه، فإذا لا يهذِّب الإنسان نفسه من النواقص سيكون ناقصاً في الدنيا والبرزخ والحشر، وهذه معادلة تكوينية وتشريعية حكى عنها الباري عزّ وجل في هذه الآية.

ولو سأل سائل أنّ الآية المباركة أثبتت المعادلة ولكن ما بيّنت ما هي العلائم والسمات التي لو اتصف بها الإنسان كان من أهل الجنة، ولو افتقدها كان من أهل النار؟ فالجواب أنّ ذلك تبينه السُنّة الشريفة؛ لأن الحديث يُفصِّل مجملات القرآن ويشرح مضامينه، والروايات الواردة في بيان هذه الحقيقة كثيرة جداً. أتيمّن بنقل رواية واحدة تلخص فيها هذا المضمون، ويمكن لكل فرد أن يعرض نفسه عليها ليعرف حاله ومصيره.

وهي رواية أبي الجارود. قال: قلت لأبي جعفرعليه السلام: يا ابن رسول الله! هل تعرف مودّتي لكم وانقطاعي إليكم وموالاتي إيّاكم؟ قال: فقال: «نعم» قال: فقلت: فإنّي أسألك مسألة تجيبني فيها، فإنّي مكفوف البصر قليل المشي ولا أستطيع زيارتكم كل حين؟ قال: «هاتِ حاجتك» قلت: أخبرني بدينك الذي تدين الله عزّ وجلّ به أنت وأهل بيتك لأَدين الله عزّ وجلّ به.

قال: «إن كنت أقصرت الخطبة فقد أعظمت المسألة، والله لأعطينَّك ديني ودين آبائي الذي ندين الله عزّ وجلّ به:

شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً رسول اللهصلى الله عليه وآله، والإقرار بما جاء به من عند الله – القرآن والشريعة- والولاية لولينا، والبراءة من عدوِّنا، والتسليم لأمرنا، وانتظار قائمنا، والاجتهاد والورع»[1].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٠-٢١، ح١٠؛ البحار: ج٦٦، ص١٤، ح١٥.

وفي كل فقرة من الحديث بحث وتفصيل نلخصه في أنّ دين الأئمة عليهم السلام الحق يقوم على ثلاثة أركان:

الأول: الإيمان القلبي، ويتجلّى في الشهادة لله بالوحدانية، وللنبيّ بالنبوّة وبالقرآن والشريعة والولاية لهم والبراءة من عدوِّهم، فلو اختلَّت واحدة منها نقص الإيمان، وهذا هو المكوِّن لشخصية الإنسان، ويتميز به في الدنيا والبرزخ والآخرة.

الثاني: التسليم لأمرهم عليهم السلام، ومعناه الانقياد والإذعان لهم، وهي مرحلة فوق الطاعة، أي أن لا يجد المؤمن ولاية لنفسه في مقابل ولايتهم لا فكراً ولا أخلاقاً ولا عملاً، ومن أجلى مصاديقها الانتظار للقائم عليه السلام، وهذا يجعل العبد عبداً.

الثالث: العمل وبذل غاية الجهد في الطاعة(١)، والورع عن المحارم، ونلاحظ أنّ الإمام نصَّ على الورع لا التقوى؛ لأن الورع يعني تجنُّب الشبهات وليس فقط فعل الطاعات، وهنا نكتة معرفية هامّة لأهل الفضل، وهو أنّ الإيمان درجات والورع كذلك، ولكل درجة ميزة، وهي أربع: ورع يُخْرِج المكلف عن الفسق، وهو الموجب لقبول الشهادة، ويُسمّى ورع التائبين، وورع يخرج به عن الشبهات، ويُسمّى ورع الصالحين، وورع بترك الحلال مخافة الانجرار إلى الحرام، وهو ورع المتقين، وعليه حمل قول النبي صلى الله عليه وآله: ﴿لا يكون الرجل من المتقين حتى يَدَع ما لا بأس به مخافة ما به

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٢٥، (جهد).

بأس»[١] ومثل: «يترك الكلام عن الغير مخافة الوقوع في الغيبة»[٢] وورع يُعْرِض فيه عن غير الله خوفاً من ضياع ساعة من العمر فيما لا فائدة فيه، وهو ورع الصديقين[٣]، وبهذا تتفاوت درجات أهل الإيمان الحق، ويتميز أصحاب الجنة ودرجاتهم.

التعليم الثاني: الظلم لا يدوم

على الإنسان أن يعلم أنّ الظلم لا يدوم، وحتى لو دام فإن صاحبه يجازى به، ولابد من يوم يؤاخذ الظالم بظلمه في الدنيا وفي الآخرة، وإن لم يظهر أثر ذلك عليه فإنه يظهر على أهله وذريته. هذا قانون تكويني وتشريعي حاكم في الوجود أن لا يفلت أحد من الجزاء. نعم الله سبحانه ربما يمهل مدة من الزمان ولكنه لا يهمل، وهذا ما تضافر مضمونه في الأخبار، ففي رواية هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَن ظلمَ مظلمة أُخِذَ بها في نفسه، أو في ماله، أو في ولده»[٤].

والمظلمة تشمل المعاصي بأنحائها؛ لأنّ فيها ظلماً للنفس وللرب تبارك وتعالى، وهي دالة على الملازمة التكوينية بين وقوع الظلم وحصول

---

(١) التحفة السنية: ص٢٢٩؛ شرح أصول الكافي: ج١، ص١٦٦؛ نور البراهين: ج١، ص٢٠٥، الحاشية؛ وانظر مجمع البحرين: ج٤، ص٤٩٠ (ورع).

(٢) مجمع البحرين: ج٤، ص٤٩٠ (ورع).

(٣) مجمع البحرين: ج٤، ص٤٩٠، (ورع).

(٤) الكافي: ج٢، ص٣٣٢، ح٩؛ البحار: ج٧٢، ص٣٣٠، ح٦٢.

الجزاء، فالظلم هو الانتقاص من الحق، وجزاؤه الانتقاص من الظالم إما من نفسه بالموت أو المرض أو نحوهما، أو بالخسارة في الأموال، أو في الإصابة في الأولاد، ويستفاد من الأدلة أن آثار الظلم تظهر حتى بعد وفاة الظالم وتقع على ذريته.

ففي رواية عبد الأعلى قال: قال أبو عبد الله عليه السلام مبتدئاً: «مَن ظلمَ سلَّطَ الله عليه مَن يظلمهُ أو على عقب عقبه» قلت: هو يظلم فيسلط الله على عقبه أو على عقب عقبه؟ فقال: «إنّ الله عزَّ وجلّ يقول: ﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا**﴾[1] »[2].

والقول السديد يشمل العمل السديد سواءً ظهر بكلام أو فعل أو موقف[3]، والسديد السليم من خلل الفساد شرعاً أو عقلاً[4].

والرواية دالة على أنّ الظالم ينال جزاء ظلمه بمثله في الدنيا إما على نفسه أو على الأقرب منه وهم ذريته.

ولكن في الآخرة ينال جزاءه بنفسه، كما أنّ في الآخرة له أكثر من مطالب بحقِّه، فربما أولاده يطالبونه بما ظلموا بسببه، وربما أحفاده، وكلما كثر المظلومون بسببه زاد المطالبون، وهذا مما يزيد عذابه، ويقطع أمله بالغفران.

---

(١) سورة النساء: الآية ٩.
(٢) الكافي: ج٢، ص٣٣٢، ح١٣؛ وانظر البحار: ج٧٢، ص٣١٥، ح٣٥.
(٣) مجمع البحرين: ج٥، ص٤١٩، (قول).
(٤) انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٤٧، (سدد).

والوقائع والأحداث في التأريخ البشري والحياة اليومية تشهد لصدق هذه الحقيقة، فكم من ذرية أخذت بجريرة آبائها وظُلِموا كما ظلم آباؤهم؟ فلابد وأن لا يغتَّر الإنسان بقوَّته وسلطته وماله فيَظْلِم العباد؛ لأن ذلك يعود عليه أولاً وعلى ذريته في الدنيا والآخرة، فيكون ممَّن ظلم نفسه بنفسه.

والأمر الملفت الذي ينبغي أن يلتفت إليه أنّ بعض الظلمة يرتكبون الظلم ويجرمون في أعمالهم بسبب حرصهم على أولادهم، فيسعون لتأمين مستقبل جيد لهم ولو بفعل المحرمات، إلّا أنّ الأبناء والأولاد لا ينجونهم في الآخرة حينما يحتاجون إليهم.

التعليم الثالث: المجرمون صنفان

على الناس أن يعلموا أنّ المجرمين على قسمين: أصلاء وتابعين، فربما يكون الإنسان ظالما ولكن ربما يكون الأشد منه ظلماً هو من يتبعه ويقوّيه ويشد أزره، فإنّ الظالم إذا لا يجد مَن يناصره ويؤازره ويقوّيه لا يستطيع أن يفعل شيئاً، ولذا ورد في الأخبار «العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء ثلاثتهم»[1] لأن كلاً منهم يكون سبباً للآخر، وفي الآخرة سيحشر كلا الفريقين بسيماهم في فئة المجرمين، ويحاسبون على ذلك، فلا ينفع التابعون تبريراتهم لمعاونتهم الظالمين ومتابعتهم لهم في ظلمهم وفسادهم، ولا يغفر لهم ذنب إلّا أن يتوبوا ويخرجوا من ظلامتهم.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣٣٣، ح١٦؛ الوسائل: ج١٦، الباب ٨٠ من أبواب جهاد النفس، ص٥٦، ح٢٠٩٦٥.

ففي رواية علي بن أبي حمزة قال: كان لي صديق من كُتّاب بني أمية – كناية عن الموظف عندهم سُمّي كاتباً لأنه يتكاتب معهم في العقد، أو يعمل كاتباً لهم في دواوينهم ونحو ذلك، ونصّ الرواية يحتمل الاثنين- فقال لي: استأذن لي على أبي عبد الله عليه السلام فاستأذنت له، فلمّا دخل سلَّم وجلس، ثم قال: جُعِلتُ فداك إني كنت في ديوان هؤلاء القوم فأصبت من دنياهم مالاً كثيراً، وأغمضت في مطالبه؟ فقال أبو عبد الله : ﴿لولا أنّ بني أمية وجدوا مَن يكتب لهم ويُجبي لهم الفيء – الغنائم والأموال – ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لَمَا سلبونا حقنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً إلّا ما وقعَ في أيديهم﴾ فقال الفتى: جُعِلتُ فِداك فهل لي من مخرج منه؟ قال: ﴿إنْ قُلتُ لك تفعل﴾.

قال: أفعل. قال: ﴿اخرج من جميع ما كسبتَ في دواوينهم، فمَن عرفتَ منهم رددتَ عليه ماله، ومَن لم تعرف تصدَّقت به، وأنا أضمن لك على الله الجنة﴾ قال: فأطرق الفتى طويلاً فقال قد فعلتُ جُعِلْتُ فداك.

قال ابن أبي حمزة: فرجع الفتى معنا إلى الكوفة فما ترك شيئاً على وجه الأرض إلّا خرج منه حتى ثيابه التي كانت على بدنه. قال: فقسمنا له قسمة واشترينا له ثيابا، وبعثنا له بنفقة. قال: فما أتى عليه أشهر قلائل حتى مرض فكنا نعوده. قال: فدخلت عليه يوماً وهو في السياق – الاحتضار – ففتح عينيه ثم قال: يا عليّ! وَفى لي والله صاحبك. قال: ثم مات فولّينا أمره، فخرجت حتى دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فلما نظر إليَّ

قال: ﴿يا عليّ! وفينا والله لصاحبك﴾ قال: فقلت: صدقت جُعلت فداك هكذا قال لي والله عند موته[(١)].

وفي الرواية دلائل كثيرة وهامة والذي يهمنا هنا هو بيان أنّ الإمامعليه السلام أكّد الحقيقة التي ذكرناها، وهي أن الظالم إنّما يتمادى لوجود الأتباع له، فجرم الأتباع من هذه الجهة قد يكون أعظم؛ لأنهم بمنزلة السبب؛ لذا يقعون في الحرام، ولا يخلصون من جريرة ذلك إلّا بالخروج من اتّباعهم للظلمة، وهذا الرجل لو كان قد مات ولم يخرج من الحرام ولم يتب ماذا سيكون مصيره؟

ولعلّ الأعجب من هذا أنّ البعض يدعو إلى الغضّ عن ظلم الظالمين ومَن أسسوا أساس الظلم في الإسلام لدواع ومصالح سياسية، وهو خطأ فادح؛ لأن الظالم إذا لا يفضح يكون قدوة، وله مدرسة، ويستمرّ نهجه في الأجيال.

والعالم اليوم يتماشى مع الظلم ويعزِّزه حتى في القضاء، ويحتكم قضائياً إلى إجراءين هما من أهم أسباب تمادي الظلم والفساد.

الأول: العفو عن المجرمين بإجراءات وتسهيلات بعضها تتعلق في تنفيذ الحكم كالكفالات والضمانات الأمر الذي يعطي الفرصة السانحة للمجرمين - خصوصاً الكبار والمتنفذين - بالخلاص من العقوبة.

---

(١) انظر الكافي: ج٥، ص١٠٦، ح٤؛ التهذيب: ج٦، ص٣٣١، ح٩٢٠؛ البحار: ج٧٢، ص٣٧٥، ح٣١.

الثاني: عقد المحاكم الطويلة وتوكيل الدفاع عن الظالمين، وهذا الآخر فتحَ المجال للمتنفذين من الظلمة ولأتباعهم من إيجاد المخارج للخلاص من العقاب؛ لذا الباري عزّ وجلّ يقول: ﴿**وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ**﴾(١) لعدم الفائدة من السؤال عن ذنوبهم بعد أن ثبت إجرامهم بالوقائع والإثباتات؛ لأنهم وقعوا فيها تجبّراً منهم وطغياناً؛ لذا ينبغي أن يساقوا إلى القضاء وينالوا جزاءهم؛ لأن التطويل في ذلك يؤخِّر العدالة، بل ويمنع من تطبيقها، ودعوى أنّ هذا من مقتضيات حقوق الإنسان أو العدالة، ونحوها باطلة، بل ناقضة لحقوق الإنسان ومبادئ العدالة؛ لأنها تُتيح للظالم أن يفلت من العقاب ويضيع بها حق المظلوم، وهو ما تؤكده الوقائع والأحداث.

فإن الكثير من ظلمة التأريخ وجبابرته يعاملون كرموز مقدسة أو رموز وطنية أو ساسة كبار يشاد بظلمهم وفسادهم، والكثير من المجرمين الكبار فلتوا من العقاب لأسباب ودواع كثيرة، وضاعت حقوق من ظلموهم.

التعليم الرابع: قاعدة أصولية

إنّ تعليق الأمر بالامتياز على صفة الإجرام يُشْعِر بعليّته، بل ظاهر في ذلك، فيكون دليلاً على أنّ الوصف علّة للحكم فيفيد المفهوم، فإنكار بعض الأصوليين للمفهوم غير دقيق.

---

(١) سورة القصص: الآية ٧٨.

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ
أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ
لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ

يس/ ٦٠

لماذا الاستفهام؟

وردت الآية بلسان الاستفهام الاستنكاري على أهل النار بعد تمييزهم بسماتهم ومزاياهم لتحقيق غايتين :

الأولى: بيان علَّة تمييزهم وعذابهم في الآخرة، وأنّه أمر كان نتيجة طبيعية لعقائدهم وسجاياهم وأعمالهم في الدنيا، وليس من العبث أو التشفي أو اللهو أو الظلم، وإنّما هم انحرفوا وعصوا عن عِلم وعَمد وقد علّمهم الباري عزّ وجلّ وحذَّرهم من عدوِّهم وهو الشيطان، لكنهم اتبعوه طواعيةً منهم، وبهذا تكون الآية قد أجابت عن سؤال مقدَّر عن سبب عذاب أهل النار.

الثانية: بيان بقاء حبل الوصل بين الخالق عزّ وجلّ وبينهم، فإنّهم عباده وإن كانوا خاسرين، ولا يستحقون ذلك، فذكَّرهم بما هو حقهم من البيان والتعليم، وبما هو واجبهم من الاستجابة والطاعة، لكنهم تمردوا، وفي ذلك نوع رأفة ورحمة بحالهم، فإنّ بيان جهة العقوبة للمذنب من شأنه أن يخفف عنه لائمة العذاب، وربما يوجد في نفسه الداعي لطلب الرحمة والعفو والمغفرة فينجو منه، وفيه دلالة على سعة رحمة الله سبحانه؛ إذ يفتح لعباده باب الرجوع والتوبة حتى في موقع معاقبتهم، وهو تطبيق عملي للسلام الإلهي لعباده وإن كانوا في العذاب، وبه تتضح معنى شمول الرحمة حتى للنار وأهلها؛ بداهة أنّ تخفيف العقوبة أو إيجاد المخلص منها هو مرتبة من مراتب الرحمة والسلام.

وبهذا يضرب الباري المثل للخلق الرباني في الجمع بين القول والعمل، كما يجيب عن السؤال الذي يذكره البعض عن الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1] ووجود النار وتعذيب أهلها، فإن تخفيف العذاب عن أهل النار هو رحمة بالقياس إلى استيفاء العذاب؛ لكونه غضباً. هذا ما يقال في السياق الموضوعي للآية، وأما البحث فيها فيقع في مباحث:

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿أَلَمْ﴾

للإستفهام وقد اختلفوا فيه على قولين: قول ذهب إلى أنه استفهام استنكاري وهو الظاهر. غرضه بيان علَّة مؤاخذة أهل النار بجرمهم وجريرتهم[1]، وقول ذهب إلى أنه تقريري[2] غايته انتزاع الإقرار بتحذير الباري لهم من الشيطان، وأن مسؤولية العقاب والمؤاخذة تقع عليهم لا على غيرهم، والحق أنه يعود إلى الأول؛ لأن الاستفهام الاستنكاري يتضمَّن التقريري لاشتماله على غايتين هما التقريع وإلزامهم الحجة[3]، وبيان نزاهته سبحانه من الظلم والانتقام؛ لأن عذابهم بالعدل والاستحقاق.

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٤؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٣؛ تقريب القرآن إلى الاذهان: ج٤، ص٤٥٦؛ تفسير الامثل : ج١٤، ص١٦٠؛ روح المعاني: ص٥٤، ح٢٣ ؛ روح البيان: ج٧، ص٤١٨.

(٢) التحرير والتنوير: ص٤٦.

(٣) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧١.

ومن هنا لم يتعرض الكثير من المفسرين إلى بيان نوع الاستفهام، واكتفوا ببيان المعنى[1].

المفردة الثانية: ﴿أَعْهَدْ﴾

صيغة مضارع تفيد حصول العهد في الماضي بقرينة الاستفهام (ألم) واستمراره في كل عصر وجيل، فلا يخلو زمن من حجة إلهية وتحذير من اتباع الشيطان، و قد ذكروا لها قراءات كثيرة لا تستند إلى وجه صحيح في المبنى والبناء، وبعضها يتضمَّن تحريف الكلمة وإخراجها من منطوقها بإبدال العين بالحاء وحذف الهاء فيقال: (ألم أحد)[2].

واختلفوا في معنى العهد على أقوال :

الأول: أنّه الوصية، والمعنى ألم أوصكم أن لا تعبدوا الشيطان وتطيعوه. ذكره جماعة من مفسري الفريقين[3]، وهو ما يقتضيه مقام الربوبية، فإن من ربوبية الربّ أن يهدي عباده إلى مصالحهم، ويعلّمهم الحق والباطل وما

---

(١) انظر التبيان: ج٨، ص٣٥٥؛ بيان السعادة: ج٣، ص٢٩٠ ؛ تفسير الميزان: ج٢٣، ص١٠٣؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٨٩؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٤٣.

(٢) انظر تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧١؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٨٩؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٥٥.

(٣) البيان: ج٨، ص٣٥٥؛ تفسير الميزان: ج٢٣، ص١٠٢؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٤٣؛ وانظر تفسير الرازي: ج٩، ص٨٩؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٥٤؛ التحرير والتنوير: ص٤٦.

ينبغي وما لا ينبغي، وعلى هذا يكون العقاب الذي نال بني آدم المخالفين للوصية أثراً تكوينياً لمخالفة الوصية، كالطبيب الذي يوصي المريض بعدم تناول بعض الأطعمة فإذا أكلها أشتد مرضه.

الثاني: أنّه الأمر، أي ألم آمركم أن تحذروا مكائد الشيطان وتنتبهوا لشباكه وتضليله(١)، وبه قال جماعة من مفسري الفريقين، وهو ما تقتضيه سُنَّة الامتحان والاختبار في الدنيا، ولولا أن يكون العهد الأمر لم يكن وجهاً لتعذيبهم؛ لأن العذاب ناتج عن مخالفة الأمر المولوي.

الثالث: الاتفاق. مأخوذ من التعاهد، و يظهر من بعض المفسرين القول به(٢). هذا ما ذكر في الجملة.

الرابع: أنّه النصيحة، والمعنى ألم أنصحكم وأخبركم عن خباثة الشيطان وعداوته لكم، وأنكم أعزّ من أن تعبدوا مثله ملوناً مهيناً. ذكره بعض المفسرين(٣)، وهو يعود إلى الأول والثاني لاشتمال الوصية والأمر على النصيحة. هذا أهم ما ذكر في الجملة.

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٤؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٦؛ روح البيان: ج٧، ص٤١٨ ؛ تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٥٧؛ وانظر تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧١.

(٢) انظر تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٦٠؛ تفسير النور: ج٧، ص٤٨٤؛ الفرقان: ج٢٤، ص٥٠.

(٣) روح البيان: ج٧، ص٤١٩.

والحق أنّها جميعاً تامة وقد وردت الكثير من الآيات بها، وهي ليست أقوالاً، بل بياناً للمعنى ترجع إلى معنى جامع للعهد، وهو الاحتفاظ بالشيء ورعايته كما صرح به جماعة من أهل اللغة[1].

والوصية سُمَّيت عهداً لأنها أمر ينبغي الاحتفاظ به، والأمر كذلك؛ لأنه إشغال للذمة يجب رعايته والاحتفاظ به، وهكذا الاتفاق الحاصل بين الطرفين فإنه مبني على الاحتفاظ والالتزام به، وسائر المعاني التي ذكرت للعهد تعود إلى ذلك.

ويمكن الجمع بين القول الأول والثاني؛ لأنّ الوصية تتضمن الأمر لكنه في الأصل يحمل على الإرشاد، ولكن الآية تضمَّنت القرائن اللبية على أنّ أمرها للوجوب. منها كون الموصي هو الرب تبارك وتعالى، والموصى هو العبد، وإنّ الوصية تتعلق بالحذر من إتِّباع الشيطان العدو اللَّدود للرحمن ولعباده، ومقام العبودية والربوبية يستدعي وجوب الطاعة والالتزام أداءً لحق المولى والتحذُّر من مخالفته، والاتفاق أيضاً يتضمَّن الأمر بالالتزام وعدم جواز مخالفته عقلاً وشرعاً.

فيتحصَّل: أنّ العهد في الآية يمكن أن يحمل على المعنى الجامع وهو المدلول المطابقي للعهد، أو الأمر وهو المدلول التضمّني.

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٦٨٧، (عهد)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٩١، (عهد)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص١١٤، (عهد)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٣٣، (عهد).

يبقى الكلام في أنّ منطوق الآية دال على أنّ الباري عزّ وجلّ عهد لبني آدم بعدم عبادة الشيطان واجتنابه؛ لأنه عدوّ مبين، فيرد السؤال كيف تمَّ هذا العهد؟

والجواب بطريقين تكويني وتشريعي. أمّا الطريق التكويني فتمَّ بواسطتين:

الأولى: الفطرة، وعهدها يقوم على الإقرار الباطني بربوبية الباري عزّ وجلّ وانحصار حق العبودية به، ولا يوجد مَن يستحق العبادة إلّا هو من وجهين:

أحدهما: شهادة الوجدان بأنه سبحانه هو المنعم بجميع النِعَم، ويجب شُكر المنعم؛ لأنّ في شكره لذَّة، وفي عدم شكره الألم، وهما ملاكا الأحكام الفطرية.

ثانيهما: الإقرار الذي أودع في نفوس بني آدم منذ عالم الذر بربوبيّته سبحانه لهم.

كما أخبر بوقوعه الباري عزّ وجلّ في قوله سبحانه: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾(١).

وهي دالة على وقوع عهد وإقرار بين الباري عزّ وجلّ وبين بني آدم وهم في الذرّ بالربوبية له، والغاية منه تعريفهم به وإسقاط العذر عنهم يوم القيامة لو خالفوه وأتبعوا ربّاً غيره.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

والنكتة اللطيفة في الآية أنَّ الإقرار تعلَّق بالربوبية لا بالخالقية ولا الألوهية ولا غيرها من الصفات الجمالية؛ لأنّ الربوبية تتضمَّن عناية الرب بعباده بجميع النعم الظاهرة والباطنة، وبها يربّيهم ويغذّيهم وينميّهم حتى يكتملوا بأبدانهم وأرواحهم وعقولهم وقلوبهم، وهذه نِعَم عظيمة تستحق الشكر بالانقطاع إليه في العبودية، فالتخلي عن هذا الحكم الفطري والذهاب إلى عبادة الشيطان يتضمن الجحود المضاعف؛ لأن العاصي تمَرَّد على حكم فطرته وتعّهده لربه أولاً، وزاده تمرّداً أنه عبد عدو الباري، وهذا أشد جحوداً وجفاءً.

فيتلخّص: أنّ فطرة بني آدم مجبولة على وجوب الانقطاع في العبادة إلى الله سبحانه؛ لأنه المنعم، وعدم جواز عبادة غيره لاسيّما الشيطان؛ لأنه كافر بالنعمة، ورصد العداوة للباري ولعباده، وهذا الحكم مودع في النفوس لا يتبدّل ولا يتغيَّر، ويجب على العباد أن يحفظوه ولا يغفلوا عنه، وينطبق عليه عنوان العهد.

الثانية: العقل، وهو عهد تكويني آخر يقوم على ركنين هما حكم العقل بحسن إطاعة الرب وقبح إطاعة العدوّ؛ لأن في الأول العدل، وفي الثاني الظلم، بل حكمه باحتمال الضرر في عدم إطاعة الرب، بل واليقين به في إطاعة العدو، واحتمال الضرر في عدم إطاعة الرب ناشئ من وجود العفو الإلهي الذي هو من الوعد، فربما عاقب وربما عفا، فحفظ الميزان العقلي في الطاعة من جهة الحسن والقبح ودفع الضرر المحتمل والمتيقَّن يعبَّر عنه بالعهد، وهو معناه الجامع.

ويتحصّل: أنّ العهد الإلهي قد يكون تكوينياً مستنداً إلى ملاك الفطرة أو ملاك العقل، ولأنّهما دليلان وجدانيان يكونان حجة على أهلهما بلا حاجة إلى مزيد بيان، وتشهد له الأدلة الكثيرة الدالة على حجية العقل، وأنه شرع من داخل بني آدم[١].

وأما الطريق التشريعي فيتم بواسطة الأنبياء والرسل، وعليه أكثر المفسرين[٢]، وفي الآيات الشريفة ما يشهد لذلك.

إذ حذَّر الباري عزّ وجلّ بني آدم من إطاعة الشيطان واتِّباعه، وأنه عدو لهم لا يُؤمَن شره؛ إذ قال سبحانه: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ**﴾[٣] وهو تحذير قولي وعملي ينبغي أن يحفظه بنو آدم ولا يغفلوا عن خداع الشيطان وفتنه.

وفي آية أخرى ينهى عن متابعته في خطاه وخطواته، ويصرِّح بأنه عدوّ؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾[٤] وخطوات الشيطان أي مسايرته في مشيه وطريقه.

---

(١) انظر الكافي: ج١، ص١٠، ح٢؛ ص٢١، ح١٤.

(٢) التبيان: ج٨، ص٣٥٥؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٤؛ تفسير الميزان: ج٢٣، ص١٠٣؛ تقريب القرآن إلى الذهان: ج٤، ص٤٥٦؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٥٤ ؛ روح البيان: ج٧، ص٤١٨؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٨٩.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٦٨.

وفي آية ثالثة يحذِّر من مطاوعته في المنع من عمل الخير؛ لأن فعل الشيطان تارةً في الجذب إلى الشر، وتارةً في المَنْع من الخير بأن ينهى صاحبه عن فعله؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۞ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(١) فللشيطان أمر ونهي على أتباعه.

والحق أن العهد حصل بكل حجة إلهية تكوينية كانت أو تشريعية يجب حفظها ورعايتها لتضافر الأدلة على أنّ الفطرة والعقل حجتان باطنتان كما أنّ الأنبياء والرسل حجج ظاهرة، وحيث إن المخاطبة في الآية تجري مع أهل النار في الآخرة لبيان علَّة عذابهم فلا يمنع من أن يكون العهد الإلهي بالفطرة والعقل والأنبياء والأئمة عليهم السلام والعلماء التابعين لهم، فالمقتضي للقول بالإطلاق والعموم موجود والمانع مفقود، وهو ما يظهر اختياره من بعض المفسرين(٢).

المفردة الثالثة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾

النداء غايته الإبعاد والإلفات معاً؛ لأن ياء النداء تأتي لمناداة البعيد لأجل تنبيهه وإلفاته، ووجه البعد بيان التباعد في المقام والرتبة المعنوية بين المخاطِب والمخاطَب، فإن المخاطِب هو الله سبحانه أو خليفته وهما منزَّهان عن النواقص والعيوب، بينما المخاطَب أهل النار من بني آدم الذين عبدوا الشيطان، وكلهم نقص وعيوب.

---

(١) سورة الزخرف: الآيتان ٦١- ٦٢.

(٢) انظر تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧١؛ الفرقان: ج٢٤، ص٥١؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٦٠.

وخاطبهم (ببني آدم) وليس ابن آدم لثلاثة أسباب:

الأول: لأنه أسهل في التعبير، وأسهل على اللسان، وهي واحدة من خصائص البلاغة العالية.

الثاني: للإشارة إلى وحدة البنية في الطبيعة الآدمية، فهي دالة على الطبيعة النوعية، بخلاف الأبناء فإنها دالة على الأفراد، وربما تتمايز الأفراد وتنفصل طبيعة الأفراد عن الآباء.

الثالث: لأن البني يفيد العموم، بخلاف الأبناء فإنه يفيد البعض، فهو أعم، ومن هنا نلاحظ أن جميع الآيات التي وردت في بيان العهد بين الله وعبادهِ وردت بصيغة بني آدم لا أبناء آدم، ولم يقل (الناس) للإشارة إلى أمور:

أحدها: لأنه في مقام التوبيخ والتذكير بأنهم أبناء آدم الذي اتخذه الشيطان عدواً له، وقطع على نفسه عهداً بإغوائهم وإضلالهم كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلّا قَلِيلاً**﴾[1] أي أقود الواحد منهم من حنكه حتى لا يكاد يفكّر كناية عن الاستيلاء والسيطرة عليه فلا يكاد يملك نفسه[2]، فلمّا ذكَّرهم بأبيهم الذي أغواه إبليس يكون لهم إلفات إلى الماضي السيء له لكي يحذروه ويبالغوا في مخالفته؛ لأن من جرَّب المُجرَّب حلَّتْ به الندامة، واستثناء القليل يشير إلى المؤمنين الخُلَّص الذين لا سبيل له عليهم؛ إذ ليس له سلطان على الذين آمنوا.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٦٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٦١، (حنك).

ثانيها: لأن العهد الإلهي كان معهم في الدنيا بهذا الوصف كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**﴾(١) وحيث إنّ المقام مقام ظهور النتائج وآثار الأعمال أرجعها إلى العهد الأول في الوصف.

ثالثها: لأن لفظة الناس - في مقابل أبناء آدم - فيها دلالة على كمال العقول والنفوس، ولا يتبع الشيطان إلّا ناقصهما، ولذا ورد في أخبارنا الشريفة أنَّ الناس هم الأئمة الأطهار عليهم السلام، ويأتي بعدهم شيعتهم(٢).

والمخاطَبون لم يكونوا كذلك، ولذا صاروا من أهل النار، فالوصف الأنسب لهم هو أبناء آدم لإرجاعهم إلى أصلهم العام، وبهذا يتضح أن المخاطبين في النداء هم أهل الجهالة والعناد وليس عموم الناس؛ لأن المؤمنين الصالحين منهم دخلوا الجنة وانشغلوا بها قبل محاسبة أهل النار كما أشارت إليه الآيات السابقة ومرَّ تفصيله، وعليه يحمل قوله: (يا بني آدم) على اللفظ العام الذي أريد به الخاص، أو اللفظ العام الذي خصِّص بالقرائن المتصلة والمنفصلة.

وربما يتمسك بالعموم الشامل لجميع أبناء آدم لاقتضاء قرينة الحال ذلك إلّا المعصومين عليهم السلام؛ لأن الشيطان أقرَّ على نفسه بأنه سيغوي جميع أبناء آدم إلّا المخلصين منهم إذ قال: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا**

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

(٢) انظر الكافي: ج٨، ص٢٤٤- ٢٤٥، ح٣٣٩؛ تفسير الفرات: ص٦٤، ج٣٠؛ البحار: ج٢٤، ص٩٥، ح١.

عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[١] والمخلَص بفتح اللام مَن استخلصه الباري عزّ وجلّ لنفسه، وهو المعصوم، وأما غيره فما منهم إلّا وقد اتَّبع الشيطان في بعض أقواله و أعماله وإن كان في مجمل أعماله صالحاً، ولذا قال أهل المعقول إنّ دخول الصالحين الجنة بالفضل لا بالعدل، وهو ما يقره العقل؛ لأن الشيطان أغرى آدم وهو في الجنة العالية فكيف لا يغري أبناءه وهم في الدنيا الدانية! والحق هو الأول لما عرفت من وجوه.

المفردة الرابعة: ﴿أن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾

(أنْ) تفسيرية عند الأكثر[٢]. وردت لشرح المراد بالعهد الإلهي وهو الظاهر، واحتمل البعض أن تكون مصدرية حذف منها الجار، والمعنى ألم أعهد، اليكم في ترك عبادة الشيطان[٣]، وفيه تكلّف ظاهر ومخالف للأصل العام القاضي بعدم الحذف والتقدير، و(لا) ناهية دالة على الزجر والحرمة، والعبادة في قوله: ﴿**تَعْبُدُوا**﴾ يراد بها الحقيقة اللغوية لا الشرعية، أي الاتِّباع والانقياد لا العبادة المخصوصة، أو تحمل على التوسعة في معنى العبادة من باب الحكومة في الموضوع، فيكون للعبادة مصداقان:

أحدهما: عبادة الله سبحانه، وتتحقق بالعبادة المخصوصة.

---

(١) سورة ص: الآية٨٢-٨٣.

(٢) التبيان: ج٨، ص٣٥٥؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٤؛ تفسير الميزان: ج٢٣، ص١٠٣؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٥٥؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٤٧.

(٣) روح المعاني: ج٢٣، ص٥٥؛ روح البيان: ج٧، ص٤١٨.

وثانيهما: بإطاعة الشيطان كما في مثل قولهم: (الطواف بالبيت صلاة)[١] مع أنّ الطواف في مظهره وفعله مغاير لحقيقة الصلاة، إلّا أنّ الاشتراك في الجوهر والغاية صحح الجعل والتنزيل دفعاً لمحذور اللغوية.

والحق هو الأول، وله ثلاثة شواهد:

الشاهد الأول: اللغة، فإنّ العبادة في اللغة الانقياد والخضوع والتذلل[٢]، وتطلق على الطاعة لملازمتها لذلك، وعبادة الله الخضوع لله عزّ وجلّ على وجه التعظيم، ولا تستحق إلّا بغاية الإنعام، وإطلاقها على الشعائر الدينية كالصلاة والحج لأنها مصاديق، ولا تحسن إلّا لله سبحانه، ولا تكون إلّا مع المعرفة والالتفات والقصد والنية.

وبهذا الاعتبار أطلقت العبادة لغير الله سبحانه، فقيل عبادة الأصنام وعبادة الشمس ونحو ذلك؛ لأن أهلها يعتقدون أنها سبب الخير والنفع فتستحق الشكر والخضوع، ومثل عبادة الشيطان فإن اتِّباعه والخضوع لتسويلاته وإغراءاته هو عبادة له، وقسَّم أهل المعرفة عبادة الله على ثلاثة أنواع يقابله الشيطان فيها:

---

(١) عوالي اللآلئ: ج١، ص٢١٤، ح٧٠؛ ج٢، ص١٦٧، ح٣؛ جامع أحاديث الشيعة: ج٥، ص٥٠٨، ح٣٨٣٥.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص٧٠١، (عبد)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٤٢، (عبد)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٩٢، (عبد) ؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٥٧٩، (عبد).

الأول: ما يجب على الأبدان كالصلاة والصيام والسعي في المواقف الشريفة لمناجاته جلّ ذكره.

الثاني: ما يجب على النفوس كالاعتقادات الصحيحة من العلم بتوحيد الله وما يستحقه من الثناء والتمجيد والفكر فيما أفاضه الله سبحانه على العالَم من وجوده وحكمته، ثم الاتّساع في هذه المعارف.

الثالث: ما يجب عند نظم الناس ومصالحهم في المدن، وهي في المعاملات والمزارعات والمناكح وتأدية الأمانات ونُصْح البعض للبعض بضروب المعاونات وجهاد الأعداء والذب عن الحريم وحماية الحوزة[١].

وهذه الأنواع تقع في عبادة الشيطان أيضاً، فإن فتنه وإغواءاته بعضها يتعلق بإفساد العقائد والأفكار وتضليل القلوب عن الحب الصحيح والبغض الصحيح، وبعضها يتعلق بإجهاد الأبدان بطرق العبادة التي سوَّل بتأسيسها وابتداعها، وبعض المسلمين يصلّون بعض الصلوات لم تَرِد عن الله سبحانه ولا عن رسوله، وإنّما هي من تأسيس بعض الصحابة، وهي طويلة تُصلَّى بعنوان النافلة جماعة، ولا أساس لها في الإسلام سوى اجتهادات البعض[٢] بالرغم من نهي الباري عن التشريع والابتداع، ووصفَ الذين يحكمون بغير ما أنزلَ الله بالفاسقين[٣] والظالمين[٤] والكافرين[٥].

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٩٥، (عبد).
(٢) الخلاف: ج١، ص٥٢٨، مسألة ٢٦٨؛ جامع الخلاف والوفاق: ص١١٩.
(٣) انظر سورة المائدة: الآية ٤٧.
(٤) انظر سورة المائدة: الآية ٤٥.
(٥) انظر سورة المائدة: الآية ٤٤.

وبعضها يتعلق بالنُظُم الاجتماعية العامة كعقود الربا والغش والتدليس في المعاملات، والاختلاطات المحرمة بين الرجال والنساء، وأخذ الرشا والغصب وخيانة الأمانات ونحوها من قبائح ومحرمات مغلّظة يدعو لها الشيطان، ويسوِّل لبني آدم فعلها، وبعضهم يتبعونه.

وبعضهم فرَّق بين عبادة الله وعبادة الشيطان في توقّف الأولى على القصد بخلاف الثانية، وفيه نظر نشأ من اشتباه العبادة الخاصة بالعبادة بمعناها العام، فإن الكثير من الأعمال الرحمانية الصالحة تعدّ من العبادات، وينال أهلها الثواب ودرجات القرب وإن لم يقصدوها ولم يلتفتوا إليها، نظير السلام على المسلم الواجب، وتجهيز الميت ودفنه وصلة رحمه وغيرها من الواجبات غير المشروطة بقصد القربة وفيها الأجر والثواب، وعلى هذا الأساس قسِّمت الأوامر الشرعية على ثلاثة أقسام: توصليّة وتعبديّة وعبادية؛ لأن ما يشترط فيه قصد القربة فلا يصح إلّا بها هو التعبدية، وتفصيل البحث فيها في علم الأصول.

ويتلخّص: أنّ العبادة تعني الانقياد والخضوع، فإن كان للرحمن كان عبادة له سبحانه، وإن كان للشيطان كان عبادة له، والباري عزّ وجلّ نهى بني آدم عن الانقياد للشيطان؛ لأن انقيادهم له عبادة له، وهو لا يستحق، وتخلٍّ عن عبادة من يستحق؛ لذا يكون في اتِّباعه الظلم المضاعف.

الشاهد الثاني: الروايات الشريفة، فإنها وصفت الاتِّباع والانقياد بالعبادة، فعن الصادق عليه السلام: ﴿مَن أطاعَ رجلاً في معصيتِهِ فقد عَبَدَهُ﴾[١] وكذا مَن أطاع الشيطان، وقريب منه ورد عن ابن عباس[٢]، وعن الباقر عليه السلام قال: ﴿مَن أصغى إلى ناطق فقد عَبَدَه، فإن كان الناطق يؤدي عن الله عز وجل فقد عبدَ الله، وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبدَ الشيطان﴾[٣].

والإصغاء الاستماع عن ميل وتجاوب لا مجرد السماع[٤]، وهو معنى الاتِّباع والانقياد.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا**﴾[٥] وردَ عن الصادق عليه السلام: ﴿أمَا والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم ما أجابوهم، ولكن أحلّوا لهم حراماً، وحرَّموا عليهم حلالاً، فعبدوهم من حيث لا يشعرون﴾[٦].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣٩٨، ح٨؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ١٠ من أبواب صفات القاضي، ص١٢٧، ح٣٣٣٨٩.

(٢) انظر روح البيان: ج٧، ص٤١٨.

(٣) الكافي: ج٦، ص٤٣٤، ح٢٤؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ١٠ من أبواب صفات القاضي: ص١٢٧، ح٣٣٣٩٠.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٨٥، (صغا) ؛ مجمع البحرين: ج١، ص٢٦٣، (صغا) ؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٥١٥، (صغا).

(٥) سورة التوبة: الآية ٣١.

(٦) المحاسن: ج١، ص٢٤٦، ح٢٤٦؛ وانظر الكافي: ج٢، ص٣٩٨، ح٧.

وهذا ما يصدق في اتِّباع الشيطان، فإنّ من المستبعد جداً على أهل العقول الخضوع لذات الشيطان والعبادة له، وإنّما يدعوهم إلى المعصية فيستجيبون، ولذا قال بعض المفسرين:

المراد بعبادة الشيطان عبادة غير الله؛ لأنّ الشيطان لا يعبده أحد، ولم يرد عن أحد أنه عبد الشيطان، إلّا انه عبَّر عن عبادة غير الله بعبادة الشيطان؛ لوقوعها بأمر الشيطان وتزيينه والانقياد فيما سوَّله ودعا إليه[1].

الشاهد الثالث: حكم العقل، فإنّ التوسعة المذكورة تتنافى مع حقيقة العبادة بمعناها الخاص؛ لاستلزامها التناقض، فالقول بالتوسعة في مفهوم العبادة مجرد فرض عقلي لا دليل عليه، فينحصر معنى عبادة الشيطان باتِّباعه والانقياد لأوامره ونواهيه، ثم اختلفوا في كيفية عبادة الشيطان على ثلاثة أقوال:

الأول: عبادته بطاعته واتِّباع أوامره ونواهيه وعليه الأكثر.

الثاني: عبادة الأوثان، وهي التماثيل التي تُعْبَد سمِّيت بالشيطان لأنه يأمر بعبادتها ذهب إليه بعض المفسرين[2]، ولازمه أن يكون إطلاق عبادة الشيطان عليه من قبيل إطلاق اللفظ العام وإرادة الخاص، وفيه نظر؛ لأن الوثن يشمل كل معبود غير الله سبحانه، واتباعه عبادة له، فهي أعم من عبادة الصنم، بل عن بعض أهل اللغة إنّ الوثن يفترق عن الصنم، فإنّ

(١) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٥؛ روح البيان: ج٧، ص٤١٨؛ انظر التبيان: ج٨، ص٣٥٥.

(٢) التبيان: ج٨، ص٣٥٥؛ تفسير الميزان: ج٢٣، ص١٠٣.

الصنم التمثال المصنوع من حجر أو نحاس ونحوهما والوثن غير المصوَّر من المتبوعات كالهوى ويشمل الشيطان(١).

الثالث: عبادة الإبليسية(٢) الشريرة المغروزة في النفوس، وباتِّباع هوى النفس يكون الإنسان قد عبد شيطانه، وإنّما وصفت بالشيطانية للاشتراك في الأثر، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾(٣) وقوله: ﴿**وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى**﴾(٤) والاتِّباع العبادة.

وفي تفسير الشيطان بالوثن وبالإبليسية تكلف ظاهر من غير موجب، ومخالف للقاعدة القاضية بحمل اللفظ على معناه الحقيقي، فالحق هو القول الأول.

المفردة الخامسة: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

(إنّ) تفسيرية، وتتضمَّن التعليل للنهي عن عبادته، وعداوته لبني آدم ظاهرة، و(لكم) تفيد العموم الاستغراقي، فيدل على أنّ الشيطان عدوّ لكل فرد من أبناء آدم وذريته، و(مبين) اسم فاعل من بانَ الشيء أي ظهر وانكشف، و(العدو المبين) مظهر العداوة غير مخفيها(٥)، وظهورها ناشئ من جهات:

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٣٢٣، (١٢٩٢) ؛ انظر التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٤٧.

(٢) بيان السعادة: ج٣، ص٢٩٠.

(٣) سورة الجاثية: الآية ٢٣.

(٤) سورة ص: الآية ٢٦.

(٥) انظر مجمع البحرين: ج٦، ص٢١٨، (بين)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٥٨، (بان)؛ معجم مقاييس اللغة: ص١٤٧،(بين).

الأولى: إخبار الصادق بذلك، فقد أكد الباري عزّ وجلّ في وحيهِ وعِبْرَ أنبيائه أنَّ الشيطان عدوّ لبني آدم، وحكى قصة عداوته لآدم، وبيَّنَ تفاصيل هذه العداوة بما لا يبقى معه شك أو خفاء، والطبع البشري يقتضي تصديق الصادق فيما يخبر وترتيب الأثر عليه.

الثانية: الوجدان، فإنّ المرء إذا قارن بين تعاليم الأنبياء والرسل ووصاياهم وبين وساوس الشيطان يجد الفرق الكبير بينهما، فإنّ وصايا الأنبياء تتضمَّن كل خير وفضيلة وكمال، ووساوس الشيطان تتضمَّن كل شرّ ورذيلة ونقص بانت عداوة الشيطان له، بداهة أنّ مَن يدعو الإنسان إلى الهلكة عدو له. قال تعالى: ﴿**وَاللّٰه يَدْعُوا إلى دَارِ السَّلَامِ**﴾[1] وأمّا الشيطان ﴿**يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[2] وتعاليم الجنة وأهلها والنار وأهلها واضحة لكل عاقل، وفي ذلك تعليم هام لكل الناس لمعرفة المُحقِّ من المبطل من ذوي الادِّعاءات، وهي واحدة من علائم صدق النبيّ عليه السلام.

الثالثة: حكم العقل، فإنه بعد معرفته بالرحمن وصفاته وأفعاله يدرك أنه حبيبه، ولا يأمره إلّا بالحسنى، وبعد معرفته بالشيطان وصفاته وأفعاله يدرك أنه عدوُّه، ويتضح له أنه لا يأمره إلّا بالقبائح.

ويتلخص من مجموع المفردات: أنّ الشيطان عدوّ لبني آدم، وقد حذَّر الباري عزّ وجلّ من متابعته وإطاعة أمره، ووصفه بأنه عدوّ فلا يستحق الاحترام والعبادة، فلو خالفوا ذلك وأتبّعوه استحقوا العذاب والمؤاخذة.

---

(١) سورة يونس: الآية ٢٥.

(٢) سورة فاطر: الآية ٦.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: علاقة الرحمن والشيطان ببني آدم

إنّ الباري عزّ وجلّ وصفَ الشيطان بالعدوّ لبني آدم، وبمقتضى مفهوم المخالفة يستفاد أمران:

الأول: أنّ علاقة الخالق والمخلوق تقوم على السلام و البراءة من العداوة والنواقص، بخلاف علاقة الشيطان معهم، فاذا كان الشيطان عدوّاً لبني آدم فعلاقة الرحمن بهم علاقة المحبّة والرحمة، وهذا يتوافق مع قوله سبحانه: ﴿**كتبَ على نفسهِ الرحمة**﴾[1] وأنّ رحمته وَسِعتْ كلَّ شيء[2]، وهذا ما يجب أن يلتفت إليه العباد في التعامل مع الله سبحانه، وقد وردَ في بعض تعقيبات الصلوات عن أمير المؤمنين عن النبيصَلَّىاللهعَلَيْهِوَآلِهِ: ﴿سبحان مَن لا يعتدي على أهل مملكتهِ، سبحان مَن لا يأخذ أهل الأرض بألوان العذاب، سبحان الرؤوف الرحيم﴾[3].

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢.

(٢) انظر سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٣) مصباح المتهجد: ص٤٤٨؛ وانظر الدعوات: ص٩٣؛ اقبال الأعمال: ج١، ص١٨٤؛ وفي الدعوات والإقبال: ((يؤاخذ بدل يأخذ)).

وهو من الأدعية المهمة، وله آثار كثيرة في قوّة الحافظة وزيادة العلم ونورانية القلب إذا واظبَ عليه المؤمن بعد الفرائض.

والمعنى تنزيه سبحانه من العدوان على خلقه في العالم الذي هو مملكته سبحانه، ثم خصَّص ذلك بدفع العذاب والأذى عن أهل الأرض بالرغم من أنّ الكثير منهم أتْباع للشيطان، ومُتمردون في العقائد والأخلاق والأعمال، ولكنه يغمرهم بسلامه الدائم، والسبب في ذلك هو رأفته ورحمته، فإنّهما منزَّهتان عن كل نقص، فإذا كان الشيطان عدواً فإنّ الرحمن هو الرؤوف الرحيم بهم.

الثاني: أنّ الشيطان بما أنّه عدوّ لهم معناه أنه يفتنهم، وكافر بهم، ومقابله الرحمن، فإنّ عباده محبوبون له، وشهادة حبِّه لهم أنّه أوجدهم من العدم، وأعطاهم كل ما يحتاجون إليه، وتكفَّل بتربيتهم وتغذيتهم، وأرسل إليهم أشرف خلقه وأعظم بريَّته لأجل تعليمهم وتزكيتهم وهدايتهم إلى مصالحهم.

ومن عجائب لطف الله وحكمته مع بني آدم أن أرسل إليهم أشرف مخلوقاته وجعلهم ضحايا لأجل هداية الأدنى الذي يتّبِع الشيطان، وهذه رحمة عظيمة.

وقدَّم لهم نصحه منذ خلقهم وهم في عالم الذرّ، وأرشدهم إلى عدوِّهم الذي لو اتَّبعوه لأضلّهم واهلكهم، فعلى بني آدم أن يدرِكوا هذه الحقيقة أنّهم بين طرفين: حبيب وعدوّ، والحبيب يدعوهم إلى دار السلام ليحييهم ويكمَّلهم ويسعدهم وهو الذي ابتدأهم بالنِعَم قبل استحقاقها، والعدوّ الذي يريد أن يسلب منهم كل نعمة، و يوقعهم في المهالك.

فلو تركوا من يحبهم واتَّبعوا من عاداهم ماذا يمكن أن يوصفوا والحال هذه؟ إنّ هذا مجمع الرذائل، وأجلى مصاديق الكفر والجحود واللؤم والعناد والهبوط الإنساني والتسافل العقلي، ومن هنا يتّضح أنّ في طاعة الرحمن كل خير، وفي معصيته كل شرّ.

ومن المفارقات حقّاً أنّ الطبع البشري يقضي بأن يعادي الإنسان من يعاديه ويريد إهلاكه، فيبدأ أولاً بمعرفته، ثم يتحذَّر منه، ولو نزل في مواجهة معه أن يدفعه ويطردهُ منه. هذه هي القاعدة العامة في معالجة العداوات، وهذا ملحوظ في العداوات الحاصلة بين بني آدم في أمور الدنيا كالمال والسلطة ونحوهما من الأمور التافهة، وبعض العداوات تنشب بها الحروب الطاحنة، ويضحّي الناس بدمائهم وأرواحهم لأجل تحقيق الانتصار فيها إمّا طمعاً في المصالح، أو دفاعاً عنها.

والمصلحة الأهم التي تتفق عليها البشرية جمعاء على اختلاف معتقداتها واتجاهاتها هي ضمان المستقبل الواعد الذي فيه يتنعم الإنسان بأفضل حياة وأسعدها، ولأجل ضمان ذلك تقوم مؤسسات ووزارات بآلاف المفكرين والباحثين، وتصرف الأموال الطائلة لأجل ضمان ذلك للأجيال البشرية، بل حتى الاستعمار والاستغلال وكل الصراعات والتنازعات الكبيرة التي تقع راجعة إلى سعي كل طرف إلى ضمان الحياة الأفضل له.

فمَن قال بأنّ جوهر الصراعات الإنسانية يعود إلى الصراع من أجل البقاء والعيش الأفضل لم يجانب الحقيقة، فضمان الحياة الأفضل والمستقبل

هو أهم ما يسعى له بنو آدم، وهو ما تراه عقولهم وتقتضيه فطرهم، وهذا يقتضي أن يكونوا في طريق الرحمن والدين والتقوى والعمل الصالح، ولا يضمن لهم المستقبل إلّا بذلك.

لكننا نجد أنهم يتّبعون الشيطان الذي يريد أن يحرق مستقبلهم ويهلكهم، ولا يبقي لهم حياة طيّبة ولا مصيراً سعيداً، وهذا تناقض عجيب يعيشه بنو البشر إلّا المؤمنين الصالحين منهم، ناشئ من عمى القلوب والغفلة عن حقائق الأمور، ومن هنا قال سبحانه: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[(١)] وأداة الحصر تفيد أنّ الشيطان ليس له سبيل معروف، وكل خططه وأعماله ناشئة من العداوة ومصيرها النار.

فيتحصّل: أنّ البشر يخرجون عن ثوبهم الإنساني بمتابعة الشيطان؛ لأنّهم في الدنيا يتجنبون العدوّ ولا يتبعونه وأضراره مادية وزائلة ومحتملة، ولا يتجنبون الشيطان ولا يتنفرون منه مع أن أضراره مادية ومعنوية ودائمة ويقينية، وما يثير التعجّب غفلة الناس عن عداوة الشيطان وعدم غفلتهم عن عداوة أبناء آدم التي هي دون عداوة الشيطان.

---

(١) سورة فاطر: الآية ٦.

اللطيفة الثانية: لماذا يعادي الشيطان بني آدم؟

إنّ الآية المباركة نصَّت على أنّ الشيطان عدوّ لبني آدم، وهنا يَرِد سؤالان:

السؤال الأول: أنّ القاعدة تقتضي أن يكون العداء مع الله أولاً؛ لأنه الذي خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له، والعداء مع السبب أَوْلى.

السؤال الثاني: أنّ العداء ينبغي أن يكون مع آدم؛ لأنه السبب الثاني الذي جعل الشيطان من المطرودين الملعونين.

فالملاحظ أنّ من يجب أن يعاديه لا يعاديه، ومَن لا يجب أن يعاديه يعاديه فما هو السبب؟

والجواب عن الأول: أنّ الشيطان يعرف الله سبحانه ويقرّ له بالربوبية، وأنّ كل ما لديه من وجود وحياة وقوة وطاقة هي منه سبحانه، فلا يمكن أن يعاديه، ولو عاداه فإنه لا يملك حولاً ولا قوة؛ بداهة أن عداء الشيطان بإغوائه، والإغواء يأتي من طريقين: الجهل و الشهوة، فالعالم و المنزَّه عن الشهوة لا يستطيع معاداته. نعم عِداء الشيطان للباري عزّ وجلّ منهجي لا شخصي؛ لأنه سبحانه أرادَ لعباده الهداية والسعادة، والشيطان يغويهم عن ذلك. ليس لأنه لا يحب معاداة الباري شخصاً، بل لأنه قاصر عنها.

والمحاورة التي جرت بين الباري وإبليس لمّا رفض السجود لآدم تكشف عن هذه الحقيقة، وأمّا عداؤه لآدم وبنيه فهو شخصي ومنهجي معاً. قال:

﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١] وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٢] لأن دافعه الحسد، و الحسود يعادي الأشخاص كما يعادي مناهجهم.

ووجه الحسد هو تكريم آدم وتفضيله حتى أُمِروا بالسجود له، وهذا ما لم يتقبّله إبليس فرفض السجود، وعلّله بأنه خير منه؛ لأن آدم من طين وإبليس من نار، وفي ظنِّه أنّ النار خير من التراب، وهذا هو الجهل بعينه أن يدّعي الجاهل مقابل العالم المحيط بكل شيء أنه عالم، ويخالف أوامره تعالياً واستكباراً، وهذا هو الداء الذي يقتل أهله، أي الحسد والجهل.

وأمّا السؤال الثاني فجوابه من وجهين:

الوجه الأول: لأن العداء للأبناء هو عداء للآباء بالملازمة، بل بالأولوية؛ لان معاداة بني آدم معاداة لآدم، بل هي أشدّ؛ لأن أذى الأبناء أوجع لقلب الأب وآلم كما تقتضيه الطبيعة البشرية؛ فإنّ حرص الأب وشفقته على أولاده أكثر من حرصه على نفسه، وهنا تتّضح شدة عداوة الشيطان لآدم.

الوجه الثاني: أنّ معاداة آدم المباشرة ممتنعة على الشيطان؛ لوجود ثلاثة موانع تحول دون تحقيق غايته منها.

المانع الأول: زماني، فإنّ عداوة الشيطان ممتدَّة في كل زمان ومكان إلى يوم الوقت المعلوم؛ لأنها تحقق غرض العداء، وهذه متوفرة في الأبناء

(١) سورة ص: الآية ٨٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٦.

لا في آدم نفسه، فالمانع الزماني يستدعي أن يوجِّه عداوته لمن يبقى معه ويُحقِّق فيه غرض العداء.

المانع الثاني: ذاتي؛ لأن آدم عليه السلام معصوم منزَّه من غلبة الشهوة بمعنييها - الإيجابي والسلبي - ومن الجهل، بل يملك الإحاطة العلمية بالشيطان وبأساليبه وقبائح أفعاله وتسويلاته، فلا يمكن أن يعاديه، ولو عاداه فإنه يخيب ولا يصل إلى الغاية، بل آدم أعطاه الله سبحانه خمسة وعشرين حرفاً من العلم، وله كمال النفس، والشيطان ليس له سلطان على الكمّلين في عقولهم و نفوسهم ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾[١] والشيطان لا يجد طريقاً لإضلاله.

المانع الثالث: عملي؛ لأن لآدم تجربة عظيمة مع الشيطان أغراه وأخرجه من الجنة، وصاحب العقل الكبير لا يقع في خطأ واحد مرتين، بخلاف ذريَّته فإنهم لا يملكون الموانع القوية للوقوع في فخِّه؛ لأنهم مبتلون بالجهل والشهوة إلّا مَن اعتصم بالله سبحانه وواصل ذكره وعبادته، وأتى ببعض الأعمال الصالحة كما تفيده الأخبار الشريفة.

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال إبليس: «خمسة أشياء ليس لي فيهنَّ حيلة وسائر الناس في قبضتي: مَن اعتصم بالله عن نيّة صادقة، واتّكل عليه في جميع أموره، ومَن كثُر تسبيحه في ليله ونهاره، ومَن رضي لأخيه المؤمن بما يرضاه لنفسه، ومَن لم يجزع على المصيبة حين تصيبه، ومَن رضيَ بما قَسَمَ الله

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٩.

له ولم يهتم لرزقه»[١] ونلاحظ أنه ذكر خمسة أسباب كلها تتعلَّق بأفعال القلوب إلّا التسبيح جمع معه ذِكر اللسان.

والاعتصام والتسبيح لهما أثر المانع في تأثير الشيطان، وأمّا الثلاثة الأخرى فلها الأثر في نفي المقتضي؛ لأنها تُشير إلى ثلاث صفات هي من أهم ما يستغله الشيطان لإهلاك بني آدم هي: الحسد والعجلة بنفاذ الصبر والطمع، فإذا رضي الإنسان لأخيه ما يرضاه لنفسه معناه أحبّه ولم يحسده على نعمة، وإذا صبرَ عند المصيبة تبدَّلت إلى ابتلاء وفيه الأجر والثواب، ولو جزع تدخّل الشيطان وحفَّزه على الشر وسوء الظن بالله سبحانه، ولو رضي بما قسم الله له و لم يهتم لرزقه كان قنوعاً، والقنوع لا يطمع فيقع في الحرام تحقيقاً لطمعه، واهتماماً لرزقه دون اتّكاله على ربه.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أنّ الشيطان اثنان: شيطان الجن و يبعد بلا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، وشيطان الإنس ويبعد بالصلاة على النبي وآله»[٢]. وشيطان الإنس البشر الذين يشاركون إبليس في صفاته الشيطانية.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائة: «وأطيلوا السجود، فما مِن عَمل أشدّ على إبليس مِن أن يرى ابن آدم ساجداً؛ لأنه أُمِرَ بالسجود فعَصى، وهذا أُمِرَ بالسجود فأطاع فنجا»[٣].

---

(١) الخصال: ص٢٨٥، ح٣٧؛ البحار: ج٦٠، ص٢٤٨، ح١٠٥.

(٢) مستدرك الوسائل: ج٥، ص٣٤٢، ح٦٠٥٠؛ البحار: ج٩٢، ص١٣٦، ح٤.

(٣) الخصال: ص٦١٦، ح١٠؛ الوسائل: ج٦، الباب ٢٣ من أبواب السجود، ص٣٨١، ح٨٢٣٩.

والحاسد إذا رأى عدوَّه في نجاة يصاب بخيبة الأمل.

وعن جابر عن أبي جعفرعليه السلام قال: ﴿إنَّ إبليس عليه لعائن الله يَبثُّ جنود الليل من حين تغيب الشمس وتطلع، فأكثروا ذِكر الله عزّ وجلّ في هاتين الساعتين، وتعوَّذوا بالله من شرّ إبليس وجنوده، وعوّذوا صغاركم في هاتين الساعتين فإنهما ساعتا غفلة﴾[١].

وعن النبيصلى الله عليه وآله: ﴿لا يزال الشيطان ذَعِراً مِن المؤمن ما حافظ على الصلوات الخمس، فإذا ضيّعهُن تجرأ عليه فأدخله في العظائم﴾[٢].

والذَعِر أي الخائف الفزع[٣]، ووجه خوفه أن يفوته ولا يستطيع أن يغويه. وباعتبار مفهوم العدوّ فإنّ التقيُّد بالخمسة هو الحصانة، فلو حافظ على ثلاث دون الخمس يفقد الحصانة المذكورة.

وعن أمير المؤمنينعليه السلام: ﴿الصلاة حصن من سطوات الشيطان﴾[٤] وسطواته قهره وإذلاله للمؤمن[٥].

ومنه يتضح أنّ سلطة الشيطان على بني آدم وعداوته ناشئة من جهلهم وشهوتهم، فإذا هذَّب عقله و كمَّل نفسه فأزال عن نفسه

(١) البحار: ج٦٠، ص٢٥٧، ح١٢٧؛ وانظر الكافي: ج٢، ص٥٢٢، ح٢.

(٢) الكافي: ج٣، ص٢٦٩، ح٤٨٢٤؛ وانظر عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج١، ص٣١، ح٢١.

(٣) مجمع البحرين: ج٣، ص٢١١، (ذعر).

(٤) عيون الحكم والمواعظ: ص٦٦.

(٥) ينابيع الحكمة: ج٣، ص٢٧٣؛ مجمع البحرين: ج١، ص١٤٥، (سطا).

الجهل، وقيَّد شهوته بالعفّة خرج من سلطة الشيطان، وأغلق عليه باب الشيطنة وتخلّص منه.

هذا ولبعض المفسرين تعليل آخر لعداوة الشيطان لبني آدم مبنيّة على الجبر والجبلّة التكوينية. قال: إنّ بني آدم خُلِقوا من ماء، و الماء مُنافِر للنار، وأمّا آدم فجمع بينه وبين إبليس اليَبَس الذي في التراب، فبين التراب والنار جامع، ولهذا صدَّقه آدم لمّا أقسم له بالله إنّه لناصح، وما صدَّقه الأبناء لكونه لهم ضداً من جميع الوجوه، فبهذا كانت عداوة الأبناء أشد من عداوة الأب[١].

وفيه:

أولاً: أنه قول بالجبر يبرِّر للشيطان فِعله، ولبني آدم معصيتهم، وهو خلاف الضرورتين العقلية و الشرعية.

وثانياً: أنه مخالف لصريح القرآن الذي نصَّ على أنّ البشر مخلوقون من تراب، و الماء الذي يُخلَق منه الأبناء هو الآخر ناشئ من التراب.

وثالثاً: أنه مخالف لصريح القرآن و السنّه اللذين نصّا على أنّ منشأ العداوة الحسد و التكبُّر و التمرُّد على أمر الله سبحانه، لا المشابهة في الجِبلّة.

ورابعاً: أنه متناقض؛ لأنه لو صحَّ أنّ التشابه في الجبلّة يوجب السلام والتنافر يوجب العداوة للزم أن يعادي بنو آدم الشيطان ولا يتّبعونه للمنافرة الحاصلة، لكن بعضهم يتّبعونه، وهذا الاتّباع دالّ على أحد أمرين:

---

(١) روح البيان: ج٧، ص٤١٩.

أحدهما: أنهم مختارون في أفعالهم، والمختار يفعل ما يريد ولو خالف الجبلّة.

ثانيهما: أنهم مجبرون، ولازمه أن ينافروه في الفعل؛ لأن الفاعل بالجبر فعله يسانخه، ولازمه أن لا يتّبع بنو آدم الشيطان، لكنهم متّبعون، فالقول المذكور باطل على كل تقدير.

وهنا ربما يسأل سائل أنّ الآية ذكرت عداوة الشيطان لبني آدم فلماذا لم تذكر عداوته للجن؟

والجواب: لأن عداء الشيطان منحصر ببني آدم ولا يعادي الجن وإن كان ربما يغريه؛ لأنه لم يحسد الجن؛ ومصنوع من النار مثله فهما من معدن واحد، وأمّا عداوته لبني آدم فلأنها ناشئة من الحسد والتعالي.

اللطيفة الثالثة: ما هي الأحوال التي يوسوس فيها الشيطان؟

إنّ نسبة العبادة إلى بني آدم والوصية بأن لا تعبدوا الشيطان دليل على أمور:

الأول: أنّ بني آدم يعرفون الشيطان بطريقين هما الوجدان والأديان، والأول ظاهر، والثاني بتعليم الأديان والشرائع، وجميع الأنبياء والشرائع متفقة على عداوة الشيطان للإنسان، وما من نبيّ ووصيّ إلّا وحذّر بني آدم منه.

وكل إنسان يشعر بوسوسة الشيطان في الكثير من الأحوال.

منها: حالات الغضب ومخالطة النساء، ففي حِكَم الصادق عليه السلام: ﴿ليس لإبليس جند أشدّ من النساء والغضب﴾[1].

(١) تحف العقول: ص٣٦٣؛ البحار: ج٧٥، ص٢٤٦، ح٦٥.

وفي كتاب أمير المؤمنين عليه السلام للحارث الهمداني: ﴿واحذر الغضب فإنه جند عظيم من جنود إبليس﴾[1] ولحظة غضب واحدة في ثانية لا يملك الإنسان نفسه قد يتبدل فيها من بريء إلى قاتل وسافك للدم المحرم، وكذلك النساء إذا لا يتمّ الارتباط بهنَّ بالطريق الشرعي فأن الرغبة بهنَّ تعد شبكة عظيمة من جنود إبليس، وكذلك الرجال للنساء.

ومنها: الحسد.

ومنها: سوء الظن ونحوه، فإنّ الشيطان يحثّ الناس في هذه الحالات على الرذائل، وبمجرد أن يلتفت الإنسان لذلك يشعر بوسوسته ودفعه لارتكاب الفواحش.

الثاني: أنّ بني آدم مختارون في أفعالهم لا مجبورون، ولو كانوا مجبورين لما صح توبيخهم على عباده الشيطان، ولما صح نسبة العبادة إليهم.

الثالث: أن القابلية فيهم لعبادة الشيطان موجودة في داخلهم، وهما الجهل والشهوة كما تقدم، وأما الشيطان فأثره فيهم من حيث تقوية المقتضيات أو رفع الموانع، لا إجبارهم على شيء، فالشيطان ليس علّة للمعصية بل يحفِّز لها، ولذا تقوم عليه سنّة اختبار العباد، بل إنّ في الآيات والروايات ما يدل على ضعف كيده.

---

(١) نهج البلاغة: ج٣، ص١٣١، الكتاب ٦٩؛ مستدرك الوسائل: ج١٢، ص١١، ح١٣٣٧٤؛ جامع أحاديث الشيعة: ج١٣، ص٤٦٨، ح١٢٧٠.

أساليب الشيطان وطرقه

ومن هنا فإنّ أساليب الشيطان لخداع بني آدم تقوم على ثلاثة طرق:

الأول: التزيين والإغراء بالمعصية بإظهار حسنها، وهذا في الأعمال بتقوية المقتضي، وقد كثر التعبير عنه في الآيات بتزيين الأعمال(١).

الثاني: التضليل والخداع، وهو في العقائد والأفكار، وهو من إزالة الموانع بحجب العقل عن الفكر بواسطه الغفلة أو الإنساء والسهو ونحو ذلك، ولذا وصف بأنه ﴿**عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ**﴾(٢) ويقع في الأفكار والعقائد، فإنّ الإضلال عدول عن الطريق المستقيم، وتقابله الهداية(٣).

الثالث: النزغ وإثارة الكوامن ونحوها، وهو في العلاقات الاجتماعية، وقد كثر وروده كصفة للشيطان في آيات عديدة، ووضعت له الحل. قال تعالى: ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ**﴾(٤) فالاستعاذة دواء نزْغ الشيطان، والنزغ هو الدخول في الشيء لإفساده بحمل بعض الناس على بعض. قال تعالى: ﴿**مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي**﴾(٥) أي

(١) انظر سورة الأنعام: الآية٤٣؛ سورة النحل: الآية٦٣؛ سورة النمل: الآية٢٤.
(٢) سورة القصص: الآية١٥.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٠٩، (ضل)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٥٤٣، (ضل).
(٤) سورة الأعراف: الآية٢٠٠؛ سورة فصلت: الآية٣٦.
(٥) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

حفَّزهم على قتله. هذه هي أساليب الشيطان الغالبة في إغراء بني آدم، ولولا غلبة الجهل والشهوة فيهم لما استطاع أن يغريهم أو يخدعهم؛ لذا دلت الآية على أنّ عبادة الشيطان اختيارية لا جبرية، كما أنّ مقاومتها وتجنبها من شؤون اختبار العباد التي بها يتميزون و يتفاوتون في الرتب والدرجات.

فيتحصّل: أنّ أساليب الشيطان ثلاثة هي التزيين في الأعمال، والتضليل في العقائد، والنزغ في العلاقات، فلو عرف الإنسان طرق الشيطان وداءه عرف كيف يعالجه و يتخلَّص منه.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديده:

التعليم الأول: للحكماء و المقننين وأصحاب الفكر

وخلاصته: أنّ الباري عزّ وجلّ يخاطب عقل الإنسان أولاً قبل أن يخاطب قلبه؛ لأن الإنسان بعقله، وهو عقلاني الفكر والعمل، ولذا حذَّرهُ من الشيطان ونهاهُ عن اتِّباعه، وعلَّلَه بأنه عدوّ له، والعاقل إذا عرفَ العلّة استجاب، وبهذا التعليل تظهر ثلاث فوائد هامّة:

الأولى: بيان أنّ طريق الباري عزّ وجلّ وطاعته قائم على العقل والحكمة، فلا عبثية فيه ولا جزاف، بخلاف طريق الشيطان فإنه قائم على مخالفة العقل والخروج عن موازينه؛ لذا تكون أوامره مطابقة للهوى والنقص، وبهذا يستطيع الإنسان التمييز بين طريق الله وطريق الشيطان؛ لأن ما يدعو إلى الهوى شيطاني، وما يدعو إلى العقل والتعقل رحماني.

الثانية: بيان أنّ الجزاء الذي يناله الناس نتيجة اتّباعهم للشيطان عادل لا ظُلم فيه ولا تعسُّف، كما أنّ الطاعة لأوامر الله سبحانه تبدأ من الإيمان والقناعة الذاتية وليست من الفرض.

الثالثة: تعليم المشرّعين وواضعي القوانين والأنظمة أن يبيّنوا عِلل القوانين وحكمتها؛ لأن معرفة الناس بذلك أحد أهم أسباب احترامها وإتّباعها بالدافع الذاتي لا بدافع القهر والقوة، وبهذا ينضبط الأمر ويُحفَظ النظام ويسود العدل والسلام في المجتمع، ويخفّف الكثير من الضغط على القضاء؛ لقلَّة الجرائم والاعتداءات، كما تخفّف الكثير من الأجهزة والأموال التي تُصرَف لقوات الشرطة ونحوها لأجل فرض الأمن وتطبيق العدل؛ لأن الناس أنفسهم إذا آمنوا بالقانون وعدالته يلتزمون به بدافعهم الذاتي، وهذا أوجده الدين في نفوس أبنائه حينما طبَّق الحاكم والحكومة قوانين الإسلام، وجعل النبيﷺ علامة المسلم أن يسلم الناس من يده ولسانه[1]، وعلامة المؤمن أن يأتمنه الناس على أنفسهم وأموالهم[2].

وهذا موضوع هام يبيّن مدى تفوّق القانون الشرعي على الوضعي؛ لأنه يقوم على أساس تهذيب الإنسان أولاً وقناعته بأحكامه وقوانينه، فهو يوجد الوازِع الذّاتي في نفوس أتباعه لاحترامه وطاعته دون قهر أو قوة بما لا يبتكر أتباعه طرقاً للتحايل عليه وخرقه بالعناوين والأساليب المختلفة.

وهذا الظلم المنتشر في العالم ناشئ من مخالفة البشرية للقانون الشرعي واتّباعهم ثلاثة أنواع من القوانين الفاسدة والمفسدة:

---

(١) صفات الشيعة: ص٣١؛ الفقيه: ج٤، ص٣٦٢، ح٥٧٦٢؛ الوسائل: ج١٢، الباب ١٥٢ من أبواب أحكام العشرة، ص٢٧٨، ح١٦٣٠٠.

(٢) الوسائل: ج١٢، الباب ذ٥٢ من أبواب أحكام العشرة، ص٢٧٨، ح١٦٣٠٠؛ صفات الشيعة: ص٣١؛ البحار: ج٧٢، ص١٤٨، ح٤.

الأول: القوانين الوضعية الناجمة من عجز البشر وقصوّره.

الثاني: القوانين الترقيعية التي تأخذ بنصف الدين أو بعضه وتأخذ الباقي من غيره.

الثالث: القوانين المزيفة التي هي ليست دينية، وإنما اجتهادات باسم الدين ليس لها شأنيّة التشريع.

والكلام في هذا مفصَّل نوكله إلى محلِّه، ومن باب المثال الحاكم فإنه أهم ركن في الدولة والحكومة، وعليه تدور رحى العدل والتقدم في أي مجتمع، وهذا قانون عام، وقد جعل الإسلام الحكم لله والرسول ولولي الأمر وهو الإمام المعصوم عليه السلام؛ لأنه العالم بالأحكام والقادر على تطبيق العدالة، فإذا جاء البعض وقال الحاكم ليس مَن نصبَّه الرسول بل يرجع إلى شورى الأمّة، ثم يقول يكفي في الشورى خمسة، ثم يراها كثيرة فيقول ثلاثة يكفي، ويراها كثيرة فيقول اثنان من الناس إذا اتفقا عليه يكفي، ويراها كثيرة فيقول لو أن الواحد بايعه كفى، ويسمّي هذا شورى، ويأتي للسلطة بمن لا يفقه الدين ولا يعرف مناهجه، ولا كيف تكون العدالة يكون قد جنى جناية عظمى، فتراه تصرَّف تصرفات غير صحيحة، وشنَّ حروباً كثيرة اعتباطية شوَّهت صورة الدين في أنظار غير العارفين إلى يومنا هذا آثارها جارية، وهذا كلّه يتم باسم الدين، ولكن باسم الدين المزيّف لا الحقيقي، وللأسف أنّ العالم يرى هذا الجانب من الدين ولا يرى الجانب الحقيقي وهو دين النبيّ والعترة عليهم السلام.

التعليم الثاني: صحة قواعد الإمامية في الفقه والكلام

إنّ الآية تؤكِّد صحّة ما يقوله الإمامية في الفقه وعِلم الكلام، ففي الأول أنّ الأحكام الشرعية تابعة للمصالح والمفاسد، فلا يوجد حلال أو حرام على اختلاف مراتبهما إلّا في الحلال مصالح تقتضيه، وفي الحرام مفاسد تقتضيه، لكننا قد لا نعرف حقيقة هذه المصالح والمفاسد، والشرع لم يبيّن لنا الكثير، وأرادها أن تكون خفيّة، أو لم يصلنا ما بينَّه الشرع منها إلّا القليل، وعدم البيان هو الآخر له مصلحة اقتضته ربما تكون ما تقتضيه مصلحة الاختبار وإظهار مدى عبودية العباد وتسليمهم لأمر الله سبحانه، ولو كان يُبيّن لهم المصالح لانتقض الغرض من التشريع، واستلزم أن الكثير من الناس يعملون بالأحكام ويطيعونها لا من باب العبودية والتسليم، بل من باب المصلحة، فتصير عبادة أكثر الناس عبادة التجّار، وهي تتنافى مع الإيمان وروح العبادة والعبودية.

أو تفتح للعباد باب الأقيسة والاستحسانات والاجتهادات في الدين، وتصيّر الإنسان مشرِّعاً مقابل الله سبحانه، استناداً إلى المصالح التي يعرفونها، وهذه هي الأخرى ناقضة لغرض الشريعة والتشريع.

ويتحصَّل: أنّ الأحكام الشرعية في الفِقه كلها تابعة للمصالح والمفاسد الواقعية لكننا نتعبَّد بها على حسب ما ورد في القرآن والسُنّة، ولا ندرك هذه المصالح إمّا لقصورنا عن دركها، أو لأن الشرع لم يبيّنها لمصلحتين عظيمتين هما: أن يكون العبد في مقام الطاعة لربه وليس للمصالح، وأن يكون تقنين

الأحكام خاضعاً لضوابط وموازين صحيحة بعيداً عن الظنون الشخصية والأقيسة التي تخلّ بنظام الفقه، وتجعل موازينه خاضعة للأهواء والآراء.

إن قلت: كيف تقولون يجب بيان علّة التشريع في التعليم الأول وفي هذا التعليم تقولون لم يبيّن الشرع العلّة!

فالجواب:

أولاً: يجب على المشرِّع أن يبيّن للناس علّة القانون وفلسفته، وهذا يستدعي أن يطّلع الناس على غاياته، ولا يمنع من أن تكون علله وغاياته الفرعية الجزئية مجهولة، وهذا ما حصل في الشرع، فإنّ الناس عالمون بأن المشرِّع حكيم وعادل وعالم بكل شيء فيؤمنون بما يعيّنه، وأنه فيه مصلحتهم فيطيعون.

وهو غير موجود في القوانين البشرية؛ لذا نجدهم يتمّردون عليها، فإن تعذَّر ذلك تحايلوا عليها، والمتمِّرد والمتحايل قد يكون نَفس المقنِّن والمنفِّذ لها؛ لذا تطلعنا التقارير والمحاكم بين مدة وأخرى على مخالفات كثيرة وقع فيها الرؤساء والوزراء والقضاة أنفسهم وغيرهم من رعاة القانون.

وثانياً: أنّ الشرع ذكر وجود العلّة إجمالاً، وعرَّف الناس عليها، وهي تكفي في مقام الإيمان والعمل.

وثالثاً: أنه اكتفى ببيان الحكمة في الأحكام، وهي تشير إلى بعض وجوه العِلّة، وهي كافية للإيمان بالقانون واحترامه، وهذا كما يؤكِّده القرآن في آيات الأحكام؛ إذ ما من آية بيَّنَ فيها حكماً إلّا وذكر الغاية التي تقف وراءه، وفي الروايات وردت تعاليل كثيرة للكثير من الأحكام

الشرعية فضلاً عن الإيمان العام الذي يحمله المسلمون بسلامة قوانينه وعدالة أحكامه.

والخلاصة: أنّ الشرع لم يترك الأحكام بلا بيان للعلل والغايات، وإنّما بيَّنها، ولكن تارةً يبيّنها إجمالاً، وتارةً يبيّنها ببيان بعض وجوهها، والموارد التي لم يبيّنها فإنه لم يبيّن العلّة الجزئية لكنه يبيّن العلّة الكليّة، وعلى فرض عدم البيان فلوجود علّة أكبر من ذلك تقف وراءها، وهي سدّ باب العبودية لغير الله، وباب الاجتهادات والظنون الشخصية في التشريع، وهذه هي علّة لعدم إتيان العِلّة تغني عن بيانها. هذا ما يقال في الأول.

وفي الثاني -أي علم الكلام- فإنه يؤكِّد ما يقوله الإمامية من أنّ أفعال الله سبحانه معلّلة بالأغراض، وناشئة من الحكمة، فلا تصدرُ عن عبث أو جزاف أو ظلم ونحوها، فالنظام القائم في العالم مراعى بالحكمة، فلا ظلم في الوجود، ولا في التشريعات والأحكام، ولا في القضاء والجزاء، وبه تبطل نظرية الأشاعرة القائمة على أساس الأقيسة والاستحسانات في التشريع، ونفي الحكمة في التكوين والقضاء، فتتنافى مع العدل.

والخلاصة: أنّ الآية المباركة تثبِت عقلانية الدين وتشريعاته وقواعده، ولو نظر إليها الناس لاهتدوا إلى العدل والأمن والسلام؛ لذا يثبت التأريخ في أيام حكومة النبي والإمام عليهما السلام ساد الأمن والعدل، ولم تكن حاجة إلى القاضي؛ لأن الناس هم منضبطون، وكان القاضي يجلس عاطلاً لا يوجد من يراجعه أو يشتكي عنده، ولا توجد إلّا موارد قليلة جداً تعدّ بالأصابع في وقوع بعض المخالفات، والمخالف نفسه يحضر

عند القاضي ويطالبه بمعاقبته؛ لأنه خالف الشرع، بلا حاجة إلى أدلة إثبات، ولو سأل سائل لماذا حدث هذا؟ لكان الجواب لأن القناعة والإيمان وراء القانون لا الفرض والقوة.

وفي الأخبار ما يشهد لهذه الحقيقة. منها ما رواه محمد بن مسلم عن أبي جعفرعليه السلام قال: خطبَ أمير المؤمنينعليه السلام الناس فقال: «أيُّها الناس؛ إنّما بدء وقوع الفِتَن أهواءٌ تُتَّبَع، وأحكامٌ تُبتَدَع، يُخالَف فيها كتاب الله، ويتولّى عليها رجالٌ رجالاً على غير دين الله، فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يُخَف على المرتادين، ولو أنَّ الحق خَلَص من لبس الباطل لا نقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخَذ من هذا ضِغْث ومن هذا ضِغْث فيمزجان فيجيئان معاً، فهُنالِك استحوذَ الشيطان على أوليائه، ونجا الذين سَبَقَت لهم من الله الحُسنى»(١) والضِغْث ما يملأ اليد من الشيء المختلط كالحشيش المختلط رطبها ويابسها(٢).

التعليم الثالث: للتربويين والمعلمين

فإنّهم حينما يأمرون وينهون ويرشدون في المدارس والجامعات والبيوت عليهم أن يبرروا كل تعليم أو أمر أو إرشاد، ويبيّنوا علّته أو حكمته لكي يرتقي الأبناء والطلاب في مستواهم العقلي، وينقادوا للتوجيهات والتعليمات انقياداً ذاتيّاً بلا ضغوطات فارضة.

---

(١) انظر نهج البلاغة: ج١، ص٩٩، الرقم ٥٠؛ والكافي:ج١، ص٥٤، ح١.
(٢) مجمع البحرين: ج٢، ص٤٩٤، (ضغث).

كما أنّ الطبيب إذا نهى المريض عن تناول الطعام الحامض لأنه يضرُّ بصحته يجعل الوازع في نفس المريض للاجتناب بلا رقيب، و يوكِل مُهّمة الالتزام عليه، كذلك المعلِّم والمُربّي والمُرشِد، فإنّ أفضل نظام تعليم وتربية يقوم على أساس تهذيب داخل الإنسان وتقويمه عقلاً وروحاً، وهذا لا يكون إلّا بتنويره وإرشاده إلى مصالحه ومفاسده وما يضره وما ينفعه، وأما التعليم الفرضي والتربية بالأمر والنهي فإنها تجعل من الإنسان متحايلاً ومتمرداً.

التعليم الرابع: عبادة الإنسان بين محورين

إنّ الإنسان لا ينفكّ عن العبادة مهما تنوَّعت أفكاره واتجاهاته، وعبادته تدور على محورين إمّا عبادة الله أو عبادة الشيطان، وعبادة الله سبحانه تقوم على الحب والسلام، وعبادة الشيطان تقوم على العداوة والمنافرة ويتلخص الحب والسلام في طاعة الله سبحانه بأمرين هما: معرفة محمد وآل محمد عليهم السلام واتّباعهما، وبذلك تتلّخص كل غايات القرآن والسنّة والطاعة الحقيقية لله سبحانه، وبها تجتمع كل خصال الخير وتعاليم الأنبياء السابقين، وتتلخّص عبادة الشيطان في غير ذلك، وهذا ما تؤكِّده بعض الأخبار.

ففي آخر رسالة من أبي عبد الله عليه السلام إلى جماعة الشيعة يهديهم إلى هذه الحقيقة قال فيها: «ومَن سرَّه أن يعلَم أنّ الله يُحبُّه فليعمل بطاعة الله وليتَّبعنا، ألم يسمع قول الله عزّ وجلّ لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ**

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[١] والله لا يُطيع اللهَ عبدٌ أبداً إلّا أدخل اللهُ عليه في طاعته اتّباعنا، ولا والله لا يتّبعنا عبدٌ أبداً إلّا أحبَّه الله، ولا والله لا يدَع أحدٌ اتّباعنا أبداً إلّا أبْغَضنا، ولا والله لا يُبْغضنا أحدٌ أبداً إلّا عصى الله، ومَن مات عاصياً لله أخزاهُ الله وأكبَّه على وجههِ في النار والحمد لله رب العالمين﴾[٢].

ويستفاد منها أمران:

الأول: أنّها آخر كلام قاله الإمام عليه السلام لشيعته، فيكون قرينة على أنه خلاصة الرسالة وروحها التي إليها ترجع سائر الوصايا.

والثاني: أنّ الحب والبغض نوعان: قلبي وعملي، والأول ما يكون في القلب ويعود إلى المشاعر النفسانيّة، والثاني ما يكون في العمل ويتقوّم بالاتّباع والانقياد لهم، وهما من العناوين الانطباقية القهرية، فلا يتوقَّف على القصد والنيّة، ولذا جعل الإمام عليه السلام الضابطة للمحبِّ الاتّباع وللمبغض عدم الإتّباع، وعليه فمن أخذ علمه من غيرهم ولم يقتد بهم في عبادته أدرج قهراً في المبغضين وإن كان في قلبه محبّاً لهم، والمبغض لهم عابد للشيطان ومصيره النار.

وهذا ما يحكم به العقل؛ إذ كيف يكون العبد محبّاً لله ومطيعاً له ولا يحبّ أولياءه ولا يطيعهم؟ البعض قد يتصوَّر أنه يحب النبي صلى الله عليه وآله ويتَّبِعه وهو

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣١.

(٢) الكافي: ج٨، ص١٤، ح١؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص٣٢٦، ح٨٦.

بهذا مكتمل الإيمان، لكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يبطل هذا المدّعى، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «أحِبّوا الله لِما يغذوكم به من نعمه، وأحبّوني لِحُب الله عزّ وجلّ، وأحِبّوا أهل بيتي لِحُبّي»(١).

والغداء الطعام الذي يؤكل أول النهار مقابل العَشاء(٢)، ويراد به هنا الكناية عن الرزق الذي يقسم كل يوم أول النهار، وبهذا الحديث يرشد إلى أمرين هامّين في المعرفة:

الأول: أنّ حبّ الله سبحانه ناشئ من إنعامه، وهذا حبّ فطري؛ لأن الإنسان مجبول على حبّ المحسن، ولازمه أنْ تكون طاعته فطرية أيضاً؛ لأن المُحسِن يستحقّ الشكر، ويتحقّق بالطريق الذي يحبُّه ويريده وهو العبادة، وهذا الطريق هو الذي يجب أن يعيّنه ويريده لا كما يريده العبد.

والثاني: أنّ حبّ الله لا يكون إلّا بحبّ نبيِّه، وحبّ نبيِّه لا يكتمل إلّا بحبِّ أهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

والنتيجة: أنّ عبادة الله لا تكتمل إلّا بإتبّاع نبيّه وأهل بيته؛ لما ثبت في الحديث السابق من أنّ الحبّ يكون بالعمل.

ويؤكد ذلك ما روي أنه سلّم على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ غلام دون البلوغ، وبشَّرَ له وتبسَّم فرحاً بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فقال له: «أتُحِبَني يا فتى؟ فقال: إي والله يا رسول

---

(١) علل الشرائع: ج١، ص١٣٩، ح١؛ الأمالي (للطوسي): ص٢٧٨، ح٥٣١؛ العمدة: ص٤٠٢، ح٨٢٣؛ البحار: ح٦٧، ص١٤، ح١.

(٢) مجمع البحرين: ج١، ص٢٠٨، (غدا).

الله، فقال له: مثل عينيك؟ فقال: أكثر، فقال: مثل أبيك؟ فقال: أكثر، فقال: مثل أمّك؟ فقال: أكثر، فقال: مثل نفسك؟ فقال: أكثر والله يا رسول الله، فقال: أمِثل ربِّك؟ فقال: الله الله الله يا رسول الله، ليس هذا لك ولا لأحد، فإنّما أحببتُك لِحُبّ الله، فالتفتَ النبيﷺ إلى مَن كان معه وقال: هكذا كونوا، أحِبّوا الله لإحسانه إليكم وإنعامهِ عليكم، وأحبّوني لِحُبّ الله﴾[1].

ومن ذلك يتضح لكل إنسان الميزان الذي ينبغي أن يوزن به نفسه ليعرف أنه عبد لله أم عبد للشيطان.

التعليم الخامس: عداوة الشيطان اجتماعياً وسياسياً

إنّ عداوة الشيطان بيّنة لكل ذي قلب، وعداوته لا تنحصر بالبعد الشخصي، وإنّما لها بعدان آخران لا يقلّان خطورة هما البعد الاجتماعي والسياسي، فكما أن الشيطان يُضلّل بني آدم في شؤونهم الخاصّة فإنّه ينشر الفساد في المجتمع والسلطة والحكم، فيجب على الإنسان أن يعاديه ويفشِل مخططاته ويَردَّ كيده إليه بالأبعاد الثلاثة أيضاً، فكل شخص يحاربه في بعده الشخصي، والمجتمع يُحاربهُ في بُعْدِهِ الاجتماعي، والسياسي بالقضاء على أساليبه وخططه ومناهجه، وهذا بحث معمَّق ومهم، ويتطلب دراسات وأبحاث مفصَّلة لكننا نشير إلى البعد الشخصي؛ لأنه بمنزلة العلّة لغيره من الأبعاد، ويمكن تعميم طرق التخلّص من الشيطان ومكره من البعد الشخصي إلى الاجتماعي.

---

(١) إرشاد القلوب: ص٢٢٦.

كيف تحارب الشيطان؟

فنقول: تتمّ محاربة الشيطان بمراحل:

الأولى: المعرفة، بأن يعرف الإنسان الشيطان ومكره ويلتفت إلى وساوسه في نفسه، وقد مرَّ في اللطائف أنّ طرقه ثلاثة هي التزيين في الأعمال، والتضليل في العقائد، والنزغ في العلاقات، وجامعها هو الدفع نحو الشر والباطل، وكلاهما ممّا يدركهما الإنسان بعقله ووجدانه، ولا يحتاج إلى معلِّم، فإذا عرف الإنسان الشيطان والتفت إليه فإنه يكون قد وضع قدمه في أول مراحل المحاربة له.

الثانية: الحذر منه، فإنه يجعل الإنسان على أهبّة الاستعداد في كل اللحظات لكيلا يقع في فخاخه.

الثالثة: المعاندة والمخالفة، فلو سوَّل الشيطان له أن يرتكب القبيح خالفهُ، ولو حرّضهُ على مُعاداة أخٍ أو صديقٍ أو حسدهِ أو الإضرار به خالفهُ، وبالمخالفة له يكون قد قضى عليه.

الرابعة: المراقبة، بأن ينتبه إلى تصرفاته، وفي كل مورد أخطأ أو اشتبه يتراجع، فتكون مواجهته مع الشيطان مواجهة المقاتل الذي يستعمل الكرّ والفرّ ليتخلّص من عدوِّه.

الخامسة: المحاسبة، فلو وقع في شِراكهِ فإنه يُحاسِب نفسه ويُعاتبها، ثم يلزمها بمواصلة طريق المحاربة.

هذا وقد قرر علماء الأخلاق مراحل عديدة لتذليل النفس وضبطها لتكون في طاعة الله سبحانه. هي المشارطة مع النفس، وتوثيق العهد على الطاعة، والمراقبة لتنفيذ ذلك، والمحاسبة بعد العمل، والمعاتبة والمعاقبة على نقض العهد(١)، وللعبد أن يختار أحد النهجين لتربية النفس وتقويمها على طاعة الله ومحاربة الشيطان.

هذا كله في البعد الشخصي، ويمكن أن تجعل هذه المراحل ضمن الوعي العام والثقافة الاجتماعية في المجتمع، ليكون المجتمع كله محارباً للشيطان، وماضياً في طاعة الله سبحانه، ولهذا تفاصيل تعرّضنا إلى بعضها في كتابنا (فقه العلو والارتقاء) يمكن مراجعته(٢).

التعليم السادس: بعض القواعد الفقهية والأصولية والكلامية

الأولى: أن الوفاء بالعهد واجب يستحق المتخلِّف عنه الذمّ والعقوبة، كما ذمّ الباري المتخلفين من بني آدم على اتّباع الشيطان لنقضهم العهد.

الثانية: أنّ النهي يفيد حرمة المنهي عنه، وأنّ العقوبة تصح بعد البيان فتقبح من دونه، كما أنّ تأخير البيان عن وقت الحاجة قبيح؛ لأن الآية دلّت على أنّ الباري علَّم بني آدم بالشيطان، وحذَّرهم من عداوته، وقد أقروا بذلك، ولمّا خالفوا وبّخهم وعاقبهم، ولولا أن يقضي العقل بعدم قبح العقاب بلا بيان وعدم تأخير البيان على وقت الحاجة لاعترضوا واحتّجوا

---

(١) انظر ينابيع الحكمة: ج٢، ص١٤٣-١٤٤.

(٢) انظر فقه العلو والارتقاء: ص٢٥٢- ٢٦٠.

الثالثة: أن العقل يجيز أن يكون في اتّباع الشيطان عقابان.

أحدهما: لاتّباع الشيطان وقد نهي عنه.

وثانيهما: في عدم عبادة الله سبحانه، وهي واجبة عقلاً وشرعاً؛ لأن الأحكام تتبع العناوين، إلّا أنّ الثابت في الشرع هو عقاب واحد على المعصية، ويوجّه بأحد توجيهين:

الأول: أن يقال بأنّ العقوبات الشرعيّة جمعت العقوبتين معاً بنحو التداخل، لكنه بعيد عن ظواهر الأدلّة.

الثاني: أن يقال بأن الشرع خفَّف على العاصي، وأثبت عليه عقوبة واحدة فضلاً منه، وإن كان العدل يقتضي عقوبتين، وبهذا يظهر معنى آخر لشمول الرحمة الإلهية لأهل النار، ويتوافق مع قوله تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[1].

(١) سورة الأعراف: الآية١٥٦.

وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا
صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ

يس/ ٦١

الآية المباركة معطوفة على الآية السابقة، ومتمِّمة لمعناها في بيان حقيقة العهد بين الله وبين بني آدم، وأنه يتقوَّم بركنين هما:

ترك عبادة الشيطان والانقطاع إلى عبادة الله سبحانه، والكلام في الأول تقدَّم، وأمّا الثاني فقد ذكرته هذه الآية المباركة، وتفصيل البحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾

(الواو) عاطفة، و(أن) تفسيرية للعهد، والمعنى ألم أعهد اليكم أن لا تعبدوا الشيطان واعبدوني أي أطيعوني واتّبعوني كما تقتضيه قرينة المقابلة مع الآية السابقة، ولا يراد بالعبادة المعنى الشرعي الخاص، وقوله: ﴿اعْبُدُونِي﴾ يتضمَّن الأمر الوجوبي، وقدَّم النهي على الأمر لأسباب ثلاثة:

الأول: لأنّ النهي أقوى في الدلالة على العبودية من الأمر؛ لأنه يخالف الهوى والرغبة بخلاف الأمر، فإن العقل والفطرة يقضيان بوجوب إطاعة الأمر، فالتكليف الشرعي في الأوامر لطف في الأحكام العقلية والفطرية؛ لأنه موافق لما يستحسنانه، بخلاف النهي فإنّ المنهي عنه ممَّا تميل إليه النفس، ويغوي فيه الشيطان، فاجتنابه أشقّ على العبد من إطاعة الأوامر، وهذا ما يؤكده الواقع الخارجي، فإنّ المطيعين غير المعصومين قد يقعون كثيراً في مخالفة النواهي ولا يقعون في مخالفة الأوامر، وأكثر مخالفات أهل الإيمان في ارتكاب المحرمات لا في ترك الواجبات؛ لأن ترك الحرام أشقّ على النفوس من فعل الواجبات، ولذا يقال إنّ اجتناب النواهي أقوى دلالة

على عبودية العبد من فعل الطاعات، وهذا ما تؤكده قضية آدم وسبب خروجه من الجنة، فإنه وقع في مخالفة النهي لا في ترك الواجب؛ لأن المؤمن قد لا يترك الواجب ولكن يقع في فعل المنهي عنه.

الثاني: لأنّ النهي أقوى من الأمر في مقام العمل من جهات:

الأولى: لأنّ امتثال النهي لا يتحقق إلّا باجتناب جميع أفراده ومصاديقه، ولو خالفه مرة واحدة كان مُخِلّا بالامتثال، بخلاف الأمر فإنه يمكن أن يقع متقطِّعاً وفي كل مرة، ومعنى ذلك أنّ امتثال النهي يتطلّب من العبد قوة في الإرادة، وصبراً أشد من قوة الإرادة في امتثال الأمر، وقد ذكر علماء الأخلاق للصبر مراتب منها الصبر على الطاعة، والصبر على تجنُّب المعصية، وكلاهما يتحققان في امتثال النهي.

والثانية: لأنّ النهي لا يخالطه الرياء والوساوس الشيطانية عادةً، بخلاف امتثال الأوامر؛ إذ النهي عبارة عن كفّ النفس عن الفعل وهو غير ظاهر، بخلاف امتثال الأمر فإنه ظاهر؛ لذا يستطيع الشيطان إغراء العبد و دسّ الشرك الخفي في عمله.

والثالثة: لأن فعل الأمر قد يندرج في العادة والاعتياد فلا مشقَّة في فعله، بخلاف النهي فإنّ اجتنابه يتوقف على مقاومة الرغبة والشهوة، فهو ضد العادة والشهوة.

الثالث: لأن الضرورة التكوينية والتربوية تقتضي تقديم التخلية على التحلية في تكميل النفوس وإصلاحها، فإنّ العبودية لله لا تتحقق إلّا مع

خلوّ القلب من حُبّ غيره، وخلوّ العمل من اتّباع غيره، والعبد في العبودية على ثلاث حالات لا يصح منها إلّا واحدة:

الأولى: أن يجمع بين حبِّ الله وعبادته وحبّ الشيطان وعبادته وهو ممتنع؛ لأنه جمع للضدين، وحيث إنّ النتيجة تتبع الأخسّ فإنّ المحصلة يكون عابداً للشيطان وليس لله؛ لأن العبودية لله سبحانه مشروطة بالإخلاص.

الثانية: أن يتعّهد بعبادة الله سبحانه ولا يتعهد بترك عبادة الشيطان، وهذا الآخر كالأول، لأن عدم التعهد بترك عبادة الشيطان هو عبادة للشيطان محلها القلب وإن لم تقع في الخارج، وفي المحصلة لا تقع منه العبودية لله مقبولة؛ لأن مثله مثل المريض الذي يشرب الدواء ويتناول ما يضادّه ويفسده.

والباري عزّ وجلّ لا يريد من عباده إلّا العبادة المخلصة التي لا يشاركه فيها أحد، بل لا يمكن أن تكون العبادة لله مع إشراك غيره بها؛ لأن الإشراك ظلم فظيع في حقِّه؛ لأنّها تساوي المنعم وغير المنعم والحبيب والعدوّ. قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[1].

وقال سبحانه : ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾[2] وتضافر في الأدلة بطلان كل عمل لا يكون

---

(١) سورة البينة: الآية ٥.

(٢) سورة الكهف: الآية ١١٠.

خالصاً لله سبحانه، وفي رواية علي بن سالم قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال الله عزّ وجلّ: ﴿أنا خير شريك. مَن أشركَ معي غيري في عملٍ عمله لم أقبلهُ إلّا ما كان لي خالصاً﴾[١].

الثالثة: أن يتعهّد بعدم عبادة الشيطان ويتعهّد بعبادة الله سبحانه، وهذه هي العبادة الحقة، ولكن لا يمكن أنْ تكون عبادة الله حقة إلّا بمعاداة الشيطان ومخالفته؛ لأنه إمّا يضاد أو يمتنع من عبادة الله سبحانه، ولذا وصف في الآية السابقة بأنه عدوّ.

والخلاصة: أنّ العبادة لله تحلية، وهي لا تتحقق إلّا بعد التخلية من عبادة الشيطان؛ لامتناع اجتماع العبادتين معاً امتناعاً ذاتياً لاستلزامه اجتماع الضِّدين، أو امتناعاً عرفياً لاستلزامه الشرك.

والإضافة في قوله: ﴿**اعْبُدُونِي**﴾[٢] تفيد فائدتين:

الأولى: بيان العهد تفصيلاً، وأنّ المراد به ترك عبادة الشيطان والانقطاع إلى عبادة الله سبحانه، وضمير المتكلم يفيد تحقيق العبادة بذاته سبحانه لا غير؛ لأن العبادة لا تكون إلّا له ذاتاً بعينية صفاتها وأسمائها لها، فلو عبد مع الذات غيره - كإسمه أو صفته بما هما متميزان عن الذات - فإنها تكون من الشرك، ولو تجردت الذات عن الاسم والصفة كانت العبادة شركاً كما ورد في الأخبار.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٩٥، ح٩؛ الوسائل: ج١، الباب ٨ من أبواب مقدمة العبادات، ص٦١، ج١٣١؛ وانظر مشكاة الأنوار: ص٤١.

(٢) سورة يس: الآية ٦١.

الثانية: بيان أنّ كل خير ونعمة تستحق الشكر بالعبادة هي منه سبحانه، فلا تليق العبادة إلّا له، ولا يخفى أنّ مقام العبودية غير مقام الربوبية، والعبودية لا تكون إلّا له سبحانه لا يشاركه فيها أحد؛ لأنه المنعم بالذات على جميع المخلوقات.

وأما الربوبية فيمكن أن تنسب إلى غيره باعتبار العلل التوسيطية الطولية أو المظهرية؛ لأن الربوبية من التربية والتنشئة، والباري عزّ وجلّ لا يربّي عباده مباشرة وانّما بواسطة أوليائه عليهم السلام، فيتضح إطلاق وصف الرب عليهم باعتبارهم يباشرون التربية تكويناً وتشريعاً، ويصح إطلاقه على الله سبحانه باعتبار السببية.

نعم الربوبية الحقيقية لا تصح إلّا له سبحانه، وبهذا يتضح وجه الجمع بين ما يستفاد من هذه الآية وبين ما ذكرناه في معنى قوله سبحانه: ﴿**سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾(١) وقلنا إنّ الربّ الرحيم هو النبي صلى الله عليه وآله.

ويتحصَّل: أنّ إضافة العبادة إليه سبحانه ممّا تقتضيه الضرورة؛ لبيان اختصاص العبادة به سبحانه.

المفردة الثانية: ﴿هَذَا﴾

وهو ظاهر في تعليل الأمر بالعبادة، وفيه إشارة للقريب، ولعلّ وجه القرب يعود إلى وجوه ثلاثة:

الأول: لأنّ عبادة الله سبحانه موافقة لحكم الفطرة.

---

(١) سورة يس: الآية ٥٨.

الثاني: لأنّ عبادته موافقة لحكم العقل، والفطرة والعقل هما أقرب شيء لوجدان الإنسان.

الثالث: لأنّ الإشارة تقتضي وجود المشار إليه، ومناسبة الحكم والموضوع تقتضي أن تتحقق بالمشار إليه العبودية لله سبحانه، وليس ذلك إلّا النبي والإمام عليهما السلام، فإنهما صراطه المستقيم الذي لا تتحقق العبودية لله إلّا باتباعهما كما مرَّ بيانه في الآية السابقة وسنأتي إليه.

المفردة الثالثة: ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

(الصراط) ورد بصيغة التنكير للتعظيم والتخصيص بسمات غير موجودة في غيره، فإن الصراط هو الطريق السهل على ماشيه الموصل إلى المطلوب[١]، ووصف بالمستقيم لبيان أنه غير معوج ولا متعرج ولا منحرف، وإذا كان الطريق هكذا استسهله صاحبه وبلغ به الغاية.

وإنما وصف عبادته سبحانه بالصراط المستقيم لأنّها فطرية توافق الطبع الإنساني، وتتحفز من داخل النفس، فتكون سهلة، وتوصل إلى الجنة، وبه وردت بعض الأخبار[٢].

وظاهر أكثر اللغة أنّ الصراط بالسين والصاد واحد؛ لتقارب مخرج الحرف، ولذا فسروهما بمعنى واحد، والأصل بالسين ثم تطور إلى صاد،

---

(١) مجمع البحرين: ج٤، ص٢٥٩، (صرط)؛ معجم الفروق اللغوية : ص٣١٣، (١٢٦٠)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٨٣، (صرط).

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج٢، ص٢٧٣، ح٦٥؛ معاني الأخبار: ص٣٣، ح٤؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٢٥٩، (صرط).

نظير تطور الجَدَث إلى جَدَف، والثوم إلى فوم[١]، وهو خلاف النصِّ القرآني، فإن الآيات توقيفية في حروفها وقراءتها، فالأصل فيها الصاد، ولو صح ما ذكر كان السين مخالطاً للصاد وليس العكس، وإنما عبَّر عنها بالصراط دون غيره من المفردات المقاربة كالطريق والسبيل لخصوصيات أربع:

الأولى: أنَّ الصراط طريق متّسع لا يضيق بالمارة، مأخوذ من صرط الطعام صرطاً أي ابتلعه، وسارَ فيه سيراً سهلاً، ووصف به الطريق لأنه يبتلع المارة ويسيرون فيه بيسر وسهولة[٢].

الثانية: انه طريق واضح لا ظلمة فيه ولا تيه ولا ضلالة، ولذا لا يقال إلّا في مواطن الهداية والخير كما تشهد له موارد الاستعمال.

الثالثة: أنّه واحد لا يتعدَّد، فلا يرد جمعاً بأن يقال له صرط أو أصرطة، بخلاف غيره مثل سبيل وسبل، وطريق وطرق، ولذا يوصل إلى المطلوب.

الرابعة: أنه لا يضاف في الغالب إلّا لله سبحانه وأوليائه عليهم السلام، بخلاف السبيل فإنه يضاف إلى غيرهم، وكذلك الطريق.

وبهذا يتّضح السرّ في وصف عبادة الله بالصراط دون السبيل والطريق؛ لأن السبيل أعمّ من الصراط، ويفتقد خصائص الصراط المتقدمة، فإن السبيل يُطلَق على الطريق المادي والمعنوي، فمن الأول قوله تعالى: ﴿أَنْهَارًا

---

(١) انظر دقائق الفروق اللغوية: ص٢٨١.

(٢) مجمع البيان: ج١، ص٦٥ ؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٠٧، (سرط)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٢٧، (سرطه).

وَسُبُلاً﴾[١] ومن الثاني قوله: ﴿ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾[٢] كما يُطلَق على الجهة كما في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا﴾[٣] ويُطلَق في الخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[٤] والشرّ طرقه كثيرة؛ لأن الانحراف ناشئ من تعدد الأهواء، وأمّا سبيل الله سبحانه فواحد.

والطريق أخص من السبيل، ويطلق على السبيل المادي، ويلازم الصعوبة لتضمّنه معنى الطَّرْق والدق[٥]، وفي المفردات: الطريق السبيل الذي يطرق بالأرجل[٦]، ولا يطلق على ما يطرق بالعقول والقلوب إلّا باعتبار التجوز، أو باعتبار صعوبته لذا يقال للجادة طريق ولا يقال لها سبيل أو صراط، وفي قوله تعالى: ﴿يَهْدِي إلى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٧] عبّر بالطريق للإشارة إلى صعوبة سلوكه من قبل المدعوين إلى الإيمان؛ لاستلزامه التخلي عن معتقداتهم الباطلة والإذعان للحق، أو باعتبار أنّ الداعي والمدعو من الجن، وهم أقل من البشر في الذكاء والعقل والفطنة.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٥.
(٢) سورة النحل: الآية ١٢٥.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.
(٤) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.
(٥) مجمع البحرين: ج٥، ص٢٠٦، (طرق).
(٦) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥١٨، (طرق).
(٧) سورة الأحقاف: الآية ٣٠.

ويتلخّص: أنّ الآية المباركة وصفت عبادة الله بالصراط المستقيم، واسم الإشارة يدل على وجود صراط شاخص لا تتحقق عبادة الله تعالى إلّا به، وليس إلّا النبي والإمام عليهما السلام، وبها تلخّصت سائر معاني الصراط ومصاديقه، وهو ما تضافرت فيه الآيات والروايات.

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا**﴾[1] فوصف الدين بالصراط المستقيم، وفي آية أخرى وصف اتّباع النبي صلى الله عليه وآله بالصراط المستقيم، إذ قال تعالى: ﴿**وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾[2].

وفي سورة الحمد جعل أهم ما يدعو به المؤمن أن يهديه الصراط المستقيم، ووصفه بأنه صراط للذين أنعم عليهم بالهداية فليسوا من المغضوب عليهم والضالين؛ إذ قال سبحانه: ﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**﴾[3] ومَن هم الذين أنعم عليهم يجيب في سورة النساء عن ذلك ويقول: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ**﴾[4] وإطاعة الله والرسول تتلخص في معرفة محمد وآل محمد واتّباعهم، وهذا ما ورد في أخبار كثيرة بطرق الفريقين[5]، فعن

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦١.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٦١.

(٣) سورة الفاتحة: الآيتان ٦-٧.

(٤) سورة النساء: الآية٦٩.

(٥) مواهب الرحمن: ج١، ص٧١.

ابن عباس في تفسير معنى اهدنا الصراط المستقيم قال: ((قولوا: معاشر العباد أرشدنا إلى حب محمد وأهل بيته))[(١)] والمراد بالحب الاتِّباع؛ لقرينة الصراط المستقيم، وعن الصادقعليه السلام: ﴿أنه صراط محمد وذريته﴾[(٢)] وسيأتي لهذا مزيد بيان.

ويتحصّل من مجموع المفردات: أنّ العهد الإلهي مع بني آدم يقوم على ركنين: أحدهما للتخلية عن عبادة الشيطان، والثاني للتحلية بعبادة الرحمن، وتتلخص عبادة الرحمن باتِّباع صراط النبي وأهل بيتهعليهم السلام، وهو السبيل الوحيد الموصل إلى المطلوب أي الجنة، وكل طريق آخر غيره يندرج في عبادة الشيطان.

(١) مناقب آل أبي طالب: ج٢، ص٢٧١؛ الغدير: ج٢، ص٣١١؛ غاية المرام: ج٣، ص٤٤.

(٢) معاني الأخبار:ص٣٦، ح٧، عن جعفر بن محمدعليه السلام قال: ﴿قول الله عز وجل في الحمد صراط الذين أنعمت عليهم يعني محمداً وذريتهصلى الله عليه وآله ﴾.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: من الذي أخذ عهد الله؟

إنّ العطف في الآية المباركة يشير إلى نوعين من العهد: العهد القولي وتم بالتوصية، والأمر بالتخلي عن عبادة الشيطان والانقطاع لعبادة الرحمن، والعهد العملي بالعمل بمؤداه، وكلاهما يتطلبان الوفاء، ويتم بالعمل، ويتلخّص باتّباع أولياء الله وحججه وهم محمد وآل محمد عليهم السلام.

وهنا سؤال وهو أنّ العهد يتوقف على وجود معاهِد ومعاهَد، فمَن الذي باشر بأخذ العهد من بني آدم؟ لا يكون إلّا الله سبحانه أو خليفته وحجته وشاهده على جميع ذرية آدم إلى يوم القيامة، وليس إلّا محمداً وآل محمد؛ لأنّ ولايتهم ممتدة على الزمان والمكان وفي جميع العوالم، بخلاف ولاية آدم وباقي الأنبياء والرُسُل، بل ولايتهم عامة حتى على الأنبياء والملائكة.

ويمتنع أن يأخذ الباري عزّ وجلّ العهد منهم مباشرة؛ لعدم التناسب بين عالمي الخالق والمخلوق، فلابد من واسطة، كما يمتنع استقبال الفيض الإلهي منه مباشرة من دون واسطة؛ بداهة أنّ الفيض التشريعي كالتكويني

في الضوابط والمقتضيات، فلا يصح أن يقال بأنّ المعاهِد هو الباري عزّ وجلّ مباشرة إلّا بضرب من التأويل بأن نحمل عهده على أحد أمور:

الأول: أن نحمله على العهد الارتكازي النفسي، بأن يقال إنه سبحانه أودع في نفوس بني آدم هذا العهد، وهو لا يفي بالغرض، بل ينقضه؛ لأنه لا يوجب عليهم الوفاء به؛ لأن العهد تعلق بالعبادة، وهي تحتاج إلى تعليم نظري وتعليم عملي، أي معلم وقدوة؛ لوضوح أنّ الوفاء يتوقف على المعرفة التامة بالعهد وبشروطه، وأن حقيقة العبودية لله سبحانه وبماذا تتحقق؟ فلو أوكلت العبودية لهم لا تأمن من مداخلة الهوى والشيطان، فتكون عبودية للشيطان.

فالعبودية الخالصة لله لا تتحقق إلّا بوجود المعلم والقدوة وليس إلّا النبيّ والإمام، وهذا في الوقت الذي يدل على ضرورة وجود المعصوم في كل زمان وامتناع خلوّ الأرض من حجة فإنه يدل على ضرورة وجود القدوة والأسوة للناس.

الثاني: أن نحمله على العهد التكويني، بأن يقال بأنّ الباري عزّ وجلّ خلق لهم قولاً، وكلّمهم به، وهو كالأول لا يفي بالغرض، بل ينقضه، ومخالف للأصل وظهور العهد في المباشرة.

الثالث: أنْ نحمله على العهد النيابي، بأن يتصدّى للتعاهد خليفة الله وحجته على خلقه، وهذا هو الأوفق بالقواعد والأصول، والمحقِّق لغرض العهد، ومطابق للأصل؛ لأن الخليفة كالأصل.

والخليفة هو النبي وأمير المؤمنين عليهما السلام ومن بعده الأئمة الطاهرون عليهم السلام، وهذا هو ما يقضي به العقل كما عرفت، ويشهد له النقل من جهتين :

الأولى: تنصيص القرآن في موارد عديدة أنَّ قول النبي وفعله ويده هي قول الله وفعله ويده، وأنّ أمره ونهيه وطاعته هي طاعة الله، وأنّ العهد معه هو عهد مع الله.

ففي الأول قال تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾(١) فقول النبي صلى الله عليه وآله هو قول الله سبحانه.

وفي الثاني قال تعالى: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى**﴾(٢) وفي الثالث قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾(٣) وفي الرابع قال تعالى: ﴿**مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ**﴾(٤) وفي الخامس آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ**﴾(٥) وتدل روايات شأن النزول أنّ العهد كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله(٦).

ومثلها قوله تعالى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾(٧) والمعنى أنهم

---

(١) سورة النجم: الآيتان ٣ – ٤.

(٢) سورة الأنفال: الآية ١٧.

(٣) سورة الفتح: الآية١٠.

(٤) سورة النساء: الآية٨٠.

(٥) سورة التوبة: الآية ٧٥.

(٦) انظر تفسير القمي: ج١، ص٣٠١؛ مجمع البيان: ج٥، ص٨١.

(٧) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

عاهدوا النبي صلى الله عليه وآله على نصرته حتى الشهادة، وقد اتفق الخاصة والعامة على أنها نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام[(١)]، ومن طرقنا ورد أنّ منهم حمزة وجعفر وعبيدة وقد قضوا، والمنتظر أمير المؤمنين عليه السلام[(٢)].

والأمر ظاهر؛ لوضوح أنّ العهد يتقوَّم بطرفين ولا يكون إلّا مع من يخلفه سبحانه في عباده، ولا ينقض ذلك بالعهد الشرعي؛ إذ يصح في التعهد مع الله سبحانه؛ لأنه مردود من وجوه:

أحدها: أنّ العهد الشرعي ليس عقداً بل إيقاعاً، وهو عبارة عن التعهد من الذي يلتزم به على الوفاء، بخلاف التعاهد فإنه صيغة تفاعل تتقوَّم بالطرفين.

ثانيها: سلّمنا إلّا أنّ العهد الشرعي ينعقد بمعاهدة الله سبحانه مباشرة، وكذلك بمعاهدة النبي والإمام عليهما السلام؛ لكونهما خلفاءه وحججه، وغلب التمثيل في الفقه في الأول لتعذُّر حصول الثاني عادةً، خصوصاً في زمن الغيبة.

وعلى كل تقدير فإنّ قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ**﴾[(٣)] ظاهر في المعاهدة بين الطرفين، ولذا وبّخَ المخالفين بالاستفهام الاستنكاري وبيان

---

(١) انظر نهج الحق: ص١٩٦، ح٤٢؛ شواهد التنزيل: ج١، ص٦، ح٦٢٧.

(٢) انظر تفسير القمي: ج٢، ص١٨٨؛ الخصال: ص٣٧٦، ح٥٨؛ تفسير الصافي: ج٤، ص١٨٠، ح٢٣.

(٣) سورة يس: الآية ٦٠.

علّة عذابهم، ولو كان من طرف واحد لحملت على مجرد الوصية، والأمر التنزيهي ومخالفته لا يستوجب العذاب إلّا إذا كانت قرينة عليه.

ثالثها: أنّ العهد الشرعي يتوقف على تعليم النبيّ والإمام، وغيره باطل، فرجع الأمر إليهما، وعلى فرض التسليم فإنّ الروايات تدل على ما ذكرنا.

الثانية: تنصيص الروايات المعتبرة وهي كثيرة. نتيمّن بذكر واحدة منها: وهي رواية الصدوق قدس سره بسنده المتصل عن ابن عباس قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أنزلَ الله تبارك وتعالى: ﴿**وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾[1] والله لقد خرج آدم من الدنيا وقد عاهد قومه على الوفاء لولده شيث فما وُفيَ له، ولقد خرجَ نوح من الدنيا وعاهدَ قومُه على الوفاء لوصيّهِ سام فما وَفَتْ أُمَّتهُ، ولقد خرجَ إبراهيم من الدنيا وعاهدَ قومه على الوفاء لوصيّهِ إسماعيل فما وَفَتْ أُمَّته، ولقد خرج موسى من الدنيا وعاهدَ قومهُ على الوفاء لوصيّهِ يوشع بن نون فما وَفَتْ أُمَّته، ولقد رُفِعَ عيسى بنُ مريم إلى السماء وقد عاهدَ قومهُ على الوفاء لوصيّهِ شمعون بن حمون الصفا فما وَفَتْ أُمَّته، وإنّي مُفارقكم عن قريب وخارج من بين أظهركم وقد عهدتُ إلى أُمَّتي في عليٍّ بن أبي طالب وإنّها لراكبة سنن من قبلها من الأُمم في مخالفة وصيي وعصيانه، ألّا وإنّي مُجدِّدٌ عليكم عهدي في عليٍّ، فمَن نكثَ فإنما ينكثُ على نفسهِ، ومَن أوفى بما عاهدَ الله فسيؤتيه أجراً عظيماً.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤٠.

أيُّها الناس! إنّ عليّاً إمامكم من بعدي، وخليفتي عليكم، وهو وصيّي ووزيري، وأخي وناصري، وزوج ابنتي، وأبو ولْدي، وصاحب شفاعتي وحوضي ولوائي، مَن أنكرهُ فقد أنكرني، ومَن أنكرني فقد أنكرَ الله عزّ وجلّ، ومَن أقرَّ بإمامتهِ فقد أقرَّ بنبوَّتي، ومَن أقرَّ بنبوَّتي فقد أقرَّ بوحدانية الله عزّ وجلّ.

أيُّها الناس! مَن عصى عليّاً فقد عصاني، ومَن عصاني فقد عصى الله عزّ وجلّ، ومَن أطاعَ عليّاً فقد أطاعني، ومَن أطاعني فقد أطاعَ الله.

أيُّها الناس من ردَّ على عليٍّ في قولٍ أو فعل فقد ردَّ عليَّ ومَن ردَّ عليَّ فقد ردَّ على الله فوق عرشه.

أيَّها الناس! من اختار منكم على عليٍّ إماماً فقد اختارَ عليَّ نبيّاً، ومَن اختار عليَّ نبيّاً فقد اختار على الله عزّ وجلّ ربّاً.

أيُّها الناس! إنّ عليّاً سيّد الوصيين وقائد الغرّ المحجَّلين ومولى المؤمنين، وليُّه وليّي، ووليّي وليُّ الله، وعدوُّه عدوّي، وعدوّي عدوّ الله.

أيُّها الناس! أوفوا بعهدِ الله في عليٍّ يُوْفَ لكم في الجنة يوم القيامة»[1].

والحق أنّها رواية محكمة وصريحة، وفيها دلالات كثيرة وهامّة، وفيما نحن فيه لخّصت طريق العبودية لله سبحانه، وطاعته في طاعة عليٍّ عليه السلام، وأنّها هي عهد الله سبحانه مع ذرية آدم، وتؤكد ما ذكرناه غير مرة من أنّ

---

(١) معاني الأخبار: ص٣٧٢، ح١؛ البحار: ج٣٨، ص١٢٩، ح٨١؛ انظر تفسير نور الثقلين: ج١، ص٧٢، ح١٥٩.

جوهر العقيدة الحقة تتلخّص في الولاية لإمام الحق، وأنّ الخروج عنها خروج عن النبوّة والتوحيد، وقوله: «عدوُّه عدوّي، وعدوّي عدوّ الله» يشير إلى أنّ معاداة عليٍّ عليه السلام عداوة مع الله سبحانه والنبي صلى الله عليه وآله، فلا يمكن أن يكون الشخص مؤمناً أو مسلماً وهو يعادي الله سبحانه والرسول.

وقوله: «أوفوا بعهد الله في عليٍّ يوف لكم في الجنة» يشير إلى أنّ عهد الله في بني آدم هو ذلك، وقد مثَّله النبي صلى الله عليه وآله في الدنيا، وأخذه من الناس، ووصفه بأنه يوصل إلى الجنة يشير إلى أنه الصراط المستقيم الذي نصَّت عليه الآية، وبالجمع بين منطوق الآية والرواية يكون معنى الآية: وأنْ أعبدوني في طاعة عليٍّ هذا صراط مستقيم.

وتعزز هذه النتيجة طائفة كثيرة من الروايات الشريفة التي لخّصت الصراط المستقيم باتِّباعهِ عليه السلام.

ففي رواية المُفضَّل بن عمر قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الصراط، فقال: «هو الطريق إلى معرفة الله عزّ وجلّ، وهما صراطان : صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فأمّا الصراط الذي في الدنيا فهو الإمام المُفترَض الطاعة، مَن عرفهُ في الدنيا واقتدى بهُداه مرَّ على الصراط الذي هو جسر جهنَّم في الآخرة، ومَن لم يعرفهُ في الدنيا زلَّتْ قدمهُ عن الصراط في الآخرة فتردَّى في نار جهنم»[1].

(١) معاني الأخبار: ص٣٢، ح١؛ البحار: ج٢٤ ص١١، ح٣.

وفي رواية حمّاد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾[١] قال: «هو أمير المؤمنين عليه السلام ومعرفته والدليل على أنه أمير المؤمنين عليه السلام قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٢] وهو أمير المؤمنين عليه السلام في أم الكتاب في قوله عزّ وجلّ: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ »[٣].

وفي بعض الأخبار وصفَ الصراط المستقيم بالولاية لمحمد وآل محمد[٤]، والروايات الواردة في هذا كثيرة[٥].

اللطيفة الثانية: عبادة الله باتباع النبي والإمام عليهما السلام

إنّ عبادة الله سبحانه لها رتبتان:

الأولى: عبادة القلب، وهي الخضوع والاستكانة له سبحانه.

والثانية: عبادة البدن، وهي الانقياد والطاعة لأوامرهِ ونواهيهِ.

الأولى يجب أن تكون له خالصة لا يشاركه فيها أحد، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[٦][٧].

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٦.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٤.

(٣) معاني الأخبار: ص٣٢-٣٣، ح٣؛ البحار: ج٢٤، ص١٢، ح٤.

(٤) معاني الأخبار: ص٣٦، ح٩؛ انظر البحار: ج٢٤، ص١٦، ح١٩.

(٥) انظر معاني الأخبار: ص٣٢-٣٨.

(٦) سورة البينة: الآية ٥.

(٧) انظر بيان السعادة: ج٣، ص٢٩٠.

والثانية خلوصها يتحقق باتِّباع النبيّ والإمامعليهما السلام؛ لأنها تتوقف على العلم والعمل، وطريقهما ينحصر بهماعليهما السلام، فلو أخذ العباد من غيرهما العِلم ومنهما العمل كان شركاً في العقيدة، ولو أخذوا منهما العِلم ومن غيرهما العمل كان شركاً في العمل.

ولا يقال كيف يكون الخشوع والاستكانة خالصاً له وقد أمرت النصوص بحُبّ النبيّ والأئمةعليهم السلام والولاية لهما وهي من أعمال القلب؟

والجواب: أنّ حبَّهما والولاية لهما باعتبار أنهما امتداد لحبّ الله سبحانه، أو مصداق من مصاديقه، أو مجلاه ومظهره، ولا مانع من اجتماع المحبَّة والولاية إحداهما بالذات والأخرى بالعرض، ويتجسّد ذلك كله في طاعة أوليائه؛ لأن حبّ الله وولايته تعود إلى الكيف النفساني وليس له تقرر في الخارج العيني، فلابد له من مجلى ومظهر وهو حبّ النبيّ والإمام وإتّباعهما والإخلاص لهما إخلاص لله سبحانه.

فيتلخّص: أنّ الانقياد القلبي والعملي للمعصوم هو العبودية لله سبحانه في غاياته ونتائجه.

اللطيفة الثالثة: عداوة الشيطان خاصة بأولياء عليعليه السلام

إنّ الآية وصفت عبادة الله بالصراط المستقيم، وقد عرفتَ أنّ الصراط المستقيم هو النبيّ والإمامعليهما السلام، وأتباعهما من المؤمنين هم على الصراط المستقيم، وفي آية أخرى يتعهّد الشيطان بأنّ عداوته لبني آدم تظهر في الصراط المستقيم؛ إذ قال: ﴿**فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ**

أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[١] والإغواء الإهلاك بالخيبة والضلال، وقيل الغي وادٍ في جهنم[٢]، وهو يتفق مع المعنى اللغوي؛ لأن نتيجة الإغواء النار.

وقعود الشيطان فيه يظهر في ثلاثة موارد:

الأول: تضليلهم عن الاعتقاد الحق بالنبيّ والإمام فيوقعهم بين الغلوّ والتقصير والأول قليل الوجود عادةً، إلّا أنّ الثاني كثير، والأبحاث والمدارس والكتب والمحاضرات شاهدة على هذه الحقيقة، فإنّ من المسلمين مَن ينسب للنبي الكثير من النواقص التي يأبى الإنسان العادي أن تُنسَب إليه، ومنهم مَن لا يعتقد بالإمام الذي نصَّبه الله والرسول صراطاً مستقيماً للناس، فبعضهم يساويه بغيره، وبعضهم يفضِّل غيره عليه ويتّبعه ويستسقي منه العلم، والكثير منهم لا يبالي في معرفة الحقيقة فيغضّ نظره عنها، وبعضهم يجدها ماثلة أمامهُ ولا يؤمن ولا يتّبع إمّا عناداً أو مصلحة أو إهمالاً، لاسيّما في مثل هذه الأيام التي لم يبقَ شيء خافٍ أو غير معروف، فلماذا يبقى بعض الناس مخالفين لإرادة الله ومشيئته؟ ولماذا يتّبعون الطريق الخاطئ ويصرّون عليه وفيهم العلماء والباحثون والمثقفون؟

الجواب: لأن الشيطان يقعد لهم في الطريق ويضللهم ويخوّفهم ويحذّرهم من إتِّباع الحق.

الثاني: تزيين المعاصي للمؤمنين بالنبيّ والإمامعليهما السلام لكي يخرجهم عن طاعتهما وإتِّباعهما والاقتداء بهما.

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان ١٦-١٧.

(٢) مجمع البحرين: ج١، ص٢١٤، (غوا).

الثالث: إذا وجدهم مؤمنين متمسكين بهما في العقيدة والعمل ينزغ بينهما في العلاقات، ويُوجِد العداوة والشحناء بينهم، ويفرقهم ويشتِّت شملهم، وهذا ما يفسِّر وقوع الاختلافات والمنازعات بين أهل الإيمان عادة، فلا ينجو أحد من أهل الإيمان من شراك أبي مُرَّة الخدّاع المعادي، وفي جميع هذه الموارد يأتيهم من مختلف الجهات وبمختلف العناوين والألوان، ولو التفتَ الناس إلى هذه الحقيقة استقاموا على الصراط المستقيم ونجوا من شراكه(١).

وبهذا يتضح أنّ عداوة الشيطان خاصة بأهل الصراط المستقيم، وهو ما تؤكده الأخبار الشريفة، ففي رواية أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ الصراط الذي تعهّد إبليس بالقعود عليه هو عليّ عليه السلام(٢).

وفي رواية زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿**لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ قال عليه السلام: «يا زُرارة! إنه إنّما صمد لك ولأصحابك، فأمّا الآخرون فقد فرغَ منهم»(٣).

إن قال قائل: لكننا نجد أنّ غير الموالين أيضاً مُبْتَلَون بالمعاصي والعداوات والتفرق مع بعضهم

---

(١) انظر مجمع البيان: ج٤، ص٢٢٨.

(٢) تفسير العياشي: ج٢، ص٩، ح٦؛ البحار: ج٦٠، ص٢٢٠، ح٦٠؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص١٠، ح٣٠.

(٣) الكافي: ج٨، ص١٤٥، ح١١٨؛ المحاسن: ج١، ص١٧١، ح١٣٨؛ البحار: ج٦٥، ص٩٤، ح٣٧.

والجواب: أنّ ذلك ناشئ من خطأ المنهج نفسه الذي لا يكمِّل النفوس والعقول، فتكون سيئاتهم نتائج طبيعية لفساد المنهج، وأمّا الموالون فناشئ من خديعة الشيطان وتضليله، وقد مرَّ أنّ الشيطان عاجز عن خديعة الكُمَّلين من المؤمنين في نفوسهم وعقولهم، ولا يتبعه إلّا ناقص العقيدة أو ناقص التهذيب أو التربية، فيحيط بهم الشيطان بمكائده حتى يغريهم ويضلَّهم، وقد وردَ عن أبي جعفر عليه السلام بيان ذلك. قال: « ﴿**ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ**﴾ معناه أهوِّن عليهم أمر الآخرة، ﴿**وَمِنْ خَلْفِهِمْ**﴾ آمرهم بجمع الأموال والبُخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم ﴿**وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ**﴾ أُفسِد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشُبهة ﴿**وَعَن شَمَآئِلِهِمْ**﴾ بتحبيب اللّذات إليهم وتغليب الشهوات على قلوبهم»[1].

(١) مجمع البيان: ح٤، ص٢٢٨.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: الإصلاح يقوم على الهدم والبناء

إنّ الآية المباركة قرَّرت قانوناً هامّاً للإصلاح في سائر المجالات، وهو أنّ التغيير للأفضل سواءً كان تأسيسياً أو تطويرياً يقوم على ركنين هما: الهدم والبناء، ويعبِّر عنه علماء الأخلاق بالتخلية والتحليّة، وهذا قانون منطقي يقرّه العقل، ويعمل به العقلاء في شتّى مجالات الحياة، وقرَّره الدين في المفاهيم والقيم الدينية؛ إذ قال تعالى: ﴿**أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾[1] فقدَّم التخلي عن عبادة الشيطان على عبادة الله؛ لاستحالة اجتماع العبادتين معاً، وعدم جدوائية تقديم الثانية على الأولى، وحتى تثمر عملية الإصلاح فلابد من هدم العبادة الباطلة حتى تقوم الصحيحة مكانها. مثلها مثل الفلّاح الذي يريد أن يزرع الأرض فإنه أولاً يزيل الملوحة منها وسائر الأحراش الضارة والديدان، ثم يحرث فيزرع، فلا يمكن أن يبذر البذور قبل إصلاح ذات الأرض؛ لأنّ المقتضي لا يؤثِّر قبل زوال المانع، كذلك مَن أراد إصلاح النفوس وتهذيبها.

---

(١) سورة يس: الآيتان ٦٠-٦١.

وفي التوبيخ دلالة على أمور هامّة:

الأمر الأول: أنّ البشر نقضوا عهودهم في عبادة الله وترك عبادة الشيطان؛ لذا لابد من إرسال الرسل إليهم إتماماً للحجة، وإتماماً للطف الإلهي بهم؛ لأنهم لا يهتدون بأنفسهم إلى الله سبحانه، بل لابد لهم من هاد ومنقذ، ولابد أن يكون الهادي مهتدياً بنفسه، ومعصوماً عن الضلالة والخطأ، وإلّا لزم الخلف والتسلسل.

فلولا أن يرسل الباري الأنبياء للناس وينصِّب الأوصياء لعبدوا الشيطان ووقعوا في شِراكه؛ لأنه عدو لهم يغريهم ويضللهم، ولذا نلاحظ أنّ الأنبياء طرّاً دعوا إلى عبودية الله، ووجّهوا الناس إلى ذلك، وما من نبيّ إلّا ودعا قومه لذلك، والقرآن الكريم لم يذكر شرائع الأنبياء والأديان السابقة على الإسلام، بينما لخَّص رسالات الأنبياء بالدعوة إلى عبودية الله، والذي يراجع الآيات الشريفة يجد أنّ دعوات الأنبياء تلخّصت في محورين اثنين هما: التخلي عن عبادة الأصنام والأوثان وكل المعبودات الأخرى، والتوجّه إلى عبادة الله سبحانه، وذلك شاهد على أن الناس قد خالفوا العهد الإلهي وعبدوا الشيطان، فجاء الأنبياء لهدايتهم وإرشادهم، والرواية المتقدمّة عن ابن عباس عن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله تؤكد هذه الحقيقة، وهذا يؤكد قول الإمامية في ضرورة وجود المعصوم بين الخلق، وأنّ تنصيبه لطف في حق العباد.

المنهاج العملي للإصلاح

الأمر الثاني: أنّ هذه الحقيقة سارية مع الأزمان، وكل زمان يحتاج الناس إلى هداة مرشدين ومبلّغين ليتركوا عبادة الشيطان ويتوجهوا إلى عبادة الله سبحانه، وقد وضع الباري عزّ وجلّ في الكتاب العزيز المنهاج العملي في ذلك عبر تخصيص ثلاث جماعات تقوم بهذه المهمة:

الأولى: تتفرّغ للتفقّه في الدين وتعليم المبادئ والأحكام بأخذها من النبيّ والإمام عليهما السلام، ثم تبليغها ونشرها بين الناس.

والثانية: تتفرّغ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والثالثة: تتوّلى الأمور وتدبرها وتقيم الدين، فالأولى تعلِّم، والثانية تضبط وتراقب، والثالثة تدبّر وتنّظم.

في الأولى قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[١] ونلاحظ أنّ الآية جعلت غاية التفقّه الإنذار والتحذير، وذلك لا يكون إلّا لانسياق الغالب العام إلى عبادة الشيطان جهلاً أو عمداً، ولذا حثّت بلولا التي هي بمعنى هلّا التحضيضية يراد بها الحصر على أن يكون في كل فِرقة وجماعة طائفة يتفقّهون، فتشمل العشيرة والأسرة الكبيرة والحيّ السكني وكل طائفة من الناس يعيشون مجتمعين[٢]، وهذا

---

(١) سورة التوبة: الآية١٢٢.

(٢) المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٨٥، (فرق).

نهج لو عمل به الناس انتشر العلم، وسادت الفضيلة بينهم بتزكية أبنائهم المتفقهين، فمَثَل العالم والمتفقِّه مَثَل المصباح في البيئة المظلمة إذا كثرت المصابيح زال ظلام الجهل.

وفي الثانية: قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[١] و(اللام) في ﴿**وَلْتَكُن**﴾ للأمر، فتدل على الوجوب، والأمة الجماعة، والآية تدل على وجوب تصدي جماعة يدعون إلى الخير في مقابل الشر، ولامعنى للدعوة إلى الخير إلّا بسبب وجود الشر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولامتثال الوجوب طريقان:

أحدهما: أن يتصدى كل فرد من الناس لأداء الوظيفة الشرعية كلٌ بحسب وسعهِ وطاقتهِ.

ثانيهما: أن يتصدى جماعة منتظمة تتخصَّص لهذه المهمة، وظاهر الآية يفيد الثاني، ولذا حمل الفقهاء الوجوب المذكور على الكفاية.

ولكن تصدي جماعة لذلك لا ينفي الوجوب عن غيرها إذا وجدوا منكراً وأمكنهم ردعه؛ لأنّ تصدي الجماعة لذلك يفترض فيها أمران:

أحدهما: أن تكون منبثقة من مجتمع يحب المعروف والخير وينفر من الشر والمنكر، ولولا ذلك لامتنع انبثاقها لهذه المهمة.

ثانيهما: أن تكون هي نفسها ملتزمة بذلك؛ لأنّ فاقد الشيء لا يُعطيه.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

ويتحصّل من ذلك: أنّ الآية تدعو إلى أن يكون الأمر بالمعروف والدعوة إلى الخير ثقافة عامة في المجتمع تحمل الجميع مسؤولية ذلك، وفي عين الحال تدعو إلى تصدي جماعة للمراقبة والضبط، ويتعاون الطرفان أي المجتمع والجماعة المتصدية لإصلاح الأمور وحفظ النظام العام، ولو اختلَّ أحدهما اختلَّ النظام وخابت النتائج، وأقرِّب ذلك بمثالين:

المثال الأول: لو تظاهر شخص بفعل المنكر في الشارع فيجب على المجتمع ردعه عن ذلك، وفي عين الحال ينبغي أن توجد سلطة قانونية تحاسبه على ذلك، فلو تهاون المجتمع في ردعه فإنّ السلطة القانونية لا تقدر أن تعالج الموقف؛ لأنّ الكثير من فاعلي المنكر ممكن أن يتحايلوا أو يعملوا المنكر بعيداً عن رقابة السلطة، ولو ردع المجتمع عن ذلك بالاستنكار والاستهجان من دون محاسبة من قِبَل السلطة المختصّة فإنه قد لا يَردعه؛ لذا ما لم يتعاون المواطنون مع السلطة المختصّة بمكافحة المنكر وما لم تلتزم السلطة المختصّة بواجبها في ذلك فإنه لا يمكن الردع عن المنكر واجتثاثه من المجتمع.

المثال الثاني: لو خالف السائق قوانين المرور المجعولة للصالح العام وصارَ الناس يتفرَّجون عليه ولا يعترضون فإنّ الشرطة المسؤولة عن ذلك لا تقدر وحدها على معالجة المخالفات التي كثيراً ما تسبب الأضرار، ولو اعترض عليه المجتمع ولا توجد سلطة تراقب بدقة وتحاسب فإنّ المخالفات تكثر، والحوادث تزداد، وتتعرَّض أرواح الناس ومصالحهم إلى الأخطار.

وكل إصلاح لا يمكن أن يثمر وينتج ما لم يتم التعاون بين طرفين: الناس والجهات المختصة، فلو تخلّى أحدهما عن مسؤوليته تعذَّرَ الإصلاح، وهذا أحد أهم أسباب انتشار الفساد والظلم والتسيُّب والتعدّي على المصالح العامّة وتخريب الشوارع والأزقّة والمدارس والدوائر في بلادنا.

ولذا أمر الباري عزّ وجلّ بلزوم تحمّل الاثنين مسؤولية الرقابة والضبط، وأوجبهما على الكُّل، وقال لو فعلتم ذلك (فإنكم تفلحون) وإنّما عبّرَ عن ذلك بالفلاح للإشارة إلى أنّ نتائج تحمّل المسؤولية تعود إلى المجتمع نفسه، فإن الفلاح مأخوذ من فَلَح الأرض أي حرثها وزرعها ليجني ثمارها بعد ذلك، فكما أنّ جهد الفلّاح وتعبه لا يذهب هدراً بل هو أول المستفيدين منه فكذلك المجتمع إذا دعا إلى الخير وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فإنه يفلح؛ لأنه يظفر بما يريد من أغراض وغايات كما صرّح به أهل اللغة(١).

فيكون هو مَن يستفيد من ذلك ويجني ثماره الطيّبة، ولو تخلَّفَ عنه فإنه هو الذي يجني أضراره، وبهذا لا ينبغي أن يغفل المجتمع عن مصالحه؛ لأنّ الغفلة أو التماهل فيها يفوِّت عليه الكثير من المصالح، ولا ينبغي أن يتضايق فاعلو المنكر إذا ردعهم المجتمع عن ذلك؛ لأنّ منفعة الرَدْع تعود إليه نفسه، أو إلى أولاده وأسرته، فإن الخير يَعُمّ والشرَّ كذلك، فقد ورد عن الصادق

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٤٤، (فلح)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٤٠٠، (فلح)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٩٩، (فلح).

عن أبيه عليهما السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ المعصية إذا عَمِلَ بها العبد سرّاً لم تضرّ إلّا عاملها، وإن عَمِلَ بها علانيّة ولم يغيَّر عليه أضرّت العامة. قال جعفر بن محمد عليهما السلام: وذلك أنه يذلّ بعمله دين الله، ويقتدي به أهل عداوة الله»[(١)] وقريب منه ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام[(٢)].

ويتلخّص: أنّ الآية المباركة تبني الخير في المجتمع بالهدم والبناء، فتنفي الشر بالخير والمنكر بالمعروف، وبذلك يكون المجتمع آمناً وسعيداً، وهذا ما تضافر مضمونه في الأخبار، ففي الحديث: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خُلُقان من خُلُق الله تعالى مَن أحياهما أحياه الله تعالى فمَن نصرهما أعزَّه الله، ومَن خذلهما خذله الله»[(٣)] ويُقرأ بضم الخاء واللام، وربما يُقرأ بفتح الخاء وتسكين اللام، ويمكن توجيهه مع ما ذكرنا مع تكلّف، إلّا أنَّ الأنسب والأوفق هو القراءة الأولى.

وفي الجماعة الثالثة قال تعالى: ﴿**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾[(٤)] وإقامة الدين أي جعله حاكماً في المجتمع والدولة، وقد جعلت الآية ذلك تكليفاً عامّاً على جميع الناس، إلّا أنّ الدليل العقلي يلزم بوجوب تصدّي جماعة يتفرّغون لذلك؛ لأن إقامة الدين تتوقف على علم وخبرة وقدرة

---

(١) عقاب الأعمال: ص٣١٠، ح٢؛ البحار: ج ٩٧، ص٧٨، ح٣٥.
(٢) عقاب الأعمال: ص٣١٠، ح٣؛ البحار: ح ٩٧، ص٧٨، ح٣٦.
(٣) الكافي: ج٥، ص٥٩، ح١١؛ الخصال: ص٤٢، ح٣٢.
(٤) سورة الشورى: الآية١٣.

تدبيرية عالية تزيل الموانع كالمناهج والأفكار الباطلة لتقيم مكانها قيَم الدين ومناهجه، ولكن الجماعة وحدها لا تستطيع فعل شيء إذا لا يعاونها المجتمع، ويعزِّز قواها وتدبيرها، كما أنّ تصدي المجتمع كله لذلك من دون متخصصين وخبراء لا يوصل إلى نتيجة؛ لأن الحركة العامّة تحتاج إلى قيادة تخطِّط وتدبر.

ويتحصّل: أنّ الإصلاح الشخصي والاجتماعي في كل صعيد ومعترك يتوقف على الهدم والبناء، ولا يمكن أن تتمّ عملية إصلاح دون مراعاة الترتيب في الهدم أولاً ثم البناء، ودون مراعاة التشارك العام من قِبَل عموم المجتمع، ثم تصدي جماعة تحظى بالعلم والخبرة والقدرة على التصدي والتنفيذ.

ونلاحظ أنّ الجماعات الثلاث كل واحدة منها تمهِّد للأخرى، فالأولى تمهِّد للثانية؛ لتوقف الأمر والنهي على معرفة المعروف والمنكر، وهي الأخرى تمهِّد لإقامة الدين وجعله الحاكم في المجتمع والدولة، وإليه يشير قول الباقر عليه السلام: «أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة بها تُقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتَحلّ المكاسب، وتُردّ المظالم، وتُعمر الأرض، ويُنتصَف من الأعداء، ويستقيم الأمر»[1].

---

(١) الكافي: ج٥، ص٥٦، ح١؛ الوسائل: ج١٦، الباب ١ من أبواب الأمر بالمعروف، ص١١٩، ح٢١١٣٢.

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولّى عليكم شِراركُم، ثُمَّ تدعون فلا يُستجاب لكم»[١].

وسبب تولّي الشرار هو التماهي والتماهل في النهي عن الشر والدعوة إلى الخير، فإن ذلك يهيء الأجواء لتصدي أصحاب المطامع وطلّاب السلطة وتولّي زمام المجتمع. إمّا لعزوف الأخيار عن التصدّي بسبب فساد الأوضاع العامّة، أو لأنّ هؤلاء يتحايلون ويتّبعون مختلف السُبُل للوصول إلى مآربهم.

وقوله عليه السلام: « ثم تَدعون فلا يُستجاب لكم» يشمل دعويين:

الأولى: الدعاء والتوسّل إلى الله سبحانه لإنقاذهم منهم، ومثل هذا الدعاء لا يستجاب؛ لأنّ الناس كانوا سبباً في وقوع الفساد والظلم، وسُنَّة الله سبحانه جرت على الاختبار، وجعل الظلم سبباً للاقتصاص من الظالم.

وفي الحديث القدسي: «الظالِم سيفي أنتقم به وأنتقم منه»[٢].

الثانية: الدعاء والتوسل إلى وسائل القوّة والضغط السياسي والاجتماعي لأجل التخلّص منهم، وهذا أيضاً لا يستجاب؛ لأن وسائل القوة تكون بيد الأشرار وتابعة لهم؛ لذا يكون الأمل بالفرج ضعيفاً ما لم يتصدّ الناس للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويُهيّئوا جماعة لذلك ويتعاونوا معاً لأجل الخلاص.

---

(١) نهج البلاغة: ج٣، ص٧٧، الرقم ٤٧؛ مستدرك الوسائل: ج١٢، ص١٨٠، ح١٣٨٢١.
(٢) الشفاء الروحي: ص٨٦.

وهذا هو ما تعلِّمنا به الآية المباركة إذ دعت بني آدم إلى ترك عبادة الشيطان أولاً ثم التوجّه إلى عبادة الرحمن، ووصفت ذلك بالصراط المستقيم؛ لأنه النهج الذي يوصل إلى المطلوب.

ولو لاحظنا مجموع الآيات الثلاث لعرفنا أنّ المنهج الرباني لإصلاح المجتمع المسلم يقوم على أساس تقسيم المجتمع إلى ثلاث طوائف طائفة تتفقَّه وتعلِّم وترشد، وأخرى تضبط وتُراقب، وثالثة تدير وتنظِّم الأمور، والمجتمع الذي يقوم على الفقه في الدين يكون في طاعة الله بعيداً عن إغواء الشيطان وإغرائه.

القدوة ضرورة في المجتمع والدولة

الأمر الثالث: أنّ الآية أمرت بالعبودية لله ووصفتها بالصراط المستقيم، وهذا على صعيد المفهوم واضح، ولكن لم تبيّن المصداق؛ إذ كيف يكون العباد عباداً لله سبحانه؟ فإنّ المفهوم لابد له من مصداق يحقِّقه ويطبّقه، والعقل والنقل يتفقان على المفاهيم والقيم، ويفتقران إلى القدوة، وليس إلّا النبيّ والإمام عليهما السلام، فلا تصح العبادة لله إلّا بالاقتداء بهما، وكل نهج آخر يغاير نهجهما فهو نهج شيطاني لا يوصِل إلى المطلوب، ولا يوصَف بالصراط المستقيم.

إن قال قائل: هذا يتصور في وقت حضور النبيّ والإمام عليهما السلام، وأمّا في زمان الغيبة فإن الناس محرومون من ذلك؟ فكيف تكون العبادة لله سبحانه؟

والجواب: من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أنّ النبيّ والإمام في كل زمان ومكان موجودان بأقوالهما وأفعالهما وسيرتهما المدوّنة والمنقولة إلى الناس، والوجود المنهجي لهما هو حضور لهما في كل عصر ومصر، فما على الناس إلّا معرفة ذلك وإتّباعه.

الوجه الثاني: أنّهما موجودان بوجود آخر الحُجَج وخاتم الأوصياء مولانا حجَّة الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف، ومنهجهِ وصراطهِ معروف ومسطور في القرآن والسُنَّة وكتب السيرة، والواجب على الناس التتبّع والاطّلاع على ذلك والعمل به.

الوجه الثالث: أنهما موجودان بوجود العلماء الربانيين في كل عصر ومصر، فإنّ وليّ الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف جعل الفقهاء العدول الجامعين للشرائط الملجأ والمأوى للناس في زمان الغيبة، وجعل الرجوع إليهم في الأمور العامّة والخاصة من الواجبات، ومخالفتهم من المحرّمات، ولو أنّ الناس اتّبعوا نهج الفقهاء العدول ولم يخالفوهم في قول أو فعل والتزموا بتوجيهاتهم وإرشاداتهم فإنهم يرشدون ويبلغون الغايات، وإذا قدموا العصبيان والفئويات والحزبيات وغيرها من سلوكيات أو انخدع الناس بالدعايات والتشويهات التي يبثُّها الإعلام المخالف المعادي للدين وأهله وتخلّوا عن ركب العلماء وخالفوهم فإنهم لن يفلحوا ويكونوا قد وقعوا في شِراك الشيطان وإغوائه؛ لأن الشرع جعل الفقهاء العدول جامعي الشرائط

حصون الأمَّة، ومجاري الأمور بأيديهم، وهم أمناء الرسل[(١)]، وخلفاء النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله الذين دعا لهم بالرحمة ثلاث مرات، ووصفهم بأنهم يتَّبعون حديثه وسنَّته ثم يعلمّونها الأمَّة[(٢)].

وفي رواية العسكري عليه السلام: قال: «قال عليُّ بن محمد عليهما السلام: لولا مَن يبقى بعد غيبة قائمنا عليه السلام من العلماء الداعين إليه والدالّين عليه والذابّين عن دينهِ بحجج الله والمنقذين لضعفاء عباد الله من شِباك إبليس ومَرَدَتهِ ومن فِخاخ النواصب لَمَا بقيَ أحد إلّا ارتدّ عن دين الله، ولكنَّهم الذين يمسكون أزمّة قلوب ضعفاء الشيعة كما يمسك صاحب السفينة سُكّانها أولئك هم الأفضلون عند الله عزّ وجلّ»[(٣)].

وفيها دلالة على ما ذكرناه في اللطيفة الثالثة من أنّ دأب الشيطان وعداوته مع شيعة آل محمد عليهم السلام.

فإذا اتّبع الناس العلماء العدول اهتدوا إلى الصراط المستقيم، وإلّا أضلّهم الشيطان وساقهم إلى النار، وهذا ما حذَّر منه النبي صلى الله عليه وآله فقال: «سيأتي زمان على الناس يَفرّون من العلماء كما يَفرّ الغَنَم من الذئب. –

---

(١) الكافي: ج١، ص٣٧، ح٥.

(٢) جامع أحاديث الشيعة: ج١، ص٢٣٤، ح٣٥٥؛ البحار: ج٢، ص١٤٤، ح٣، وفيه: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهم ارحم خلفائي ثلاثاً. قيل: يا رسول الله! ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يتبعون حديثي وسنتي ثم يعلمونها أمتي».

(٣) البحار: ج٢، ص٦، ح١٢؛ الاحتجاج: ج١، ص٩، وفيه: ((قائمكم بدل قائمنا)).

فإذا كان كذلك - ابتلاهم الله بثلاثة أشياء: الأول: يرفع البركة من أموالهم، والثاني: سلّطَ الله عليهم سلطاناً جائراً، والثالث: يخرجون من الدنيا بلا إيمان»[١].

وتسليط السلطان عليهم سببه فرار مجتمعهم من العلماء، والمجتمع الذي يفرّ من علمائه يبقى جاهلاً وبلا قدوة صالحة تهديه إلى الصواب، ومثلهُ ينتج سُلطاناً جائراً؛ لأن الحاكم ثمرة المحكوم.

وخروجهم من الدنيا بلا إيمان أي بلا إيمان كامل أو حق؛ لأن مخالفة العلماء يقسِّم المجتمع إلى قسمين: قسم يخالف العلماء فيعمل باجتهاداته وهو ضلالة ووقوع في فتنة البدع والخرافات فيكون بلا إيمان حقّ، وقسم يخالف العلماء ولا يعمل بالأحكام فيخرج بلا إيمان.

وفي الحديثين الشريفين تتّضح مكانة العلماء في الأمَّة وأثرهم في نجاتها وخلاصها من الفتن وشِراك الأبالسة، وهذا يوضّح السرّ الذي يجعل أعداء المسلمين يعادون العلماء، ويبثّون ضدهم الدعايات، ويشوّهون صورتهم في أنظار العامّة؛ لأنّ البلاد التي يطيع أهلها العلماء تكون في منجى، ولو تمرَّدوا ساقتهم الفتن والأهواء والأحزاب المتفرقة إلى التيه والضلال، وأوقعتهم في المهالك.

---

(١) البحار: ج٢٢، ص٤٥٤، ح١١؛ سفينة البحار: ج٢، ص٢٢٠ ؛ ينابيع الحكمة: ج٤، ص١٩٨، ح٧٦١٦.

التعليم الثاني: كيف الخلاص من ضيق المعيشة؟

إنّ الآية المباركة وصفت عبادة الباري عزّ وجلّ بالصراط المستقيم، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الدنيا ليست دار إقامة بل دار مرور واجتياز، وأنّ عُمْر الماشي فيها في حدود قَطْع الطريق الذي يَمرّ فيه ويمشيه، فالماشي هو الذي يحتاج إلى صراط أمّا المقيم فلا حاجه له إليه.

ولا يفلح الإنسان في مشيه إلّا إذا كانت له غاية يطلب الوصول إليها، وإلّا كان مشيه عبثياً، ولا مطلوب يستحق الطلب و التضحية لبني آدم إلّا الوصول إلى رضوان الله و نعيمهِ في الآخرة، وكل مطلوب غيره زائف، وهو مطلوب فطري للبشر، ولا يكون إلّا لمن اتَّخذ العبادة لله سبحانه نهجاً، أمّا الذين يتّخذون عبادة الشيطان نهجاً لهم فلا يصلون إلى مطلوبهم، بل يصلون إلى نقيضه؛ إذ لا أحد من الناس يحب العذاب والنار، ولكنهم حيث عبدوا الشيطان قادهم إلى هذا المصير، وبذلك يعلّمنا الباري أنّ السعادة والوصول إلى الغايات في الدنيا والآخرة منحصر بعبادة الله سبحانه واتِّباع أوامره ونواهيهِ لا بمخالفته وعصيانه.

وهذا النهج أي العبودية لله تجعل الإنسان في إقامة دائمة عند الله سبحانه. إقامته في الدنيا اعتقادية شعورية؛ لأنه يحظى بعنايته ورحمته، وفي الآخرة إقامته حسيّة أيضاً، وهذا ما أكّده في آيات عديدة:

منها: قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾[١] أي الضيق في المعيشة اليومية[٢] و إن كان يمتلك الثَراء أو السُلطة، أو تنصاع له الدنيا إلّا أنه في ضيق من العيش، وينشأ هذا الضيق من أمرين:

أحدهما: السجايا النفسية، فإنه يئنّ في داخله وإن لم يظهر على جوارحه؛ لأن المعرضين عن ذكر الله يتّخذون الدنيا هدفاً فيعيشون البخل والحرص والطمع والتكالب على المصالح بما يضيّق عليهم معيشتهم، وهذا ما يؤكِّده واقع الحياة الاجتماعية، بل وحتى الدولية فإنّ الحياة يوماً بعد يوم تضيق بأهلها بسبب الجشع والطمع والحرص، وقد وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿بأنهم يعيشون عيش الفقراء، و يحاسبون في الآخرة حساب الأغنياء﴾[٣].

ثانيهما: القلق و الخوف من زوال هذه النِعَم التي هو فيها؛ لأنه لا وليّ له يحميه ويدفع عنه العوارض والشعور بالخوف و القلق، فإن الباري عزّ وجلّ فتح أبصار بني آدم على حقائق ثلاث في القرآن:

الأولى: أن الاطمئنان القلبي والاستقرار النفسي يحصل بذكر الله سبحانه؛ إذ قال سبحانه: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[٤] وبمقتضى مفهوم المخالفة يستفاد أنَّ الإعراض عن ذكره ملازم للقلق و الاضطراب.

---

(١) سورة طه: الآية ١٢٤.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥١٢، (ضنك)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٥٤٥، (ضنكه).

(٣) انظر عيون الحكم والمواعظ: ص٣٣٠؛ نهج البلاغة: ج٤، ص٣٠، الرقم ١٢٦.

(٤) سورة الرعد: الآية٢٨.

والثانية: أنّ عدم ذكرِ الله وعبادته يوقع في عبادة الشيطان، وهي تقوم على العداوة والمنافرة والحرص والطمع والتنازع والاختلاف والقطيعة وغيرها من صفات رذيلة تجعل حياة الإنسان غابة.

وهذا ما يؤكِّده الواقع أيضاً، فإنّ البشرية ذاهبة إلى مزيد من العناء وضيق المعيشة بالرغم من اتِّساع القدرة على استثمار الموارد و الخيرات المودعة في الأرض وأطرافها؛ لأنّ الرفاه و السعادة ليس بوفرة الثروة وكثرة الخير، بل بالفضائل المعنوية و المشاعر الإنسانية، وها هي سجون العالَم مليئة بالسجناء، وشبابه مبتلى بالأمراض الروحية والبدنية، وأُسَره يتزايد فيها الطلاق، وبعض المجتمعات مصابة في غالبها بأمراض الكآبة ونحوها، وقد أقرَّ بذلك بعض زعماء العالم، فأحد رؤساء الولايات الأمريكية -نيلسون- في خطابه الرئاسي قال: إنّنا نرى حولنا دائماً حياة جوفاء ونحن نأمل انْ نرضى ولكنّنا لا نرضى، وآخر يقول: إنّي أرى الإنسانية تعدو في زقاق مظلم لا شيء في نهايته إلاّ القلق المطلق[1].

واليوم هناك دعوة للكثير من العقلاء وأهل الفكر والزعامة فيهم ينادون بعالَم ما بعد العلمانية يتوقعون فيه عودة المجتمع البشري إلى الدين والقيَم الدينية؛ لأنهم جربوا العلمانية ومناهجها فوجدوها مُحطِّمة للسعادة الإنسانية، ومسوِّدة لحياتها وقيمها.

---

(١) تفسير الأمثل: ج١٠، ص١٠١.

وهنا نسجل لهم أنّ العودة إلى القيم الدينية مطلقاً لا توجب السعادة، بل يوجبها العودة إلى القيم الدينية الصحيحة، وليس إلّا نهج النبي والأئمة عليهم السلام، فإنّ الدين دينان دين حق صنعه الله سبحانه و جعل له رموزاً وقادة هو دين محمد وآل محمد عليهم السلام، ودين صنعه الناس وجعلوا له رموزاً وقادة. وهذا الدين لا يمكن أن يوصل إلى غاية؛ لأنه ليس بصراط مستقيم، وهو ما يؤكده سياق الآية والروايات الشريفة التي فسّرت الإعراض عن ذِكر الله سبحانه بالإعراض عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وعن اتّباع الأئمة عليهم السلام(١)؛ إذ قال تعالى مخاطباً آدم وحواء بعد إغواء الشيطان لهما: ﴿**اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾(٢) وبعض الروايات تنصّ على أنّ ضيقهم في المعيشة لا ينحصر بالدنيا، بل يشملهم في عذاب القبر والرجعة فضلاً عن الآخرة(٣).

الثالثة: أنّ عدم ذكر الله وعبادته يضيّق على الإنسان السبل؛ لأنه بلا رصيد معنوي يعزره وينصره، ولذا نصت الآية على أنّ التضييق يكون في المعيشة وليس في الحياة؛ لأن العيش اسم لأسباب الحياة كالأكل

---

(١) انظر الكافي: ج١، ص٤٣٥، ح٩٢؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٤٤٣، ح١٦٦؛ الكافي: ج٨، ص١٦، ح٤.

(٢) سورة طه: الآيتان ١٢٣-١٢٤.

(٣) مجمع البيان: ج٢، ص٥٥ ؛ تفسير القمي: ج٢، ص٦٥؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٤٤٤، ح١٦٨، ح١٦٩.

والشرب[١]، وهو أخصّ من الحياة؛ لاختصاصه بالجانب المادي، ولذا لا يُطلق العيش على حياة الباري والملائكة والأرواح والعقول[٢]، فإن عباد الله لهم رصيد عند الله سبحانه، ويرجون منه ما لا يرجونه عباد الشيطان، فلو وقع في شدّة التجأ إليه ودعاه استجاب دعاءه، وفرّج عنه، وأصلح شأنه بخلاف غيره.

إنْ قلت: لو كان الأمر كما ذكرتم كيف نرى أنّ الكثير من المؤمنين في ضَنك من المعيشة وضيق وهم صالحون؟

فالجواب: أنّ ذلك لا يعتبر نقضاً للقاعدة التي ذكرناها، وضيق المعيشة المشهود يعود لوجوه:

الأول: أنّهم لم يتبعوا السبل الصحيحة للمعيشة المرفهة، فإن الدنيا قائمة بنظام الأسباب والمسببات، فالذي لا يعمل لا يكتسب المال، والذي لا يتعلم لا يعلم، كما أنّ الذي لا يأخذ بأساليب العمل الصحيح تضيق معيشته؛ لأنه مشى في الطريق غير الموصل، وما قلناه إنّ المؤمن له رصيد معنوي عند الله سبحانه، وهذا الرصيد يعزه وينصره إذا وفّر الاستعداد لذلك، وأمّا إذا لم يوفره فإنه لا ينال شيئاً ممّا ذكر.

الثاني: حتى لو اتبعوا السبل الصحيحة إلّا أنّ ضيق عيشهم قد يكون ناشئاً من سوء تصرفهم وعدم حكمتهم، أو أنهم لم يلجؤوا إلى الله ويدعوه

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٣٨١، (١٥٣٢).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٩٦، (عيش)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٤٠، (عيش).

إلّا بصورة الدعاء لا بواقعه وحقيقته، والباري عزّ وجلّ وعدَ بالإجابة للداعين واللاجئين إليه حقيقة لا صورة.

الثالث: وعلى فرض التسليم بكفاية صورة الدعاء إلّا أنّ القاعدة العامة في إجابة الدعاء مخصصة بقاعدة أخرى هي قاعدة ضرورة الاختبار والامتحان التي يتعرض لها المؤمن لأجل غفران ذنوبه، أو تعلية درجاته، والتي هي في نهايتها تعود عليه بالحياة السعيدة المرفَّهة.

وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام كما في نهج البلاغة: ﴿أن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبَّدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبّر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم﴾[(١)] ومعناه أن الابتلاء يرسِّخ في نفوس العباد العبودية لله سبحانه، وهذه مصلحة عظمى يترتب عليها الكثير من الآثار المعنوية والمادية، ومنه يعرف أنّ السعة في المال والحال إذا توفرت لغير المؤمن فإنّها تندرج في اختباره وامتحانه لإتمام الحجة عليه.

ويتحصّل مما تقدّم: أنّ على الإنسان أن يعلم أن الدنيا دار ممرّ وليست دار مقرّ، وعليه عهد فيها أن يكون عابداً لله، وبه يضمن سعادته في الدنيا وفي الآخرة، ولذا وصفته الآية بأنه صراط مستقيم، وهذا الصراط يتّسم بخصائص ثلاث:

الأولى: أنه واضح لا لَبْسَ فيه ولا خَفاء.

---

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص١٤٨، الخطبة ١٩٢؛ كتاب التمحيص: ص٥.

والثانية: أنه قويم ومستقيم لا التفاف فيه ولا خداع ولا تضليل.

والثالثة: أنه موصل إلى الغايات بأيسر وأسهل السبل.

وتلخّص ذلك كله في اتّباع محمد وآل محمد عليهم السلام، وكل الطرق الأخرى فإنها تحمل الخصائص المضادة له، ولذا لا توصل الإنسان إلى سعادته، بل إلى شقائه؛ لأنها من عبادة الشيطان.

التعليم الثالث: كيف تتحرز من الشيطان؟

يجب على المؤمن أن يتحرّز من عبادة الشيطان، ويكون منه على حذر، ويمكنه بلوغ ذلك عبر طريقين:

الأول: الرقابة الذاتية، بأن يلتفت ويراقب نفسه لدى كل عمل يريد أن يقدم عليه، وقد قرر ذلك بعض علماء الأخلاق بقوله: إن دَعَتك نفسك إلى فعل فانظر أهو مأذون فيه أو ممنوع، وهذا يتطلب منك التفقّه في الدين ومعرفة الأحكام؛ لأن المأذون وغير المأذون يؤخذ من الشرع، فإذا عرفت أنه فعل غير ماذون فيه فأعرف أنه طريق شيطاني، فإن دعتك نفسك إليه كانت نفسك هي الشيطان، أو معها شيطان يدعوك إليه فإن فعلته فاعلم أنك عبدت الشيطان، وإن اجتنبته فاعلم أنك عبدت الرحمن[1].

ورغم ذلك لا تأمن ، وكُن على حذر؛ لأن الشيطان يأتيك من ثلاث جهات:

---

(١) انظر مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٤.

إذ يدعوك إلى مخالفة الله سبحانه ظاهراً فيُزيّن لك المعصية لكي يوقعك فيها، فإن أطعته عبدته، وإن خالفته أتاك من الجهة الثانية وهي التضليل، فيوسوس لك، ويلقي في قلبك ضرورة الاهتمام بالعبادة لتكون عزيزاً عند الناس، ويرتفع شأنك عندهم، وينتفع بك أخوانك وأعوانك، وبهذا يكون قد دس الشرك في عملك، ويخرجك من عبودية الله إلى عبوديته، فإن عجز عن ذلك لقوة قلبك وانقطاعك جاءك من الجهة الثالثة، بأن يحرِّض بعض الناس لنقدك والكلام عليك أو اتهامك، فينزغ بينك وبينهم، ويوقعك في الفتن، وهي مرض خطير يشتمل على أنواع الذنوب والمعاصي، فلو استجبتَ له حقَّق ما يريد، وإلّا خابت آماله، ونلاحظ أنّ هذا الطريق وإن كان صعباً إلّا أنّ المؤمن قادر على التغلب والانتصار فيه إذا كان نبهاً ملتفتاً، وهذا ما يسمِّيه علماء الأخلاق بالمراقبة، فلو أحبّ الإنسان نفسه وكان على حذر نجا من شِراك الشيطان.

الثاني: الرقابة الاقتدائية، وذلك بأن يقارن الإنسان عمله بسيرة النبيّ والأئمة الطاهرين عليهم السلام ليعرف في أي موقع ومنهاج يمشي، فإنه لابد لكل مأموم إمام يقتدي به ويستضيء بنور علمه، فلو التفت الإنسان إلى أن علمه يستسقيه من إمام الحق ويقتدي به عرف بأنه في طاعة الرحمن، ولو كان العكس عرف أنه في طاعة الشيطان ولو كان صائماً مصليّاً، وهذا ما تقرره الروايات الشريفة.

ففي رواية أبي حمزة قال: قال لي أبو جعفرعليه السلام: «إنما يعبد الله من يعرف الله، فأمّا مَن لا يعرف الله فإنما يعبده هكذا ضلالاً» قلت: جعلت فداك، فما معرفة الله؟ قال: «تصديق الله عزّ وجلّ، وتصديق رسوله صلى الله عليه وآله، وموالاة علي عليه السلام والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام، والبراءة إلى الله عزّ وجلّ من عدوّهم. هكذا يعرف الله عزّ وجلّ»[(١)].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «أنّ الله تبارك وتعالى لو شاء لعرّف العباد نفسه، ولكن جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله والوجه الذي يُؤتى منه، فمَن عدل عن ولايتنا أو فضَّل علينا غيرنا فإنهم عن الصراط لناكبون»[(٢)].

وفي رواية زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «بُنيَ الإسلام على خمسة أشياء، على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية» قال زرارة: فقلت: وأيّ شيء من ذلك أفضل؟ فقال: «الولاية أفضل؛ لأنها مفتاحهُنَّ، والوالي هو الدليل عليهنّ...» ثم قال: «ذروة الأمر وسنامهُ ومفتاحهُ وباب الأشياء ورضا الرحمن الطاعة للإمام بعد معرفته. إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿**مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾[(٣)] أمّا لو أنّ رجلاً قامَ ليلهُ وصامَ نهارهُ وتصدّق بجميع ماله وحجّ جميع دهرهِ

---

(١) الكافي: ج١، ص ١٨٠، ح١؛ دراسات في الحديث والمحدثين: ص٢٨٩.

(٢) الكافي: ج١، ص١٨٤، ح٩؛ بصائر الدراجات: ص٥١٧، ح٨؛ البحار: ج٢٤، ص٢٥٣، ح١٤.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٠.

ولم يعرف ولاية وليّ الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته إليه ما كان له على الله جلّ وعزّ حق في ثوابهِ، ولا كان من أهل الإيمان﴾ ثم قال : ﴿أولئك المُحسن منهم يدخله الله الجنة بفضل رحمته﴾[1].

وقوله: (أولئك) ظاهر في عوده لغير العارف بوليّ الله، وكونه مُحسناً أي ملتزماً بالواجبات والطاعات ومُقتدياً بغير إمام الحق عن قصور منه لا عن عَمْد أو تقصير فإنه يدخل الجنة بالرحمة والفضل؛ لأن القاصر معذور، ولذا وصف بأنه (محسن).

التعليم الرابع: فقهي

وهو أنّ منجزية العهد ومعذريّته تتوقف على العلم بمضمونه وأطرافه مع القصد والالتزام، فالعهد المجهول في نفسه أو في أطرافه أو العهد بلا قصد وإرادة ولا التزام لا ينعقد؛ لانتفاء موضوعه. يستفاد ذلك من ذم الباري عزّ وجلّ بني آدم لنقضهم ما عهد إليهم به بعد تعريفهم بمضمونه، ولو لم يلتزموا أو لم يعلموا لما صحَّ الذمّ والتوبيخ.

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٨-١٩، ح٥؛ وانظر المحاسن: ج١، ص٢٨٦-٢٨٧، ح٤٣٠.

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا
كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ

يس/ ٦٢

أفلا يعقلون؟

وردت بلسان العطف على قوله تعالى: ﴿**لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾[1] لثلاثة دواع:

الأول: بيان المصداق العملي لعداوة الشيطان لبني آدم، فإنّ كل عاقل ملتفت يدرك أنّ الكثير من الناس أضلّهم الشيطان وأهلكهم في الدنيا قبل الآخرة عبر أمرين:

أحدهما: ما يشاهده من مصير سيّء يلاقيه الأشرار والظالمون وأتباع الشهوات الذين يغويهم الشيطان ويرديهم في المهالك، فإنّ مصير الشرّ والظلم والفساد هو الهلاك والخزي، وأظهر شاهد على هذا مصير الملوك والسلاطين الظَلَمَة، فإنّ عاقبتهم طراً بين ميتة السوء أو سوء الذكر وتواتر اللّعن عليهم، وهو أسوأ من الموت من بعض الجهات.

ثانيهما: ما يشاهده من واقع حال عباد الشيطان في أيامهم التي يعيشونها، فهل ترى أنّ الزاني وشارب الخمر وقاتل النفس المحترمة والسارق والمرتشي في راحة؟ كلا، فإنّ الكثير منهم يقرّون على أنفسهم بالعذاب، وبعضهم يفرّ من الأزمات والمشاكل إلى المعاصي توهّماً منه أنّ ذلك ينسيه أو يخفّف عنه ألمها، وهذا الوهم هو الآخر من إغواء الشيطان.

---

(١) سورة يس: الآية ٦٠.

وبعضهم الذين لا يقرّون بذلك يعيشون في نفوسهم تناقضاً كبيراً، ويلازمهم تأنيب الضمير؛ لأن كل إنسان بفطرتهِ الأولية يُدْرِك قُبْح العصيان وحُسْن الطاعة والهداية، فلو أقدم عليه يشعر بالتناقض بين وجدانه وفطرته وبين عمله، وهذا من شأنه سلب القرار والاستقرار؛ لأن أكثر ما يعذب الإنسان هو تناقض جوّانيّه وبرانيّه وظاهره وباطنه. هذا في العمل.

وأما في الضلالة في الفكر فأثرها أعمق وأبلغ؛ لأنّ الإنسان لا يستقر إلّا بفكر ثابت وإيمان راسخ وعقيدة صائبة، وذلك لا يكون إلّا في العقيدة الحقة بالتوحيد والنبوّة والإمامة والمعاد، فلو اختلّت عقيدته بأن لم يعتقد بذلك أو اعتقد الاعتقاد الخاطئ فإنه لا يستقر ولا يطمئن لمستقبله ومصيره. يؤكد ذلك إقرار الكثير من أئمة الإلحاد والضلالة في آخر رحيلهم من الدنيا بخطئهم الفادح، وأنهم بعد انكشاف الحقيقة لهم يواجهون مصيراً سيئاً وعدالة ربانيّة كبيرة، والواقع الخارجي لحياة الناس شاهد على أن الذين يتمتعون بعقيدة صحيحة وأعمال صالحة يعيشون آمنين مطمئنين، ويشعرون بالراحة والسعادة، وينجبون أبناء صالحين، بخلاف غيرهم.

هذه الحقيقة يدركها كل ناظر إذا التفت إلى واقع الناس وأحوالهم ومصائرهم، وسبب ذلك كله اتباعهم للشيطان وابتعادهم عن نهج الرحمن، وهذا ظاهر، فأن الإعراض عن ذكر الله يوجب ضيق المعيشة، بينما الذكر يوجب الرفاه واطمئنان القلب.

وبهذا تقرر الآية المباركة نهجا علمياً راكزاً في شرح المفاهيم المجردة بالمصاديق الخارجية والاستعانة بالوجدان بدلاً عن البرهان؛ لتوصل الحقيقة إلى الناس عن علم ويقين لا يقبل الشك، فيكون أدعى للاستجابة لنداء العقل والفطرة، وتجنب نهج الشيطان وإغوائه؛ لأن التعليم بالأمثلة والمصاديق أقوى أثراً من التعليم بالمفاهيم والصور الذهنيّة، وهو لطف إلهي آخر يضاف إلى ألطافه المتواترة في هداية الخلق وإصلاحهم.

الثاني: بيان أنّ هذا المصير لا يختص بأناس دون أناس، بل هو عامّ، فكما أنّ الشيطان أضلّ أباك وأخاك وجارك فإنه يضلك ويضل أبناءك أيضاً، فلا ينبغي أن يأمن أحد شرّه وضلاله، وكل من أضلَّه الشيطان سلب قراره وسعادته، وهذا ما يشير إليه قوله: (منكم) فلا ينبغي أن يتصور أحد أنّ الشيطان عدوّ لجاره وأصحابه كما يعتقد البعض أنّ الموت حقّ ولكن للغير فلا يعتبر. أمّا هو ففي منجى منه، بل الكل معرّضون إلى إغرائه؛ لأن عداوته لبني آدم عامّة وشاملة.

فالشيطان كالموت الكل يعتقد أنه حق ولكن للغير وليس للنفس، ولو كان الناس يرون أن الموت حق على النفس أيضاً لما وقعوا في الكثير من المعاصي، وكذلك الشيطان.

الثالث: لبيان أن من يقع في شِراك الشيطان بعد كل هذا التحذير والتنبيه ليس إلّا فاقد العقل؛ لأن من يستمع إلى عدوِّه ويثق به ويتّبعه ليس بعاقل، وهو أحد شخصين:

أحدهما: من اتبع تزيين الشيطان فألغى عقله واتّبع شهوته فصار طعمة للشيطان، وربما جندياً من جنوده وهو العاصي.

ثانيهما: من اتّبع تضليل الشيطان فلم يصدِّق ربه، ولم يتّعظ من التجارب، وأخذ الأمور بتهاون ولا مبالاة فجرّه الشيطان إلى ضعف العقيدة الحقّة أو إنكارها، وهو الضال، ومما يزيده ضلالاً أنّ الشيطان يسوّل له، وينفخ فيه روح الاستعلاء والغرور، فيتصوّر نفسه أنه فوق الآخرين في العلم والمعرفة، وأن عقله أكبر من عقول الأنبياء والأولياء، فيكذِّب الوحي، وينفي الحقائق الدينيّة أو يشكك فيها بأوهام وخيالات يتصوّرها عِلماً، وسبب ذلك هو أنه سلّم عقله للشيطان، فلم يكن يعقل الأمور ويعيرها بميزانها، وهو بهذا قد يكون أسوأ من الشيطان؛ لأن الشيطان على غروره وطغيانه فأنه لم ينكر ربوبية الخالق وألوهيّته، إلّا أنّ بعض أتباعه ينكرون الخالق ويلحدون به.

ونلاحظ أنّ الآية المباركة وردت في سياق بيان عداوة الشيطان بدليل حسّي ملموس يدركه كل عاقل لكي يؤمن به الإلهيون الذين يصدقون الوحي فيما يخبر، والحسيون الذين يصدقون بالحسّ والتجربة، فتكون الحجة تامّة على الكل؛ لأن المجتمع البشري لا يخلو من هاتين الفئتين. هذا ما يقال في السياق الموضوعي للآية، وأما التفاصيل فتقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ﴾

(الواو) عاطفة، و(لقد) تفيد تحقق الوقوع، فالجملة جبرية متضمنة للإنشاء والذم، و (أضلّ) مأخوذ من الضَلال وهو العدول عن الطريق المستقيم[1]، وهو ضد الهداية، ويشمل العدول في العمل أو في العقيدة أو في السجايا والأخلاق، وبقرينة المقابلة مع الصراط المستقيم يستفاد أنّ الإضلال عن محمد وآل محمد عليهم السلام في المجالات الثلاثة التي هي خلاصة العبادة والديانة الربانيّة، فإنهم صلوات الله عليهم صراط الله في العقيدة الحقة والعمل الصالح والأخلاق والفضائل السامية، وما يضاد ذلك يمثل عقائد وأفعال وسجايا أعدائهم وهو نهج الشيطان.

ويتحقق الضلال بصورتين:

الأولى: إخراج العمل عن النهج القويم، فإذا كان كذلك كانت نتائجه مثله، وإليه يعود تفسير الضلال بضد الرشاد.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٠٩، (ضل).

والثانية: إبطال العمل وجعله بلا أثر، وإليه يعود تفسير الضلال بالهلاك[(١)]، وهو يعود إلى الأول؛ لأن الهلاك يكون بالعدول عن الاستقامة في الذات أو في الأثر.

وصيغة الماضي تفيد وقوع الإضلال في بني آدم في جميع الأزمنة الماضية، فهو كذلك في الزمان الحالي والاستقبالي؛ لأن العداوة طبعه وطبيعته، وهي لا تختلف ولا تتخلَّف.

وقوله (منكم) يدل على أنّ الضلال لا ينال الكل، فهناك من ينجو وهو الذي يتمسّك بالعبودية لله سبحانه باتّباع محمد وآل محمد وهم خواص الشيعة والمؤمنين؛ لأنهم كمّلون في عقولهم ونفوسهم كما مرّ بيانه، وهنا لابد من الإلفات إلى ضرورة العمل لتقوية العقيدة الحقّة بمحمد وآل محمد في القلوب والنفوس؛ لأن الشيطان يعجز عن أصحاب العقائد القوية ولا يقدر إلّا على الضعفاء.

المفردة الثانية: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾

قد قُرِئت بقراءات عديدة بعضهم أنهاها إلى ست وهي مخالفة للتحقيق الذي ذكرناه غير مرة[(٢)]، والصواب هو ما ورد في نص الآية بكسر الجيم والباء وتشديد اللام.

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٥، ص٤١٠، (ضل)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٥٤٢، (ضل).

(٢) مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٤؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧١؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٩٣؛ روح المعاني: ح٢٣، ص٥٦؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٤٨.

والجِبلّ جمع جبلة، والجبلة: الخلقة[1]، والمراد الخلق، وهو مصدر بمعنى اسم المفعول، والمعنى أنه أضلَّ خلقاً كثيراً أي مخلوقاً، والمخلوق يشمل كل مَن في عالَم الإمكان، إلّا أنّ قوله (منكم) خصّص ببني آدم، وفيه دلالة على أنّ الشيطان لا يقدر على إغواء وإضلال غير بني آدم لسببين:

الأول: لأن كل الموجودات المادية كالحيوان والنبات والجماد وهي كائنات حيّة شاعرة ومدركة ومطيعة لله سبحانه بالجبلة التكوينية، وعارفة بحجج الله تبارك وتعالى، ومقرّة بفضل محمد وآل محمد عليهم السلام، ومطيعة لهم، والروايات الواردة في رفض بعضها للولاية تضمنت الرفض ولم تدل على ترك الطاعة والإمامة قهراً، وعلى فرض ذلك فإنها وقعت في ذلك نتيجة إبائها الذاتي لا إغواء الشيطان؛ لأنه لا يعاديها.

الثاني: لأنّ الموجودات غير المادية الثقيلة كالملائكة والجن إمّا معصومة أو أنّ الشيطان لا يعاديها فلا يضلها إمّا عجزاً كإضلال الملائكة، أو انصرافاً كإضلال الجنّ، وربما يعجز عن إضلال الجن لأنه مكشوف لديه.

إن قلت: لكن الجنّ مكلَّف وفاعل مختار وفيهم المؤمن والكافر والعادل والفاسق؟

فالجواب: أنّه كذلك، إلّا أنّ الضلال والفسق الحاصل فيهم ناشئ من شرور النفوس لا من إضلال الشيطان، وقد مرّ في بيان بعض الآيات أن

---

(١) مختار الصحاح: ص٥٧، (جبل).

شيطنة الشيطان نفسه ناشئة من شرانيّة نفسه، وكذلك البشر، فإن ليس كل ما يرتكبونه من شرّ ناشئ من الشيطان بل من شرور نفوسهم، كما شهد له قوله تعالى في حكاية أول جريمة قتل وقعت على الأرض ارتكبها أحد ابنيّ آدم قال تعالى: ﴿**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ**﴾[1] ولم يقل فسوّل له الشيطان؛ لأن الشيطان مهما بلغ من القوة والقدرة فإنه لا يقدر على إجبار الإنسان على الفعل، وكل ما يقدر عليه هو الإغواء والإضلال، وفي قصة ابني آدم دلالة على أنّ الحسد إذا استولى على النفس صيّرها شيطانية خبيثة تصدر منها الخبائث دون حاجة إلى تضليل شيطاني، وهذا ما أكدته هذه الآية.

ويتحصّل: أنّ الشيطان عداوته تختصّ ببني آدم، وقد أضلَّ الكثير منهم، وأما غير بني آدم فإما يعجز عن إضلاله وإما منصرف عنه، والعداوة إذا اختصّت تركّزت واشتدّت، ورغم ذلك فإنه ليس له قدرة إلّا على من أراد اتّباعه وإطاعته، وأما من أكمل عقله ونفسه فهو عاجز عنه، ونلاحظ أنّ الآية وصفت المتأثرين بالشيطان من بني آدم بالجِبلّة وقوله: ﴿**أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً**﴾[2] يستبطن متعلقاً مقدّراً لدلالة الإضلال عليه، أو لأنه معهود ذكري في الآية السابقة وهو الصراط المستقيم.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣٠.

(٢) سورة يس: الآية ٦٢.

المفردة الثالثة: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾

(الهمزة) للاستفهام الإنكاري، ولا يراد إلّا لذم العارفين إذا لم يبالوا بالواجب وتوبيخهم، وبنو آدم عرفوا الشيطان منذ الخلق الأول وحُذِّروا منه، ولكن الكثير منهم اتّبعوه فاستحقوا الذم والعقاب.

وأضاف الاستفهام تقريعاً آخر غير تقريعهم على نقض العهد الإلهي، وهو التقريع على عدم الاتّعاظ والتعلُّم من التجارب التي مرّت بها الأجيال البشرية التي غرّرها الشيطان وخدعها، فإن الذي لا يتّعِظ مع توفرّ الموعظة يستحق اللوم والمذمّة.

و(الفاء) أما للعطف على فعل مُقدّر تقديره ألم تشاهدوا كيف كان الشيطان يُضلّ إخوانكم من بني آدم ويورثهم المهالك فلِمَ استجبتم له(١)؟

وإما للتفريع عن التوبيخ والذم، والمعنى كنتم تشاهدون إضلال الشيطان فما استجبتم ولا تعقّلتم، ولا تنافي بينهما؛ لأن العطف يتضمّن التفريع، ولعلَّ من هنا سكتَ الكثير من المفسرين عن بيانه؛ لأن الظهور مُغن(٢).

و(تكونوا) صيغة مضارع يدل على الوقوع الدائم المستمر، وضمير الجمع يعود على المخاطبين وهم المجرمون من أهل النار، وفيه دلالة على أنهم غفلوا عن الموعظة في جميع أجيالهم، وكأنهم جُبِلوا على الغفلة فلم

---

(١) انظر روح البيان: ج٧، ص٤٢٠.

(٢) التبيان: ج٨، ص٣٥٦؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٤ ؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٩٣-٩٤؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٤٩

يوظفوا عقولهم للاعتبار وإنّما للاتجار والانشغال بمصالح الدنيا وأهوائها، وذمهم على عدم تعقلهم يدل على حقيقتين:

الأولى: أنّ العقل ملازم لخلق الإنسان الروحاني لا الجسماني، وهو صفة ذاتية له مجعولة له بالجعل البسيط قبل عالم الدنيا، وباقية لما بعد الدنيا، وبه عرف الإنسان ربه وعرف عدوّه أي الشيطان، والعهد الذي تمَّ على عبادة الله وترك عبادة الشيطان، ومعنى ذلك أنه تكوين روحي لا جسدي؛ لأن الاجساد من شؤون الدنيا، والمخّ ليس هو العقل وإنّما محل ظهور أثره.

وهنا يظهر بطلان نظريتين للطبيعيين الذين يرجعون العقل إلى الجسد، والآخرين الذين أرجعوا الخلق إلى أصل الأنواع، وكلاهما يتعلقان بالوجود الجسماني في الدنيا.

الثانية: أن العقل حجة على بني آدم، وبأحكامه يحاسبون ويعاقبون، وبه تبطل نظريات النافين لحجية العقل من الإلهيين أو النافين لاستقلال العقل بالأحكام.

ويتلخّص من مجموع المفردات نتائج عديدة:

الأولى: أن الشيطان تغلَّب على بني آدم وأضلّ الكثير منهم في جميع أزمنة الدنيا، وسببه هو نقضهم للعهد مع الله سبحانه وعدم اتعاضهم بالتجارب.

الثانية: أن العقل الإنساني هو لبّ تكوينهم، وهو حجة عليهم، فلو خالفوه استحقوا الذمّ والعقوبة، فإن الشيطان لا يقدر على تضليل كامل العقل.

الثالثة: أن الإنسان العاقل يتَّصِف بصفتين:

إحداهما: الوفاء بعهوده ومواثيقه التي يقطعها على نفسه.

وثانيتهما: التعلّم والاتعاظ من التجارب التي يمرّ بها أو يراها في الآخرين وهذه هي صفة المؤمنين من عباد الله كما دلّت عليه الروايات(١)، ففي الآية تثبت مساوقة بين كمال العقول والإيمان.

(١) الغرر: ح١٢٣٣، ح١٣٣٠.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: الغرب والشيطان نهج واحد

إنّ الآية المباركة وصفت إضرار الشيطان بأجيال بني آدم بالإضلال، ولعلّ ذلك يعود لأسباب ثلاثة:

الأول: لأنّ الإضلال يدل على سوء العاقبة، أي على الإهلاك، وفي اللغة الضلال الهلاك[1]، ومعنى ذلك أنّ الذي يتبع الشيطان يُهلكه فلا سلامة وراءه.

الثاني: لأنّ الإضلال يدل على الضياع، ومنه قولهم: (ضالّ في قومه) أي ضائع، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى**﴾[2] أي ضائعاً في قومك لا يعرفون مقامك ومنزلتك، (فهدى) أي أظهرها وأرشدَ الناس إليها، وبعضهم فسّره بأنه ضالّ أي موجود في قوم ضالين؛ لأن من أقام في

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٣٩٢، (١٥٧٧).

(٢) سورة الضحى: الآية ٧.

قوم نسب إليهم، كما قيل خالد الحذّاء لنزولهِ بين الحذّائين، وأبو عثمان المازني لإقامته في بني مازن ولم يكن منهم [١]، وضعفه ظاهر، فشتّان بين النسبتين، فإن نسبة الضلالة إلى أكمل الخلق ولو من جهة غيره لا تناسب مقامه وكماله وجلاله.

وإضلال الشيطان لبني آدم تضييع لهم؛ لأنه يحرفهم عن الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة، وهذا المعنى يعود إلى الأول باعتبار أنّ مصير الضياع الهلاك، والأول يعود إليه باعتبار السببية، وأنّ الضياع سبب الهلاك، فبين المعنيين ملازمة.

الثالث: لأن الإضلال يتعلّق بالفكر أولاً، ويظهر أثره على الأخلاق والعمل.

وهداية الإنسان وضلاله يبدآن من فكره ومعتقده، وهما اللّذان يشكّلان شخصيته وهويَّته، فإذا ضلَّ في فكرهِ ضلَّ في أخلاقه وعمله، ولو اهتدى فيه اهتدى فيهما، ولذا نلاحظ أنّ الدين يُشدِّد على تصحيح البنية الفكرية للإنسان وإصلاح معتقداته؛ لأن العقيدة الصحيحة تصنع إنساناً صالحاً، والعقيدة الفاسدة تفسده.

كما نلاحظ أنّ السياسة المتبّعة للسيطرة على الشعوب الإسلامية واستغلالها تبدأ من التضليل الفكري، وتخريب العقائد يقوم على ركيزتين:

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٣٩٣، (١٥٧٧).

الأولى: تضعيف الدين في نفوس أتباعهِ عبر ثلاثة طرق:

الأول: التشكيك في عقائد الدين وأصوله وأحكامه، ونشر الشكوك في أذهان الناس.

الثاني: تشويه صورة الدين عبر صناعة نماذج كاذبة باسم الدين تنقض مبادئ الدين وقيمه وأخلاقه بسلوكها.

الثالث: تضعيف مكانة العلماء الربانيين وتسقيطهم بالتُّهم والدعايات وهتك حرمتهم.

والمجتمع الجاهل الذي لا يلتفت إلى ذلك يقع أسيراً لهذه الدعايات وخصوصاً جيل الشباب الذين هم الهدف المقصود أولاً، فإذا زعزعوا الثقة والقناعة بالدين وبالقيادات الدينية بقي المجتمع ضائعاً لا قرار له ولا استقرار.

الثانية: نشر ثقافتهم المنحرفة وترسيخها في الأذهان عبر عمليات غسل أدمغة غير ظاهر، بحيث الشعوب تتّبع أعداءها وهي لا تعلم، وأحد أهم الوسائل في ذلك اليوم هو الفضائيات وشبكات التواصل، فإنها تعمل ليل نهار وبشكل واسع على نشر الفكر والثقافة المخالفة للدين ولمصالح المسلمين وزرعها في أذهان أولادنا وأبنائنا وكبارنا وصغارنا، وبها يسحقون القيم، ويزيلون الآداب والأخلاق الأسرية والاجتماعية، حتى يصبح المجتمع المسلم كالمجتمع الغربي بلا هوية وبلا ثوابت ولا أخلاق وقيَم، وحينئذٍ يكون مستسلماً طائعاً لهم.

وهذا نهج شيطاني يتّبعه الغرب لتضليل المسلمين وخداعهم كما يتّخذه الشيطان مع المؤمنين الصالحين من بني آدم لتضييعهم وإهلاكهم.

فمفردة ﴿ضِلَالٍ﴾ أدقّ من سائر المفردات المقاربة كالكيد والخديعة والإغراء للتعبير عن مستوى إضرار الشيطان وعمق خططه في العداوة، كما أنها الوصفة الأنسب بسياسة الغرب والشرق الذين يعادون الإسلام والمسلمين لأجل السيطرة عليهم.

اللطيفة الثانية: لماذا وصف بنو آدم بالجبلة؟

الآية وصفت مَن يقع في فخِّ الشيطان (بالجِبلّة) ولم تصفهم بالخلق والناس، وقد ذكرَ المفسرون لذلك عدة أقوال:

القول الأول: لأن الجِبلّ الخلق والفطر، ولأن البشر مفطور على عبادة الله سبحانه ومحبَّتِهِ، وهي فطرة الله التي فطرَ الناس عليها، ولأن اتّباع الشيطان مخالف للفطرة وصفهم بعدم العقل؛ لأنهم باختيارهم ستروا الفطرة وتغافلوا عنها اتّباعاً للشهوة، ولو كانوا يعقلون ما ناقضوا أنفسهم واتّبعوا عدوَّهم، فإنّ العقل ما عبِد به الرحمن واكتسب به الجنان كما ورد في الحديث، ونلاحظ أنّ مفردة (الناس) و(الخلق) لا تدلّان على الفطرة المذكورة، فلذا لم تردا في الآية.

القول الثاني: لأن الجِبلّة مأخوذة من الجَبَل وهو ما عَظُمَ وصَلُب، وإنما سُمّي الجَبَل جَبَلاً لأنه يتكوّن من تراكم التراب والصخور والمعادن فيتّسم بالعِظَم والصلابة[1].

---

(١) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧١.

وكذلك هم أجيال البشر جبلة؛ لأنها عبارة عن ركام الناس وهم ترابيون وصخريون، وأطباعهم معادن كمعادن الذهب والفضة، فإطلاق الجبلة على البشر تشبيهاً لهم بالجَبَل باعتبارين:

الأول: كثرتهم واجتماعهم وتراكمهم عبر الأزمان، فيكونون كالجَبَل في الكثرة والصلابة.

الثاني: باعتبار الخلق المطبوع على السجايا الثابتة كثبوت الجبال ورسوخها على تكوينها ومكوناتها(١)، والمعنى الجمع الذين جُبِلوا على خليقة.

والثاني يعود إلى الأول؛ لأن رسوخ الطبْع ناشئ من صلابة السجايا، وربما يعود الأول إلى الثاني باعتبار أنّ أصل الكلمة الغلظ والعِظَم والجَبَل قيل له لغلظهِ وعِظَمهِ؛ لأنَّه منذ أول خلقهِ يكون كذلك(٢)، وإنّما عبر بالجبلة دون الناس للإشارة إلى تواتر الاجتماع وتعاظمهِ منذ أول الخلق الذي وقعَ فيه العهد الإلهي وامتدَّ في جميع الأزمنة الماضية، بخلاف الناس فإنه لا يدل على التعاظم منذُ أوّل الخليقة، وباعتبار أنّ الخطاب وقعَ في الآخرة فإنه يشمل كل عمر الدنيا، ولذا وصفه بالكثير لتأكيد دوام الكثرة واستمرارها في جميع عصور الدنيا.

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٨٥، (جبل)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص١٠٥، (جبل)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٣٣٤، (جبل).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص١٥٦، (٦٠٣)؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧١.

القول الثالث: ما نسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو قراءة (جِبلّاً) (جِيلاً) بكسر الجيم بعدها الياء واحد الأجيال، وهو الصنف من الناس[١]، وهو ليس بقول، ومحمول على بيان المعنى لعدم صحة القراءات.

القول الرابع: لأن الجبل هو الجماعة الكثيرة من الناس، وقد قدَّرهم البعض بعشرة آلاف نفر أو أكثر، وما دون ذلك لا يكون جبلاً[٢]، وبوصفهِ (كثيراً) يدل على وقوع آلاف من البشر في كل جيل في مصائد الشيطان، ويصيرون أتباعهُ، وهم كثيرون جداً، وفيه أنه يفتقر إلى دليل، ولا ثمرة له؛ لأنه يعود إلى القول الثاني.

القول الخامس: إن الجِبل القوم الأشدّاء الأقوياء، ومنه سُمّي الجَبَل لثباته وقوّته، ويقال: فلان جَبِل على كذا يعني أنها صفة أصيلة فيه ثابتة في شخصيتهِ، وبين هذه الأشياء جامع اشتقاقي واحد؛ لذلك تشبَّهَ الرجل العاقل بالجَبَل لأنه ثابت لا تهزُّه الأحداث[٣]، بخلاف خفيف العقل وأسير الشهوة فإنه لا ثباتَ له تُقلِّبه الأحوال والانفعالات، ولذا ورد في وصف المؤمن أنه كالجَبَل لا تَهزُّه العواصف، ولا تُبدِّله القواصف، بل في بعض الأخبار أنه أصلب من الجَبَل، لأن الجَبَل يُنال منه بالمعاول[٤] ولا يُنال من

---

(١) روح المعاني: ج٢٣، ص٥٦.

(٢) تفسير الأمثل: ج١٤، ص٢٢١.

(٣) انظر تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٥٩.

(٤) انظر الكافي: ج٢، ص٢٤١، ح٣٧؛ تحف العقول: ص٣٨، الحاشية؛ البحار: ج٦٤، ص٣٦٢، ح٦٦؛ صفات الشيعة: ص٣٠، ح٤٢؛ علل الشرائع: ج٢، ص٥٥٧، ح١.

إيمان المؤمن مهما طَرَقَته الحوادِث، وفي الخبر عن أبي عبد الله عليه السلام: «أنّ المؤمن أشَّد من زُبُر الحديد، وأنَّ زُبُر الحديد إذا دخلَ النار تغيَّر، وأنّ المؤمن لو قُتِلَ ثم نُشِرَ ثم قُتِل لم يتغيَّر قلبُه»(١).

والحق أنّ هذا القول يعود إلى القول الثاني، وهو الآخر يعود إلى الأول؛ لأن الفطر مبني على الصلابة والقوة المطبوعة والثبات، والذين يتبّعون الشيطان ليس جميع الناس بل بعضهم؛ لأنّهم أرادوا ذلك، فإنّ الشيطان إذا لا يجد القابلية والاستجابة من الناس لا يستطيع إضلالهم.

ويتحصّل: أنّ الآية عبّرت عن بني آدم بالجِبلّة للإشارة إلى كثرتهم وتراكمهم ومطبوعيتهم وقد أضلَّهم الشيطان، فكيف لا يُضللكم وأنتم أضعف؟ لأنّ الواحد أضعف من الجماعة، والجماعة الواحدة أضعف من الجماعات المتراكمة، وفي ذلك تنبيه لأخذ مزيد الحيطة والحذر منه، ورغم ذلك لم ينفع معهم فأتّبعوه وأضلّهم؛ لذا وبَّخهم لعدم تعقّلهم وتدبّرهم.

اللطيفة الثالثة: العقل أم العلم؟

إنّ الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾(٢) يتضمّن أمرين:

أحدهما: أنّهم كانوا يملكون العقول، وهي فاعلة وتعطي نتائجها وثمارها.

ثانيهما: أنّهم لم يعملوا بها في معاداة الشيطان، فلم يتعلّموا ولم يتّعظوا من الأجيال السابقة عليهم، والسؤال أنّ المورد قد يقتضي وصفاً بالعلم لا العقل.

---

(١) البحار: ج٦٤، ص٣٠٣، ح٣٤؛ وانظر المحاسن: ج١، ص٢٥١، ح٢٦٦.

(٢) سورة يس: الآية ٦٢.

والجواب: لأنّ العقل يناسب موضوع الآية وغرضها وليس العلم من جهات ثلاث:

الأولى: تكوينية، فإن العقل حقيقة مشتركة بين جميع بني آدم بخلاف العِلْم فإنهم يتفاوتون فيه، فلا يكون حجة إلّا على العالِم، بخلاف العقل فإنه حجة على العاقل، وكلهم عقلاء، وأيضاً فإن العِلْم يتوقف على العقل دون العكس، ولأنّ الكلام في العموم لا في الخصوص وجب أن تكون الأداة كذلك عامة كما ورد في الأخبار(١).

الثانية: لأنّ العقل لا يتوقف على كسب وتعليم للوصول إلى النتائج، وإنّما على تدبُّر وتفكُّر بخلاف العلم وأيضاً لا يمكن الركون إلى التعليم في التحذير من الشيطان؛ لأنه يمكن أن يضلل المعلِّم والمتعلِّم معاً، ويسوق العلم للضلالة، كما يلحظ في العلوم البشرية فإنها غير مأمونة من الشيطنات، وكثيراً ما يستعمل العلم لإغواء البشر وخداعهم والتلاعب بمصيرهم بخلاف العقل.

والثالثة: لأنّ العقل يُطلَق على المَلَكَة التي تدعو إلى اكتساب الخبرات والمنافع، وتزجر عن القبائح(٢)، ولا يتوقف على كسب، وبما أنّ الذمّ تعلق بما يدركه الإنسان بوجدانه ويعرفه بفطرته من لزوم اجتناب الشيطان وعدم الانخداع بأضاليلهِ كان التعبير بالعقل أوْلى.

---

(١) مجموعة الأخبار: ص١٠؛ ينابيع الحكمة: ج٤، ص١٧٣، ح٧٣٩٥.

(٢) انظر مرآة العقول: ج١، ص٢٥؛ البحار: ج١، ص٩٩، ح١٤.

وهذا ما يساعده معنى العقل في اللغة، فإنّ العقل يفيد معنى الحَبْس والمَنْع، ومنه قولهم عَقَلَ البعير إذا شَدَّهُ فَمَنَعَهُ من الحركة، والمعارف تُسمّى عقلاً لأنّها تُحصَر في الذهن وتُمْنَع من الغياب، ويقال لأقارب الرجل عاقلته لأنّهم يحبسونه عن الشَطَط، ويحبسون عنه الأذى والضرّ، ولذا لا يوصف الباري عزّ وجلّ بالعاقل؛ لأنّ علمه لا ينحصر ولا يُحْبَس، كما لا يصح أن يوصَف بأنه معقول لنا؛ لأنه لا ينحصر في الأذهان، ولا يُحاط به علم ولا عَقْل(١).

ويتحصَّل: أنّ الأنسب بغرض الآية هو وصف أتباع الشيطان بعدم العقل؛ لأن العقل كان لديهم ولم يتعقّلوا، وهو يدعوهم إلى ترك القبيح ولم يتركوه، كما أنه أوفق بالعدل؛ لأنه حجّة متساوية على الجميع، فبعضهم وظَّفهُ في الخير فدخلَ الجنة، وآخر في الشرِّ فدخلَ النار.

العقل والشيطنة

وهنا نلفت النظر إلى حقيقة وهي: أنّ العقل لا يقال له عقل بالمعنى الحقيقي إلّا إذا كان في طريق جذب المصالح ودفع المضار وتحصيل الفضائل والتخلّي عن الرذائل، فإذا استخدمه الإنسان في الوقوع في المفاسد والمهالك وارتكاب القبائح لا يُسمّى عقلاً بل شَيْطَنة، وهو ما قرَّره الإمام الصادق عليه السلام لمّا سألهُ بعض أصحابهِ وقال له: ما العقل؟ قال: «ما عُبِدَ به

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٣٦٧، (١٤٧٢).

الرحمن، واكتسِبَ به الجنان﴾ قال: قلت: فالذي كان في معاوية؟ فقال: ﴿تلك النكراء، تلك الشَيْطَنة، وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل﴾[(١)].

وبهذا يُبْطِل الإمام عليه السلام جملة من المفاهيم المغلوطة عند الناس هم يتصورونها من العقل وهي في الواقع من الشيطان.

منها: الغشّ والخِداع في المعاملات. البعض يعتبر ذلك ذكاءً وشطارة وقدرة وغفل عن أنها شَيْطَنة، ومصير الشَيْطَنة اللعنة والعذاب.

ومنها: المَكْر والدَهاء في السياسة، فإنه يقوم على الكذب والنفاق والالتفاف على الحقائق، ويَعدّهُ البعض حِنكة وحِكمة وفناً ولكنَّهُ في الحقيقة واقع في نهج الشيطان.

ومنها: التكالُب والتغالب على الدنيا لتحصيل المال أو الجاه ونحو ذلك، فإنّ ذلك شَيْطَنة، والناس يتصوَّرونها ضرورة أو رزقاً وأولويات.

ونلاحظ أنّ العقل عند الله وأوليائه هو ما جعلَ الإنسان عابداً لله مُتحليّاً بالفضائل، مُتخليّاً عن الرذائل، كل ما خالف ذلك كان من تضليل الشيطان، وصاحبه شيطان، وإلى هذا تشير الروايات التي نصَّت على ﴿أنّ مَن لا عقلَ له لا دينَ له﴾[(٢)] لأن سلوكه يكون نابعاً عن الشَيْطَنة والشهوة، فلينظر الإنسان أين يضع نفسه؟

---

(١) الكافي: ج١، ص١١، ح٣؛ وانظر المحاسن: ج١، ص١٩٥، ح١٥؛ معاني الأخبار: ص٢٤٠، ح١.

(٢) البحار: ج١، ص٩٤، ح٢٩، قال النبي صلى الله عليه وآله: ﴿قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له﴾؛ ينابيع الحكمة: ج٤، ص١٧٧، ح٧٤٠٧.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: حضارة الشياطين

إنّ الشيطان عدوّ خطير، وعداوته لا تنحصر بالأفراد، بل بالأمم والشعوب، وضحاياه جَبَل متراكم من بني آدم، والسؤال كيف أضلّهم؟ وماذا صنع حتى أوقعهم في مهلكته؟

والجواب: أنّه يهلكهم عبر طريقين:

الأول: أن يُغري الأفراد ويُضْلِّلهم، والجماعة عبارة عن مجموعة الأفراد.

والثاني: أنْ يُغري الجماعة نفسها ويُضْلِّلها عن الصواب، والغالب في الطريق الأول الإغراء بالمعاصي والذنوب، وفي الثاني الإغراء بالفتن والنزاعات، فيصيِّر بني آدم جنوداً ضد أخوانهم، ولأجل توضيح ذلك لابد من بيان مقدمة.

وخلاصتها: أنّ الشيطان على قسمين:

الأول: الشيطان بالجنس، وهو الذي تمرّدَ ولم يطع الباري عزّ وجلّ في السجود لآدم، وتعهّد بالقعود لذريَّته لإغوائهم وإضلالهم، وقد اختلفوا في

أنه من الجنّ أم هو مخلوق ثالث غير الجنّ والإنس[١]، أم إنّ أول الشياطين إبليس كما يشهد له القرآن الكريم، والشياطين أولاده، وإنما عبّر عنه بالجنّ باعتبار المعنى اللغوي مأخوذ من الجن أي الاستتار والخفاء، وهو من هذه الجهة يشترك مع الملائكة، ويفترق في أنها مخلوقات نوريّة، والجنّ مخلوق ناري[٢]، وعليه فإبليس اسم علَم خاص، والشيطان اسم جنس[٣].

وقد ذكر بعض العلماء: أنّ إبليس كشجرة خبيثة والشياطين بمنزلة أغصان هذه الشجرة الملعونة، وأوراقها وثمارها هي الأفكار الجزئية المتعلقة بالشهوات العاجلة الحيوانية واللذات الدنيويّة، وإليه أشير في قوله تعالى: **﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۞ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾**[٤] وهو مخالف لظهور الآية، وتفصيل الكلام في ذلك وبيان حقيقة الفرق بين إبليس والشيطان نوكله إلى محلِّه[٥].

الثاني: الشيطان بالصفة، يتخذه الشيطان بالجنس وسيلة لتضليل أمثالِهِ، وهو مأخوذ من شَطَنَ أي تباعدَ عن الخير، أو من شاطَ يشيط أي هَلَكَ، وبينهما ملازمة[٦]، لذلك صار اسماً لكل عارم من الجنّ والإنس،

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٣٠٧، (١٢٣٥).

(٢) مواهب الرحمن: ج١٤، ص٢٩٨-٢٩٩.

(٣) تفسير الأمثل: ج٤، ص٢٩٩.

(٤) سورة الصافات: الآيتان ٦٤-٦٥.

(٥) انظر عين اليقين: ج٢، ص٣٦٠-٣٦٩.

(٦) دقائق الفروق اللغوية: ص١٤١.

والصفات القبيحة كالحسد والغضب[١] والحيوانات، فإنّ العرب تُسمّي بعض الحيّات شيطاناً وهو ذو العرف قبيح الوجه[٢]، وقد أقرّ القرآن الكريم بوجود شياطين في الإنس من بني آدم يعملون فيهم عمل الشيطان فيضلّلونهم ويغرونهم ويسوقونهم إلى الهلاك. قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ**﴾[٣] والعداوة مع النبيّ في كل أمة عداوة مع أتباعه وأمَّته أيضاً، كما وصفَ أئمة النفاق وقادتهِ بالشياطين، فقال سبحانه: ﴿**وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ**﴾[٤] لأنهم يغرونهم ويدفعون لهم الأموال، أو يوعدونهم بالمناصب والمغانم لأجل تنفيذ شرورهم.

وفي الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الإنس على ثلاثة أجزاء: فجزء تحت ظِلّ العرش يوم لا ظِلّ إلّا ظِلَّه، وجزء عليهم الحساب والعذاب، وجزء وجوههم وجوه الآدميين وقلوبهم قلوب الشياطين»[٥] أي لا حساب عليهم، بل عليهم العذاب؛ لأنهم رؤوس الإجرام وأئمته، والمجرمون لا يسألون عن ذنوبهم بل يُعَذّبون بها، وبقرينة المقابلة أنّ الذين تحت ظِلّ العرش لا حساب عليهم ولا عذاب، بل هم في نعيم دائم.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٥٤-٤٥٥،(شطن).

(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص٢٧٢،(شطن).

(٣) سورة الأنعام: الآية ١١٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٤.

(٥) الخصال: ص١٥٤، ح١٩٢؛ مواهب الرحمن: ح١٤، ص٣١٢

فسواء كان جنس الشيطان من الجنّ أو من جنس ثالث فإن الشيطنة هي تمرّده وشرّه، والشيطان يُطلَق على الشرير من الجنّ، ولهذا يقال للإنسان الشرير شيطان ولا يقال له جنّي، ويقال لعنَ الله الشيطان ولا يقال لعنَ الله الجنِّي، فالجنّي اسم الجنس والشيطان صفة فيه(١).

ويعزّزه أنّ القرآن الكريم حين ذكرَ محاورة إبليس وامتناعه عن السجود لآدم سمّاه إبليس؛ لأنه يعود إلى ذاته ونفسه، وأما إذا ذكر وسوسته وتضليلهُ لآدم وحوّاء بأكلهما من الشجرة وَصَفهُ بالشيطان، لأن فعله يبعد عن الخير، ويقود إلى الهلكة.

قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ**﴾(٢) والتكبُّر يعود إلى ذاتهِ وجنسهِ، وكان يتصور أنه أفضل من آدم، ولمّا زاول الإغواء قال: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**﴾(٣).

فيتحصّل من ذلك: أن الشيطان يغري بني آدم بأسلوبين:

الأول: الوسوسة والتضليل في نفوس الأفراد.

والثاني: تسخير بني آدم ليضلّ بعضهم بعضاً، فيغري بينهم العداوة والبغضاء، ويشب نار الفِتَن بينهم ليهلكهم.

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٣٠٧، (١٢٣٤).

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ٣٦.

وأضرب لذلك مثالين:

المثال الأول: فإن الذي يطالع تأريخ الأمم والشعوب والملوك والسلاطين والجماعات التي أغراها الشيطان فحرفها عن طريق العبودية لله سبحانه إلى أين صارت؟ وماذا حلَّ بها؟ ليس إلاّ الدمار والهلاك.

وبعضهم استحكم فيهم حتى صاروا من جنوده، وربما صيَّرَ حضارة بكاملها لقوم على هذا النهج الشيطاني، ولهذا شواهد من الماضي والحاضر، فمن الماضي إضلال السامري لقوم موسى عليه السلام؛ إذ دعاهم إلى عبادة العِجل فأتّبعوه، ومنه حضارة الفراعنة فإنها من أعظم الحضارات التي كانت على الأرض، ويكفيها عظمة أنّ حضارة القرن العشرين- قرن الاختراعات والاكتشافات والفتوحات الصناعية والتقنية الهائلة – تقف مبهورة أمامها، بل وقفت عاجزة عن فهمها والوصول إلى أسرارها، وكان على رأس هذه الحضارة فرعون الذي أغواه وأضلّه الشيطان وأوقعه بالغرور والتكبُّر والتجبُّر حتى استخفَّ قومه وقال: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ**﴾[1] ولما أطاعه قومه على ما ادّعى خوفاً ورهباً ساقهم إلى الهلاك فأغرقهم أجمعين، ولم يبقَ من حضارتهم إلّا الأحجار والأبنيّة، وفي هذا تعليم للبشر للوقوف بوجه الظالم والمستعدي قبل أن يستفحل أمره ويستحكم نفوذه؛ لأن الشخص الواحد قد يُبيد أُمّة بكاملها.

(١) سورة النازعات: الآية ٢٤.

شيطنة الغرب والشرق

المثال الثاني: من الحاضر أي الحضارة الحديثة الغربية والشرقية الحاكمة في هذا الزمان، وهي أظهر مصداق للشيطنة ومناهج الشياطين، وزعماؤها يعملون ليل نهار لأجل الخداع والدجل والسيطرة على الشعوب، ولذا هي مُهدَّدة بالهلاك والدمار ما لم يتلاحق لها عقلاؤهم ويزيلوا عنها أسباب الدمار – وإنْ كنا لا نعرف كيف ستُهدَم ومتى، إلّا أنّ سُنَّة الله سبحانه في الوجود تقتضي ذلك – وعلائم ذلك كثيرة:

منها: التعادي والتآمر والتحالفات القائمة على المصالح والمنافع التي تقسم العالَم إلى جماعات وأطراف متعادية ومتحاربة بالحروب الخفيّة والعلنيّة، والتسابق على تطوير الأسلحة وتجميعها وهذا يعني لابد وأن يَصِل العالَم إلى يوم يتصادم السلاح فيه مع بعضه جشعاً وطمعاً وتكالباً على المصالح.

ومنها: الظلم والتجبُّر والغطرسة الذي تمارسه الدول القوية على الدول الضعيفة، والحروب المُصطنعة التي يفتعلها الغرب في العالَم، والعصابات المسلّحة التي ترتكب الجرائم بتمويلهم وتكوينهم. هذه لها أثر عند الله سبحانه الذي هو أقوى من كل قويّ، وكذا عند الناس، والفوضى التي صنعها الغرب في البلاد الضعيفة مثل بلادنا، ويُصرِّح بأنها فوضى خلاقة تهدم كل ما بُنيَ في البلاد من معالِمِ بالحروب والنزاعات لأجل إيغاله بالفساد والخراب حتى يُنْهِكَهُ إلى أقصى درجات الإنهاك ويُملي عليهم سياسته ومصالحه.

ومنها: الأديان والمذاهب والفِرَق الضالّة التي كان ولا يزال يصطنعها لهدم البنى الفكرية للشعوب، وقد ذكرت بعض الإحصاءات وجود عشرة آلاف دين في العالَم من صناعة غربية استعمارية[1].

ومنها: الفقر الشديد الذي يعاني منه المجتمع البشري، فإن الإحصاءات الرسمية تتحدث عن أوضاع خطيرة جداً يعيشها العالَم جرّاء حضارة الغرب، وهذه وغيرها من مئات المظاهر كلها نذر هلاك ودمار.

فإن تقرير البنك الدولي يذكر أنّ ما يعادل ٢٢٪ من سكان العالَم يعيشون دون خط الفقر، أي أنّ دخل الفرد الواحد منهم أقل من دولار وربع.

ومجموع سكان الأرض على التقارير القديمة حوالي ٦ مليارات يعيش منهم أكثر من ٤ مليارات في الدول الضعيفة، ثلاث مليارات منهم يعيشون تحت خط الفقر وبنسبة أكثر من ٣٣٪ منهم ليس لديهم مياه صالحة للشرب، و٢٥٪ يفتقرون إلى السكن، و٢٠٪ من الأطفال لا يتعلّمون حتى الصفوف الابتدائية، ويموت منهم ثلاثون ألف طفل يومياً بسبب الفقر[2].

ولو علمنا أنّ أكثر هؤلاء يعيشون في بلاد غنيّة بالثروات الطبيعية والقدرات المالية الهائلة إلّا أنّ الغرب استغلها لنفسه وحرمهم منها نعرف مدى الظُلم الذي يعيشه العالَم.

---

(١) مناشئ الضلال ومباعث الانحراف: ص١٣٠-١٣١.

(٢) استراتيجية أتباع الثروة: ص٣٠-٣١، هامش (١).

وقد ذكرت بعض الإحصاءات الغربية أنّ الدول الصناعية تملك ٩٧٪ من الامتيازات العالمية، وأنّ الشركات الدولية عابرة القارات تملك ٩٠٪ من امتيازات التقنية والإنتاج والتسويق، وأنّ ٨٠٪ من ذلك يحصلون عليه من البلدان الضعيفة، وأنّ سبعة ملايين إنسان في العالَم يسيطرون على هذه الثروات التي تُقدَّر بـ(٢٧) ترليون دولار، وأنهم لو ساهموا بـ ١٪ من هذه الثروات لغطَّت تكلفة الدراسة الابتدائية لكل الأطفال في العالَم الضعيف، وإنّ أقل من ١٪ ممّا ينفقه العالَم على التسلّح كل سنة يكفي لإدخال كل الأطفال في المدارس، وإنّ الأوربيين يصرفون على البوظة والأمريكيين على العطور ومأكولات الحيوانات المنزلية (٤٠) مليار دولار في السنة، أي ما يكفي لسدّ احتياجات كل العالَم من الطعام والشراب والصحة والتعليم[1] مع أنّ هذه الأموال الكثير منها مسلوبة من البلاد الضعيفة، إلى غير ذلك من الأرقام المهولة التي تدل على مستوى الظلم وفداحة الضياع والمهالك التي وقعَ فيها العالَمَ الذي يتفاخر بالتطور العلمي والصناعي والتقني، وبعض الناس ينغرّون بهذه المدعيات، ويغفلون عن هذه الحقيقة، وهي أنّ هذه حضارة ظالمة قائمة على الطغيان والتجبُّر واستغلال الآخرين وتدميرهم، والدول العظمى تتصرَّف في العالَمَ كما تصرَّف فرعون لكنهم لم يُصرِّحوا بأنّهم الرب الأعلى للعالَم، ولكنهم فعلوا أفعاله ولذا سينالون مصيرهم.

(١) استراتيجية أتباع الثروة: ص٢٦٥.

ولو سأل سائل لماذا كل هذا؟ وإلى أين يذهب العالَم ؟

الجواب: للجشع والطمع والحرص وحُبّ الدنيا وهو من إغواء الشيطان لبني آدم خصوصاً شيطان الإنس الذي هو جندي من جنود إبليس، ولو استمرت ما تُسمّى بالحضارة الغربية على هذا النهج فلا شك أنها ستنهدم وتنهار من الداخل كما انهارت من قبل حضارات كانت قوية وعظيمة بسبب ذلك؛ لأن حبل الكذب والخداع والظلم والقهر قصير.

وسُنّة الباري عزّ وجلّ في خلقهِ أنه يُمهِل ولا يَهمِل، وليس بغافل عمّا يعمل الظالمون، ولم يرضَ لعباده الظلم، ووعدَ الظالمين بالانقلاب؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾(١).

وقد ورد عن أبي جعفر عليه السلام أنّ الباري أمهل فرعون أربعين سنة بعد أن تجبّر وادّعى الربوبيّة(٢).

التعليم الثاني: العقل قائد الإنسان

إنّ العقل والتعقل هو الركن الأساس الذي تقوم عليه حياة الإنسان وحسن مصيره، فلو تعقل الإنسان في كل عمل أو قول قبل وقوعه كان في الغالب ملازماً للصواب، وكثير الانتفاع، أو قليل الأضرار؛ لأنّ بالعقل يتحرَّر من إضلال الشيطان وإغرائه قبل وقوعه، أو بالتراجع منه بعد وقوعه، فإنّ الرجوع عن الخطأ فضيلة، والتوبة من الذنب رُشْد وحِكْمَة،

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٢٧.

(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٢٥٧، تفسير سورة النازعات الآية٢٣.

وإلى هذا يشير قول أمير المؤمنينعليه السلام: ﴿يا ليت رقبتي كرقبة البعير حتى أفكر في قولي قبل أن أنطقها﴾ والمقصود التفكُّر والتدبُّر قبل ذلك.

ولو فكرَ المُستغيب والقاتل والسارق والزاني والظالم قبل ذلك - ولو قليلاً - لَمَا وقعَ منه ذلك، وأكثر ذنوب بني آدم ناشئة من اللهو والغفلة.

التعليم الثالث: أنّ الآية تبطل مذهب الجبر، لأنّ الله سبحانه ذمّ بني آدم على اتّباعهم الشيطان وانخداعهم بتضليله بعد أنْ أمرهم بعبادته، فالمصير الذي يلاقونه هو نتيجة اختياراتهم وليسوا مجبورين عليه، وإلّا قبُحَ الذمّ وكان خِلافاً للحِكمة[1].

التعليم الرابع: تعاضد العقل والشرع

إنّ المشاهدات الحسيّة والتجارب التي يمرّ بها الناس حُجّة عليهم، كما أنّ الأحكام العقلية كذلك فالحسُّ والعقل والنقل كلها بيان للإنسان، فإذا وصل سقط عنه العُذْر في العصيان، وتمَّت الحُجيّة في العمل؛ لأنّ الباري حيث يردّ بني آدم إلى عقولهم ويذمّهم على عدم التعقّل يعلم.

أولاً: بأن حكمه واجب الاتبّاع، وهو موافق لرضاه سبحانه.

وثانياً: أنّ اتّباع العقل مُوصِل إلى الغايات ولو في الجملة، ولو كانت مقدمّات التفكُّر سليمة كانت النتائج صحيحة.

---

(١) انظر التبيان: ج٨، ص٣٥٦؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٤؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٣.

ثالثاً: أنّ عدم التعقُّل واتّباع العقل في الأقوال والأعمال ملازم لاتّباع الهوى والشيطان؛ لعدم وجود ضد ثالث، وكلاهما لا يوصلان إلى النتائج المرضيّة، ويسوقان الناس إلى المهالك.

وبهذا يتّضح صحة ما يقوله الإمامية من قاعدة الملازمة بين ما يحكم به العقل والشرع، وما قررناه من كون الحكم العقلي هو عين الحكم الشرعي في القضايا البديهية الواضحة(١).

(١) المهذب في أصول الفقه: ص١١٤-١١٥.

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ

يس/ ٦٣

هذا ما توعدون

وردت الآية المباركة لغايات ثلاث:

الأولى: للتذكير بأوّل وَعْد قطعه الباري عزّ وجلّ لإبليس وأتباعهِ قبل الدنيا حينما تمرَّد على ربه وأبى السجود لآدم. قال الباري عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[1] وقوله: (موعدهم) اسم زمان ومكان يدل على وجودها من قبل، وتنتظر قدومهم عليها.

الثانية: للإجابة على سؤال سابق للمجرمين كانوا يرددونه دائماً، ويتخذونه عامل ضغط نفسي واجتماعي وفكري على المؤمنين، ويسخرون منها ومنهم فيقولون: ﴿**مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[2] فأجابهم بأنّ هذا هو الوعد وهو جهنم الماثلة أمامكم.

والثالثة: لبيان المصير الذي يلاقيه الشيطان وأتباعه من عاقبة أمرهم، وقد تضمّنت إلفاتة شديدة في البيان؛ إذ تبدّل الخطاب من اللوم والذمّ بسبب اتّباعهم للشيطان وعدم اتّعاظهم من التجارب إلى بيان المصير، ثم الانتقال من الحديث عن وقائع ما قبل الدنيا من العهد الإلهي معهم إلى عالَم

---

(١) سورة الحجر: الآية ٤٢ – ٤٣.

(٢) سورة يس: الآية ٤٨.

الدنيا الذي أضلّ فيه الشيطان بني آدم إلى عالَم الآخرة، وهو وقت محين الوعد بالعاقبة. هذا وقد ذهبَ بعض المفسرين كالطوسي والطبرسيقدس سرهما إلى أنّ الوعد كان في دار التكليف[1]، فإن أُريدَ به الدنيا فقط كما صرّحَ به جمع من الخاصة والعامة[2] فهو خلاف ما نصَّت عليه الآيات.

والبحث فيها يقع في مباحث:

---

(١) التبيان: ج٨، ص٣٥٦؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٥.

(٢) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٦؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٥؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٧؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٦٣؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٥٧؛ تفسير المراغي: ج٨، ص٢٦؛ روح البيان : ج٧، ص٤٢١.

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿هَذِهِ﴾

اسم إشارة للقريب الحسّي الذي يشهده الجميع، وفيه ثلاث دلائل:

الأولى: أنّ جهنم لم تكن ثم ظهرت للعيان.

الثانية: أنّها اقتربت منهم فصاروا يحسونها ليذوقوا هولها ويتيقّنوا بالمصير الموعود.

الثالثة: أنّها المصداق التّام للإخبار عن النار في الدنيا وقبلها، فإن الأنبياء والأولياء عليهم السلام ذكروا للناس أوصاف النار وأخبروهم بها، فلمّا ظهرت قالوا: (هذه جهنم) أي التي أخبرناكم بها، فتبدَّل لديهم المفهوم إلى مصداق.

والسؤال عن القائل (هذه جهنم) وفيه أقوال:

الأول: أنه الباري عزّ وجلّ؛ لوجود التخاطب السابق في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾(١) وقوله: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾(٢) الظاهر في أنّه خطاب مباشر منه سبحانه لهم.

الثاني: أنهم خَزَنَة جهنَّم بعد إشراف المجرمين على شفيرها. صرَّح به بعض مفسري العامّة(٣).

الثالث: أنهم الملائكة؛ لأنهم وسائط تنفيذ الأوامر الإلهية.

الرابع: هو النبيّ والإمام عليهما السلام لاقتضاء مقام حُجيَّتهما على الخلق ذلك، وبه نجمع بين الأقوال؛ لوضوح أنّ الباري لا يُخاطب عبادهُ إلّا بالواسطة، والملائكة بأصنافهم مأمورون بأمرهم عليهم السلام.

المفردة الثانية: ﴿جَهَنَّمُ﴾

من أسماء النار الإلهية يُعذِّب بها المستحقين، ولا يطلق على النار جهنم إلّا بحالتين:

الأولى: إذا كانت موقدة بضراوة بأمر الله سبحانه.

ولذا لا يقال لغير نار الله سبحانه جهنم إلّا مجازاً، ويطلق جهنم على النيران التي يشعلها البشر في الحرب وغيرها مجازاً؛ للإشارة إلى ضراوتها،

---

(١) سورة يس: الآية ٦٠.

(٢) سورة يس: الآية ٥٩.

(٣) روح البيان: ج٧، ص٤٢١.

ويعززه قوله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[١] مع أنّها كانت مضطرمة وألقوهُ فيها لإحراقهِ، وقد وردَ أنّ نمرود بنى له حضيرة واهتم الناس لجمع الحطب فيها أربعين يوماً، وصبّوا على الحطب دهناً، ثم أضرموا فيه النار، وأوقدوها سبعة أيام، فلمّا اشتعلت صار الهواء بحيث لو مرّ الطير من أقصى الجو لاحترق[٢]، ومع ذلك لم يُسمِّها الباري جهنم.

وذهب بعض أهل اللغة إلى أنّ جهنم كلمة غير عربية وأصلها فارسي مُعرّب جهنام، وقال بعضهم مُعرّب كهنّام[٣]، وهو ضعيف لمخالفتهِ للمشهور؛ ولكونها اسم عَلَم، ولأن الجهنام أصلها عربي ومعناه القعر البعيد والبئر البعيدة القعر[٤].

والثانية: إذا كان العذاب بها حتميّاً فلا تنال أهله شفاعة ولا رحمة. تشهد له الآيات التي وصفت النار بجهنَّم، فإنها واردة لبيان وقوع العذاب بها، أو اليقين بوقوعه.

منها: الآية التي تليها ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[٥] أي احترقوا فيها للعذاب.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٦٩.

(٢) انظر نفحات الرحمن: ج٤، ص٢٩١؛ تفسير القمي: ج٢، ص٧١.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٠٩-٢١٠، (جهنم)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٣١-٣٢، (جهنم).

(٤) المعجم الوسيط: ح١، ص١٤٤،(الجهنام)

(٥) سورة ق: الآية ٢٤.

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾(١)... ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾(٢) ولم يقل ألقيا في النار؛ لأن العذاب بها حاصل بالفعل.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾(٣) إشارة إلى فعلية العذاب بها.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾(٤) فإنّها ميَّزت بين أهل النار وخَزَنة جهنم وهم ملائكة العذاب بها، ولذا سألوا منهم التخفيف، وهو ما يستفاد من بعض الأخبار(٥).

ولا يخفى أنّ أتباع الشيطان يتعذّبون بجهنم في الدنيا، ويستمر عذابهم في القبر والبرزخ والآخرة كما عرفتَ من تجسُّم الأعمال وتسانخها، وهم في الدنيا ينالون العذاب في بعض رُتَبه ولا يرونها، وفي القبر والبرزخ يرون بعض مشاهدها، وأمّا في الآخرة فيرونها كاملة.

---

(١) سورة يس: الآية ٦٤.

(٢) سورة ق: الآية ٣٠.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٤) سورة غافر: الآية ٤٩.

(٥) انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢٥١، تفسير سورة الزمر: ج٢، ص٤٤٩، تفسير سورة الفلق؛ البحار: ج٨، ص٣١١، ح٧٨.

المفردة الثالثة: ﴿الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾

(توعدون) صيغة مضارع يدل على الاستمرار، و(كنتم) يفيد وقوع الفعل في جميع الأزمنة، فيشمل ما قبل الدنيا وما بعدها، وعلى لسان جميع الأنبياء والأولياء وأتباعهم من المؤمنين فضلاً عن حكم العقل فإنَّ بالإخبار بوجود النار والعذاب يحكم العقل بوجوب التصديق وترتيب الأثر لسببين:

الأول: لأنّ المُخبرين عنده معلومو الصدق؛ إذ لا أحد من خصوم الأنبياء والأولياء يشك في صدقهم واقعا إلّا مَن يكابر في ذلك، والعلم بالصدق يقضي بوجوب التصديق.

والثاني: على فرض عدم العلم فإنه يحتمل الصدق؛ لعدم وجود العلم بالكذب، وبما أنّ المحتمل خطير وهو العذاب بالنار فإنّ العقل يحكم بوجوب دفعه، وقد اتَّفَقَ العقلاء على وجوب دفع الضرر المحتمل الخطير.

والوعد يكون في الخير والشرّ، بخلاف الوعيد لا يكون إلّا بشرّ[(١)]، ووروده في الخير ظاهر، وأما في الشرّ فمنهُ قوله تعالى: ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ**﴾[(٢)] ووروده في الأمرين معاً قوله تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ**﴾[(٣)] وهو يوم المعاد، وفيه ينال العباد جزاءهم إن

---

(١)معجم مقاييس اللغة: ص١٠٥٨، (وعد).

(٢) سورة الحج: الآية ٤٧.

(٣) سورة يونس: الآية ٥٥.

خيراً فخير وإن شرّاً فَشرّ. نعم لو أطلق الوعد كان ظاهراً في الخير[١]، ولا يحمل على الشرّ إلّا بقرينة، وفي الآية المباركة قد تكون قرينتا السياق والحال يدلان على أنّه في الشرّ، وسنعرف في اللطائف أنه حتى في الآية استعمل في الخير.

ويفترق الوعد عن الوعيد في أنه واجب الوفاء؛ لأنه عهد الله سبحانه لعباده بالثواب صيَّرَهُ حقاً من حقوقهم، بخلاف الوعيد فإنه عهد بالعذاب لأنّه من حقوقهِ، وهو غير واجب الوفاء؛ لأن العفو من مقتضيات كمالهِ وجلالهِ، وقد وردَ في الدعاء: «يا مَن إذا وعدَ وَفى، وإذا توعّدَ عفا»[٢] ولكن في الآية قامت القرينة على عدم العفو لقوله تعالى في الآية اللّاحقة: ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[٣].

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٥٧٤، (٢٣٢١).

(٢) مصباح المتهجد: ص٥٦٦؛ إقبال الأعمال: ج١، ص٣٢٩؛ المصباح: ص٥٧٤.

(٣) سورة يس: الآية ٦٤.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: ما هي النار ومن هم أصولها؟

إنّ قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾[1] يشير بالإشارة الحسية للقريب المشهود، وهي نظير الإشارة في قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[2] والصراط المستقيم المُشار إليه بهذا لا يكون إلّا حسيّاً، ولا يكون كذلك إلّا إذا تجسَّدَ في شخص؛ لأنّ الهداية الفكرية والعلمية لا يُشار إليها بهذا إلّا إذا تجسَّدتْ بالحسّ في مثال، وهو النبيّ والإمام عليهما السلام، وقد تقدَّم تفصيل ذلك.

وبقرينة المقابلة تحمل ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ على المشاهدة الحسية لمصداقين هما: النار وأصولها من الجنّ والإنس والشياطين؛ لوضوح أنّ النار تحتاج إلى موقد وحطب، وقد ذكرَ الباري أنّ جماعة من الناس والجنّ سيكونون حطب جهنم وحصبها.

قال تعالى للمشركين: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[3] و(ما) موصولة تشمل الأصنام والأوثان والشيطان

(١) سورة يس: الآية ٦٣.

(٢) سورة يس: الآية ٦١.

(٣) سورة الأنبياء: الآية٩٨.

وجنوده، كما تشمل شياطين الإنس الذين كانوا يستعبدون الناس ويضللونهم[١]، و(حصب) الحصى، ومنه قولهم المحصب أي كل موضع كثير الحصى، وإلقاء الحصى في النار يزيد ضرامها[٢].

و(الحطب) الوقود، ويطلق على الخشب اليابس باعتبار ذلك[٣]، وفيه ورد قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**﴾[٤] والنكتة اللطيفة في أنّ الحَطَب وردَ وصفاً لكَفَرَة الجنّ وفَسَقَتِهم، والحَصَب للإنس وما يعبدون من دون الله[٥]؛ لأن الجنّ مخلوقون من نار فيكونون وقوداً لها؛ لأنهم من جنسها، بينما البشر مخلوقون من طين فيزيدون ضرامها.

وفي تفسير علي بن إبراهيم عن الصادق عن أبيه عليهما السلام: «أنّ القاسطين هم معاوية وأصحابه»[٦] وعن النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله: «أنّه يشمل من قبلهم

---

(١) انظر علل الشرائع: ج٢، ص٦٠٥، ح٧٨، عن أبي عبد الله عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة أتى الشمس والقمر في صورة ثورين عبقريين فيقدمان بهما بمن يعبدهما في النار، وذلك أنهما عبدا فرضيا»؛ المحاسن: ج١، ص٢٥٤، ح٢٧٩، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله يأتي بكل شيء يعبد من دونه من شمس أو قمر أو تمثال أو صورة، فيقال: اذهبوا بهم وبما كانوا يعبدون من دون الله إلى النار».

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص٢٤٩، (حصب)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٤٣-٤٤، (حصب)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص١٧٧، (حصب).

(٣) معجم مقاييس اللغة: ص٢٥٣، (حطب).

(٤) سورة الجن: الآية١٥.

(٥) نفحات الرحمن: ج٦، ص٣٥٠.

(٦) تفسير القمي: ج٢، ص٣٨٩.

وجميع أصحاب الضغائن من قريش، وكل مَن قَسطَ وحادَ عن الطريق المستقيم»[١] وأما ما وردَ في مجمع البيان من قراءة حصب (حطب) عن أمير المؤمنين عليه السلام فمحمول على بيان المعنى[٢] على ما قررناه غير مرة.

فيتحصّل: أنّ جهنم وعاء عظيم يُعذّب به المستحقون، وله وقود هم أئمة الكفر والضلالة من الجنّ والإنس والشياطين، واسم الإشارة يشير إليهم، وبالتأنيث يشير إلى أصول النار باعتبار اتحادهم بها وصيرورتهم معها حقيقة واحدة.

اللطيفة الثانية: الوعد يستعمل في الخير، وفي هذه الآية استعمل في النار؛ إذ قال سبحانه: ﴿**الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾[٣] وهذا ليس من الاستعمال في الشر، بل في الخير؛ لأنّ التحذير من الشر قبل الوقوع فيه خير؛ لإمكان التخلص منه بالتدارك، ودفع الشر عن النفس خير ومنفعة، وفي ذلك إلفاتة قرآنية لطيفة إلى دقة التعبير وعمقهِ.

اللطيفة الثالثة: تكامل النبوّات والرسالات

قوله تعالى: ﴿**تُوعَدُونَ**﴾[٤] صيغة مضارع مبني للمجهول، وتفيد أموراً:

أحدها: أهمية الوعد وخطورته حتى اكتفى ببيانه دون ذكر قائله على ما تقتضيه العادة في المحاورات لدى الإخبار عن الوقائع، فإن القضية لو

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٧٩.
(٢) مجمع البيان: ج٧، ص١٠٠.
(٣) سورة يس: الآية ٦٣.
(٤) سورة يس: الآية ٦٣.

كانت خطيرة هامّة يُكتفى بذكرها دون ذكر القائل؛ لأنّ أهميّة الكلام إما تنشأ من أهمية موضوعهِ أو أهمية قائلهِ، فلو كان في نفسهِ مُهمّاً وهو المقصود الأول يُستغنى عن بيان القائل، وهذا ما ينطبق على الوعد الإلهي بجهنم للمستحقين لها، فإنه أهم ركنين تقوم عليهما الشرائع ونظام العباد وإصلاحهم، وهما الثواب والعقاب، والتحذير من العقاب أشد من كسب الثواب. إمّا لأن ميل النفس إلى دفع الضرر أولى من جذب النفع، أو لأن دفع الضرر في نفسه نفع، فلولا الثواب والعقاب لم يتشوَّق العباد للطاعات، ولم يتحفَّزوا لاجتناب المعاصي، كما لم يتوثّبوا إلى نيل الفضائل واجتناب الرذائل.

ثانيها: أنّ الوعد كان قضية متفقاً عليها بين جميع الأنبياء والأولياء، والقضية التي يكثر قائلوها يُعتنى بنقلها دون بيان قائلها فإنّهم إذا وجدوا اتفاق جماعة على القول يكتفون بنقل القول دون القائل؛ لعدم وجود اختلاف بين القائلين، فلا ثمرة لنقلهم، وهذا النهج مُتَّبع حتى في المناهج العلمية.

ثالثها: أنّ جميع الأنبياء والأولياء متفقون على دعوة واحدة وغاية واحدة في المعاد، والتحذير من جهنم وهي تقوم على الدعوة إلى الله سبحانه والحث على توحيده وطاعته، والتحذير من يوم يرجع فيه الناس إليه سبحانه، ويجازى كل بعمله، وإذا اتحد النهج والغاية لا حاجة إلى تميز الداعين بعضهم عن بعض؛ لعدم وجود فارق بين نبيّ وآخر، ولا بين وصي وآخر، وهذا شاهد على وحدة الرسالات السماوية والأنبياء في المبادئ والمنطلقات والغايات، وإنّما الاختلاف في الشرائع، ولو كانوا من

عند غير الله سبحانه لاختلفوا وتضاربت أقوالهم وغاياتهم ومناهجهم كما هو ملحوظ في دعوات أهل الأرض، فإنّهم عادةً لا يتفقون مع بعضهم، ولو اتفقوا فسرعان ما يختلفون إمّا في أصل الدعوة أو في تفاصيلها، ولذا تكثر الانقسامات والمنازعات والحروب بين أهل الدنيا، بينما يُكمِّل الأنبياء بعضهم بعضاً ويسدِّده، ومن هنا تتّضح حقائق:

ثلاث حقائق في النبوات

الحقيقة الأولى: أنَّ الأنبياء والأديان متفقون في الوعود والأصول والمبادئ، ولا يختلف أحدهم عن الآخر، وإنما تختلف شرائعهم، وهذا الاختلاف ليس من أنفسهم، وإنما قضية تدبيرية تتعلق بمراعاة عقول الناس وقابلياتهم، فإن عقولهم ونفوسهم لا تتحمَّل الشريعة الخاتمة ما لم يمرّوا بمراحل تمهيدية، ولو كان الناس في مستوى عقلي ونفسي لائق لم يكن وجه لتعدد الشرائع، وهو من اللطف الإلهي المقرّب بهم. قال تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**﴾(١) وقال سبحانه: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا**﴾(٢) هذا من حيث المعتقد، وأمّا من حيث الشريعة قال سبحانه: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً**﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

(٢) سورة الشورى: الآية١٣.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٨.

والشِرْعة الطريق إلى الماء[١]، والمنهج الطريق الواضح المستقيم[٢]، وسُمّيَا بذلك لأنّ الاثنين يوصلان إلى المطلوب والمراد بالأول ما سَنَّه الباري من أحكام وشرّعهُ لعباده. سُمّي بالشريعة للإشارة إلى أنّ الدين أوسع من الأحكام، وإنما يغترف العباد منه بمقدار ما يحتاجون إليه، وسُمّي بالشَرْع لأنه جعل قيَم الدين ومناهجه مشروعة مسنونة، وبالثاني التطبيق العملي للشريعة، وكلاهما يتعلقان بالعمل، وهو يختلف باختلاف الحاجات والظروف والأحوال، فهو من عطف العام على الخاص، وبهذا شاهد على فتح باب الاجتهاد في الفروع؛ لأن لكل زمان ضرورات تستدعي اجتهادات جديدة وتفريعات تغترف من بحر الدين ومشرعته.

الحقيقة الثانية: أنّ الأنبياء يُكمِّل أحدهم الآخر، فالسابق يُبشِّر باللّاحِق ويقرّ له، واللّاحِق يقرّ للسابق ويشهد له، وصاحب المقام والرُتبة الأدنى يقرّ لصاحب الرُتبة الأعلى بلا غرور أو تكبُّر أو تكابر، بخلاف أهل الدنيا فإنهم كلما جاءت أمّة لعنت أختها.

الحقيقة الثالثة: أنّ الأنبياء وسائر الأديان السماوية تتفق في دعواها على أربعة أصول:

الأول: الدعوة إلى وحدانية الخالق والإخلاص في عبوديته.

---

(١) معجم مقاييس اللغة:ج٣، ص٢٦٢،(شرع) ؛ لسان العرب: ج٧، ص٨٦، (شرع)؛ معجم الفروق اللغوية: ص٢٩٩، (١٢٠١).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٢٩٨، (١١٩٦)؛ معجم مقاييس اللغة : ج٥، ص٣٦١، (نهج).

الثاني: وجود المعاد وما يجري فيه من جزاء للعقائد والأعمال.

الثالث: أنّ العبودية لله سبحانه تكون من الطريق الذي عيّنهُ الباري عزّ وجلّ، وليس بأمر متروك لبني آدم، وكل طريق غيره هو عبودية للشيطان، ولذا تتفق جميع الأديان على أصول العبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج، وإنما الاختلاف في التفاصيل، فما جاء به النبيﷺ جاء به عيسى وإبراهيم وسائر الأنبياء؛ إذ قال عيسىعليه السلام: ﴿**وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا**﴾[1] وإبراهيمعليه السلام قال: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ**﴾[2] وقال: ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ**﴾[3].

الرابع: المحبَّة للنبيّ والأئمةعليهم السلام والإقرار بولايتهم وإمامتهم والإذعان لحجيتهم، وهذا هو روح الأصول الأخرى وجوهرها؛ لأن الله سبحانه جعلَ محور محبَّتِهِ وتوحيده وعبادته يدور على ذلك، فلم يقبل إيمان ولا نبوّة ولا عمل إلّا به كما تضافر في النصوص الشريفة.

فعن أبي عبد اللهعليه السلام: «ولايتنا ولاية الله التي لم يبعث نبي قط إلّا بها»[4].

وعن عبد الأعلى قال: سمعت أبا عبد اللهعليه السلام يقول: «ما من نبيّ جاءَ قط إلّا بمعرفة حقنا وتفضيلنا على مَن سوانا»[5].

---

(١) سورة مريم: الآية ٣١.

(٢) سورة الحج: الآية ٢٧.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٤٠.

(٤) الكافي: ج١، ص٤٣٧، ح٣؛ الأمالي (للطوسي): ص٦٧١، ح١٤١٢؛ الأمالي (للمفيد): ص١٤٢، ح٩، في الكافي: ((نبياً وفي أمالي الطوسي والمفيد نبي)).

(٥) الكافي: ج١، ص٤٣٧، ح٤؛ الأنوار اللامعة: ص٦٣، الهامش.

وفي رواية محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام قال: «ولاية عليّ عليه السلام مكتوبة في جميع صحف الأنبياء، ولن يبعث الله نبياً إلّا بنبّوّة محمد وولاية وصيّهِ عليّ عليه السلام»(١).

وما يقال في الأنبياء يقال في النبيّ والأئمة والصدّيقة الطاهرة عليهم السلام، فإنهم معصومون طاهرون مُطهَّرون متحدون في المبادئ والغايات، وكل منهم يُكمِّل نهج الآخر ويسدده.

وهو غير معقول الحصول إلّا عند أولياء الله، فإنّ الأبناء والآباء يختلفون عادةً في كثير من الحالات إلّا هم عليهم السلام، ولذا ورد عنهم: «أوَّلُنا محمد، وأوسَطُنا محمد، وآخرُنا محمد، وكلُّنا محمد»(٢) وإنّ الحديث الوارد عن أحدهم يصح نسبته إلى جميعهم، بل وتصح نسبته إلى الله سبحانه لوحدة الجوهر بينهم، وهو ما يقضي به العقل من جهتين: جهة حُكمهِ بضرورة تطابق التشريع والتكوين في الحقائق، وجهة حُكمهِ، بأنّ الأحكام تتبع المصالح الواقعية، وأنّ النبوّات والأديان كلها كانت تمهيداً لخاتم الأديان وختام النبوّات والوصايا، فلابد وأن يكون الأعظم غاية للأدنى، وإلّا تسافلت درجات الأنبياء والأولياء ولم يبلغوا الكمال اللائق بهم، وكان المسلم المؤمن أعلى درجة ورتبة منهم؛ لإيمانه بالنبيّ الخاتم، ولذا ورد عن

---

(١) بصائر الدرجات: ص ٩٢، ح١؛ البحار: ج٢٦، ص٢٨٠، ح٢٤.

(٢) تفسير القمي: ص١٨؛ البحار: ج٢٦، ص٦.

النبي صلى الله عليه وآله: «ما تكاملت النبوة لنبيّ في الأظلّة حتى عُرِضَتْ عليهِ ولايتي وولاية أهل بيتي، ومثلوا له فأقرّوا بطاعتهم وولايتهم»(١).

وهذا يؤكد ما ذكرناه من أنّ العهد الإلهي لبني آدم قبل الدنيا تعلق بعبادة الله سبحانه وعدم عبادة الشيطان، وكان يدور على معرفة محمد وآل محمد واتِّباعهم والاقتداء بهم عليهم السلام، وأنّ هذا العهد شملَ حتى الأنبياء والأولياء، كما يدل على أنّ المقامات المعنوية لا تنال إلّا بهم ومن طرقهم، فالطرق التي يخترعها الناس لا تكون منهم وإليهم، فلذا لا تُوصِل إلى مقام.

---

(١) بصائر الدرجات: ص٩٣، ح٧؛ البحار: ج٢٦، ص٢٨١، ح٢٧.

المبحث الثالث : في تعاليم الآية

التعليم الأول: الناس صنفان

يتّضح من اللطيفة الثالثة أنّ الحجة تامّة على جميع الخلق في وجوب الولاية لمحمد وآل محمد واتّباعهم، وأنه الطريق الوحيد الذي يُنجي الناس من نار جهنّم؛ لأنّ الناس صنفان: إلهيون يتخذون الأديان والشرائع نهجاً لهم في الدنيا والآخرة، وماديون يتخذون العلم والمعرفة نهجاً لهم، والصنف الأول منهم إما يعلمون بحقيقة محمد وآل محمد عليهم السلام ومقامهم ومكانتهم الإلهية في التكوين والتشريع فيتبعونهم، وبهذا يكونون قد وفوا بعهدهم مع الله سبحانه، ومصيرهم سعادة الدنيا والآخرة، وأما الذين يجهلون ذلك فيكفيهم للوصول إلى الإذعان لهذه الحقيقة ملاحظة مبادئ الرسالات السابقة التي يؤمنون بها على ماذا قامت، وما هو محور رسالاتهم ودعواتهم الإلهية التي آمن بها الكل و دعا إليها.

ولا شكّ في أنها قامت على الدعوة بالعبودية لله سبحانه والإيمان بالمعاد، وتتلخّص بالطاعة لمحمد وآل محمد عليهم السلام

فيكون حجة على عموم المسلمين؛ لأنهم يؤمنون بسائر الأنبياء السابقين وكُتُبهم، فعليهم أن ينظروا إلى أنّ عيسى وموسى وإبراهيم

ونوحاً وآدم وسائر أنبياء الله دعوا إلى ولاية عليّ أمير المؤمنين وأذعنوا بالطاعة له، أم ولاية غيره والطاعة له؟ وأنّ الشخص الذي لا يبلغ نبيّ ولا وصيّ مقام النبوّة والوصاية إلاّ بالإذعان له هو الإمام والخليفة الحق لله ورسوله أم غيره؟ إنّ كل منصف محايد إذا نظر إلى الأمر من هذا المنطلق سيجد الحقيقة متجليّة أمامه.

كما يكون حجّة على سائر أهل الأديان السماوية، فعلى المسيحي واليهودي وغيرهما أن يلاحظا تعاليم عيسى وموسى عليهما السلام، وأنهما بشّرا بمَن؟ ودعيا إلى الإذعان والطاعة لِمَن؟ فلو نظر أهل الأديان طرّاً إلى هذه الحقيقة بعين الإنصاف سيجدون الحقيقة ماثلة أمامهم، وهو ما تواترت به الأخبار كما ستعرف.

العلم نوعان والغيبي أعظم

وأمّا الصنف الثاني أي الذين يؤمنون بالعلم فإن العلم نوعان: حسّي وغيبي، وكل العلماء يقرّون بأن محمداً وآل محمد عليهم السلام هم أعلم الخلق في أمور الدنيا والآخرة، وكانوا في زمانهم أعلم الخلق، وكشفوا عن الكثير من الحقائق المستقبليّة والأسرار التي لم يكن يطّلع عليها أحد لولا من خبرَ عالم الخلق وعرفَ أسراره، ولم يتعلّموا عند أحد، ولا كانت المدارس العلميّة قد توصلت إلى العلوم التي كشفوها وأخبروا عنها.

وأمّا في علوم الغيب فهم أعلم البشر فيه، وحتى العلوم الحديثة جاهلة به إلّا أنهم عليهم السلام كشفوا عن أسراره وخفاياه، ومَن كان أعلم الناس في العلوم والمعارف فإن العقل وقواعد العلم يقتضيان بلزوم اتّباعه والاقتداء به، وكذلك القواعد العقلائية القاضية بلزوم تصديق العالِم الصادق فيما يخبر، وإنّ عدم فهم ما ينقله لعدم الإحاطة به لا يمنع من التصديق به، وبهذا تتم الحجة على جميع الخلق الإلهيون منهم والماديون.

والأخبار الواردة بذلك كثيرة جداً فعن ابن عباس قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه؟ قال: بحقّ محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين إلّا تُبْتَ عليَّ فتابَ عليه﴾[1].

وسؤال آدم بهم عليهم السلام دالّ على أنه كان يعرفهم ويعرف مكانتهم عند الله سبحانه، وأنهم أشرف خلْقهِ، وأنهم سادة الوجود وأولياؤه بعد الله، وأنّ الداعي بهم لا تُردّ له دعوة، وأنّ هذه المعرفة كانت سابقة على وجودهِ في الأرض، ولعلّها من العهد الإلهي المتقدِّم، وبه وردت رواية عن المفضل عن الصادق عليه السلام[2].

وفي رواية أخرى عن الصادق عليه السلام قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنه يُكْرَه للعبد أنْ يُزكّي نفسهُ، ولكنّي أقول: إنّ آدم لّما أصابَ الخطيئة كانت توبته أن

---

(١) الخصال: ص٢٧٠، ح٨؛ الوسائل: ج٧، الباب ٣٧ من أبواب الدعاء، ص٩٨، ح٨٨٤٣.

(٢) انظر تفسير نور الثقلين: ج١، ص٦٧، ح١٤٦.

قال: اللهم إنّي أسألُك بحقّ محمد وآل محمد لَمَا غفرتَ لي فغفرها له، وإنّ نوحاً لمّا ركِبَ السفينة وخافَ الغرق قال: اللهم إنّي أسألُك بحقِّ محمد وآلِ محمد لما أنجيتني من الغرق فأنجاهُ اللهُ منه، وإنّ إبراهيمعَلَيْهِ السَّلَامُ لمّا أُلقيَ في النّار قال: اللهم إنّي أسألُك بحقِّ محمد وآل محمد لما أنجيتني منها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وإنّ موسى لمّا ألقى عصاهُ وأوجسَ في نفسهِ خيْفةً قال: اللهم إنّي أسألُك بحقِّ محمد وآلِ محمد لما آمنتني، فقال له الله عزّ وجلّ: لا تَخَفْ إنك أنت الأعلى﴾[1].

وفي رواية الرضاعَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿أنّ عيسى لمّا أرادَ اليهود قتْلَهُ دعا اللهَ بحقِّنا فنجيَ من القتْل فرفعهُ إليه﴾[2].

وفي رواية ابن عباس في قصة يوسف: ﴿هبطَ جبرئيل على يعقوب فقال: ألا أُعلّمك دعاء يردّ الله به بَصَركَ ويَردّ عليك أبنيك؟ قال: بلى، قال: فقُلْ ما قالهُ أبوكَ آدم فتابَ اللهُ عليه، وما قالهُ نوح فأستوتْ سفينتهُ على الجودي ونجا من الغرق، وما قالهُ أبوكَ إبراهيم خليل الرحمن حين أُلقيَ في النار فجعلها الله عليه برداً وسلاماً. قال يعقوب: وما ذلك يا جبرئيل؟ فقال: قُل: اللهم إنّي أسألُك بحقِّ محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسينعَلَيْهِمَا السَّلَامُ أن تأتيَني بيوسف وبنيامين جميعاً، وتَرُدَّ عليَّ عيني فقالهُ، فما

---

(١) الأمالي (للصدوق): ص٢٨٧، ح٣٢٠؛ الاحتجاج: ج١، ص٥٥؛ الوسائل: ج٧، الباب ٣٧ من أبواب الدعاء، ص١٠٠، ح٨٨٤٦.

(٢) الوسائل: ج٧، الباب ٣٨ من أبواب الدعاء، ص١٠٣، ح٨٨٥٣؛ البحار: ج٢٦، ص٣٢٥، ح٧.

استتمّ يعقوب هذا الدعاء حتى جاء البشير فألقى قميصَ يوسف عليه فارتدَّ بصيراً﴾(١).

وفي رواية سلمان المحمدي قال: سمعتُ محمداًﷺ يقول: ﴿إنّ اللهَ عزّ وجلّ يقول: يا عبادي أوليسَ من له إليكم حوائج كبار لا تجودون بها إلّا أن يُتحمَّل عليكم بأحبّ الخلْق إليكم تقضونها كرامةً لشفيعهم؟ ألا فاعلموا أنّ أكرم الخلْق عليَّ وأفضلهم لديَّ محمد وأخوه علي ومن بعده الأئمة الذين هم الوسائل إلى الله، فليَدْعني مَن همَّتهُ حاجة يريد نفعها أو دهمته داهية يريد كشْفَ ضُرّها بمحمد وآلِهِ الطيّبين الطاهرين أقْضِها له أحسن ما يقضيها مَن تستشفعون له بأعزّ الخلق إليه﴾(٢) وبهذا التمثيل يكون قد قرَّبَ غير المحسوس بالمحسوس، وجعلَ العلم الغيبي علماً وجدانياً يدركه الكل.

وفي رواية ابن عباس عن النبيﷺ: ﴿ما من عبد مكروب يخلص النيّة ويدعو بهنّ - أي الأسماء الشريفة - إلّا استجابَ اللهُ لهُ﴾(٣).

وفي روايته الأخرى عن النبيﷺ قال: ﴿ولايتي وولاية أهل بيتي أمان من النّار﴾(٤).

---

(١) الوسائل: ج٧، الباب ٣٧ من أبواب الدعاء، ص١٠٠، ح٨٨٤٧.
(٢) وسائل الشيعة: ج٧، الباب ٣٧ من أبواب الدعاء، ص١٠١، ح٨٨٤٨؛ وانظر البحار: ج٢٢، ص٣٦٩، ح٩؛ تفسير الإمام العسكري: ص٦٨، ح٣٥.
(٣) مستدرك الوسائل: ح٥، ص٢٣٨، ح٥٧٧١؛ البحار: ج٢٦، ص٣٣٣، ح١٥.
(٤) الأمالي (للصدوق): ص٥٦٠، ح٧٥٠؛ البحار: ح٢٧، ص٨٨، ٣٥.

وفي رواية أبي بصير عن الصادق عليه السلام: ﴿أنَّ خطوات الشيطان التي نُهيَ البَشَر عن اتِّباعها هي ولاية فُلان وفُلان﴾[١].

ومن المجموع يستخلص أنّ العهد الإلهي مع بني آدم يقوم على الولاية لأولياء الله والبراءة من أعدائهم، وأنه سرّ العبودية لله سبحانه والعبودية للشيطان، وهذا ما تقرّه الأديان والعقول فيكون حجة على جميع الخلق.

التعليم الثاني: يجب تقديم النموذج الحسي للأفكار

في قوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٢] إرشاد للمعلمين والتربويين والساسة. والمدراء والصناعيين وغيرهم من شرائح المجتمع يدعوهم إلى تقديم النموذج الحسِّي للأفكار والتعاليم والمشاريع التي يُراد تنفيذها؛ لأن الحسّ يقرِّب المفاهيم المجردة إلى الذهن، ويزيد من القناعة بها، ويشدّ من العزم والإرادة لتنفيذها، فإن الآية بالإشارة الحسية إلى جهنم أظْهِرت النموذج الحسّي الذي وعدَ به الأنبياء والأولياء في الدنيا؛ إذ ذكروا أوصافها وآثارها ولم يروها بالعين، فعلمهم بها كان علم إخبار، ولمّا أحضرها عندهم قال هذه جهنم التي كنتم توعدون بها، أي التي أخبرناكم عنها، وهنا يقدِّم الباري النموذج الحسّي الخارجي للمفاهيم والأفكار

---

(١) البحار: ج٢٤، ص١٥٩، ح١، عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: ﴿ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾قال: أتدري ما السلم؟ قال قلت: أنت أعلم. قال: ولاية علي والأئمة والأوصياء من بعده عليهم السلام. قال: وخطوات الشيطان والله ولاية فلان وفلان﴾.

(٢) سورة يس: الآية ٦٣.

المجرَّدة، وهي قضية في غاية الأهمية تتعلق بالعقائد والأعمال. توجب الاعتقاد بأن الباري يتّصف بكل صفات الجمال والجلال، ويجب أن نعتقد بثبوتها إليه بكل ما لها من كمال، ولكن حتى يتبدّل العلم إلى يقين لابد من نموذج حسِّي يقرِّب المعنى المجرَّد إلى الأذهان؛ لأن طبيعة البشر تصل إلى اليقين عبر الحس، وهذا ما جَرَتْ عليه السُنَّة الإلهية في التكوين؛ إذ قدَّمَ للمعاني المجرّدة مُجسَّدات حسّية يراها الناس ويدركونها، فجعلَ الأنبياء والأئمة نماذج لجمال الله وجلاله، والأم نموذجاً لرحمته ورأفته، والروح نموذج قربه وخفاء ذاته وظهور آثاره وذاتيّة فعله، والعقل نموذج إبداعه وخلاقيته، والعين والأذن نموذجاً لسمعه وبصره، وعلى ذلك جرت سُنَّته في الأحكام والأنظمة؛ إذ قدَّم النموذج للحاكم الحريص على الناس الأمين على مصالحهم والعادل بينهم في حكومة يوسفعليه السلام، وبيّن كيف أنّ الحاكم الأمين الحريص يطوِّر بلده، ويجعله فوق المشاكل والأزمات.

والنموذج للحاكم الذي لا يخون أمانته ولا يضحي بالمبادئ لأجل الحُكْم والسُلْطة في أمير المؤمنينعليه السلام، الذي أُعطي الحكم بشرط أن يمضي على سيرة الشيخين فرفض ذلك، وضحّى بالسلطة لأجل القيَم؛ لأنها سيرة بعيدة عن العبودية لله، ومتناقضة في نفسها، وكان بإمكانه أن يقبل ويخالف بعد ذلك كما يعمل الكثير من الساسة حينما يكذبون على الناس، ويَعِدونَهم ويُخالفون وعودَهم؛ لأنهم يضحون بالقيم لأجل السلطة، لكنه لم يفعل ذلك، وهو النموذج الصادق للحكم الإلهي العادل، ولو كان قِبل بذلك وخالف لقدَّم النموذج المشوَّه عن الدين، وهو أكثر ضرراً على الدين وأهله.

وهكذا جعلَ في الوجود الحسيّ نماذج تقرِّب الحقائق الغيبية إلى الحسّ لتتمّ به الحجة على البشر، وترتقي بهم إلى مستويات عالية في المعرفة وإدراك الحقائق، لذا دأبت الشركات الصناعية والإنشائية على صنع النموذج للمخطط الذي يراد تنفيذه ليكون صورة حسيّة للنموذج الذهني.

التعليم الثالث: الوفاء بالوعيد حسن

إنّ الوفاء بالوعد واجب عقلاً؛ لأنّ خلفه قبيح، وأمّا الوفاء بالوعيد في جهنم فإنه وإن كان غير واجب عقلاً إلّا أنه حسن من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أنّ به منفعة للمُعَذَّبين؛ لأنه يُطهّرهم من المَلَكَات والسجايا السيئة التي تراكمت في نفوسهم في عالَمَ الدنيا واتِّباعهم للهوى والشيطان، ولو تطهّروا ارتقوا إلى مقام الجنة ودخلوها إلّا مَن كُتِبَ عليه الخلود في جهنم على ما تقتضيه القواعد العقلية، ودلّت عليه الأدلّة النقلية، والنار مُطهِّرة للذوات، ومُبدِّلة للحقائق.

الوجه الثاني: أنّ به يتحقق العدل الإلهي في الخلق، فإن تطبيق العدل في المذنبين حسن.

إنْ قلت: والعفو عنه أيضاً حسن.

فالجواب: هو كذلك، وحينئذ يقع التزاحم بين حسنين، وربما كان حسن العدل أهم وأرجح خصوصاً في المقصرين، وربما غلبة مصلحة العفو، والأشخاص والحالات تختلف وليس لها ضابطة واحدة.

الوجه الثالث: أنّ به إثبات صِدْق الأنبياء وإظهار كرامتهم عند الله، وكذلك مَن اتَّبَعَهُم من المؤمنين؛ لأنهم كانوا يدعون الناس إلى الإيمان، ويُحذِّرونهم من عذاب جهنم، ومن إخباراتهم كان تحذيرهم عن حتميّة العذاب ووقوعه لا احتماله؛ لتوقّف هداية الناس عليه، فإنهم إذا احتملوا وجود العذاب قد لا يبالون به كما يبالون بها لو قطعوا بوقوعه، فالتحذير من العذاب بلسان الحتم واليقين من اللطف المقرّب الذي يقضي بحسنهِ العقل، فوقوعه حَسن لِما به من حكمة في إظهار صِدْق الأنبياء وكرامتهم.

وبهذا تتّضح صحة القاعدة التي قرَّرها المُتكلِّمون، أي وجوب الوفاء بالوعد وعدم وجوب الوفاء بالوعيد؛ لأن عدم وجوب الوفاء لا ينفي حسنه.

اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ

يس/ ٦٤

وردت خبراً لقوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾[١] وبيان الغاية في الإشارة الحسّية إليها وتقريبها من المستحقين للعذاب، وهو دخولهم فيها والإصطلاء بها.

والبحث يقع في مباحث:

---

(١) سورة يس: الآية ٦٣.

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿اصْلَوْهَا﴾

اختلف أهل اللغة والمفسرون في معناها على أقوال:

القول الأول: أنه الإيقاد بالنار، وله رتبتان: الاستدفاء بها والاحتراق والشواء[1]، وإليه يعود مَن فسّره بالإلقاء في النار؛ للملازمة بينهما[2]، وقد ورد التنزيل بهما، فمن الأول قوله عليه السلام في قصة موسى عليه السلام: **﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾**[3] وذلك قرينة على أن الزمان الذي أنس فيه النار كان بارداً حتى احتاج إلى الاصطلاء بالنار، ومن الثاني قوله تعالى: **﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾**[4] أي أدخلوه فيها ليحترق، والمرتبة المتوسطة بينهما الشواء.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٩٠، (صلا)؛ مجمع البحرين: ح١، ص٢٦٦، (صلا)؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٥٧.

(٢) المعجم الوسيط: ج١، ص٥٢٢، (صلى).

(٣) سورة القصص: الآية ٢٩.

(٤) سورة الحاقة: الآية ٣١.

والقول الثاني: أنّه وقود النار[1]، والمعنى صيّروا صلاها أي وقودها، وعلى هذا يختصّ معنى الآية بأصول النار الذين بهم تشتعل وتتوقّد[2]، ويعزّزه العقل؛ لأنّ الكفر يلازم ذوات الكفّار، وجوهره النار.

والقول الثالث: اللزوم والتتابع، والمعنى الدخول والبقاء في النار، وعليه جماعة من أصحابنا[3]، وظاهر بعض العامّة[4]، والظاهر الأول، وشواهد العقل والنقل والقرائن تؤيده من جهات عمدتها جهتان:

الأولى: أنّ به تتحقق غاية الجزاء والعقاب، وبه وردت النصوص الكثيرة.

والثانية: شموله لكل أهل النار، بخلاف القول الثاني فإنه يخص العذاب بأئمة العذاب، وهو من حمل العام على الخاص، ولا يصار إليه إلّا بدليل، بل الدليل على خلافه؛ لأنّ غاية العذاب لا تختصّ بهم، وأما القول الثالث فهو على فرض وروده في اللغة فإنه غير ظاهر، ويختصّ بالمخلَّدين في جهنم مع أنّ البحث في الأعم على أنّه لا ينافي المعنى الأول؛ لأن غاية اللزوم والبقاء في النار هو الاحتراق بها.

فالحقّ أنّ الصلي هو الإحراق بالنار، وهو مراتب يبدأ من الشعور بحرارتها حينما تقترب منهم، ثم الشواء، ويتم بحرارة النار لا بذاتها، ثم

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٥٤٩، (صلى).

(٢) الفرقان: ج٢٤، ص٥٤.

(٣) التبيان: ج٨، ص٣٥٢؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٥؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٥؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٦؛ تفسير الميزان: ج١٧، ص١٠٣؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٧.

(٤) تفسير الرازي: ج٩، ص٩٤.

الاحتراق بها عبر دخولها، ثم البقاء والخلود فيها، وبهذا يجمع بين الأقوال؛ لأن بعض الداخلين فيها يكونون وقودها كما مرَّ بيانه، ومن لم يكن منهم يقضي مدة العذاب فيخرج منها بالاستحقاق أو الشفاعة، وعلى كل تقدير فإنّ الاحتراق بالنار يتوقّف على المكوث فيها، ولعلّ من هنا انصرف بعض المفسرين عن بيان معناه؛ لعدم الحاجة إليه بعد الظهور(١).

ولا ينقض ما ذكرنا بالصلاة؛ لأنّها مشتقّة من الصليّ بناء على أنّها ليست حقيقة شرعيّة وموضوعة للعبادة الخاصة بالوضع التعييني؛ لأن إطلاقها عليها يعود إلى وجوه:

الأول: أنه من باب إطلاق لفظ المسبب على السبب، فإن العبد بصلاته يذود عن نفسه عذاب النار(٢).

الثاني: أنه من باب الملازمة التكوينية؛ لأنّ المصلي يشعر بدفء الإيمان والاطمئنان في قلبه، ويلين بالخشوع والذكر(٣).

الثالث: أنه من باب الملازمة التشريعية؛ لملازمة الدعاء لها، وملازمة المصلي لها في الأوقات الخمسة(٤).

---

(١) بيان السعادة: ج٣، ص٢٩٠؛ تفسير الأمثل : ج١٤، ص١٦٣؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٤٤.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٩١، (صلا).

(٣) انظر مجمع البحرين: ج١، ص٢٦٧، (صلا).

(٤) انظر التبيان: ج٨، ص٣٥٧؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٥.

ويتحصّل: أنّ أهل النار يصلون بجهنم، ويختلف عذابهم على اختلاف مراتبهم، وصيغة الأمر ﴿**اصْلَوْهَا**﴾[١] تحتمل وجوهاً:

الأول: أنّه أمر تكويني يراد به بيان حالتهم ومصيرهم الحتمي، وقد ذكرَ لأجل التحقير والإهانة لهم جزاء بما كانوا يستحقرون أهل الإيمان حينما وعدوهم بالنار فيكون وزانه وزان قوله تعالى: ﴿**ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**﴾[٢].

الثاني: أنّه أمر تشريعي بالدخول في النار، وباعتبار ظهور الحقائق في الآخرة وزوال موانع العصيان يستجيبون ويدخلونها عن اختيار منهم ليقينهم باستحقاقهم ذلك، ولعلّ بعضهم يميل إلى الدخول عن شوق لأجل التطهُّر من رذائل الكفر والعناد؛ لاكتمال نفوسهم بالعلم والمعرفة الحقَّة، أو لرجاء الحصول على الخلاص بعد فترة العذاب، أو بالشفاعة لِمَن يستحقّها.

الثالث: أنه أمر تشريعي لملائكة العذاب، فيكون من قبيل الأمر بالواسطة. يشهد له قوله تعالى: ﴿**خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ**﴾[٣]. وصبّ الحميم عليه ببلائه.

الرابع: أنه تكويني وتشريعي معاً، ويصحّ على القاعدة عندنا جواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى، أو لوجود المعنى الجامع بينهما وهو الإلزام؛ لأنّ المأمور على صنفين:

---

(١) سورة يس: الآية ٦٣.

(٢)سورة الدخان: الآية٤٩.

(٣)سورة الدخان: الآية٤٧-٤٨.

أحدهما: المعاندون الذين لا يستجيبون للأمر التشريعي فيُقهَرون على الدخول بها ليذوقوا العذاب.

وثانيهما: المستجيبون للأمر، فإنّهم بأنفسهم يدخلونها طمعاً في التطهُّر والخلاص، أو إذعاناً للاستحقاق.

وظهور الأمر في الاختيار يعزِّز التشريعي ولا ينفي الحمل على التكويني في مورده إلّا أن يقال بمخالفته للأدلّة الصريحة في أنّ الآخرة دار الجزاء لا التكليف، وعلى فرض وجوده فإنه لا ثمرة له؛ لأنّ المصير حتمي، ولا يملك أهل النار إلّا الاستجابة للعذاب قهراً أو اختياراً، فالحقّ أنّ الأمر تكويني، وبه يظهر الإشكال على الوجه الثالث لمخالفته للظهور، والآية لا تصلح شاهداً له؛ لأنّها تتحدَّث عن العذاب بعد الدخول في النار، ومحل البحث قبل الدخول فيها.

المفردة الثانية: ﴿الْيَوْمَ﴾

(الألف واللّام) عهديّة؛ لما تقدَّم ذكره في قوله تعالى: ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾[1] وقد ورد جواباً لسؤال ملحاح كانوا يقولونه في الدنيا ﴿**مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**﴾[2] وقد حان يوم العذاب ولم يستعدّوا له، فقد ذهبت أيام لذّاتهم وبقيت تبعاتها وآثارها، وممّا يزيدهم عذاباً أنّ اللّذات تنقضي ومدتها قليلة وسريعة بينما أثرها وعذابها هو الحاضر الباقي الدائم بما يشعر العبد أنه استبدلَ التافه بالعظيم الكبير، وهذا يزيد ألمه وحسرته.

---

(١) سورة يس: الآية ٥٩.

(٢) سورة يس: الآية ٤٨.

المفردة الثالثة: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

(الباء) سببيّة، ومفادها أنّ الدخول في جهنّم والاصطلاء بها ناشئ من كفرهم الذي كانوا عليه في الدنيا، وصيغة المضارع تدل على استمرارهم عليه وعدم توبتهم منه قبل الموت، وفي ذلك دلالة على أنّ العذاب يكون لِمَن مات على الكفر، وإطلاقهُ يشمل ثلاثة أصناف:

الأول: كفر العقيدة، وأعظمه جحود محمد وآل محمد عليهم السلام؛ لما تقدَّم غير مرة أنّ أكثر الكفر كفر عبادة لا كفر إلحاد، وحتى مَن يتصوَّر أنه غير مؤمن بالله سبحانه فإنه خالط بين كفر الإلحاد وكفر العبودية؛ لأن الإيقان بوجود الخالق أمر تقرّه الفطر والنفوس وبديهة القول قبل البراهين والأدلّة.

وكفر العبودية يتحقَّق بجحود أنبياء الله وأوليائه لاسيّما محمد وآل محمد ومعاداتهم، ويختصّ بالنواصب الذين يعادونهم ويُعادون شيعتهم.

الثاني: كفر النعمة، وأجلاه وأظهره ولاية محمد وآل محمد عليهم السلام كما تضافرت فيه الأدلّة، ويشمل الذين لا يعادونهم ولا يتبعونهم، بل يأخذون العبادة من الاجتهادات الخاصة والظنون الشخصيّة واتِّباع غيرهم، وهو من مصاديق عبودية النفس والشيطان، فلا يكون العبد موحِّداً توحيد العبادة إلّا باتِّباعهم عليهم السلام. قال تعالى: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾**[1].

---

(١) سورة المائدة: الآية٣.

وقد تضافرت النصوص على أنّ كمال الدين وتمام النعمة على العباد والإسلام المرضيّ منهم بولاية أمير المؤمنينعليه السلام. ومفهومه أنّ الإعراض عنها فيها نقصان الدين وعدم الرضا بإسلام المرء وكفران بالنعمة[1].

الثالث: كفر العمل بالعصيان، وتشمل الموالين وغيرهم، إلّا أنّ الدلالة خصصت الموالين بالشفاعة فلا يدخلون جهنم، فتختَصّ جهنم بالصنفين الأولين، ولكن هناك نوع عذاب روحي ربما يستمرّ به عصاة الموالين، وهو الحياء والخجل أمام أوليائهم وسادتهم؛ لعدم الاقتداء التّام بهم، وتخلّقهم بأخلاق أعدائهم، فإنّ أعداءهم أصل كل شَرّ، وكل فعل قبيح يعود إليهم.

فلو كان المؤمن الموالي شارباً للخمر أو زانياً أو قاتلاً للنفس المحترمة أو سارقاً كان بعمله هذا قد اقتدى بأعداء آل محمد، وتخَلَّقَ بأخلاقهم، وإذا كان مصليّاً متقياً خلوقاً عفيفاً عن الحرام كان مقتدياً بهم، وفي الآخرة حيث تظهر السرائر وتتجسَّد الأعمال وتظهر آثارها سينفضِح حال المؤمن، ويشعر بالحرج الشديد عند أئمتهِ الذين غمروه بالنِعَم وحُسِبَ عليهم، ولم يَكُنْ كما يُحبوّن لاسيّما وأنّ النفوس والعقول تكتمل فتدرك شدّة قبح المعاصي، وهذا ربما يكون أشدّ قسوة عليه من عذاب النار لأنَّ الألم الروحي أشَّد من الجسدي.

ويتحصّل: أن في القيامة ستظهر جهنم للمجرمين وتحرقهم، وهو وعد حتمي الوقوع.

---

(١) انظر تفسير نور الثقلين: ح٢، ص١٩٢-١٩٤، الأحاديث٢٧-٣٥.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: أحوال أهل النار

قال تعالى: ﴿اصْلَوْهَا﴾ ولم يقل ذوقوها أو احترقوا بها، ولعلّ السبب يعود لأمرين:

أحدهما: أنّ الصلاء يتضمَّن معنى الصلة أي الوصول إليها والكَوْن عند النار، وهو أعمّ من الذوق والاحتراق، فيوافق غرض الجزاء والعقاب؛ لأن أهل النار ليسوا على مرتبة واحدة، وجزاؤهم ليس واحداً، بل يختلف بحسب المراتب، فبعضهم يستحق الاحتراق، وبعضهم الشِواء، وبعضهم الحرارة والاحتماء، وبعضهم يستحق العذاب مدة وينقضي استحقاقه، وبعضهم يستحق الخلود، وهذه جميعاً يشملها الصلاء بخلاف غيره، فإنّ ذوق العذاب يفيد اللمسة الأولى من الاحتراق، وبعده يكون الشواء، كما لا يشمل الاحتراق ولا الخلود، كما أنّ الاحتراق يتضمَّن أعلى درجات العذاب، فلا يشمل أصحاب الرتبة الأخفّ.

وثانيهما: لأن غاية العقاب تتحقَّق بالعذاب بالنار مع بقائهم أحياء، وهذا يفيده الصلاء، أمّا الاحتراق فربما يتضمَّن الدلالة على الموت و الهلاك، وهو ناقض لغرض العذاب.

اللطيفة الثانية: كلّمهم بمنطقهم

في قوله: ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾[١] إشارة إلى نهج الكفار وأهل الدنيا، فإنّهم يَعدّون لذّاتهم والأيام، ويطلبون في كل يوم لذَّة جديدة يسوقهم إليها الطمع والحرص و الشره على الدنيا، فالأيام عندهم محسوبة، ولها لذاتها، فكلّمهم بالمنطق الذي نهجوه ليلفتهم أنّ الإنسان ليس كل أيامه لذَّة، بل بعض أيامه عذاب، فإذا صار في يوم اللذَّة عليه أن يفكِّر في آثارها، فإذا كانت اللذَّة مُحرَّمة فإنّ مقابل يوم اللذّة يوم الأثر و العذاب، وبهذا يكون قد عذَّبهم وأدَّبهم.

اللطيفة الثالثة: تنوّع العذاب بتنوّع الكفر

إنّ (ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[٢] موصولة أو مصدرية، و (الباء) سببّية، فتفيد أنّ عذابهم ناشئ من كفرهم، ويستفاد من مراتب الكفر الثلاثة المتقدمة أنّ بعض الكفر يتعلَّق بالعقل وهو كفر المعتقد، وبعضه بالقلب وهو كفر النعمة، وبعضه بالجوارح وهو كفر العمل، وكل واحد منها سبب للعذاب، وبينها تفاوت في شدة العذاب وخفَّته.

فالأول يوجب الخلود في النار؛ لأنه من النصَب، والثاني الاحتراق و الشواء، ويشهد له قوله تعالى: ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ ۞ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾[٣]

---

(١) سورة يس: الآية ٦٤.

(٢) سورة يس: الآية ٦٤.

(٣) سورة الهمزة: الآيتان ٦-٧.

أي القلوب، والثالث الاحتماء، ولعلّ هذا يتوافق مع العموم المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا**﴾[(١)] و الورود أي الوصول إلى النار كما هو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام، وهو أعمّ من الدخول، وهي صريحة في أنّ الوصول للجميع.

وفي الآية التي تليها يذكر الاستثناء فيقول: ﴿**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**﴾[(٢)] وفي الأخبار أنّ البحار تتحوَّل إلى نيران ويُلْقَون فيها، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**﴾[(٣)].

إن قال قائل: إنّ قوله: ﴿**تَكْفُرُونَ**﴾[(٤)] بصيغة المضارع يفيد أنّ الكفر سبب للعذاب، وأنّ جهنَّم موردهم، وهي تتعارض مع قاعدة تجسّم الأعمال وتسانخها.

فالجواب: لا تعارض؛ لأنّ بعض عذاب جهنم ونيرانها يكون نفس أعمالهم وسجاياهم النارية، وبعضه ذواتهم، وبعضه جزاءً لأعمالهم، وهو ما تدلّ عليه الأخبار.

ففي رواية أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: يا بن رسول الله! خوّفني فإنّ قلبي قد قسا، فقال: «يا أبا محمد! استعدّ للحياة الطويلة،

---

(١)سورة مريم: الآية٧١.

(٢)سورة مريم: الآية٧٢.

(٣) سورة التكوير: الآية ٦.

(٤) سورة يس: الآية ٦٤.

فإنّ جبرائيل جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو قاطب، وقد كان قبل ذلك يجيء وهو مبتسم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جبرائيل جئتني اليوم قاطباً؟! فقال: يا محمد! قد وُضِعَتْ منافخ النار، فقال: وما منافخ النار يا جبرائيل؟ فقال: يا محمد! إنّ الله عزّ وجلّ أمرَ النار فنفخَ عليها ألف عام حتى أبيضَّتْ، ونفخَ عليها ألف عام حتى أحمرَّتْ، ثم نفخَ عليها ألف عام حتى اسودَّتْ، فهي سوداء مُظلِمة، لو أنّ قطرة من الضريع قطرتْ في شراب أهل الدنيا لَمَاتَ أهلها من نتنها، ولو أنّ حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وُضِعَتْ على الدنيا لذابت الدنيا من حرِّها، ولو أنّ سربالاً من سرابيل أهل النار عُلِّق بين السماء والأرض لَمَاتَ أهل الأرض من ريحِهِ ووهجِهِ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وبكى جبرائيل... ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ أهل جهنم إذا دخلوها هووا فيها مسيرة سبعين عاماً، فإذا بلغوا أعلاها قُمِعُوا بمقامِعِ الحديد وأُعيدُوا في دَرْكِها. هذه حالهم، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿**كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا**﴾[(١)] ثم تبدل جلودهم جلودا غير الجلود التي كانت عليهم»[(٢)].

والضريع شيء يكون في النار يشبه الشوك أمّر من الصبر وأنتن من الجيفة، وأشد حرّاً من النار[(٣)]، و السرابيل جمع سربال وهو القميص[(٤)].

---

(١) سورة الحج: الآية٢٢.

(٢) تفسير القمّي: ج٢، ص٨١، تفسير الآية٢٢من سورة الحج.

(٣) مجمع البحرين: ج٤، ص٣٦٤، (ضرع).

(٤) مجمع البحرين: ج٥، ص٣٩٥، (سربل).

وفي رواية عمرو بن ثابت عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «إنّ أهل النار يتعاوون فيها كما يتعاوى الكلاب والذئاب ممّا يلقون من أليم العذاب، فما ظَنُّكَ يا عمرو بقوم لا يُقضى عليهم فيموتوا، ولا يُخَفَّف عنهم من عذابها عُطاشى فيها جياع كليلة أبصارهم، صمٌّ بكمٌ عُمي، مسودة وجوههم خاسئين فيها نادمين، مغضوب عليهم فلا يُرْحَمون من العذاب، ولا يُخَفَّف عنهم، وفي النار يُسْجَرون، ومن الحميم يشربون، ومن الزقوم يأكلون، وبكلاليب النار يُحطَمون، وبالمقامع يُضْرَبون، والملائكة الغلاظ الشداد لا يَرحمون، فهم في النار يُسْحَبون على وجوههم، ومع الشياطين يُقْرَنون، وفي الأنكال والأغلال يُصفَّدون. إنْ دَعَوا لم يُسْتَجَبْ لهم، وإنْ سألوا حاجة لم تُقْضَ لهم. هذه حال مَن دخلَ النار»[١].

وتعاويهم ناشئ من طبائعهم الكلبية و الذئبية التي تتجلّى ذاك اليوم.

والزقوم شجرة مُرَّة كريهة الطَعْم والرائحة يُكْرَه أهل النار على تناولها[٢]، ولعلّ أصلها لُقْمَة الحرام، والكلاليب الأدوات التي يأخذ بها الحدّاد الحديد المُحمى[٣]، و يحطمون أي يُكسَّرون و يُقطَّعون، والأنكال القيود التي يُلْجَم بها الفمّ[٤] مقابل الأغلال وهي قيود العنق أو الأيدي[٥].

---

(١) الأمالي(للصدوق): ص٦٥١، ح٨٨٦؛ البحار: ج٨، ص٢٨١، ح٣.

(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص٧٩، (زقم).

(٣) المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٩٤، (كلب).

(٤) المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٥٣، (نكل).

(٥) المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٦٠، (غل).

خلاص أهل النار بمحمد وآله

ويستفاد من الأخبار أنَّ لبعض أهل النار مُخلِّصاً منها إذا توسَّلوا إلى الله سبحانه بمحمد وآل محمد، وهذا هو فرجهم.

ففي رواية جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ﴿إنّ عبداً مكثَ في النار سبعين خريفاً، والخريف سبعون سنة. قال: ثم إنه سأل الله عزّ وجلّ: بحقِّ محمد وأهل بيته لمّا رحمتني. قال: فأوحى الله جلّ جلاله إلى جبرائيل عليه السلام: أنْ اهبط إلى عبدي فأخْرِجْهُ. قال: يا رب! وكيف لي بالهبوط في النار؟ قال: إنّي قد أمرتها أنْ تكون عليك برداً وسلاماً قال: يا رب! فما عِلْمي بموضعه؟ قال: إنه في جُبِّ من سجّين. قال: فهبط في النار فوجدَهُ وهو معقول على وجههِ فأخْرَجَهُ، فقال عزّ وجلّ: يا عبدي! كم لبثتَ تناشدني في النار؟ قال: ما أحصيه يا رب قال: أمّا وعزَّتي لولا ما سألتني به لأطلتُ هوانك في النار، ولكنه حتمٌ على نفسي أن لا يسألني عبد بحق محمد وأهل بيتهِ إلّا غفرتُ له ما كان بيني وبينهُ، وقد غفرتُ لك اليوم﴾[١].

والسجّين من السجن وهو الحبس، ويقال سجّين صخرة تحت الأرض السابعة وهو موضع سجن جند إبليس[٢].

---

(١) البحار: ج٨، ص٢٨٢، ح٤؛ الأمالي(للصدوق): ص٧٧٠، ح١٠٤٤؛ الخصال: ص٥٨٤، ح٩.

(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص٢٦٢-٢٦٣، (سجن).

ومعقول على وجهه أي مشدود من يديهِ ورجليهِ ومكبوب على وجههِ، وفيه تعليم لبني آدم في أنَّ النجاة في الآخرة حتى لأهل جهنم بمحمد وآل محمد عليهم السلام، وسعادة الدنيا وجنتّها كذلك تكون بولايتهم وطاعتهم والمشي في ركابهم عليهم السلام.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: التوبة قبل الموت

إنّ على الكافر في أي صنف من أصناف الكفر أن يتوب قبل أنْ يدركه الموت فيموت على كفرِه ويصلى في جهنَّم، فإنّ الله سبحانه يحب التوابين ويحب المتطهرين، ويجب أنْ يعلَم المؤمن الموالي بأنّ عذاب الآخرة لا يختصّ بعذاب جهنَّم، بل هناك عذاب قد يكون أشدّ وأقسى منه هو العذاب الروحي الذي يتحقَّق بالفضيحة وانتهاك الستر أمام الخلائق، لاسيّما عند محمد وآل محمد عليهم السلام، فعليهِ أنْ يجهد نفسه لئلا يُخالفهم ويخرج عن نهجهم في عقيدة أو عمل.

وقد وعد الباري عزّ وجلّ بغفران جميع الذنوب إلّا الشِرك؛ إذ قال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللّه لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء**﴾[1] وقال عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ**

(١) سورة النساء: الآية ٤٨و١١٦.

عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[(١)] والتوبة من الحسنى التي وعد الله سبحانه صاحبها بالمغفرة والرحمة.

فسعادة الإنسان وشقاؤه بيده، والعاقل لا يختار شقاءه مقابل لذّات زائلة فانية.

التعليم الثاني: لماذا يخلَّدون في النار؟

إنّ العذاب الإلهي يكون بعد البيان والتحذير والوعد والوعيد، ويكون قاسياً وشديداً؛ لأنه بالاستحقاق، ولا يقال إنّ أعمال المذنبين محدودة فلماذا يُخَلَّدون في العذاب، فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: أنّ هؤلاء طبعوا نفوسهم على الكفر والمعاصي ولو عاشوا آلاف السنين وجاءهم الكثير من الرُسُل لم يستجيبوا، والكفر جوهر النار فيلازمهم.

الوجه الثاني: أنهم حتى وهم في النار لا يتعظون ولا يتراجعون، ويُستفاد من رواية جابر عن أبي جعفرعليه السلام أنهم لو سألوا اللهَ بحق محمد وآل محمد أنْ يُنْجيهم لنجّاهم من العذاب، ولكنهم لم يسألوا، لأنهم جُبِلوا على العناد والمكابرة فيستحقّون الخلود.

وهنا ينبغي أن يتعلَّم الإنسان أن يهذِّب نفسه على المرونة والاستجابة للحقّ ويكسر قيود التعصّب والمكابرة؛ لأن مصير المكابرين الهلاك.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية١٠١.

التعليم الثالث: للتربويين والمعنيين بتطبيق العدالة

وخلاصته: وجوب اتخاذ العقاب المناسب للحدّ من الأخطاء والمخالفات، ولابد أن يلاحظ في العقاب مراتب الخطأ وحالات المُخطئين، كما يجب أنْ يتَّصف بصفات ثلاث:

الأولى: أن يكون عادلاً.

الثانية: أن يكون نافذاً.

الثالثة: أن يكون سريعاً.

فلو اختلّت واحدة فَقَدَ أثره المهم، وربما نقضَ الغرض، وهذا يستفاد من قوله تعالى: ﴿**اصْلَوْهَا الْيَوْمَ**﴾ فإنّ العقاب غير العادل إنْ كان زائداً كان ظُلماً وإن كان أقل انفلتَ النظام، وتمادى الخطأ، وضاع العدل، وقد وردَ مَن أمِنَ العقابَ أساءَ الأدب، ولو كان عادلاً لكنه لا يُنَفَّذ كان لغواً، ولو تباطأ التنفيذ ربما أفلت المسيء منه، أو كان ظلماً، وهو نقض للغرض.

إنْ قلت: ما ذكرتم يتنافى مع مبدأ الرحمة والإحسان، وهما متقدمان على العقاب.

قلت: ذلك تام ولكن لا إطلاق له؛ إذ لا يمكن للقاضي أن ينظر إلى جهة الرحمة دائماً وإلّا وقع في الظلم ونَقْض غرض القضاء؛ لذا تُوْكَل القضية إلى تقديرات القاضي؛ لاندراج الأمر في باب التزاحم، فيلحظ كل قضيّة بحسبها.

التعليم الرابع: للقضاة والفقهاء

في قوله تعالى: ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[١] تعليم للقضاة والسلطات المنفِّذة للأحكام القضائية والفقهاء من جهتين:

الأولى: أنّ تحديد العقوبة على الجناية لابد وأن تكون بسبب معلوم من قِبَل المذنبين، فالجهل القصوري عذر.

الثانية: أنّ العقاب في الجنايات الكبيرة يجب أن يكون حسيّاً وفيه ألم كألم الصلاء في النار، ولا يكفي فيه الألم الروحي؛ لذا جعل الشرع العقوبة -لحدود والتعزيرات- ملازمة للألم وأمّا السجون والغرامات الماليّة ونحوها فهي قد تكون عذاباً ولكن بلا ألم فلا يردع عن الجريمة.

وعليه لا يصح اتخاذ الوسائل المخدرة المزيلة للألم لدى تطبيق العقوبة. هذا هو الأصل العام الذي يستفاد من الآية، ويمكن دخول الاستثناء عليه بحسب الأدلة الخاصة أو الضرورات التي يراها القاضي العادل.

---

(١) سورة يس: الآية٦٤.

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ
وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ
أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

يس/ ٦٥

قُرِئتْ الآية بقراءتين أُخريين:

الأولى: ﴿**نَخْتِمُ**﴾ قُرِئَتْ (يختم) مبنيّة للمجهول و﴿**تُكَلِّمُنَا**﴾ قُرِئَتْ و (تتكلم أيديهم).

الثانية: قُرِئَتْ ﴿**وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ**﴾ بلام الأمر كناية عن الأمر التشريعي لها بالكلام لتتكلم وتشهد، وبعضهم حملها على لام الغاية، أي لأجل أنْ تكلمهم الأيدي، وشهادة الأرجُل تختم على أفواههم[1].

وفيهما نظر تقدَّم غير مرة، فالحق هو القراءة المعهودة في الآية، وهي جملة استئنافية وردت لبيان بعض الأحداث التي تقع على أهل النار، وبعض أنواع الجزاء الذي يلاقونه يوم الحساب، وفي عين الحال يؤكد حصول ذلك في يوم معهود خاص كما تقدم ذكره في الآيات السابقة، فهي استئنافية تتضمن معنى العطف لإتمام الخبر

والبحث فيها يقع في مباحث:

---

(١) روح المعاني: ج٢٣، ص٦١.

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿الْيَوْمَ﴾

وهو تأكيد لليوم المعهود بينهم وبين ربهم، وفيه ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يكون المراد العهد الدعوي وهو اليوم الذي يحشرون فيه إلى الله سبحانه؛ إذ يُؤمَرون بالامتياز ويصلون النار كما ذكرته الآيات السابقة.

الثاني: أن يكون المراد العهد الحضوري الخارجي، وهو العهد الإلهي مع بني آدم في أن لا يعبدوا الشيطان ويعبدوه.

وما ينبغي أنْ يلتفت إليه هو أنّ اليوم ظرف هو موعد للحساب، وللحساب موضوع يدور عليه ويُحاسَب عليه الناس، وبسببِهِ يُختَم على أفواههم فما هو؟

والجواب: أنه ولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

الثالث: أن يكون المراد العهد الذهني، وهو يشمل السابقين معاً لملازمة الذِكر والحضور الخارجي للحضور الذهني، وهو الجامع للعهود الثلاثة، وتتعاضد على ذلك القرائن:

القرينة الأولى: قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾[١] فإنه اليوم الذي نصبَ فيه النبيصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِه أمير المؤمنينعَلَيْهِالسَّلَامُ وليّاً وقائداً وإماماً للناس، وبايعهُ الناس على ذلك، وهو يوم الغدير؛ إذ به كمال الدين، وفي غيره نقصانه، وكمال الدين فيه الجنة، ونقصانه النار، وفيه دعا النبيصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِه بالنصر لمن ينصره ويقف معه، ويخذل من يخذله، وتظهر آثار النصرة والخذلان في الآخرة، فمَن ينصره يدخل الجنة، ومَن يخذله يدخل النار.

القرينة الثانية: الآية السابقة؛ إذ قال سبحانه: ﴿**اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ**﴾[٢] يومئ إلى وجود نعمة عظيمة كانت لديهم كفروا بها فاستحقوا النار، ويتعزز ذلك لو كانت (ما) فيها مصدرية، والمعنى اصلوها اليوم بسبب شيء كنتم تكفرون به وليس ذلك إلّا ولاية أمير المؤمنينعَلَيْهِالسَّلَامُ، ولا يقال لو صح لوجب أن يحمل على ولاية الله أو ولاية الرسول؛ لأن ولايتهعَلَيْهِالسَّلَامُ هي مجمع الولايات الثلاث وخلاصتها دون العكس.

القرينة الثالثة: الآية التي وصف بها الباري عزَّ وجلّ عبادته بالصراط المستقيم بالإشارة الحسيّة؛ إذ قال: ﴿**وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾[٣] وقد مرّ أنه صراط عليّعَلَيْهِالسَّلَامُ وولايته، وأنّ بطاعته تتلّخص العبودية لله سبحانه.

---

(١)سورة المائدة: الآية٣.

(٢)سورة يس: الآية٦٤.

(٣)سورة يس: الآية٦١.

القرينة الرابعة: ما تضافر في الأدلة من أن العهد الإلهي مع بني آدم قبل الدنيا تضمَّن الولاية، وعهد النبي معهم في الدنيا كان الولاية، فلابدّ وأنْ يدور الحساب والكتاب عليها في الآخرة.

وقد مرَّ حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله في بيان معنى قوله: ﴿**وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾[1] ذكر لعهود الأنبياء مع أقوامهم ونقضهم لها. وعهده صلى الله عليه وآله مع أمّته في الولاية لأمير المؤمنين عليه السلام، وقال لهم: «أيها الناس أوفوا بعهد الله في عليٍّ يُوَفَّ لكم في الجنة يوم القيامة»[2] لكنّها نقضت.

وقد سُئِلَ الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: « ﴿**يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا**﴾[3] قال: يعرفون يوم الغدير»[4].

وورد أنّ الله ما بعثَ نبيّاً إلّا وهو يعيّد في هذا اليوم ويحفظ حرمته، وأنه في السماء يُعرَف بيوم العهد المعهود، وهو ما يقره العقل؛ لأن كل الأعمال التي يحاسب عليها الناس تعد فروعاً بالقياس إلى الولاية، فالطاعة الكبرى بالولاية، والمعصية الكبرى بالإعراض عنها، فالعهد بالولاية له عليه السلام هو مجمع العهود الثلاثة، فلا بدّ وأنْ تكون أول ما يسأل العبد عنها، ولذا وصفت في الأخبار بأنها مفتاح العبادات، وقوله: ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى**

(١) سورة البقرة: الآية ٤٠.

(٢) معاني الأخبار: ص٣٧٢، ح١.

(٣) سورة النحل: الآية ٨٣

(٤) سفينة البحار: ج٦، ص٦٠٦.

﴿أَفْوَاهِهِمْ﴾[١] لأنهم يكونون في محضر النبي والإمامعليهما السلام إذ الإياب إليهما والحساب عليهما فتُختَم أفواههم؛ لأنهم على فئات:

فئة علمت بحق علي بن أبي طالبعليه السلام ووجوب ولايته وأعرضت عن ذلك فلا تملك جواباً لسؤالهم لماذا أعرضتم عنه ولم تطيعوه؟ فينكشف خبث بواطنهم، ويصلون بالنار، وفئة جهلت ذلك، فإن كان قد وصلهم بيان وتعليم وإرشاد وقصروا في النظر فيه والاتباع فيلحقون بالعامدين وتختم أفواههم؛ لأنهم سبب في ذلك، وفئة لم تصلهم الحجة وعقولهم لم توصلهم إلى الحق وهم ثلاث فئات : فئة أحبَّته ولم تُطعِه، وأخرى لم تُحبّه ولم تبغضه؛ لأنها جاهلة به مطلقاً، وهؤلاء إمّا أمرهم موكول إليه فتنالهم الشفاعة أو يختبرون، وفئة أبغضته فتصلهم النار؛ لأن بغض أمير المؤمنين نار تحرق أهلها.

ويشمل اليوم يوم الظهور ويوم الرجعة؛ لأن بهما يختم على أفواه الكفار والمشركين، ويقام العدل في الأرض بتطهيرها منهم إمّا من باب التوسعة في الحقيقة والمفهوم أو بلحاظ وحدة الأثر على ما قرَّرناه غير مرة.

المفردة الثانية: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾

الختم النهاية مقابل البدء، وإذا أضيف إلى شيء دلَّ على ختامه، ومنه قوله تعالى في وصف النبي المصطفىصلى الله عليه وآله : ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[٢] أي آخرهم

---

(١)سورة يس: الآية٦٥.

(٢) سورة الاحزاب: الآية٤٠.

فليس بعده نبي، وختام الكلام نهايته، ولازمه المنع فيمنع أن يكون بعده نبي أو كلام، والختم ما يستعمل في الكتب الرسميّة والوثائق ونحوها لأن بعده يمنع أنْ يدخل عليه كلام آخر، أو يستخرج منه كلام آخر، وقولهم ختمَ على الطعام والشراب أي غطّى فوهة وعائه بطين أو شمع أو غيرهما حتى لا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء، وقوله تعالى: ﴿**يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ**﴾[1] أي غير مختلط بغيره.

والختم على الفم المنع من الكلام، وعلى القلب بحبس ما فيه فلا يخرج منه ما انطوى عليه ولا يدخل ما يغيّر فيه[2].

ويتحصّل: أنّ أهل النار يبتلون بختم الأفواه، ويتصوّر على وجوه عمدتها ثلاثة:

الأول: أن يوضع على أفواههم ختم يمنعهم من الكلام، ويكون علامة على كفرهم واستحقاقهم العذاب، وهذا ما أشارت إليه الآيات والروايات الدالة على أنّ أهل النار لهم سمات وعلامات يعرفون بها، كما أنّ لأهل الجنة كذلك، ومن سمات أهل النار الختم على الأفواه.

ولعلَّ ذلك جزاء لصفاتهم في الدنيا؛ إذ كان لهم أصوات عالية في الكفر والعصيان وألسنتهم حرّة لا تتقيد بضابطة أخلاقية أو اعتقادية، وتؤيّده

---

(١) سورة المطففين: الآية ٢٥.

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٢١٢، (٨٣٢)؛ معجم البحرين: ج٦، ص٥٤، (ختم)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٢١٨، (ختم).

رواية عمرو بن ثابت عن أبي جعفر المتقدمة التي أشارت إلى النكال الذي يغلل أفواه أهل النار، وهو نوع من عذابهم الروحي والجسدي.

الثاني: المنع من الكلام بسبب ثقل الذنوب وهول النار والخوف من المصير، فيكون اللسان ثقيلاً يتلجلج في مقام المحاسبة، كما يحصل ذلك لبني آدم عند الخوف الشديد وانقطاع الحجج، أو أنّ الحجج والبراهين الإلهية التي تشهد على كفرهم وتمردهم تلجمهم فلا يستطيعون كلاماً؛ لأنهم لا يجدون عذراً فيعتذروا، ولا مجال للتوبة فيستغفروا.

الثالث: أنهم يمنعون من الكلام بسبب قبح أفعالهم، وكأنهم مختوم على أفواههم فلا يقدرون على النطق، فبدلاً من النطق الاختياري تنطق أيديهم بالنطق القهري؛ إذ لابد في الحساب من سؤال وجواب، وعدم قدرتهم على النطق ليس من العجز، بل لأنهم يؤتون صحفاً أعمالهم فيها فلا يجدون لأنفسهم جواباً على ما فعلوا، وهو يعود إلى اليأس(١)، وقيل إنّ سبب الختم على أفواههم حين يقال لهم اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون يتبرون من الكفر، ويكذبون ذلك معززينه بالقسَم، فيحلفون بالله كذباً قائلين: ﴿**وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾(٢) وهو نوع نفاق؛ إذ أقسموا بالله ووصفوه بالرب ونفوا عن أنفسهم الشرك توهّماً منهم أنّ كذبهم الذي كانوا يمارسونه في الدنيا ويخدعون به الناس ينطلي في الآخرة، ولذا يختم على أفواههم(٣)، والأول أظهر، لثلاث قرائن:

---

(١) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٦.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٢٣.

(٣) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٧؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٦٣.

الأولى: الحرف(على) فإنه صريح في أنّ الختم يكون من الخارج يمنعهم من الكلام.

الثانية: نسبة الختم إلى ضمير الجمع للفاعل(نختم) وهو صريح في السبب الخارجي.

الثالثة: الأشباه والنظائر كما في قوله تعالى: ﴿**خَتَمَ اللّه عَلَى قُلُوبِهِمْ**﴾[1] وقد مرَّ معناه[2].

ونسب الختم إلى ضمير الجمع إمّا للتنزيه كما هي القاعدة في البلاغة فإنّ تبدّل الضمير من المفرد إلى الجمع يفيد مزيد التجليل والتنزيه، ووجهه أنّ الأطراف أدنى مرتبة من الفم فإنّ أشرف ما في الإنسان رأسه، وأشرف ما في رأسه لسانه، فإذا ختم الفم وصارت الأطراف تتكلّم كان الكلام من الأدنى، وهذا يستدعي التنزيه، ويعزّزه الالتفات بالانتقال إلى ضمير الغائب للإيذان بخبث ذواتهم وقبح أفعالهم التي تستدعي الإبعاد، أو لأنّ الأطراف مواضع أكثر الذنوب فهي معنويّاً في أدنى المراتب فلا تليق بمخاطبة الباري بضمير المفرد.

وإمّا للإشارة إلى العلل التوسيطية التي تتولّى أمر الحساب والعقاب في الآخرة، وهم النبيّ والأئمة عليهم السلام والملائكة من بعدهم.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٧.

(٢) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٧٥، (ختم).

المفردة الثالثة: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾

وهي صريحة في أنّ اليد ستنطق وتتكلَّم وتجيب عن صاحبها بدلاً عن لسانه، وظاهر السياق ومناسبة الحكم والموضوع أنّ كلام اليد ليس للدفاع عن العبد وإظهار عذره في الكفر والعصيان؛ لأن الحجة عليه تامّة، وإنّما كلامها الإقرار والاعتراف بما فعل من ذنوب، فإنّ مَن كانت الحجّة عليه دامغة ينقطع لسانه عن الكلام، وربما طبيعته وسجيَّته في الكفر تدعوه إلى الكذب والتنصّل عن الأعمال، فإنّ اليد تكون متكلمة ومقرّة بما فعل بها. هذا ما يستفاد من منطوق الآية واتفقت عليه كلمة المفسرين، وإنما اختلفوا في كيفية تكلّمها وهي ليست بآلة كلام؟ والأقوال في ذلك عديدة:

القول الأول: أنه سبحانه ينطقها ويعطيها القدرة على الكلام، فكما أنه سبحانه أعطى اللسان القدرة على النطق يعطي ذلك لليد، وهو قادر على كل شيء[1]، ولا يقال إنّ اليد ليست آلة للكلام فكيف تنطق؟ والجواب ذلك من حيث نفسها، وأمّا من حيث القادر المطلق فلا استحالة فيه، فإنطاق اليد ممكن ذاتاً وممكن وقوعاً؛ لعدم استلزام محال ذاتي أو عرضي، وحيث إنّ الصادق أخبر بوقوعه وجب تصديقه والاعتقاد به. قال تعالى عن لسان المشركين حين تشهد عليهم جلودهم أنهم يقولون لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2] وفيها دلالة على أنّ كل شيء في الآخرة ينطق.

---

(١) انظر تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٢؛ أنوار التنزيل: ج٢، ص٢٨٤.

(٢) سورة فصلت: الآية ٢١.

القول الثاني: إن الله سبحانه يخلق فيها الكلام كما خلقه في الشجرة فكلَّم موسى عليه السلام، ويؤكده ما عن بعض أهل اللغة أنّ الكلام هو الأصوات المفيدة[١]، أي وإن لم تكن بجارحة اللسان.

إن قلت: لكن الآية نسبت الكلام إلى اليد وهو ظاهر في أنها المتكلِّمة.

فالجواب: ذلك لأن الكلام يظهر من جهتها، ويكفي في صحة الإضافة أدنى نسبة[٢].

وفيه: أنه يستدعي أن يحمل كلام اليد على المجاز وهو خلاف الأصل والظهور؛ لظهور الآية بل صريحها في صدور الكلام من اليد وليس بإظهاره منها. هذا فضلاً عن الروايات الصريحة في ذلك كما ستعرف.

القول الثالث: إنّ كلام اليد ليس بالنطق بل بظهور الآثار والعلائم الدالة على الفعل، فإنّ الكلام يقع على الألفاظ التي تُدرَك بحاسة السمع وعلى المعاني ولو من دون ألفاظ. قال في المفردات: كل قضية تسمى كلمة سواء كان ذلك مقالاً أو فعالاً، وفي التنزيل العزيز أطلقت الكلمة على عيسى عليه السلام وعلى الآيات والمعجزات والحجج الإلهية[٣].

---

(١) المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٩٦، (كلم).

(٢) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٢؛ أنوار التنزيل: ج٢، ص٢٨٤؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٦٣.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٢٣-٧٢٤، (كلم).

وفي الأخبار الشريفة في معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[(١)] أي الإمامة جعلها الله في صلب الحسين عليه السلام إلى يوم القيامة[(٢)]، وفي الحديث النبوي: أنّ كلمة التقوى التي ألزم بها المُتّقون أمير المؤمنين عليه السلام[(٣)].

فكل قضية لها معنى ومدلول هي كلمة، فإذا تعدَّدت وتتابعت يقال لها كلام، كما أنّ تتابع الحروف والألفاظ يقال له كلام، وعلى هذا فإنّ لكل عمل يرتكبهُ الإنسان بواسطة جوارحه آثاراً تبقى محفوظة عليها، وهي إمّا آثار مادية شفافة لا تراها الأعين في الدنيا بسبب خفائها أو قصور العيون عنها ستظهر في الآخرة، أو آثار معنوية تتجسّد في ذلك اليوم الذي تنكشف فيه الأسرار والآثار، وللأول شواهد حسيّة كثيرة، فإنّ اصفرار الوجه علامة على المرض، واحمرارهُ علامة الغضب، وتلجلج اللسان علامة على الخوف، وتورم العين علامة السهر، وهي كلها أعمال وآثار، فكذلك الذنوب والمعاصي، فكلام اليد ليس بنطقها بل بظهور آثار المعاصي عليها ودلالتها على أفعالها[(٤)].

وفيه:

أولاً: أنه منقوض بسائر الأعضاء والجوارح بما فيها الرجل، فإنّ آثارها عليها أيضاً، فلماذا خصصت الآية اليد بالكلام دون غيرها؟

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٢٨.
(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص١٥٥، (كلم).
(٣) مجمع البحرين: ج٦، ص١٥٦، (كلم).
(٤) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٢؛ أنوار التنزيل: ج٢، ٢٨٤؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٦٤.

وثانياً: أنه مُخالِف للظهور، فإنّ ظاهر الكلام ما كان بالنطق المفهم وما ذكره أهل اللغة لا يصلح شاهداً له لمخالفته لمنطوق الآية، فإنّ قوله: (تكلّمنا) صريح في أنّ اليد تتوجّه بالكلام إلى مَن يسأل العبد عن أعماله وأفعاله، وذلك لا يصح إلّا في النطق وتعزّزه قرينتا الحال والسياق؛ لأن اليد تتكلَّم بعد ختم الأفواه، فإنها تكون متكلِّمة بدلاً عن الفم. فالحق هو القول الأول، وتعزِّزه الروايات.

فعن أمير المؤمنينعليه السلام في وصيته لأبنه محمد بن الحنفية: قال الله عزَّ وجلّ: ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[(١)] فأخبرَ عنها أنها تشهد على صاحبها يوم القيامة [(٢)]، وهي ظاهرة في شهادة الكلام لا الآثار.

وفي تفسير العياشي بسنده قال: قال أمير المؤمنينعليه السلام في خطبة يصف فيها هول يوم القيامة: «ختمَ على الأفواه فلا تكلّم، فتكلّمت الأيدي، وشهدت الأرجل، ونطقت الجلود بما عملوا، فلا يكتمون اللهَ حديثاً»[(٣)] والنطق صريح في الكلام.

وفي تفسير علي بن إبراهيم في معنى الآية قال: «إذا جمع الله عزّ وجل الخلق يوم القيامة دفع إلى كل إنسان كتابه فينظرون فيه، فينكرون أنهم

---

(١) سورة يس: الآية٦٥.

(٢) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٣، (٩٢).

(٣) تفسير العياشي: ج١، ص٢٤٢، ح١٣٣؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج١، ص٤٨٢، ح٢٥٩.

عملوا من ذلك شيئاً، فتشهد عليهم الملائكة فيقولون: يا رب ملائكتك يشهدون لك! ثم يحلفون أنهم لم يعملوا من ذلك شيئاً وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾(١) فإذا فعلوا ذلك ختمَ الله على ألسنتهم، وتنطق جوارحهم بما كانوا يكسبون»(٢).

وفيها دلالة على شدة صلافة هؤلاء ورسوخ المكابرة والعناد في سجاياهم حتى إنهم يعترضون على شهادة الملائكة ويتّهمونها، ويتّهمون الباري –والعياذ بالله– بعدم العدالة، ويكذبون الشهادة حتى تنطق جوارحهم فتكون منهم وتخرسهم، وهؤلاء الذين هم في الآخرة هكذا كانوا فكيف كانوا في الدنيا؟

والروايات الشاهدة على هذا المعنى متضافرة(٣).

ويستفاد من الأخبار أن نُطْق الجوارح لا يختصّ بالشهادة على المعاصي بل على الطاعات كذلك، فقد وردَ «أنّ اللهَ تعالى يُخاطِب العبد المؤمن يوم القيامة ويقول: ما أتيت من العبادات والخيرات؟ فيستحي المؤمن أنْ يعرض عبادته وحسناته فيُنطِق الله جوارحه فيشهدون بحسناته وأعماله الخيرية حتى أنّ أناملهُ تشهد بأنه عدَّ تسبيحاته بها»(٤).

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١٨.

(٢) تفسير القمّي: ج٢، ص٢١٦.

(٣) الكافي: ج٢، ص٣٢-٣٦، ح١؛ الاحتجاج: ص٢٤٢

(٤) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٧؛ روح البيان: ج٧، ص٤٢٦.

وعن النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله أنه قال لبعض نسائه: ﴿عليكنَّ بالتسبيح والتهليل والتقديس وأعقدنَ بالأنامل، فإنهنّ مسؤولات مُستنطقات﴾(١) ووجه استحياء العبد من أعماله الصالحة يعود لأمور:

الأول: كمال نفسه وعقله في ذاك اليوم، فيعرف أنّ كل عباداته وأعماله لا تضاهي نعمة واحدة من نِعَم ربه عليه، فيستحي من قلة شُكره ومن قصوره وتقصيره.

الثاني: لأنه يرى أنّ الباري عزّ وجلّ يجازي الحسنة بالنِعَم الكثيرة والخيرات الوفيرة، وقد وعده الباري عزّ وجلّ بذلك في الدنيا، ورغم ذلك لم يأتِ بالعمل الصالح إلّا القليل فيستحي من نفسه ومن ربّه.

الثالث: لأنه يرى تجلّي الأعمال وظهورها فيجد أنّ أعماله الصالحة بالقياس إلى قبائحه ومساوئه قليلة فيستحي من ذلك.

الرابع: لأنه يرى أنّ أعماله وطاعاته منقوصة إما غير مستوفية للأجزاء والشرائط الشرعية، أو غير مستجمعة للشرائط المعنوية كالإقبال والانقطاع وعدم تضييعها بالذنوب، والله سبحانه يتقبّلها منه فيستحي لتقصيره.

---

(١) الجامع الصغير: ج٢، ص١٧٦، ح٥٥٨٧؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٧؛ روح البيان: ج٧، ص٤٢٥.

المفردة الرابعة: ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾

أي تبادر أرجلهم لأداء الشهادة على ما فعلوه وقدموه، والمعروف أنّ للشهادة معنيين لغوي واصطلاحي، والأول هو الحضور مع المشاهدة إمّا بالبصر أو بالبصيرة، وبهذا عرفها بعض أهل اللغة(١)، وعليه تحمل الشهادة لله بالوحدانية في التشهّد مع أنها لم تدرك بالبصر بل بالبصيرة ورؤية القلب والعلم.

أمّا المعنى الاصطلاحي فهو المشاهدة بالبصر أو المشاهدة الحسيّة لتشمل السمع والشم والذائقة واللّامسة أيضاً، كشهادة الأعمى على سماعه وغيره من الحواس، وبعض الفقهاء حملوها على المعنى اللغوي فأجازوا أداء الشهادة استناداً إلى ما يعلمه الشاهد من القرائن ولو لم يحضر الواقعة، وشهادة الأرجل اصطلاحية لا لغوية؛ لأنها لا تفارق اليد لدى ارتكاب المعاصي، ولم يقل (وتخبر أرجلهم) لسببين:

الأول: لأن الشهادة توجب العمل عليها فلا يجوز الانصراف عنها، بخلاف الخبر فإنه يجوز الانصراف عنه وعدم ترتيب الأثر عليه ولو كان من اثنين أو ثلاثة فما بالك بالواحد؟

الثاني: لأن الخبر أعم من النقل الحسّي المباشر أو بالواسطة أو النقل الحدسي؛ لأنه إخبار عن الواقع، وطريقه أعم، بخلاف الشهادة فإنها منحصرة بالنقل الحسّي الحضوري، ولذا اصطلح على الخبر الحسّي الحضوري بالشهادة نظراً لما فيه من المشاهدة العينية ونحوها، فالخبر أعم من الشهادة.

---

(١) مفردات الفاظ القرآن الكريم: ص٤٦٥، (شهد).

كما أنه لم يقل: (وتعلم أرجلهم) لأن الشهادة أخص من العلم، فإن العلم يتعلق بالموجود الحسّي والحدسي كما يتعلق بالمعدوم، بخلاف الشهادة فإنها تتعلق بالموجود الحسّي فقط[١]، كما أنّ العلم لا يخدم الغرض في الحساب والجزاء، وهنا سؤالان:

الأول: لماذا اليد تتكلَّم والرجل تشهد دون العكس؟

والجواب: لأن اليد هي التي تعمل، وهي التي تمثل قوة الشخص ومظهر إرادته وفعله، وأما الرجل فلا تعمل وإنما تحضر موضع العمل وتطّلع عليه، فمثل اليد والرجل مثل القاتل ومَن يحضر عملية القتْل، ولذا تضافرت نسبة العمل إلى اليد في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ**﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾[٣] وهو كذلك في الروايات كما في قوله: «على اليد ما أخذت حتى تؤدّي»[٤] مع أنّ الضمان ليس على اليد وحدها بل على الإنسان.

والثاني: إنّ كلام اليد هو أيضاً شهادة منها؛ لأن نسبة العمل إليها ليست حقيقية؛ لأنها آلة العمل، والعامل هو الإنسان، فالتعبير باليد عن الإنسان مجازي من قبيل إطلاق لفظ الجزء على الكل، نظير إطلاق رقبة عليه، لكن الآية وصفت شهادة اليد بالكلام بينما وصفت كلام الأرجل بالشهادة.

---

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٣٠٥، (١٢٢٢).

(٢) سورة النبأ: الآية٤٠.

(٣) سورة الروم: الآية٤١.

(٤) عوالي اللآلي: ج١، ص٢٢٤، ح١٠٦؛ فقه القرآن: ج٢، ص٧٤.

وفي الأخبار الشريفة أنّ الكلام والشهادة تكون لعموم الجوارح ومنها الأيدي[١]، إلّا أنّ الآية خصصت بالكلام، ولعلّه لأسباب:

الأول: لأنها بالنيابة عن اللسان تتصدى للإجابة القولية وتوجيه الكلام إلى وليّ الحساب والجزاء، لأنها تمثّل الإنسان نفسه كما تقدَّم.

الثاني: لكون اليد أقوى الأعضاء والجوارح بالعمل، والأقوى هو الأولى بالجواب، أو لأنها الأشرف؛ لأن الأخذ والعطاء يكون بها في الماديّات والمعنويات قال تعالى: ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ**﴾[٢] والأخذ يكون باليد وبها تتم البيعة كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾[٣] أو لأنها الأهم من باقي الأعضاء، فإنّ الإنسان يمكن أنْ يُدبِّر أمره بلا رجل أو بلا عين أو لسان أو أُذن ولكنه يكون مقعداً كاملاً بلا يد وباليد يذود عن سائر الجوارح، ولا يمكن بأيّ جارحة أخرى أنْ يذود عن اليد، فالكلام يناسب الأقوى والأشرف والأهم.

وأمّا الشهادة خصصت بالأرجل؛ لأنها بعد اليد في المرتبة.

الثالث: لأن كلام اليد إقرار، وحيث إن الحساب والكتاب يتوقَّف على الحوار وهو لا يحصل إلّا بالقول، بخلاف الشهادة فإنها قد تكون بالقول وقد تكون بالعمل أو التقرير بسكوتها على قول اليد، وقوله: ﴿**أَنطَقَنَا اللهُ**

---

(١) انظر الكافي: ح٢، ص٣٢-٣٦، ح١.

(٢) سورة مريم: الآية ١٢.

(٣) سورة الفتح: الآية ١٠.

﴿الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١] دال على أنّ كل شيء ناطق مُتكلِّم في الآخرة والأرجل منه، لكنها قد لا تتحدَّث وإنما تُقرِّر ما تقوله اليد.

المفردة الخامسة: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

(الباء) سببيّة، و (ما) إمّا موصولة أو مصدرية، والأول أظهر (يكسبون) صيغة مضارع تدل على استمرارهم على كسب المعاصي والذنوب حتى رحلوا عن الدنيا وهم كافرون مجرمون، ولذا استحقوا جهنم.

والكسب ما يطلبه الإنسان لتحصيل نفع لنفسه أو لغيره، وهو أعم من الاكتساب؛ لأنَّ فيه مزيد أعمال وجهد[٢]، ولا يقال إلّا فيما كان نفعه للنفس، فكل اكتساب كسب وليس كل كسب اكتساب.

وفي الغالب يقع الكسب بالجوارح في أفعال الخير، بخلاف الاكتساب فإنه يكون في أفعال الشر. قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[٣] والمعنى لها ما كسبت من الخير وعليها ما اكتسبت من الشر، وتخصيص الكسب بالخير لأنه لا يتوقف على جهد وعمل، بخلاف الشر فإنه تشتهيهِ النفس فتجدّ في تحصيله[٤]، وفيها دلالة على أن العبد لا يؤاخَذ

---

(١) سورة فصلت: الآية ٢١.

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٤٥٣، (١٨١٦)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٠٩، (كسب).

(٣) سورة البقرة: الآية٢٨٦.

(٤) مجمع البحرين: ج٢، ص١٥٩، (كسب).

بالسيئات إلّا التي عمل لتحصيلها عن عِلم وعمد ونحوهما كالجهل التقصيري، بخلاف الخيرات فإنه يُثاب عليها كيفما صدرت منه[١].

إن قلت: إنّ لازم ما ذكرتم أنْ تكون المؤاخذة على الاكتساب والآية ذكرت أنهم يجازون بما كانوا يكسبون لا يكتسبون؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أنَّ الكسب يُطلَق على العمل لتحصيل النفع أو الضرر، فمن الأول قوله تعالى: ﴿**أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**﴾[٢] ومن الثاني قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ**﴾[٣] نعم الغالب فيه الاستعمال في الخير.

كما أنَّ الاكتساب كذلك، فقد يرد في الصالحات كما في قوله تعالى: ﴿**لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ**﴾[٤] وتقدَّم مثال السيئات وهو الغالب فيها، فلعلّ الآية من شواهد استعمال الكسب في المعاصي.

الثاني: باعتبار أنّ هؤلاء كانوا يتوهمون النفع فيما يفعلون وأنه يعود عليهم بالخير ولكنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً؛ لوضوح أنّ العاقل لا

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٤٥٢، (١٨١٦).

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢٠.

(٤) سورة النساء: الآية٣٢.

يفعل ما يعلم أنه يضره، فلو فعله فإمّا يعلم أو يظن فيه الخير أو يغفل عن جهة الشر فيه؛ لذا قال في المفردات يستعمل الكسب فيما يظن الإنسان أنه يجلب منفعة ثم استجلبَ به مضرة[1].

والخلاصة: أنّ أهل جهنم تصلهم نارها لسببين:

أحدهما: أنهم كانوا كفاراً مجرمين لم يستجيبوا لإرشاد عقلي ولا هداية نبويّة.

ثانيهما: أنهم استمروا على ذلك مكابرين معاندين حتى ماتوا فحشروا إلى ربهم كافرين، ولو تابوا قبل ذلك لنالتهم المغفرة أو الشفاعة.

ويتحصَّل: أنّ أهل جهنم لا تتكلم ألسنتهم بل تتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بأعمالهم السيّئة التي ساقتهم إلى هذا المصير.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٠٩، (كسب).

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: لماذا الختم على الأفواه والقلوب؟

يقابل الختم على الأفواه مفردة أخرى هي الطبْع، بل عن بعض أهل اللغة والتفسير أنّ الختم في الأصل الطبْع ثم استعير للمنع[1]، وهو يلازم الكفار في الدنيا والآخرة. أمّا في الدنيا فكان على قلوبهم كما قال تعالى: ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**﴾[2] وأمّا في الآخرة فعلى أفواههم، فهم في الدنيا قلوبهم مختومة وأفواههم مطلقة وفي الآخرة أفواههم مختومة وقلوبهم مطلقة.

ولعلَّ السرّ في ذلك يعود لأمرين:

الأول: أنّ الدنيا محل الإيمان والاعتقاد والعمل ومحلّها القلب، ولمّا كانوا معاندين مكابرين جبلوا على الكفر والنفاق وختم على قلوبهم في الدنيا لكي ينالوا جزاءهم فيها، وفي الآخرة تظهر السرائر ما انطوت عليه فتكون مطلقة.

---

(١) روح البيان: ج٧، ص٤٢٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ٧.

الثاني: أنهم كانوا ينصرون الباطل ويروّجون له ويحاربون دين الله والأنبياء بأفواههم كما حكى ذلك قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[١] وفي آية أخرى نصَّ على أنه سبحانه: ﴿**مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[٢] وكان نهجهم العام قائماً على أساس الكلام والاتّهام والسخرية من الحق وأهله، وقد فصَّل ذلك الباري في آيات كثيرة[٣]، وجزاؤهم في الآخرة أنْ يختم على أفواههم فلا تتكلَّم إمّا بسلب الاقتضاء عنها فتفقد القدرة على الكلام، أو بإيجاد المانع منها.

وفي ذلك دلالة على ترابط الأعمال والآثار بين عالم الدنيا والآخرة، وأنّ ما يفعله الإنسان في الدنيا يُقابَل بمثله في الآخرة، فإنّ هؤلاء سعوا لإسكات صوت الحق وكتم أفواه أهله لكيلا يذاع وينتشر فيقابلوا بمثله يوم الحساب.

وفي آية أخرى يشير الباري إلى أن الختم يكون على سمعهم أيضاً فيمنعهم من الاستماع لصوت الحق؛ إذ قال سبحانه: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ**﴾[٤] والختم على السمع

---

(١) سورة التوبة: الآية٣٢.

(٢) سورة الصف: الآية٨.

(٣) انظر -مثلاً- سورة التوبة: الآية٣٠.

(٤) سورة الجاثية: الآية٢٣.

ناشئ من امتلاء روحه وعقله وقلبه بالهوى وعبادته، فلا يمتلك سلطة على نفسه تؤهله للاستماع إلى الصواب.

وفي بعض الآيات والروايات وصفَ الختم بالطبْع. قال تعالى: ﴿يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[١] وقال: ﴿طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[٢].

وعن الرضاعليه السلام فسرَّ الختم بالطبْع. قال: «الختم هو الطبْع على قلوب الكفار عقوبة على كفرهم»[٣].

وبالجمع بينه وبين الآيتين يستفاد أنّ الطبْع نتيجة جزائية على مقدمات اختيارية، وما بالاختيار لا ينافي الاختيار، وإنّما عبَّر في بعض الموارد بالطبع وفي بعضها الآخر بالختم لأن الختم قابل للزوال بالأعمال المزيلة، أو بمحوه بالتوبة والتوسل بحق محمد وآل محمدعليهم السلام، وأمّا إذا بلغ الختم الرتبة الشديدة فلا يقبل الزوال صار طبعاً، وهو طبع أئمة الكفر والطغيان والجبابرة كما أشارت إليه الآية المتقدّمة، وأما الختم فيكون للأدنى منهم رتبة، وسُمّيَ الأول طبعاً لأن العناد والكفر صار طبيعة لهم جبلت عليه سجاياهم فلا تزول ولا تتغيّر[٤].

---

(١) سورة غافر: الآية٣٥

(٢) سورة النساء: الآية١٥٥

(٣) عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج٢، ص١١٣، ح١٦؛ البحار: ج٥، ص١١، ح١٧.

(٤) انظر معجم الفروق اللغوية:ص٣٣٦، (١٣٣٩).

حقيقتان في الختم والطبع

تبقى هنا حقيقتان:

الأولى: أنّ الختم والطبع لا يختصان بالقلوب، بل يشملان الأسماع والأبصار وأعلى درجاتها في الغافلين؛ إذ قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ (١) لأن الغافل ساهٍ(٢) لا يلتفت إلى شيء، فقلبه منصرف عن الحقائق، وسمعه عن الهدى، وبصره أعمى عن مشاهدة الآيات والعِبَر، فيكون مَثَله مَثَل الجماد المتحرِّك الذي لا يعي ما حوله، ولا يتفاعل مع الأشياء والآثار، والغفلة هي أُم الجهل والعمى وسوء العاقبة.

الثانية: أنّ الختم والطبع على القلوب والجوارح إنّما يكون بالنسبة إلى الحقائق الغيبية والمعارف الإلهية والملكات الفاضلة، وذلك لا ينافي أنْ تكون بالقياس إلى الشؤون الدنيوية والعلوم الماديّة نابهة ونابغة فيها، فلذا قد يكون العالم الكبير في العلوم المادية غافل القلب، وقد يكون الجاهل بها واعي القلب لتغاير العالمين، فالموازين المعنوية غير المادية، ولكلّ منهما ضوابط وآثار.

والتي تصنع الإنسان هي المعارف الإلهية لأنها قوام الروح، والإنسان بروحه، وأمّا العلوم المادية فهي تقوّم البدن، وهو ليس حقيقة الإنسان، بل مظهره وشكله، وللمسألة تفاصيل نوكلها لمحلِّها.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٨.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٠٩، (غفل).

اللطيفة الثانية: شهادة الجوارح على أهلها

إنّ قوله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾[(١)] نسب الكلام إلى اليد مباشرةً كما نسب الشهادة إلى الأرجل فهما فاعلا الكلام والشهادة، وفي ذلك دلائل:

الأولى: أنّ اليد تتكلَّم عن إرادة واختيار، وهذا يستدعي أنْ تكون عاقلة مُدرِكة وحافظة لما يعمل بها الإنسان، كما أنّ شهادة الأرجل كذلك.

الثانية: أنّ جوارح الكفار وأعضاءهم أصدق منهم ومن ألسنتهم؛ لأنهم اعتادوا على الكذب، أو لأنهم اجترحوا ذنوب اللسان والمعاصي فلا يليقون بمخاطبة المنزهين منها، وقد مرَّ في الأخبار ما يدلّ على أنّ أهل جهنّم يكذبون حتى وهم على شفير جهنّم، ويحلفون كذباً، ويتّهمون الباري وملائكته -والعياذ بالله- بعدم العدل.

الثالثة: وجود جماعة تكلمهم اليد وتشهد عندهم الأرجل؛ لأن الكلام يتقوَّم بثلاثة أطراف هي المتكلِّم والكلام والمُتكَلَّم معه، والشهادة بأربعة: هي الشاهد والشهادة والمشهود عليه والمشهود عنده، وفي بعض الشهادات يوجد طرف خامس وهو المشهود له، وتجري في الموارد التي يحكم الحاكم فيها بأدوات الإثبات، أما إذا حكم بعلمه فلا يحتاج إلى شاهد أو مشهود له لكفاية علمه عن الشهادة.

---

(١) سورة يس: الآية٦٥.

ويمتنع أن يكون الكلام مع الباري مباشرةً ولا الشهادة عنده؛ لاستدعاء الكلام والشهادة الحضور المكاني والزماني والجهوي، فلابد أن يكون من كان واسطة بين الله سبحانه وبينهم، وكان الحجّة عليهم، وهو النبيّ والأئمة عليهم السلام، وهو ما تضافر في النصوص الشريفة الدالة على أنّ إيّاب الخلق إليهم، وحسابهم عليهم، وأنّ الجنّة والنار بأيديهم[(١)].

ولا ينقض ما ذكرنا الآيات الدالّة على أنّ الباري عزّ وجلّ لا يكلِّم أهل الكفر والضلالة في الآخرة، وبمقتضى مفهوم المخالفة يستفاد وجود جماعة يكلمّهم الباري عزّ وجلّ وهم المؤمنون، وقد كلَّم الشيطان من قبل وحاوره في أمر آدم. قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾[(٢)] وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾[(٣)]؛ لأنه يجاب من وجوه:

الوجه الأول: أنّ المراد من نفي الكلام الكناية عن الإعراض وعدم المُبالاة بهم، ويشهد له قوله: ﴿**وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ**﴾ ولا يصح معناه إلّا

---

(١) انظر البحار: ج٧٧، ص٣١١، باب أنهم شفعاء الخلق وأن إياب الخلق إليهم وحسابهم عليهم؛ البحار: ج١٠٨، ص٤٠٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية٧٧.

بحملهِ على عدم الرحمة والعناية بهم لا النظر الجارحي[1]، وفي التوحيد عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ما يشهد لهذا. قال: ﴿أي لا يصيبهم بخير﴾ قال وقد تقول العرب: (والله ما ينظر إلينا فلان، وإنما يعنون بذلك أنه لا يصيبنا منه بخير)[2].

الوجه الثاني: أنّ الآيتين لا تنفيان ما ذكرنا؛ لأن كلام الله سبحانه مع بني آدم لاسيّما العصاة والمجرمين منهم يكون بأحد طرق ثلاثة: هي خلق الكلام في الفضاء ونحوه، أو بإلهامهم في القلوب، أو بواسطة ربانية، وهي النبي والإمام والملائكة، والأول غير مستفاد في النصوص، والثاني ممتنع؛ لأنهم لا يلتقون بالإلهام، فيتعيّن الثالث وهو ما دلَّت عليه النصوص.

الوجه الثالث: لو سلَّمنا الاعتراض والاستدلال فإنه لا يثبت المطلوب؛ لأنه معارض بآيتين محكمتين تمنعان من ذلك:

الأولى: تنصّ على أنّ الكلام مع الله سبحانه نوع اصطفاء يختص به الباري عزّ وجلّ بعض عباده، وهو لا يليق بأهل جهنم. قال تعالى: ﴿**يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ**﴾[3] وهي صريحة في أنّ الكلام مع الله سبحانه مقام خاص لا يُتاح حتى للمؤمنين من الناس فضلاً عن المجرمين منهم.

---

(١) انظر مواهب الرحمن: ج٦، ص٧٨-٧٩.

(٢) التوحيد: ص٢٦٥؛ انظر الجديد في تفسير القرآن المجيد: ج٢، ص٨٧.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٤.

الثانية: تنصّ على أنّ كلام الله سبحانه مع البشر منحصر بثلاثة طرق هي: الوحي أو من وراء حجاب أو يرسل له رسولاً يوحي بإذنه ما يشاء. قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾[1].

وقرينة المقابلة تقتضي أنْ يكون الوحي الأول تكوينياً وهو الإلهام كما في قضية داودعليه السلام الذي أُلهِمَ في صدره زبر الزبور[2]، والثاني هو الواسطة، وأمّا قوله: ﴿**مِن وَرَاء حِجَابٍ**﴾[3] فيراد به الكلام الذي يخلقه الباري عزّ وجلّ كما كلَّم بذلك نبيّه المصطفىصلى الله عليه وآله عند سدرة المنتهى وموسىعليه السلام على الجبل.

والنفي مع التنكير في قوله: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ**﴾[4] والإثبات بعد النفي يفيد الحصر، فلا يوجد مَن يكلمُه الباري مباشرة، وبذلك تضافرت الأخبار[5]، والمراد بالحجاب حجاب السامع لا المتكلِّم؛ لأن الله سبحانه لا يحجبه حجاب.

ويتحصَّل: أنّ الباري عزّ وجلّ لا يكلِّم البشر بجارحة ولا بجهة بل بالواسطة، وأشرف الوسائط وأعلاها رتبة بل ما تقتضيه الحكمة ويحكم به

---

(١) سورة الشورى: الآية٥١.

(٢) الجديد في تفسير القرآن المجيد: ج٦، ص٣٣٣.

(٣) سورة الشورى: الآية٥١.

(٤) سورة الشورى: الآية٦٥.

(٥) انظر تفسير نور الثقلين: ج٦، ص٤١٤-٤١٦، الأحاديث١٣٣-١٣٨.

العقل هُم الحجج الإلهية على خلقه، وليسوا إلّا محمداً وآل محمد عليهم السلام، وهم المعنيون بضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾[١].

اللطيفة الثالثة: الجوارح تتكلّم

إنّ الآية المباركة نسبت الكلام إلى الأيدي والأرجل بناءً على أنّ شهادتها قولية كما نصَّت على أنّ الأفواه تُمنَع من الكلام، بينما الآيات الأخرى تنصُّ على أنّ جميع الجوارح تنطق وتتكلَّم في الآخرة، وأنّ جميعها تشهد على أصحابها بما فيها اللسان.

منها: قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٢].

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[٣].

ويحل التعارض من وجوه:

الوجه الأول: أنّ ذكر الأيدي والأرجل من باب الأنموذج أو أظهرها وأقواها. ذهب إليه بعض المفسرين[٤]. ويعززه أنّ الآية محل البحث تثبت

---

(١) سورة يس: الآية٦٥.

(٢) سورة النور: الآية ٢٤.

(٣) سورة فصلت: الآيات ١٩-٢١.

(٤) تفسير الميزان: ج٢٣، ص١٠٤.

شهادة الأيدي والأرجل ولا تنفي ما عداها، وكذلك الآيتان الأُخريان، وبين المثبتات لا تعارض، وفيه أنه يصح في الأيدي والأرجل ولا يصح في ختم الأفواه وشهادتها، فإنّ التعارض فيها باق فهو أخص.

الوجه الثاني: أنْ تحمل الآيات على اختلاف المقامات والأحوال والأفعال، وفي المقام الأول يختم على الأفواه فلا تتكلّم، فيكون الكلام لغيرها، فلمّا تشهد الأعضاء وتتم الشهادة ينتفي غرض ختم الأفواه فيرفع عنها، وحينئذٍ هي الأخرى تشهد بالصدق، وقد مرَّ أنّ الختم قابل للزوال، وفي التعبير به دون الطبْع إشارة إلى أنه سيزول بعد تمام الشهادة، ويعزِّزه ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام من أنهم حينما يكذبون على أنفسهم ويتبرون من الكفر يختم الله على أفواههم، ويستنطق الأيدي والأرجل والجلود فتشهد بكل معصية كانت منهم، ثم يرتفع عن ألسنتهم الختم فيقولون لجلودهم: ﴿**لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[1] وبه وردت رواية نبوية من طرق العامّة[2].

الوجه الثالث: أن تحمل شهادة الألسنة على كلام النفس ومحادثة الضمير لا النطق[3]، أو يحمل على ظاهر الحال، فإنّ سكوتها شهادة منها، وهما مخالفان للظهور.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٢١؛ الاحتجاج: ص٢٤٢؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٣.

(٢) انظر الدر المنثور: ج٥، ص٢٦٧؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٥٩؛ تفسير الفرقان: ج٢٤، ص٥٥، هامش(٥).

(٣) انظر تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٦٤.

الوجه الرابع: أن تحمل الآيات على اختلاف أعمال أهل جهنم، فآية يس ناظرة إلى الكفار وأحوالهم، وهؤلاء تختم أفواههم؛ لأنهم في الدنيا أرادوا إطفاء نور الله بأفواههم، وكرهوا انتشاره.

وأمّا آية النور فناظرة إلى أحوال المنافقين؛ لأنها في ذمّ الذين يرمون المحصنات الغافلات. ذكره بعض مفسري العامة[١].

وفيه: أنّ النفاق هو شعبة من الكفر أو أشد منه، وأنّ رمي المحصنات أيضاً كان بالأفواه، فهو أجدر بختم الأفواه فيه من الكفر. نعم لاشك في أنّ العذاب يختلف بحسب اختلاف مراتب العباد وأعمالهم كما تقدَّم بيانه.

فالحق الوجه الثاني، وإليه تعود الوجوه الأخرى لو حملت على المراتب والمقامات.

اللطيفة الرابعة: فرق الكسب عن العمل والذنب

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢] فإنه لم يقل بما كانوا يعملون أو يذنبون، ولعلَّ السبب أنّ الكسب يدلُّ على العصيان الجارحي والجانحي، ويشتمل على الأكل للمال الحرام بخلاف غيره.

وتوضيح ذلك: أنّ العمل والذنب يتضمنان الدلالة على المعصية دون الكسب المالي منها، فالكفر والنفاق والزنا وشرب الخمر وغيرها من

---

(١) روح المعاني: ج٢٣، ص٥٨؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٥٠.

(٢) سورة يس: الآية٦٥.

الذنوب العقدية والعملية ظاهرة في العصيان معنوياً، بخلاف الكسب فإنه يتضمَّن الدلالة على المعصية معنوياً ومادياً؛ بداهةً أنّ الذنوب بقسميها أي العقدي والعملي فيها منافع مادية تعود على أهلها، فالكفار مثلاً ينفعون بعضهم بعضاً بالمناصب والجاهات والتجارات، وكذلك أهل النفاق لاسيّما في سعيهم الحثيث لإطفاء نور الله فإنّهم يجيشون جيوشاً ضخمة من الأدباء والشعراء والإعلاميين والباحثين والساسة لأجل الوصول إلى هذه الغاية، وتنفق على هذا النهج الأموال الطائلة، وتتولى فيها المناصب الكثيرة، فالكفر ذنب عظيم، والمال الحاصل منه كسب.

وكذلك العصيان فإنّ الزنا معصية وفيه منافع مادية هي كسب، والغناء والموسيقى ومدح الظالمين بالشعر والأدب هذه معاصٍ والمال المأخوذ مقابلها كسب فالكسب يدل على المعصية معنوياً ومادياً، بخلاف العمل فإنه يدل على الفعل الجارحي، والذنب يدل على العصيان الجانحي.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: للمحاورين والساسة والقضاة

وهو السعي لتحصيل الحجة والدليل في كل قضية يراد إثباتها أو التفاوض بشأنها، فإنّ الحجة تختم الأفواه، وتقطع الأعذار، وتوصل الحق لصاحبه، ولابدّ وأنْ تكون الحجة مستندة إلى العقل والمنطق والنهج العلمي الوازن لتكون مثبتة وموصلة إلى المطلوب.

وأمّا الكذب والتزوير والأقسام المغلَّظة فتكشف عن الفراغ وقصور الحجة، كما أنّ التعصب والسبَّ والشتم والاتهامات ونحوها فهي أساليب العاجزين عن الإثبات، وقد اتَّبع الكفار والمنافقون ذلك في مواجهة الأنبياء والحجج الإلهية ففشلوا واُفتضحوا في الدنيا وفي الآخرة، ولابدّ أن يلتفت إلى أنّ البرهان وحده لا يكفي لإثبات الحق خصوصاً مع المعاندين المكابرين، فلابدّ من الإشهاد عليه؛ لأن العقل لو تعزز بالحس تكون نتائجه قطعية، وإلّا قد تكون ظنيّة، ولعلّ لهذا عززت الأرجل إقرار الأيدي بالشهادة.

التعليم الثاني: بالحوار لا بتكميم الأفواه

إنّ التعامل مع المخالفين والمعارضين يجب أن يكون بالحوار والحجج الدامغة، وأمّا تكميم الأفواه وقمع الأصوات بالحديد والنار أو الإعلام الكاذب فهو نهج خاطئ لا يوصل إلى المطلوب، بل يكون حجّة ودليلاً على أهل السلطة والقدرة يضيف للمعارضة أدلّة أخرى تستدعي الإصرار والثبات عليها فلا يمكن أنْ تُختَم الأفواه وتُخرَس الألسنة إلّا بالحجج والأدلّة الصحيحة.

التعليم الثالث: وصايا للحياة

إنّ بنطق الجوارح وشهادتها على صاحبها يعلمنا الباري عزّ وجلّ أموراً:

الأول: أنْ لانفعل المعاصي والجرائم؛ لأنها تنفضح عاجلاً أو آجلاً، ويؤاخذ الإنسان بجريرتها فلا يفلت أحد من العقاب

الثاني: أن المجرم مهما أخفى علائم الجريمة فإنّ آثارها تبقى وتظهر على جوارحه وجوانحه، وإليه يشير قول الإمام عليعليه السلام: ﴿المرء مخبوء تحت قسمات وجهه وفلتات لسانه﴾(١).

الثالث: أن لا نثق إلّا بمن يستحقّ الثقة، ويتميَّز بالوفاء والثبات لكي يكون عوناً في الشدائد، لا أنْ يكون عوناً في المصالح، وعدواً في الشدائد.

---

(١) نهج البلاغة: ج٤: ص٣٨، الرقم(١٤٨)؛ البحار: ج٦٨، ص٢٧٦، ح٧، وفيهما: ((المرء مخبوء تحت لسانه)) ؛ ونهج البلاغة: ج٤، ص٧، الرقم٢٦، وفيه: ((ما أضمر أحد شيئاً إلّا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه)).

الرابع: أنّ أشرف صاحب وأوفى وأحرص على مصالح الإنسان هو الله سبحانه وأولياؤه، فلو جعلهم الإنسان إلى جنبه نال السعادة في الدارين، ولا يكونون في جنبه إلّا إذا شاكلهم في الصفات والأعمال وكان لائقاً بصحبتهم.

التعليم الرابع: للمتكلمين والفقهاء

إنّ الآية في مجملها تثبت جملة من القواعد والفروع الكلامية والفقهية:

أولاً: القواعد الكلامية، وهي خمسة:

الأولى: أنّ الإنسان مختار في أفعاله وليس بمُجبَر، وأعماله الصالحة والطالحة يكسبها بنفسه.

الثانية: أنّ أعضاء البدن وجوارحه حيّة مدركة، وحافظة لأعماله، وناطقة بها عن اختيار، وأنها لا تنسى ولا تخطأ ولا تكذب، وعدم إدراكنا لكيفية ذلك لا يضرّ بتصديقها والإذعان بها بعد أنْ أخبر الصادق بها مادام العقل لا يحكم بامتناعها، وهذا يؤكد ما ذكرناه غير مرة أنّ كل شيء في الوجود حيّ مُدرِك وذاكر لكننا لا نفقه ذلك لقصور فينا.

الثالثة: أنّ اختيار المقدمات هو اختيار للنتيجة ولو كانت حاصلة قهراً أو بسبب آخر، فالختم على الأفواه ينشأ في الآخرة من اختيارات أهلها، وهو يؤكد ما قرّره أهل المعقول من أنّ الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار، وأنّ اختيار السبب اختيار للمسبّب.

الرابعة: أنّ المعاد جسماني، ويكون بذات الجسم الذي عمل فيه الإنسان أعماله في الدنيا، وأعضاؤه نفسها تحضر في الآخرة وتشهد عليه، وتدل أيضاً على أنّ الأعضاء الأصلية في البدن تحشر من دون أن تتبدَّل أو تتغيَّر.

الخامسة: أنّ أعمال الإنسان تُقابَل بالجزاء المسانخ لها أو تتجسَّم.

ثانياً: الفروع الفقهيّة، وهي عديدة:

الأول: أنّ الإقرار بالذنب واعتراف المجرم أقوى أدلّة الإثبات، وفي اعتبار إقرار البعض العائد على النفس كما لو اشترك اثنان في جريمة فأقرَّ أحدهما دون الآخر احتمالان، ولا يبعد القبول لو ثبتت المشاركة؛ لإطلاق الآية الشامل للأعمال المنفردة والمشتركة.

الثاني: أنّ الشهادة يمكن أنْ تقع بالقول والعمل والتقرير، وتكون نافذة لو لم يردّها المتّهم أو لم يقم دليل على اشتراطها بالقول ونحوه.

الثالث: أنّ الإخبار في الموضوعات معتبر كالإخبار في الأحكام.

الرابع: يجب التصدي للإدلاء بالشهادة لو توقَّف إثبات الحق عليها.

الخامس: تجب الشهادة على النفس والإقرار عليها بالحق، وتشمل النفس ما يعدّه العرف منها فتكون نافذة، كشهادة الأب والأم والجدّ والجدّة على الابن، والزوج على الزوجة. هذا من حيث المقتضي إلّا ما خصص بدليل مانع.

السادس: أنّ الكفار مكلفون بالأصول والفروع وإلّا لم يكن وجه لشهادة الأعضاء عليهم مع أنّ الكثير من أعمالهم ترتبط بفروع الأحكام.

السابع: أنّ الإقرار مع الشهادة يكفي في الإثبات، فلذا قُبل الإقرار من اليد والشهادة من الرجل عند الله سبحانه.

الثامن: أنّ الشهادة من الآلات التي هي بمنزلة العضو الحيّ. والكاميرا وأجهزة التصوير والتسجيل يمكن أن تكون قرينة أو دليلاً مثبتاً لو كانت موثوقة ولها حضور حيّ.

التاسع: أنّ الختم والطبع والبصم بناءً على أنها علائم وآثار للأعمال وليست أغلالاً تكون قرائن تثبت بها الجرائم والجنايات، وقد اتخذت علائم في القضاء الدنيوي لعدم تشابه الأيدي والبصمات، وفي الفقه ما يشير إلى قبولها في الجملة كما في اللوث.

العاشر: أنّ التسبيب له حكم المباشر في النتائج القهرية والأفعال التوليدية كأخطاء الأطباء في العلاج إذا سبّبت الموت أو الأمراض، وأخطاء المهندسين إذا سبّبت الضرر أو انهدام البناء، وأخطاء الصناعيين والمعلمين والأمراء والضباط وأمثالهم، فيتحملون الوزر والديّة والضمان كلٌّ في مورده وبمقتضيات القضايا.

الحادي عشر: أنّ السكوت تقرير إذا كان ناشئاً عن اختيار لظهوره في ذلك، كسكوت البنت في النكاح، وسكوت الأصيل على تصرّف الوكيل، والمالك على تصرّف الفضولي ونحو ذلك.

يستفاد ذلك من ختم الأفواه بناءً على نشوئه من اختيارهم بسبب انقطاع العذر لا ما كان بالأغلال أو المانع القهري.

وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ
فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى
يُبْصِرُونَ

يس/ ٦٦

الجزاء بالاستحقاق

وهي معطوفة على الآية السابقة، ربما لثلاث غايات:

الأولى: للإجابة عن سؤال أو تمنّ قد يدور في الأذهان، أو لأهل الجنة بعد أن يروا مصير أهل جهنم، وأنهم في الآخرة تختم أفواههم، وتتكلم أيديهم وأرجلهم فلا يستطيعون شيئاً، وبعضهم من أبنائهم وأرحامهم واخوانهم فيتمنون أن لو أجبرهم الباري عز وجل في الدنيا على الصلاح والهدى فلا يبتلون بالعذاب وسوء المصير.

فتجيبهم الآية المباركة بأنه سبحانه جعل عالم الدنيا قائماً على نظام الأسباب والمسببات، كما أنه جعل المصائر اختيارية لكي يختار كل إنسان مصيره بواسطة اختيار العقيدة الحقة والعمل الصالح، وهذا ما يقتضيه العدل والحكمة الإلهية، ومن حكمته وعدله أنه جعل لهم الآيات الدالة عليه سبحانه، وأرسل لهم الأنبياء والرسل، فعلموهم وحذروهم، لكنهم لم يبصروا في الآيات ليتعلموا، ولم يستمعوا للأنبياء فيؤمنوا ويتحذروا، بل كانوا يسعون لإطفاء نور الله بأفواههم، فكان جزاؤهم الاستحقاقي أن تعمى أبصارهم، ولا يستمع إليهم، وتختم أفواههم.

إلّا أنه سبحانه برحمته يبقي أبصارهم مفتوحة ولا يطمس عليها لحكم وأسرار.

منها: التأكيد على أنّ الإنسان مختار في مصيره وليس مجبراً، فلو شاء الباري عزّ وجلّ أنْ يجبره على مصيره بالإرادة التكوينية فيعمي بصره لكيلا يبصر طريقه، أو يعمي بصيرته فيجعله كالجماد لا يبصر ولا يتبصّر لفعل، لكنه لم يفعل ذلك لأنه أراد له أن يكون حرّاً مختاراً في أفعاله، وأن يعطيه فرصة العمل والتكامل في عقله ومعتقده وعمله.

الثانية: بيان عجز الكفار في القيامة عن الوصول إلى الجنة؛ لأنهم أعجزوا أنفسهم عن الوصول إلى طريقها في الدنيا، فهم في الدنيا اختاروا طريق الضياع والضلال فتخلوا عن حجج الله وصراطه، وأعرضوا عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام التي هي الصراط في الدنيا فأعموا أعينهم عن رؤية الحقائق، كذلك في الآخرة يضيعونهم ولا يهتدون إلى الصراط الذي ينجيهم من نار جهنم.

الثالثة: بيان أنهم في قبضة القدرة الإلهية في جميع الأحوال، فهم في الدنيا في قبضتها لكن الباري عز وجل حلم عنهم وأمهلهم بما يفعلون؛ لأنه جعل الدنيا دار عمل لا حساب، وهم في الآخرة كذلك لكنهم يلاقون مصيرهم قهراً؛ لأن الآخرة دار جزاء لا دار عمل.

وفي ذلك دلالة عظيمة على حكمة الباري وعدله ورحمته في آن واحد، فإن العدل والحكمة والرحمة في الدنيا تقتضي الاختيار في أفعال البشر والإمهال، ولذا يترك الطاغي يطغي والفاسد يفسد والظالم يظلم فيمهلهم ولكن لا يهملهم؛ لذا لم يشأ أن يطمس أعينهم؛ لأن الإنسان المطموس تقل اختياراته وقدرته عادة.

ومقتضى عدله وحكمته ورحمته أن يؤاخذهم في الآخرة بأعمالهم، وأن جزاءهم يسانخ أعمالهم ولا يختلف عنها.

ويتحصل: أن الآية المباركة تثبت حقائق:

الأولى: أن الجزاء يسانخ العمل ويكون بالاستحقاق.

الثانية: أن الإنسان هو الذي يعيِّن مصيره ويختاره فلا جبر، وليس بمفوض إليه كل ما يريد؛ لأنه أينما يكون فهو في قبضة القدرة الإلهية، وأفعاله ناشئة مما أعطاه الباري عز وجل من القدرة على الفعل، فهو فاعل مختار ليس بمجبور ولا مفوض إليه، وبذلك تثبت حقيقة التوحيد والعدل الإلهي.

الثالثة: أن نظام المعاد والجزاء والحساب يقوم على العدل والحكمة والرحمة والاستحقاق، فلا ظلم فيه ولا جزاف في العقاب.

والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾

الواو، عاطفة وقيل إنَّ المعطوف عليه قوله تعالى ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**﴾[(١)] وهو بعيد عن الظهور جداً، وظاهره العطف على الآية التي قبلها تتميماً لبيان أصناف العذاب أو أحوال أهل النار.

و(لو) حرف امتناع لامتناع، و(نشاء) أي نريد، وصيغة المضارع تدل على دوام ذلك واستمراره، واللام للتأكيد للدلالة على علو القدرة والسلطة على الفعل، و (الطمس) مسح شواهد العين بأن يكون الوجه خالياً منها، أو تكون بلا أثر إمّا بجعل الجفنين ملتصقين أو بإزالة سوادها وبياضها أو اختلاطهما، والمعاني الثلاثة تفيد العمى والعور، والأول أصحّ وأظهر، فإنّ الطمس في اللغة إزالة الأثر بالمحو[(٢)]. يقال طمست الشيء طمساً أي محوته، وفي قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ**﴾[(٣)] أي ذهب ضوؤها كما يطمس

---

(١) سورة يس: الآية٤٨؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٥١.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص٦٠٠، (طمس)؛ مفردات الراغب: ص٥٢٤، (طمس)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٥٦٥، (طمس).

(٣) سورة المرسلات: الآية ٨.

الأثر حتى يذهب فلا تراه العين، وقوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾[١] أي بإفنائها، أو تغيير صورتها حتى لا ينتفعوا بها بأنْ يحرقها ويصيرِّها رماداً مثلاً أو حجارة[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾[٣] أي محوناها من الوجه، فيكون الوجه مثل القفا خالياً من العين، وربما يراد به المعنى المجازي أي إزالة ضوئها فلا تُبصِر.

والثاني أظهر لثلاث قرائن:

الأولى: الحرف (على) الظاهر في أنّ العين موجودة والطمس يكون عليها فيزيل أثرها وليس إلّا البصر، ولو كانت العين مطموسة لقال: (طمسنا أعينهم).

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾[٤] فإنه ظاهر في أنّ آلة البصر موجودة لكنها غير باصرة مفتقرة إلى آلة أخرى يبصرون بها.

الثالثة: عقلية، فإنّ طمس الأعين في الوجوه يعود إلى الخالق، وهو منافٍ للحكمة في الخلق ونقص يتنافى مع كمال الخلق وجماله والامتنان فيه، بخلاف طمس النور فإنه يعود إلى المخلوق.

والنتيجة على المعنيين واحدة، ولو سأل سائل لماذا لم يطمس أعينهم؟

فالجواب: لعلَّه يعود إلى وجوه:

---

(١) سورة يونس: الآية ٨٨.

(٢) انظر مجمع البحرين: ج٤، ص٨٣، (طمس).

(٣) سورة يس: الآية٦٦.

(٤) سورة يس: الآية٦٦.

أحدها: لكي يبصروا الحجج والآيات الإلهية فيتعلموا منها.

ثانيها: لكي يروا نتائج أعمالهم ونتائج أعمال أهل الجنة، فإنَّ ما يراه الإنسان بعينه أثبت في القلب.

ثالثها: لكي يدبروا أمر معاشهم ومعادهم فيعملوا ويرتزقوا فتتم عليهم النعمة الإلهية، كما تتم الحجة عليهم في الطاعة والشكر.

والنتيجة: أنّ الباري لم يحرمهم من نعمة، ولم يشكوا من نقص مادي ولا معنوي يمنعهم من الاهتداء والشكر، فلماذا لم يؤمنوا؟ ولا جواب إلّا خبث السرائر.

إن قلت: هذا منقوض بوجود العمى في البشر.

والجواب:

أولاً: أنّ هذا العمى شخصي لا نوعي، والآية ناظرة إلى العمى النوعي، أي لو كان كل أهل النار عمياناً لكان خلاف الحكمة؛ لأنه لو أعماهم استناداً لعلمه بحالهم كان خلاف العدل؛ واستلزم المؤاخذة والمعاقبة لهم قبل فعل ما يستحقونه.

وإن أعماهم بعد العمل كان قوله (لو نشاء) لغواً، لأن عماهم حاصل، وتحصيل الحاصل خلاف الحكمة.

ثانياً: أنّ العمى الشخصي ناشئ من أسباب اختيارية عادة، وما لا يكون كذلك فهو ممّا تقتضيه الحكمة الإلهية في الخلق، وفيه التعويض الإلهي في الدنيا بنِعَم أفضل، وفي الآخرة بالدرجات والمثوبات أو دفع المضرّات على ما حقق في علم الكلام.

وضمير الجمع (نا) يفيد تنزيه الباري عزّ وجلّ من ذلك، ونسبة الفعل إلى العلل التوسيطية.

وصيغة الماضي (طمسنا) تفيد معنيين:

أحدهما: أنه في الدنيا لو شاء جعلهم كذلك فلا يبصرون شيئاً، لكنه سبحانه أمهلهم رحمة منه وحكمة.

ثانيهما: تحقيق الوقوع وحتميّته لو أراده؛ لأن المراد لا يتخلّف عن الإرادة، والقادر حيث لا يفعل الشيء دلّ على حكمته ورحمته وحلمه وصبره.

هذا وقد اختلف المفسرون في أن الآية ناظرة إلى طمس أعينهم في الدنيا فتكون إخباراً عنها لبيان الحكمة والرحمة الإلهية بجعل العباد مختارين، أم ناظرة إلى الآخرة فتكون إخباراً عن نوع من أنواع العذاب الذي يستحقونه، فإنّ الختم على أفواههم نوع منه؛ لأن منع المتكلِّم من الكلام عذاب له، فلو عمي بصره زاد عذابه؛ لأن البصر قد يغني عن الكلام لإمكان أنْ يعبِّر الإنسان عمّا يشعر به بواسطة تبصّره، أو به يجتنب الأضرار ويحصل على المنافع، لكنّه سبحانه لا يفعل ذلك في البصر ويفعله في الأفواه؛ لأن كلام المستحقين للعذاب لا حكمة فيه ولا ينفعهم، بخلاف البصر فإنه يريهم نتائج الأعمال وآثارها وبصائر أهلها في الخير والشر، وهذه حكمة إلهية عالية ولطف رباني عظيم يهدي من يستحق الهداية، وينبه مَن يستحق التنبيه، ويدفع عمّن يستحق الدفع، والأقوال فيها ثلاثة:

القول الأول: إنها ناظرة إلى الدنيا وعليه جمع من أصحابنا(١)، بل نسب إلى أكثر المفسرين(٢)، ومعناه أنه سبحانه لو شاء طمس أعينهم فلا يبصرون طريقاً يحصِّلون به منافعهم ومعيشتهم ويترددون إلى منازلهم ومواقع أعمالهم، وهو المروي من طرقنا(٣)، ومن طرق العامة عن ابن عباس ورد في شأن نزولها ذلك. قال أخذ الأسود بن الأسود حجراً ومعه جماعة من بني مخزوم ليطرحه على النبيﷺ فطمس الله على بصره، وألصق الحجر بيده، فما أبصره ولا اهتدى، ونزلت الآية فيه(٤).

القول الثاني: إنها ناظرة إلى الآخرة، والمراد الكناية عن أنهم يطلبون في الآخرة طريق النجاة ويستبقون إلى الصراط المنجي من النار لكنهم لا يبصرون فيتيهون في المحشر(٥)، وهو جزاء يوافق أعمالهم في الدنيا، وفيه أنه مخالف للمنطوق؛ لأن الآية صريحة في أنه لم يطمسهم ولم يذهب أبصارهم لمكان (لو) الذي هو حرف امتناع لامتناع.

القول الثالث: إنها ناظرة إلى الاثنين، والمراد عمى البصيرة. نسب إلى ابن عباس، والمعنى ولو نشاء لأعميناهم عن الهدى وطريق الحق ليكون

---

(١) تفسير عقود المرجان: ج٤، ص١٩٣؛ تفسير الصافي: ج٤، ص٢٥٨؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٦؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٨.

(٢) تفسير النور: ج٧، ص٤٨٦.

(٣) انظر تفسير القمي: ج٢، ص١٩١؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٤٠٢، ح٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٤٦؛ تفسير القرطبي: ج١٥، ص٥٠.

(٥) انظر التبيان: ج٨، ص٣٥٨؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٦؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٤٦.

مصيرهم العذاب[١]، لكننا لم نفعل لأن الحكمة والعدل يقتضيان الاختيار، وأن يكون العذاب بالاستحقاق وهو خلاف الظاهر؛ لأن الآية صريحة في أنّ الطمس يتعلَّق بالعين وهي جارحة النظر لا البصيرة، وهناك معان أخرى تعود إلى ما ذكر[٢]، والحق أنّ الكل مقصود للإطلاق.

وتوضيح ذلك: أنّ الآية لها ظهور جزئي يتعلَّق بمفرداتها، ولها ظهور كلّي يتعلّق بالجملة، ولو دار الأمر بينهما يؤخَذ بالظهور الكلي المستفاد من مجموع الجملة؛ لأنه الأقوى ظهوراً، وهو المتبادر، والمنطوق ظاهر في أنّ الباري عزّ وجلّ لم يطمس أعينهم في الدنيا لا برفعها من الوجوه ولا بإطفاء نورها وعماها، فأعطاهم وسائل البصر، وكذلك لم يطمس بصائرهم، فأرسل إليهم الأنبياء وأنزل الكتب، لكنّهم هم ما أرادوا أنْ يبصروا الآيات ويتعلَّموا، ولا استمعوا للأنبياء وتبصّروا الحقائق.

فالنعمة من الله تامّة عليهم، والحجة بالغة؛ لأنه سبحانه وفّر لهم أسباب النجاة ولم يأخذوا بها، وفي الغالب يملي لأهل الدنيا ويستدرجهم في النِعَم ليتمادوا في طغيانهم، فإذا تاهوا في المحشر ولم يبصروا صراط النجاة كان خيارهم واختيارهم، فالامتناع عنهم في الآخرة لامتناعهم في الدنيا، والروايات الواردة مثبتة لا تنفي ما عداها.

---

(١) التبيان: ج٨، ص٣٥٨؛ مجمع البيان: ج٨، ص٤٨٦.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٦؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٤٥-٤٦.

المفردة الثانية: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾

وقرئ بصيغة الأمر أي بكسر الباء وهو خلاف القاعدة والأصل[(١)]، (الفاء) تفريعية، وتدل على السرعة والمفاجأة في الاستباق، وهو انتقال من السبق، وزيادة المباني فيها تدل على زيادة المعاني، فتفيد بذل الجهد والكلفة في السبق والمبادرة، ونسبة السبق إليهم تفيد اندفاعهم مسرعين، وذلك لا يكون إلّا لغايات ثلاث: إما دفع ضرر متوقّع يصيبهم فيفرون منه، وإمّا تحصيل نفع يتوقعون تحصيله فيه، أو يكون للاثنين معاً وهو الحق؛ لأن بالمشي على الصراط نجاة من النار ووصول إلى الجنة.

والصراط هو الطريق السهل على ماشيه الموصل إلى المطلوب، ومصداقه الحقيقي والحصري هو ولاية أمير المؤمنين عليه السلام والأئتام به، فلا هداية في الدنيا ولا وصول للمطلوب إلّا بها، ولا نجاة من النار ودخول الجنة إلّا بها.

وقد نصب بنزع الخافض والتقدير استبقوا إلى الصراط، وقد حذف حرف الجر للإشارة إلى أنّ الوصول إليه هي الغاية القصوى لكل واحد منهم بحيث اتحدت الغاية بذي الغاية، والمعنى فلا يتعدى إليها بواسطة حرف، أو بحمل الاستباق على المبادرة، والمعنى ابتدروا الصراط لدى حضوره عندهم، وهو فعل لازم، والمعنى أنهم ابتدروا الصراط متسابقين لعلهم ينالون ما يريدون ولكنهم يفشلون؛ لأنهم اختاروا العمى على الهدى في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة.

---

(١) انظر روح المعاني: ج٢٣، ٦٢.

والسؤال أنهم لماذا يستبقون ولا يمشون أو يركضون؟

والجواب: لسببين:

الأول: للدلالة على المنافسة الشديدة بينهم؛ لأن الصراط واحد وهم كثيرون، وكل منهم يريد أن يضمن نجاته بنفسه قبل غيره، لاسيّما وأنّ الصراط ضيّق ودقيق، وفي الأخبار أنه أدَّق من الشعرة؛ لأنه لا يسع الجميع بل المحبين فقط، وإنه في الدنيا الإمام المفترض الطاعة، وفي الآخرة جسر جهنم، فمن عرف إمام الحق في الدنيا مرَّ عليه ونجا، ومَن لم يعرفه زلَّت قدمه فتردى في نار جهنم[(١)].

الثاني: للحكاية عن منظرهم وهم يستبقون عمي العيون، وهو منظر مضحك يوجب السخرية والاستخفاف بهم جزاءً لاستهزائهم واستخفافهم بالمؤمنين، فإنّ العميان حين يتسابقون لسلوك الطريق فِراراً من الضرر أو طمعاً في تحصيل النفع يتصادمون ويتساقطون ويتخبطون ويتيهون تيهاً فيكون منظرهم مضحكاً[(٢)]، والوجدان شاهد على هذه الحقيقة.

والسؤال أنه ذكر الصراط ولم يصفه بالمستقيم مع أنّه في آيات أخرى وصفه بذلك، ولعلَّ الجواب لعدم وجود فائدة من الوصف لأسباب:

الأول: لأنَّ المفروض أنهم عُمي والأعمى لا يحتاج إلى التوصيف لأنه لا يراه.

---

(١) معاني الأخبار: ص٣٢، ح١؛ البحار: ج٨، ص٦٦، ح٣.

(٢) تقريب القرآن إلى الأذهان:ج٤، ص٤٥٨.

الثاني: لأنهم يبحثون عن المخلّص والنجاة فلا يهمّهم بعد ذلك كون المنجى طريقاً مستقيماً أو غير مستقيم كالفار من الخطر يفر منه بأي طريق كان.

الثالث: لأنّ وصفه بالمستقيم من توضيح الواضح لأهل جهنم؛ لأنهم أيقنوا بانحرافهم وأنهم كانوا في الطريق المعوجّ الذي قادهم إلى النار، ومن كان كذلك ويطلب النجاة فليس له إلّا الصراط المستقيم، وهو ما تؤكده رواية الصدوق بسنده عن أبي جعفرعليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا عليّ! إذا كان يوم القيامة أقعد أنا وأنت وجبرئيل على الصراط، فلم يجز أحد إلّا مَن كان معه كتاب فيه براءة بولايتك»[1] فاكتفى بذكر الصراط دون وصفه لوضوحه.

الرابع: أنّ وصفه بالمستقيم مستهجن؛ لأنه أمير المؤمنينعليه السلام، وهو الذي يتولى أمر حسابهم وجزائهم، وبفرارهم يلتجئون إليه، فلا معنى لوصفه بذلك؛ لعدم وجود صراط آخر غيره حتى يقال أحدهما مستقيم والآخر لا.

المفردة الثالثة: ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾

(الفاء) للتفريع، و(أنّى) إمّا استفهامية بمعنى كيف ويراد بها الاستنكار؛ لأنّ الذي لا يبصر لا ينبغي له أن يتسابق، لتوقُّف التسابق على النظر، والفاقد كيف يتسابق، فلو وقع فيه دل على خفّة عقله لتعذّر بلوغ الغاية.

---

(١) معاني الأخبار: ص٣٦، ح٦؛ البحار: ج٨، ص٧٠، ح١٩.

وإمّا ظرفية مكانية بمعنى (أين) والمعنى أنهم حيث فقدوا الإبصار من أين ينظرون طريقهم لينجوا أو ينالوا ما يريدون، والحق هو الأول، والثاني مندرج فيه؛ لأنّ المكانية متضمِّنة لمعنى الاستفهام.

و(يبصرون) يفيد الدوام والاستمرار، ونسبة الفعل إليهم شاهد على أنهم من أنفسهم لا يبصرون إلّا إذا نالتهم رحمة إلهيّة فجعلت عيونهم باصرة.

ويتحصّل من مجموع المفردات: أنّ الباري عزّ وجلّ لو شاء أن يجعلهم عمياناً لا يبصرون طريقهم في الدنيا كما لا يبصرون طريقهم في الآخرة لفعل، لكنه لرحمته وحكمته وحلمه وصبره وعدله لم يشأ ذلك، وفي ذلك إثبات نعمة أخرى له سبحانه زيادة على سائر النِعَم لعلّهم يشكرون أو يستغفرون، لكنّهم لم يفعلوا، والعمى الذي يصيبهم في الآخرة فلم يبصروا الصراط هو نتاج أفعالهم ومواقفهم لم يجبرهم الله سبحانه عليه، بل هم اختاروه لاختيار مقدماته.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: مفهوم المشيئة والإرادة

الآية المباركة علّقت الطمس على المشيئة دون الإرادة مع أنهما بمعنى، إلّا انّ المنطوق شاهد على وجود فرق بينهما، وقد وقع الخلاف كثيراً بين أهل اللغة والمتكلمين وأهل المعقول في أنهما مترادفان أم متغايران، والحق الذي يقتضيه التحقيق هو التغاير وإن كان أحدهما يطلق مكان الآخر أحياناً، كما يعبر عن الفقير بالمسكين وبالمسكين عن الفقير، للتسامح في المفهوم أو باعتبار المعنى الجامع بينهما لانتفاء الترادف الحقيقي في لغة العرب، ولاسيّما في الاستعمالات القرآنية أو الشرعية لمنافاته للحكمة؛ لأن اختيار إحدى المفردتين للدلالة على المعنى وترجيحها على الأخرى لابد وانْ يكون لحكمة، وإلّا كان بلا غرض وهو قبيح لا يناسب حكمة الحكيم.

وتفترق المشيئة عن الإرادة في أنّ المشيئة من شؤون الذات بينما الإرادة من شؤون الفعل الإلهي، فالمشيئة أعمّ، ولذا قد يشاء الشيء ويتراخى وقت

وقوعه، بينما يستحيل تخلف المراد عن الإرادة؛ لأنّ الإرادة العزم على الفعل لفعلية الغاية المترتبة عليه من خير أو نفع، بينما المشيئة سابقة على العزم وهي سببه[(١)]، ويشهد لذلك دليلان:

الدليل الأول: الأخبار الشريفة الواردة في بيان رتبة المشيئة، فقد روى الكليني قدس سره قال: سئل العالم عليه السلام كيف علم الله؟ قال: ﴿عَلِمَ وشاء وأرادَ وقدّر وقضى وأمضى، فأمضى ما قضى، وقضى ما قدّر، وقدّر ما أراد، فبعلمه كانت المشيئة، وبمشيئته كانت الإرادة، وبإرادته كان التقدير، وبتقديره كان القضاء.. والعلم مُتقدِّم على المشيئة، والمشيئة ثانية، والإرادة ثالثة، والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء﴾[(٢)] والحديث مفّصل أخذنا منه موضع الحاجة.

وعن الباقر عليه السلام : ﴿لا يكون شيء إلّا ما شاء الله وأراد وقدّر وقضى﴾[(٣)].

نعم المشيئة ذاتها تعود إلى القدرة الإلهية، وهي عين الذات الإلهية، وأحياناً تطلق المشيئة على الإرادة، وهي الأخرى على المشيئة، وكلاهما على الإبداع، وإليه يشير قول الرضا عليه السلام: ﴿إنّ الإبداع والمشيئة والإرادة معناها واحد والأسماء ثلاثة﴾[(٤)] أي يوجد بينها جامع معنوي، وكل واحدة منها

---

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٣٥، (١٣٧)، (١٣٨).

(٢) الكافي: ج١، ص١٤٨-١٤٩، ح١٦؛ معجم الفروق اللغوية: ص٣٨-٣٩.

(٣) الكافي: ج١، ص١٥٠، ح١؛ مجمع البحرين: ح١، ص٢٥٦، (شيا).

(٤) التوحيد: ص٤٣٥؛ وانظر عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٥٤.

تطلق عليه بلحاظ وحيثية مختلفة، ولعل الجامع هو القدرة والاختيار، فإذا لوحظت بالقياس إلى الذات تكون مشيئة، وبلحاظ تعلّقها بالمقدور تكون إرادة، وبلحاظ حدوث المقدور مطابقاً للإرادة لا عن مثال سابق أو تقليد يقال له إبداع.

الدليل الثاني: النصوص الواردة في بيان الإرادة ورتبتها. منها قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[1] فإنّه صريح في أنّ إرادته سبحانه نفس إيجاد الشيء؛ لعدم الانفكاك بين الإرادة والمراد.

وفي صحيحة صفوان قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق؟ قال: فقال «...وأمّا من الله فإرادته إحداثه لا غير ذلك؛ لأنه لا يروي ولا يهمّ ولا يتفكر .. فإرادة الله الفعل لا غير ذلك يقول له: كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكّر، ولا كيف لذلك، كما أنه لا كيف له»[2].

وفي مجمع البحرين: المريد من صفات فعله تعالى لا الذات؛ لما روي عن عاصم بن حميد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام لم يزل الله مريداً؟ قال: «إنّ المريد لا يكون إلّا لمراد معه، لم يزل الله عالماً قادراً ثم أراد»[3].

---

(١) سورة يس: الآية ٨٢.

(٢) الكافي: ج١، ص١٠٩-١١٠، ح٣؛ تفسير البرهان: ح٤، ص١٤.

(٣) مجمع البحرين: ج٢، ص٢٤٩، (ورد)؛ الكافي: ج١، ص١٠٩، ح١؛ وانظر التوحيد: ص١٤٦، ح١٥.

وفي رواية الرضاعليه السلام لما سئل عن المشيئة والإرادة قال: «المشيئة الاهتمام بالشيء، والإرادة إتمام ذلك الشيء»[1] والاهتمام أي العناية، والإرادة الفعل، وهو شاهد على أنّ الإرادة والمشيئة يعودان إلى القدرة، ويعزز كل ذلك منطوق الآية الشريفة، فإنّ قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾[2] يفيد المشيئة بمعناها العام، أي مطلق القدرة والإرادة، ولو أراد الإرادة بالفعل لعموا واستحال إبصارهم بعد ذلك إلّا بإرادة جديدة؛ لاستحالة تخلف المراد عن الإرادة.

اللطيفة الثانية: أسلوب الباري مع أهل النار

إنّ منطوق الآية المباركة يتضمَّن إخباراً وإنشاءً معاً؛ لأنه يكشف عن أسلوب الخالق عزّ وجلّ في معاملة أهل جهنم، وأنه لم يعجل لهم عقوبتهم في الدنيا، وفي عين الحال يهددهم بأنه قادر على تعجيلها بإذهاب أبصارهم متى شاء.

والبشر بمقتضى ميلهم الفطري والضروري يريدون العيون للمشي في الأرض وتحصيل المنافع وكسب المعاش واتّباع كل طريق يوصلهم إلى لذاتهم ومنافعهم، ويدفع عنهم الآلام، وذلك لا يمكن عادة على وجهه الأتم الأفضل إلّا بالإبصار والعيون؛ لأنها تمكنهم من معرفة الأشياء

---

(١) البحار: ج٧٨، ص٣٥٥، ح٩؛ مسند الإمام الرضاعليه السلام: ج١، ص٣٠٤، ح٥١؛ وانظر نزهة الناظر: ص١٣٣، ح٢٧.

(٢) سورة يس: الآية٦٦.

وإدراكها وبلوغها، فلو كانوا عمياً لا يبصرون فلا يهتدوا إلى منافعهم ودفع مضارهم، ولو اهتدوا فإنهم يعجزون عن بلوغها إلاّ بدليل يقودهم إليها، وكلاهما أذى وذل

والباري عزّ وجلّ يرمز إليهم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا﴾[1] لكنه لم يفعل ليبيِّن لهم أنه قادر ولكنه حكيم ورحيم؛ لأنه لا يريد لعباده الذلّة، ولا يحب لهم الشقاء، وبه يزرع حبه في قلوبهم.

فهم لو كانوا أهل عقول سليمة وبصائر حيّة لنتبهوا إلى ذلك وأحبّوه وشكروا نعمته، ولو كانوا أهل مصالح وشهوات لأطاعوه؛ لأنّ بطاعته سبحانه تتحقق مصالحهم؛ لأنّ عدم شكر النعمة يوجب زوالها منهم، ويُعرِّضهم للعذاب، لكنهم لا يأخذون بعقولهم ولا بفطرتهم، ولا يراعون مصالحهم فيتّبعون الشيطان الذي يضرُّهم ولا ينفعهم، وهذا يكشف عن مدى تدنّيهم وانحطاطهم الفكري والنفسي، ومثلهم لا يستحقون إلّا النار.

كما تتضمن الآية تهديداً وتحذيراً لأهل مكة الذين يكذبون النبيّ صلى الله عليه وآله و يجحدون نعمة الولاية، وأعرضوا عن إطاعته الوليعليه السلام وأعموا أبصارهم وبصائرهم عن الصراط المستقيم بأنّ مصيرهم لا يكون أحسن من هؤلاء لو أصرّوا على العناد والمكابرة .

---

(١) سورة يس: الآية٦٦.

اللطيفة الثالثة: طمس العقول والقلوب

إنّ الآية خصصت الطمس بالبصر مع أنه قد يصيب العقل أيضاً فلا يرى الحقائق، وقد يصيب القلب فيعمى عن المعارف؛ لرجوع طمسهما إلى طمس البصر، وسبب طمس العيون الغفلة واتّباع الشهوات وعبادة الشيطان، وكذلك سبب طمس العقول والقلوب، والسر في ذلك أنّ إدراك العقول والقلوب يتم بواسطة الحواس أكثر من غيرها؛ لأنّ العلوم العقليّة تحصيلية، وهي تتوقف على تصور الأشياء ثم التصديق بها، والتصوّر متوقِّف على البصر.

وكذلك العلوم القلبية؛ لتوقُّفها على ما يحصل في العقول أولاً، فإنَّ أكثر المعارف نتائج عقلية تستقرّ في القلب.

وعلى هذا فإنّ عمى البصر يقود صاحبه إلى التيه والتخبُّط، وكذلك عمى العقل فإنه يقود صاحبه إلى التخبُّط في أقواله وآرائه حتى يقلّ شأنه ويصير أضحوكة عادةً.

وعمى القلب يوجب السفاهة والإيمان بالخرافات والتوافه؛ لرجوعه إلى خِفَّة العقل فيكون مصيره كسابقه.

وبهذا يتضح السر في تهديد القوم بطمس العيون دون غيرها من الحواس؛ لأن فقدان الحس فقدان للعلِم، فلو كان الفقدان لأهمّ وسائط التعلم والمعرفة دل على التَيْه المادي والتَيْه المعنوي، والنتيجة أنّ الإنسان إذا أُصيب بعمى البصر يتخبَّط في طريقه، ولو أُصيب بعمى العقل تخبَّطَ في آرائه، وأمّا عمى القلب فيصيبه بالتخبُّط في معتقداته، وبذلك هلاكه في الدنيا والآخرة.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: لماذا لم يعاجلهم بالعقوبة؟

إنّ سُنَّة الله سبحانه في خلقه قائمة على معاملتهم بالحلم والصبر والإمهال وعدم تعجيل العقوبة لمستحقيها؛ لذا لم يُعاجِل أهل جهنم بإطفاء أعينهم وطمسها مع أنهم يستحقونها، وتركهم يبصرون طريقهم في الدنيا، ولو شاء أن يعميهم فعل لكنه حليم صبور أمهلهم، وبذلك يُبقي باب التوبة والرجوع والاتعاظ من التجارب مفتوحاً، لأنّ غاية العقاب التأديب وتكميل النواقص الروحية والعقلية، فإذا اتَّعَظَ المذنب المسيء من نفسه وأخذ العبرة تحقق غرض العقاب، ولذا التوبة والاستغفار يمحيان الذنوب والعقوبة، وهذا ما يجب أن يتعلّمه الناس ويتخلقوا بأخلاق الله سبحانه في التعامل مع بعضهم، سواء في تربية الآباء لأبنائهم، أو العلماء والمربين لتلامذتهم، والمدراء لموظفيهم أنْ يعطوا مجالاً للتعلُّم والتكامل، ولا يعاجلون بالمؤاخذات والعقوبات؛ لتتحقق بذلك غاية التربية والتعليم إلّا ما خرج بالدليل، لكن على الإنسان أنْ يدرك أيضاً أنّ إمهال الله سبحانه وحلمه هو رحمة ولطف بأهل العقول والقلوب لكي يتعظوا ويتوبوا ويستغفِروا من ذنوبهم.

وأمّا أصحاب القلوب القاسية والعقول الغافلة فإنّ الإمهال وعدم معاجلتهم بالعقوبة يعود لسببين:

الأول: الاستدراج، أي لا يباغتهم بالعقاب بل يدعهم يتوغلون في الذنوب قليلاً قليلاً حتى تغطيهم المعاصي[١]، وهو من مكامن الخطر العظيم ببني آدم.

ومن علائم الاستدراج أن يرى العبد المذنب توافر النِعَم عليه وبلوغ غاياته وعدم ابتلائه بشيء من الآفات والعقوبات، وكلما جدد خطيئة جددت له نعمة ونسي الاستغفار فيأخذه إلى التوغّل في العصيان درجة درجة، وإليه يشير قول الصادق عليه السلام: «إنّ اللهَ إذا أرادَ بعبدٍ خيراً فأذنبَ ذنباً أتبعه بنقمة، ويذكّره الاستغفار، وإذا أراد بعبدٍ شراً فأذنبَ ذنباً أتبعهُ بنعمة لينسيه الاستغفار، ويتمادى بها، وهو قول الله عزّ وجلّ ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[٢] بالنِعَم عند المعاصي»[٣].

وفي حديث أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ اللهَ يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات، وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات، ليتوب تائب، ويقلع مقلع، ويتذكّر متذكِّر، ويزدجّر مزدجِر»[٤] والمزدجر

(١) انظر مجمع البحرين: ح٢، ص٢١، (درج).
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٢.
(٣) الكافي: ج٢، ص٤٥٢، ح١؛ البحار: ج٥، ص٢١٧، ح٩.
(٤) نهج البلاغة: ج٢، ص٢٥، الخطبة ١٤٣؛ مسند الإمام الرضا عليه السلام: ص١٢٠.

بصيغة اسم الفاعل الذي يمنع نفسه بنفسه، وينهرها عن العصيان، مأخوذة من الزجر[١]، ومفهومه إذا لم يتوبوا ووجدوا وفرة النِعَم فليعلموا أنهم في استدراج.

الثاني: إتمام الحجة عليهم وسقوط الأعذار، وهو قد يرجع إلى الأول، وفيه قال تعالى: ﴿**وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾[٢].

والإملاء إمهالهم مدة من الزمن طويلة مع وفور النعمة[٣] في الأفعال والقوة والأعمار، و(اللام) في قوله (ليزدادوا) للعاقبة، أي يمهلهم ليستفرِغ كل ما في قلوبهم من إلحاد وظلم وجحود فيزدادوا إثماً واستحقاقاً للعقاب، وإطلاق الكفر يشمل كفر العقيدة والعمل أي المعصية.

وقوله: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ بصيغة الجمع يشمل ثلاثة أصناف من الناس:

الأول: الجماعات التي تعمل بالكفر وتقوم على نهجه.

الثاني: الدول والحكومات التي تقوم على ذلك.

الثالث: الأفراد؛ لأن العموم الاستغراقي ينحل على أفراده كما حقق في الأصول.

---

(١) مجمع البحرين: ج٢، ص٢٦٩، (زجر).

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٨.

(٣) انظر مجمع البحرين: ج١، ص٣٩٧،(ملا)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٨٢، (ملأ).

فإنّ الباري عزّ وجلّ قد يمدهم بكل أسباب الرفاه والقدرة فيتوهمون أنّ ما لديهم من أنفسهم، وأنه يدوم لهم، وأنهم يحظون بتأييد الله ونصره، وفي الواقع هو اختبار لهم، ثم يؤخذون أخذ عزيز مقتدر، فيكونون فيه أذلاء صاغرين. وبهذا إلفات نظر وتعليم لفئتين من الناس:

الأولى: الكفار أنفسهم، فإنّ عليهم أن يكونوا على حذر، فإن كل ما لديهم من قوّة وسلطان وأموال وخيرات سيزول منهم، ولذا ذكرنا غير مرة أنّ الحضارة الحديثة بما لها من حكومات وأنظمة ومجتمعات متوغلة في الظلم والفساد، وهذا التطوّر العلمي الهائل والعملقة الاقتصادية الكبيرة إذا لا يقترن بالصلاح وحب الخير والعدالة الحقيقية في الأرض فإنه ينذر بزوالها وسقوطها مهانة ذليلة، وهذه العاقبة حتماً ستقع بإرادة أقوى من إرادة الغرب وطغيانه، لكننا لا نعرف كيف ومتى.

الثانية: المؤمنون أنفسهم، فإنهم إذا لاحظوا تعاظم قوة الكفر وزيادة ثرواته ورفاه العيش الذي يرفل فيه وفي المقابل قد يجدون تعاظم العناء والفقر والأذى في أنفسهم ومجتمعاتهم المؤمنة فإنّ هذا على قسمين: قسم ناشئ منهم بسبب سوء أنظمتهم وفساد سياساتهم وانحطاط مستوى فكرهم ووعيهم ونظامهم الاجتماعي فهذا نوع عقاب يستحقونه؛ لأن النتائج تتبع المقدمات، وقسم ليس منهم، بل بإرادة أقوى منهم، فليعرفوا أنّ هذا باب فرج لهم توجب غفران ذنوبهم وعلوّ درجاتهم ورفعة مقامهم في الحياة الأخروية فالإملاء للكفار نقمة والابتلاء للمؤمنين رحمة، وهذا ما تواتر معناه في الآيات والروايات.

وتؤكده شواهد التأريخ والواقع المحسوس، فكم من عزيز ذل؟ وكم من غني افتقر؟ وكم من سليم مرض حتى قتله المرض؟ وكانوا يتمادون في النِعَم ولا يشكرونها، وإذلال الكثير من الأحزاب والجماعات والحكومات الظالمة والدول الكبيرة ملحوظ، ونماذجه كثيرة، وقد تحدث القرآن الكريم عن العديد منها.

وربما يقال: إنّ ما ذكرتم معارض لجملة من الروايات التي تنص على عدم نزول العذاب على الناس؛ لأنه لا يُؤاخِذ الجميع بذنوب البعض.

ففي رواية أبي الحسن عليه السلام: «إنّ لله عزّ وجلّ في كل يوم وليلة منادياً ينادي: مهلاً مهلاً عباد الله عن معاصي الله، فلولا بهائم رُتَّع وصِبْية رُضَّع وشيوخ رُكَّع لَصُبَّ عليكم العذاب صبّاً، تُرضَّون به رضَّاً»[1].

والمَهل التأني والاجتناب، ورتع البهائم أكلها وشربها كيف شاءت في خصب وسعة في المراعي ونحوها[2]، والتشديد يفيد المبالغة، والرض الدق الجريش[3]، والوجه في البهائم والصبيان الرُضَّع والشيوخ الاستحقاق والعدل لنزول النعمة ودوام الفيض وعدم الحرمان، وربما يقال إنّ الرحمة

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٧٦، ح٣١؛ الوسائل: ج١٥، الباب ٤١ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٣٠٧، ح٢٠٥٩٣؛ البحار: ج٧٠، ص٣٤٤، ح٢٨.

(٢) مجمع البحرين: ج٤، ص٣٣٣، (رتع)؛ المعجم الوسيط: ح١، ص٣٢٧، (رتعت).

(٣) البحار: ج٧٠، ص٣٤٥، ح٢٨؛ الصحاح: ج٣، ص١٠٧٧، (رضض)؛ مجمع البحرين: ح٢، ص١٨٥، (رضض)؛ مختار الصحاح: ص٢٤٥، (رضض).

والفضل يقتضيان ذلك؛ لأن للذنوب آثاراً وضعية تعم الجميع إلّا أنه سبحانه رحمةً منه وفضلاً يرفع العذاب عن المستحق لأجل غير المستحق، والجواب من وجهين:

الأول: أنّ الآية المباركة ناظرة إلى جهة المقتضي، والحديث ناظر إلى جهة المانع، فلو تمّت شرائط الاقتضاء صب العذاب عليهم، والوقائع الخارجية شاهدة على أنّ بعض العذاب ينزل ويكتسح كل عمران ومراعٍ ونفوس كما في الطوفانات والزلازل وانهيارات الأرض ونحو ذلك.

الثاني: أنّ وجود الأصناف المذكورة من أسباب الإمهال وتأخير العقوبة الجماعية لكنها لا تنفي العقوبة الفردية؛ لعدم خلوّ الأرض منهم، وفي الحديث دلالة على أنّ وجود المؤمنين الصالحين فيه الخير والبركة والرحمة على هذه الأرض، خصوصاً على أهل الكفر، ولولاهم لعجلت العقوبة بالفاسدين من أهلها، وأهلكت الحرث والنسل، فوجودهم بمنزلة العلة المبقية للرحمة الإلهية.

التعليم الثاني: ثلاثة مبادئ للنجاح

إنّ كل عمل ومشروع يعمل لأجله الإنسان يتوقف على انتباه العين ويَقظة العقل والقلب، وهي ثلاثة مبادئ للتوفيق والنجاح:

الأول: انتباهة العين بالفكر والتفكير، فالذي لا يبصر قد لا يفكّر، أو يقل تفكيره ويكون ارتجالياً ومزاجياً فيفشل.

الثاني: يقظة العقل بالتعلُّم والاتعاظ من التجارب، فالذي لا يتعظ لا يرتقي، ولا يتجنَّب الأخطاء، ولا يتلافاها بعد وقوعها.

والثالث: يقظة القلب بالثقة واليقين بالنجاح، فإنّ عدم التعلُّم من التجارب والشَّك بالنجاح من أكبر عوامل الفشل، وهذا ما يُستفاد من قول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿فإنّما البصير مَن سمعَ فتفكَّر، ونظرَ فأبصر، وانتفع بالعِبَرَ ثم سلكَ جُدَداً واضحاً يتجنَّب فيه الصرعة في المهاوي﴾[1].

والجدد الطريق المستوي[2]. سُمّي بذلك لأن الماشي يجد السير فيه ويصل إلى مطلوبهِ، والأخبار بهذا المعنى كثيرة.

وصرعة المهاوي تعني الوقوع في مساقط الأخطاء والزلّات

فالباري عزّ وجلّ يعلمنا أنْ لا نكون غافلين عمّا حولنا، يقظين للأحداث والوقائع، ونعد العدة لكل عمل أو مشروع نريد القيام به لأجل ضمان النجاح، فالارتجاليون والذين لا يستعدون للأمور في الغالب يفشلون.

التعليم الثالث: فلسفة التنافس والاستباق

إنّ الاستباق والمنافسة أمر فطري مطلوب وله غايتان:

الأولى: تحصيل المنافع.

الثانية: دفع المضار. عليهما تقوم فلسفة المنافسات والمسابقات في الحياة الشخصية والعامة في كافة مجالاتها، ولولا الاستباق والمنافسة فترت الهمم عن الأعمال، وتوقفت العقول عن الإبداع، وجمدت الحياة ومالت إلى الموت والانقراض.

---

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص٤١، ١٥٣.

(٢) انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٢١، (جدد)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص١١٠، (جدد).

ولا ينجح في التسابق ويصل إلى مطلوبه إلّا مَن هيَّأ الأسباب فبصر وتعقل وتدبَّر عواقب الأمور وخواتيمها، وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تُخْلِ نفسك من فكرة تزيدك حكمة، أو عِبْرَة تُفيدك عِصمة»[(١)] أي تعصمك من الأخطاء، وتقوّي عزمك على النجاح، وعنه عليه السلام: «بالفكر تنجلي غياهب الأمور»[(٢)] و: «إذا قدَّمتَ الفكر في أفعالك حَسُنَتْ عواقبك في كل أمر»[(٣)].

التعليم الرابع: كل شيء يوجد بسبب وحكمة

إنّ على الإنسان أن لا يغفل عن حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أنّ ما لديه من نِعَم في بدنه وروحه وكل ما له من أعضاء وقوى وطاقات – بل كل ما في الوجود من نِعَم غامرة – هي من الله سبحانه أعطاه إيّاها تفضُّلاً وإحساناً ورحمة منه. وهذا ما يقره العقل والوجدان، فإنّ الإنسان لولا ربّه لم يكن شيئاً مذكوراً، ولا يوجد تفسير صحيح يطابق موازين العقل والعِلم لوجود الإنسان وتكوينه إلّا تفسير

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ص٥١٩؛ وانظر غرر الحكم: ح١٠٣٠٧؛ تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٥٥٤، (٦/٢٩٥).

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ص١٨٩؛ وانظر غرر الحكم: ح٣٠٩٨؛ تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٥٦٠، (٣/٢٣٤).

(٣) عيون الحكم والمواعظ: ص ١٣٦؛ وانظر غرر الحكم: ح٤٣٢٢؛ تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٥٩٧، (٣/١٦٢).

الدين القويم لها، بل تعجز سائر المدارس الفكرية والاعتقادية أن تجد جواباً لهذه الحقيقة؛ لأنها تقوم على دعويين كلتاهما باطلة.

الأولى: أنّ الأشياء بما لها من مواهب وقدرات وطاقات وجدت صدفة وبلا سبب، وهذا ما يُبطله العقل والعِلم.

الثانية: أنها وجدت بسبب مجهول، وهي متناقضة من وجهين:

الأول: لأنّ الإقرار بوجود السبب يستلزم معرفته ولو إجمالاً؛ لأنّ صفات المسبب انعكاس عن صفات وخصائص السبب، وقد اتفق الحكماء وأهل المعقول على أنّ آثار العلة ظاهرة في المعلول؛ لأن الأثر يدل على المؤثِّر وجوداً وكمالاً؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

الثاني: أنّ ما يجهله العقل يستوجب تصديق النقل الصادق فيه، وقد تواترت الأنبياء والرسل والكتب السماوية على أنّ وراء الخلق خالق، ووراء الصنع صانع، وفصلت خصائصه وصفاته العليا، ومادام العقل يصدِّق بوجود الصانع ولا يعرفه فإنه يقضي بوجوب تصديق المُخبِر الصادق العالِم به، فلا يبقى جهل به، فدعوى الجهل مع حكم العقل بلزوم تصديق العالِم تناقض، وبذلك يتضح أنّ الإلحاد بقسميه النافي للخالق واللاأدري لو احتكم إلى العقول السليمة صار موحِّداً؛ لأن العقل يُبْطِل الصدفة والجهل بصفات الخالق إذا لاحظ الحكمة والعِلم والإتقان في الخلق.

الحقيقة الثانية: أنّ كل ما لدى الإنسان من نِعَم وطاقات هي ودائع يمكن لواهبها أنْ يستردها ويجرد الإنسان منها؛ لأن الواهب كما يعطي يأخذ، فلابد أنْ يعرف الإنسان أنه على خطر عظيم، وأنّ كل ما لديه من

نِعَم قد تزول في لحظة، فمن أراد أنْ تدوم عليه النِعَم بل تتعاظم وتزيد فعليه بشكرها، فإنّ الشكر يُديم النِعَم؛ لأن دوامها من الله، كما أنّ مبتدأها من الله سبحانه، وقد قال سبحانه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[١] وأدنى مراتب الشكر هو أنْ يقر الإنسان بأنها ليست منه بل من الله سبحانه.

أمّا الكفر والجحود فيزيل النِعَم ويقطعها، وهذا ما يقضي به العقل السليم، وتضافر مضمونه في الأخبار الشريفة.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ لله تعالى في كل نعمة حقاً، فمَن أدّاه زاده منها، ومَن قصَّر عنه خاطر بزوال نعمته»[٢] وحقّه فيها هو الشكر، ويتحقَّق في أدنى المراتب بالمعرفة والإقرار، وفي أعلاها بالطاعة والعمل.

وعن الصادق عليه السلام: «إنّ الله عزّ وجلّ أنعمَ على قوم بالمواهب فلم يشكروا فصارت عليهم وبالاً، وابتلى قوماً بالمصائب فصبروا فصارت عليهم نعمة»[٣].

والوبال الشدة وسوء العاقبة[٤].

ووجهه أنّ عدم شكر النعمة إمّا يوجب انقطاعها فيهلك صاحبها، وإمّا أن تكون سبباً لهلاكه، فكثرة المال نعمة وإذا لا يشكرها العبد فقد

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٧.

(٢) نهج البلاغة: ج٤، ص٥٤، الرقم ٢٤٤.

(٣) الأمالي (للصدوق): ص٣٠٢، ح٤؛ مشكاة الأنوار: ص٣٣.

(٤) المعجم الوسيط: ج٢، ص١٠٠٩، (وبل).

يستعمله في المفاسد، أو يعرضه للسرقة والقتل، وكذلك الأولاد نعمة إذا لا تُشكَر قد يحرم منهم، أو يفسدون عليه، أو لا ينتفع بهم، بل قد يتضرر، وهكذا سائر النِعَم.

وقد ورد عن الرضاعليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله إنه قال: ﴿أسرع الذنوب عقوبة كفران النعمة﴾[1].

ومن مظاهر الشكر سجود الشكر والمواظبة عليه لاسيّما بعد الفرائض، فعن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿سجدة الشكر واجبة على كل مسلم تتم بها صلاتك، وتُرضي بها ربَّك، وتعجب الملائكة منك، وإنّ العبد إذا صلّى ثم سجد سجدة الشكر فتح الربّ تبارك وتعالى الحجاب بين العبد وبين الملائكة، فيقول: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي أدّى قربتي -فرضي- وأتم عهدي، ثم سجد لي شكراً على ما أنعمتُ به عليه، ملائكتي ماذا له عندي؟ قال: فتقول الملائكة: يا ربنا رحمتُك، ثم يقول الرب تبارك وتعالى: ثم ماذا له؟ فتقول الملائكة: يا ربنا جنتك، فيقول الرب تعالى: ثم ماذا؟ فتقول الملائكة يا ربنا كفاية مهمّه، فيقول الرب تعالى: ثم ماذا؟ فلا يبقى شيء من الخير إلّا قالته الملائكة، فيقول الله تعالى: يا ملائكتي ثم ماذا؟ فتقول الملائكة: يا ربنا لا عِلم لنا، فيقول الله تعالى: لأشكرنّه كما شكرني، وأقبِل إليه بفضلي، وأُريه رحمتي﴾[2].

---

(١) الأمالي (للطوسي): ص٤٥٠، ح١٠٠٥؛ البحار: ج٦٦، ص٧٠، ح٢٥.

(٢) الوسائل: ج٧، الباب ١ من أبواب سجدتي الشكر، ص٦، ح٨٥٦٤؛ وانظر الفقية: ج١، ص٣٣٣، ح٩٧٩؛ التهذيب: ج٢، ص١١٠، ح٤١٥.

والمراد بالوجوب على كل مسلم المعنى اللغوي أي اللزوم(١)، ويفيد تأكد الاستحباب شرعاً بقرينة الأدلة الأخرى الظاهرة في عدم الوجوب شرعاً، ومقتضى الجمع الدلالي الحمل على تأكيد الاستحباب، أو تحمل على الوجوب العقلي؛ لحكمه بوجوب شكر المنعم، ولو تم هذا وجب القول بوجوب الشكر شرعاً لقانوني الملازمة أو العينية إلّا أن يقال بحكومة الدليل الشرعي على العقلي؛ لأن حكم العقل بوجوب الشكر ناشئ من ثبوت حق للمنعم على العبد، فإذا رخص المنعم بعدم وجوب الأداء أجاز العقل الترك واكتفى بالاستحباب المؤكد.

وأقل ما يقوله العبد في سجدة الشكر أنْ يقول ثلاثاً شكراً لله، وعن الصادقعليه السلام أنّ أداء حق جميع النِعَم الإلهية يتّم بقول الساجد ﴿الحمد لله على كل نعمة كانت أو هي كائنة﴾(٢) والأفضل أنْ يعدد العبد في سجوده نعمة نعمة، ويشكره عليها، سواء النعم الجسدية أو النعم الروحية، أو نعمة الأب والأم والولد، وكل ما يتعلّق به وبشؤونه يذكرها ويشكرها. هذا من شأنه أنْ يديم عليه النعم ويزيدها عليه. ويجعله عبداً شكوراً. اللهم اجعلنا عباداً شاكرين لفضلك وإحسانك بمحمد وآله الطاهرين.

---

(١) مجمع البحرين: ج٢، ص٤٤٧، (وجب).

(٢) الوسائل: ج٧، الباب ٤٨ من أبواب الذكر، ص٢٢٣، ح٩١٧٥؛ ثواب الأعمال: ص٩.

وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى
مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا
وَلَا يَرْجِعُونَ

يس/ ٦٧

المسخ قسمان

الآية معطوفة على ما سبق، فتلك تحدثت عن طمس أعينهم فلا يرون طريقهم ولا يهتدون إلى الصراط؛ لأن عمى قلوبهم في الدنيا سبَّب عمى أبصارهم في الدنيا والآخرة، فإنّ اليقظة والانتباه من القلب، فإذا صار أعمى وقع في السهو والغفلة فلا يكاد يرى الأشياء الظاهرة الواضحة فتصاب بعمى الرؤية وإن لم يكن أعمى البصر، ولعلّ السر في عطف هذه الآية على سابقتها يعود لأمور:

الأول: بيان أنّ المسخ قسمان جزئي وكلي، والأول هو طمْس الأعين، أي إزالة جارحة البصر عن الوجه فيصبح الوجه كالقفا، وهو نوع مسخ للوجه وتغيير في شكله وصورته، والثاني مسخ كل البدن وصيرورة الإنسان حيواناً أو جماداً، وكلاهما يستحقهما أهل النار.

الثاني: جواب استفهام قد يختلج في الأذهان أو يساور البعض، وهو أنّ العمى لا يلازم الضلالة وعدم تحصيل النجاة بالاستباق إلى الصراط؛ إذ يمكن للأعمى الممسوخ بالمسخ الجزئي أن يستعين ببعض الوسائل لاستباق الصراط وتحصيل النجاة.

منها: الاستعانة بمن يأخذ يده وينجيه.

ومنها: تحسُّس الطريق بواسطة العصا ونحوها.

ومنها: تحسُّس الطريق بواسطة الأمارات الحسية كاللمس والشم

والسماع، فإنّ الأعمى قادر على تمييز الأشياء عبر اللامسة أو شمها أو أصواتها، وعلى هذا يكون قادراً على استباق الصراط وعبوره، وبالنتيجة فإن المسخ الجزئي قد لا يُحقِّق الغرض، فتجيب الآية ببيان نوع آخر من العذاب وهو المسخ الكلي، وبه يفقد كل سبيل للنجاة.

الثالث: جواب استفهام آخر قد يخطر في أذهان البعض عن قدرة الله، فتوهم أنه قادر على المسخ الجزئي وهو العمى، وليس بالضرورة يكون قادراً على المسخ الكلي، فأجابت الآية أنه لو شاء لمسخه جزئياً، ولو شاء لمسخه كليّاً، ولكنه لم يفعل؛ لأنه رحيم وحكيم فيمهله ولا يعجل في عقوبته، ولعلّ العبد إذا التفت إلى ذلك واتعظ عادَ إلى ربه وأصلح نفسه ليفوز في عاقبة أمره، فعلى ضعاف الإيمان والمشركين والكفار وأهل المعاصي أنْ يعلموا بأنهم مهما كابروا وطغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد الاعتقادي والعملي فإنّ ذلك كله إمهال من الله سبحانه لهم، وإنهم مأخوذون بعواقب أعمالهم بعمى قلوبهم في الدنيا، وعمى قلوبهم وأبصارهم في الآخرة، فليس لهم من مصير إلّا الهلاك. هذا وجه الترابط الموضوعي بين الآيتين، والبحث في هذه الآية يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ﴾

(الواو) عاطفة، و (لو) حرف امتناع لامتناع، و(اللام) للتأكيد، وعلق على المشيئة لأنه سبحانه لم يفعل المسخ ليس لعجزه عنه سبحانه، بل لاقتضاء حكمته ورحمته الإمهال.

و(المسخ) تحويل صورة الإنسان إلى ما هو أدنى رتبة وأقبح شكلاً وأسوأ أثراً[1]، ويختص بالإنسان، وفي المراد منه قولان:

القول الأول: المعنى المجازي ويراد به التحيّر والذهول في المحشر، حيث يختم على أفواههم، وتتكلَّم الأيدي والأرجل، ويصبحون كالتماثيل الميتة لا يستطيعون تقدماً ولا تراجعاً، فيكون توصيف حالتهم بالمسخ بلحاظ الأثر[2]، وهو خلاف الظهور، ولا يُصار إليه إلّا بدليل أو قرينة.

---

(١) انظر التبيان: ج٨، ص٣٥٨؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٨؛ روح البيان: ج٧، ص٤٢٤؛ الجامع لأحكام القرآن: ح٢٣، ص٤٨.

(٢) تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٦٥.

القول الثاني: المعنى الحقيقي، وعليه الأكثر، ويختصّ بالإنسان، ويقع بنحوين:

أحدهما: مسخ الصورة الإنسانية إلى حيوانية بسلب أعظم النِعَم التي بها فاقَ وتكرَّم وإرجاعها إلى المشتركات.

وثانيهما: مسخ الصورة الإنسانية إلى حجر ونحوه كما جعل بعض الأقوام أعجاز نخل خاوية.

وقد وقع ذلك لجماعة حيث قلبهم إلى قردة وخنازير، وبعضهم إلى حجر ومدر، والوقوع شاهد على الإمكان الذاتي للمسخ، فلا امتناع في وقوعه، والقدرة الإلهية عامة، فوقوعه معلّق على المشيئة، أي إرادة الفعل لا أصل القدرة؛ لأنه مفروغ منها، والآيتان تعرفان التسلسل الرتبي بين القدرة والمشيئة والإرادة، فإنّ القدرة صفة الذات مجردة عن المقدور، فإذا لوحظ فيها المقدور كانت مشيئة، فإذا تعلّقت به صارت إرادة، وإنما جعل العقاب بالمسخ لأن فيه غاية التنكيل مادياً ومعنوياً. أمّا الأول فلأنه يسلب الكثير من النِعَم عنهم وأفضلها العقل والقلب، أي البصيرة والشعور المرهف، وأمّا الثاني فلأنه يهبط من مكانتهم العالية في الوجود إلى المراتب الدانية، فإنّ الإنسان أكمل الموجودات وأكرمها، ومسخ صورته إلى الحيوان تذليل وتنكيل روحي، لأن الوجود الحيواني أدنى رتبة من الإنسان، وإذا مسخه إلى جماد فالتذليل أشد.

وفي بعض الأخبار ذكرت الحيوانات الممسوخة منها القرد والخنزير والكلب والفيل والذئب والفأرة والضب والأرنب والطاووس والدعموص والجري والسرطان والسلحفاة والوطواط والعنقاء والثعلب والدب

واليربوع والقنفذ[١]، ويقال إنّ المسوخ جميعها لم تبقَ أكثر من ثلاثة أيام ثم تموت، ولا تتوالد، والله سبحانه يخلق حيوانات على صورها وإنما سُمّيت هذه مسوخاً من الاستعارة[٢].

المفردة الثانية: ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾

فيها قراءتان، والقراءة الثانية مكانتهم على الجمع، وهي غير سديدة ومخالفة للتحقيق.

واختلفوا في المراد بالمكانة، فحكي عن ابن عباس أنّ المراد بها المسكن، وعن غيره أنه أعم، والمراد به الموضع الذي اجترؤوا فيه على المعصية[٣] ليكون شاهداً عليهم، فالمكانة مؤنث المكان، وهما بمعنى واحد[٤]، وعن ثالث أنّه الطريق الذي تسابقوا فيه للوصول إلى الصراط[٥].

والمعنى لو نشاء لعذبناهم بإقصائهم في منازلهم أو مواضعهم ممسوخين قردة وخنازير، أو حجارة ليس فيهم أرواح[٦]، فإنّ البدن إذا جمد صار كالحجر، ولو طال عليه الأمد صار صخراً كما تشهد له الحفريات والآثار.

---

(١) الفقيه: ج٣، ص٣٣٦، ح٤١٩٧؛ علل الشرائع: ج٢، ص٤٨٧، ح٤؛ الخصال: ص٤٩٣، ح١؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٤٤٣، (مسخ).
(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص٤٤٣، (مسخ)؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٥٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ج٢٣، ص٤٦؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٥٢.
(٤) التبيان: ج٨، ص٣٥٨؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٦.
(٥) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٨.
(٦) مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٦.

ويتحصل: أنّ أكثر المفسرين أو جلهم ذهبوا إلى تفسير المكانة بالمكان[١]، والتأنيث يفيد الأخصية ولا يغيِّر المعنى[٢]، وفي الكل نظر لسببين:

الأول: أنّ التأنيث في المكان استعمال نادر وبعيد عن البلاغة، ولو كان هو المقصود لكان الأبلغ القول (مكانهم) وكان الأنسب استعمال (في) الظرفية لا (على) الاستعلائية، فيكون التعبير (مسخناهم في مكانهم) فـ(على) يفيد نوع علوّ واستيلاء عليهم، وذلك لا يكون إلّا إذا كانوا أصحاب مقامات عالية ولهم قدرة ونفوذ فيغلبهم الباري بقدرته ونفوذ سلطانه على سلطانهم، فالأنسب بمقتضى الحال هو أنّ المراد بالمكانة الرتبة المعنوية، وهي لا تنافي أنْ يكون المسخ في مساكنهم وطرقهم أو مواضع ارتكاب الذنوب؛ لأن المسخ عرض لابد وأنْ يقع في مكان إلّا أنّ العناية والظهور يوجبان الحمل على الرتبة.

ويؤيد ذلك أنّ أصحاب النفوذ والقدرة غالباً ما يخفون بواطنهم ويظهرون غيرها، ويعطون للأنظار صورة حسنة عنهم، لكنهم في الواقع سيئون فإذا مسخوا على ما هم عليه من صورة ظهرت جواهرهم وحقائقهم للناس، وبطل ما كانوا يتقنَّعون به، فيكون أدعى لفضحهم وإذلالهم.

---

(١) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٤؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٨؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٦؛ تفسير الميزان: ج٢٣، ص١٠٨؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٦٥؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٦٢؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٢٣، ص٤٦؛ تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٦٥.

(٢) روح البيان: ج٧، ص٤٢٤.

الثاني: اللغة، فإن المكانة تطلق على المنزلة والرفعة والشأن مأخوذة من المكنة أي السلطة والقدرة والظفر[١]، وقولهم تمكن فلان أي استولى واقتدر، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ**﴾[٢] أي جعلناه ذا مقام عال ومحبوبية كاملة في قلوب أهل مصر وعزيزها[٣]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ**﴾[٤] أي جعلناكم قادرين على تسخيرها، ومستولين على خيراتها والتصرّف فيها لمنافعكم، والمكان عند أهل اللغة: الموضع الحاوي للشيء، وعند بعض المتكلمين أنه عَرَض، وهو اجتماع جسمين حاو ومحوي[٥].

وعلى هذا يكون المعنى أنّا قادرون على مسخهم وتبديل ما هم عليه من القوة والسلطة والنفوذ، وما لهم من صور يحسِّنوها في أنظار الناس، وإظهار جوهرهم وحقيقتهم العاجزة وشكلهم القبيح، وهذا أنسب بغرض الآية؛ لأن المقصود هو إظهار حكومة القدرة الإلهية وسعة سلطته الحاكمة في الأشياء، وفيه إشعار بشدة الوهم الذي يقع فيه البشر؛ إذ يجمع القوة والسلطان لأجل أن ينفعاه في الشدة ويخلصاه من المهالك، وحينما يُحمى الوطيس يجدها وبالاً عليه لا نفعاً، وهذا المعنى لا ينفي المعنى الأول، فالقول به أوفق بالقواعد.

---

(١) المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٨٢، (مكن).

(٢) سورة يوسف: الآية٢١.

(٣) نفحات الرحمن: ج٣، ص٣٨٠.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٠.

(٥) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٧٣، (مكن).

والمسخ على مكانتهم يدل على ثلاث مزايا هامة للقدرة الإلهية:

الأولى: أنّ قدرته حاكمة على كل قدرة، وسلطته عالية على كل سلطة.

الثانية: أنّ حكومة قدرته على قدرة غيره فورية تتحقق بمجرد المشيئة وبلا حاجة إلى إعداد مسبق، ولا وسائط أو آلات، وهذه ميزة أخرى لقدرة الله على سائر القدرات، فإنّ القدرة غير الإلهية لا تحصل إلّا بتحصيل واكتساب، ولا تفعل وتؤثر إلّا بالوسائط والآلات، وأمّا قدرة الله سبحانه فهي ذاتية، وفعلها بالمشيئة لا يتوقف على وسائط وآلات.

الثالثة: أنّ قدرته نافذة على ذوات الأشياء وحقائقها حتى إنها تبدل الجوهر إلى جوهر آخر، والنوع إلى آخر، فتمسخ الإنسان إلى حيوان، والحيوان إلى جماد وهكذا، بخلاف غيره فإنّ قدرته محدودة ولا تستطيع أنْ تنفذ إلى ذوات الأشياء وتبدلها، وهذا ما نلحظهُ في سلاطين الأرض وأصحاب القدرة فيهم، فإنهم عاجزون عن تبديل الحقائق، بل هم عاجزون عن تغيير المواقف والأفكار؛ لذا يستعملون القمع والسجن والتعذيب لأجل فرض إرادتهم على الناس، ويعجزون عن ذلك.

وكذلك الصناعيون وأصحاب العلوم الكيمياوية والفيزياوية فإنّ قدرتهم على تبديل الحقائق محدودة بالقوانين والأنظمة التي أودعها الباري عزّ وجلّ في الأشياء، وبتوسيط الوسائط، ومن دون ذلك فهم عاجزون، فلا يقال إنهم يبدلون الخشب إلى فحم والنحاس إلى ذهب والعناصر الكيماوية من شيء إلى آخر، فإنّ هذا تبديل بالحقائق.

فالجواب:

أولاً: أنهم على فرض قدرتهم فهي محدودة ببعض الأشياء لا بغيرها.

وثانياً: أنّ قدرتهم على ذلك ليست ذاتية، وهي عبارة عن توظيف للقوانين الإلهية في الأشياء وتوسيط الوسائط، فلولا أنْ جعل الباري القانون وجعلَ الأشياء طائعة له لعجزوا عن ذلك؛ لذا يعجز الكيماوي عن تبديل الذهب إلى تراب، والتراب إلى خشب، والخشب إلى حديد، ولو قدر فإنه اكتشف القانون الإلهي فيه، والكلام في هذا مفصل نوكله لمحله.

فيتحصل: أنّ المراد بالمكانة الرُتبة والمقام، والمسخ على المكانة يشتمل على معنيين: معنوي ومادي.

الأول: قدرتهم وسلطانهم الذاتي والعرضي؛ إذ هم مُسلَّطون على أنفسهم وحركاتهم وسكناتهم ورواحهم ومجيئهم، وهذه قدرة ذاتية تكوينية، كما أنهم مسلَّطون على غيرهم بالقوة والنفوذ المعنوي. ورغم ذلك لو شاء الله أنْ يمسخهم بدَّلهم إلى حقائق أخرى فلا يملكون سُلطة على أنفسهم، فلا يستطيعون رَواحاً ولا مجيئاً، ولا يملكون سلطة على أحد يسخرونه لمصالحهم، وهذه المكانة المعنوية.

الثاني: مكانتهم الأولى التي كانوا عليها وهي الخلقة الأصلية، فإنّ أصل الإنسان البعيد تراب، وهو جماد، والأقرب منه الحيوان حينما كان نطفة فإنه يتمتع بالروح الحيوانية، وفي تلك النشأة كان فقيراً عاجزاً لا يقوى على شيء، والله سبحانه هو الذي أعطاه الوجود القويم والروح الإنسانية والقوة الذاتية والعرضية، ولو شاء أن يذهبها أذهبها، فبدّل صورته

الإنسانية إلى ترابية أو حيوانية، فتتسافل رتبته المعنوية من الرُّقي إلى النقص، وقوَّته المادية من الفعل إلى القوة، ومن الوجود إلى العدم، وهذا ما تشهد له الآية التي بعدها إذ يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾[١] فإنها تفيد التراجع في النشأة.

ولا تنافي بين المعنيين، والقول بهما بلا مانع، وكل ذلك مقدور لله سبحانه ولكنه لا يفعله لرحمته وحكمته وعدله، وإنما ذكره الباري عزّ وجلّ لأجل تذكيرهم وتهديدهم علّهم يستيقظون من غفلتهم ويهتدون، فلو بذل الإنسان كل عمره وقواه وأفعاله لشكر هذه النعمة العظيمة لقصر عنه.

المفردة الثالثة: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾

(الفاء) للتفريع و(ما) نافية، والاستطاعة القدرة والتمكن[٢]، والمضي فيه معنيان:

الأول: الذهاب إلى المقصد والرجوع إلى ما كانوا عليه، وهذا يتوافق مع تفسير المكانة بالمكان

الثاني: النفوذ، ومنه الإمضاء، وقولهم أمضى القاضي الحكم أي أنفذه، وهو من شؤون القدرة والسلطة، ويتوافق مع تفسير المكانة بالمقام والمنزلة[٣].

---

(١) سورة يس: الآية ٦٧.

(٢) المعجم الوسيط: ج٢، ص٥٧٠، (طاع).

(٣) المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٧٥، (مضى).

والمضيّ ظاهر في المشي بقرينة ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾[1] فلا مانع من حمل المعنى عليهما، وفي نسبته اليهم دلالة على حركتهم الاختيارية، وكذلك دلالة على توقف سلطتهم ونفوذ أوامرهم، ووردت الاستطاعة بصيغة الماضي ﴿اسْتَطَاعُوا﴾[2] مع أنّ التحذير بـ(لو نشاء) بالمضارع؛ لانحصار صحة المعنى به؛ لأن الحكاية عن عجزهم بعد المسخ وهو لا يخلو من حالتين:

الأولى: أن تمسخهم حيوانات فيصابوا بالذهول وفقدان العقل فلا يملكوا لأنفسهم سلطة على المضيّ في طريقهم بالإرادة والاختيار، أو المضيّ في حيوانيتهم فلا يؤاخذون بالحساب والعقاب لأن الحيوان غير مكلَّف.

إن قيل: إنّ الحيوان يتحرك بنفسه.

فالجواب: أنّ حركته وإن كانت كذلك إلّا أنّ المراد بالمضيّ هنا الحركة الإرادية القصدية إلى الصراط لتحصيل النجاة، وهذا ما يعجز عنه الحيوان، فهم على هذا التقدير عاجزون ولا يستطيعون مضيّاً للصراط والنجاة، ولا العودة إلى حقائقهم الإنسانية الأولى حتى يعرفوا الطريق وينجوا، فهم هالكون على كل تقدير.

الثانية: أن تمسخهم أحجاراً، والحجر فاقد للقدرة والحركة.

وقد اختلف المفسرون في المعنى على أقوال:

---

(١) سورة يس: الآية ٦٧.

(٢) سورة يس: الآية ٦٧.

الأول: لا يستطيعون مضيّاً في العذاب أي المسخ، ولا يرجعون إلى حالهم قبل العذاب أي السلامة. ذهب إليه جماعة[١]، وظهور السياق يشهد له.

الثاني: المضيّ إلى مقاصدهم ورجوعهم إلى منازلهم وأهلهم، وهذا يستدعي حصر المسخ في الدنيا دون الآخرة. حكاه بعض، ونسب إلى أغلب مفسري الخاصة والعامة[٢].

نعم يستفاد ذلك من كلمات بعض مفسري العامة. قال: مضوا ولا رجعوا فجعلنا لهم العذاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة، وأرحنا منهم المؤمنين، وتركناهم عبرة وموعظة لمن بعدهم[٣]، ولازمه أن تكون الآية إخباراً وتهديداً لا واقع له.

الثالث: لا يستطيعون مضيّاً إلى الصراط ولا يرجعون إلى دنياهم تخلصاً من العقاب[٤]، وهو خلاف الظهور.

الرابع: لا يستطيعون مضيّاً في نهجهم ولا يرجعون عن تكذيبهم[٥]؛ لأن قلوبهم مطبوعة، وأفواههم مختومة.

---

(١) مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٦؛ تفسير الميزان: ج١٧، ص١٠٨.
(٢) تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٦٥؛ تفسير الميزان: ج١٧، ص١٠٨؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٨.
(٣) التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٥٣.
(٤) تفسير الفرقان: ج٢٤، ص٥٩.
(٥) تفسير الصافي: ج٤، ص٢٥٩؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٥.

الخامس: لا يستطيعون الحركة والمشي إلى الأمام، ولا الرجوع إلى الخلف؛ لشدة الذهول، قاله جماعة(١).

والجميع متفق على حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أنهم بسبب كفرهم ونقض عهودهم وعدم اتعاظهم كانوا يستحقون ختم الأفواه في الآخرة ودخول النار، وفي الدنيا كانوا يستحقون الطمس والمسخ لكن الله سبحانه أمهلهم لعلهم يتوبون فيتخلصون من عذاب الآخرة، لكنهم لم يفعلوا فاستحقوا النار في ذلك. إشارة إلى أنّ حياتهم الأخروية هم صنعوها بأنفسهم، وهم اختاروا مصيرهم السيء.

الحقيقة الثانية: أنهم عاجزون عن تغيير مصيرهم، فإنّ قدرة الله سبحانه حاكمة عليهم وعلى كل وسائل القوة والنفوذ التي كانوا يمتلكونها، وهذه الحقيقة حاكمة عليهم في الدنيا وفي الآخرة.

والأقوال المختلفة ناشئة من ملاحظة السياق الظاهر في أنها ناظرة إلى الآخرة، وبين قرينة الحال الظاهرة في الدنيا؛ لأنهم في الدنيا كانوا مفتحي العيون، وصورتهم الإنسانية محفوظة، ويذهبون ويرجعون باختيارهم وإرادتهم، ولا تنافي بين المعنيين، ولا مانع من استعمال اللفظ في أكثر من معنى، وغرض الآية يتعلق بهما معاً.

---

(١) التبيان: ج٨، ص٣٥٨؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٦؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٨؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٦٥.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: لماذا لم يمسخهم؟

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ﴾(١) ومفاده أنه لم يشأ أنْ يمسخهم لا لعجز بل لرحمة وحكمة؛ لأن سُنَّة الله سبحانه في عباده في الدنيا لا تقوم على الجبر ولا المسخ؛ لأن الأول يتنافى مع سُنَّة الاختبار والعدل الإلهي، والثاني يتنافى مع الرحمة الإلهية التي كتبها على نفسه، وفي الدنيا جعل الباري الاختبار والإمهال هما الحاكمان؛ لتوقف غاية الخلق عليهما لذا لا يتعجّل على عباده المسيئين بالعذاب والعقاب، بل يُمهلهم وإن كان بإمهالهم يزدادون كفراً وظلماً وفساداً، ويزدادون قوةً ونفوذاً وسُلطة.

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(٢) فغاية الإملاء هو تماميّة الحجة عليهم وازديادهم بالإثم، ولا يقال كيف تكون الغاية ازديادهم بالإثم؟

---

(١) سورة يس: الآية ٦٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية١٧٨.

والجواب: لأنه سبحانه يمهلهم لكي يفرغوا كل ما عندهم من طاقة للشر والعصيان، وتسقط أعاذيرهم، ومما يمليه لهم هو أن يدعهم في سلامة بدنية وعقلية ونفسية، فلا يذهب بأبصارهم ولا بقواهم، ولا يبدِّل حقائقهم ليفعلوا كل ما يتمنّون ويطمحون إليه.

ولو مسخهم سلب عنهم الاختيار، وسقط عنهم الاختبار، وبطلت الغاية من خلقهم، وبعض المؤمنين حيث يرون أنّ هؤلاء في نعيم ظاهر وهم في ابتلاء قد تفوتهم هذه الحقيقة ولا يلتفتون إلى أنهم في ابتلاء وعلو الدرجات، وهؤلاء في عذاب حالي واستقبالي.

والمستفاد من الأدلّة أنّ هذا من بركات النبيّ والإسلام، فإنّ الأُمم السابقة تعرَّضوا إلى المسخ وبعد مجيء الإسلام والنبيّ المصطفى صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه رفع الله سبحانه هذا الجزاء عن بني آدم، ومن مصاديقه عذاب الاستئصال؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[1] إذ جعل أمانين لأهل الأرض هما وجود النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه والاستغفار، والأول ارتفع بشهادته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه وبقي الثاني، وصيغة اسم الفاعل ﴿**مُعَذِّبَهُمْ**﴾ تدلّ على استمراره ما داموا يستغفرون، ولو قيل بأنّ النبيّ موجود فيهم إلى يوم القيامة بواسطة ذريّته الطاهرة خاصةً حجة الزمان صلوات الله عليه توفَّر الأمانان وهو سديد.

---

(١) سورة الأنفال: الآية٣٣.

إن قلت: إنّ ما ذكرتم يتنافى مع ظاهر الآية وبعض الروايات التي دلَّت على أنّ الأمان الأول ارتفع بشهادة النبيّ وحثَّت الناس على التمسك بالأمان الثاني أي الاستغفار كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام(١) وأبي جعفر عليه السلام(٢).

فالجواب: من وجهين:

الأول: النقض بالكثير من الروايات والأدلّة الدالَّة على أنّ أهل بيته عليهم السلام أمان لأهل الأرض من العذاب والاستئصال. وأنّ الأرض والسماء بوجودهم ثابتة، ولولاهم لساخت الأرض بأهلها.

الثاني: أنّ تلك الروايات غير ظاهرة في الحصر، وغايتها حث الناس على الطاعة والاستغفار فلا تنفي ما عداها، بل روايات التعميم أصرح وأقوى ويوافقها البرهان.

ففي رواية جابر الجعفي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: لأيّ شيء يحتاج إلى النبيّ والإمام؟ فقال: «لبقاء العالَم على صلاحه، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيها نبيّ أو إمام. قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ**﴾(٣) وقال النبي صلى الله عليه وآله: النجوم أمان لأهل

---

(١) نهج البلاغة: ج٤، ص١٩؛ قصار الحكم ٨٨؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص١٥٢، ح٨٢.
(٢) ثواب الأعمال: ص١٩٨؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص١٥٢، ح٨٤.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٣٣.

السماء وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذَهَبَتْ النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون، وإذا ذهبَ أهلُ بيتي أتى أهلُ الأرض ما يكرهون﴾ يعني بأهل بيته الأئمة عليهم السلام الذين قرن الله عزّ وجلّ طاعتهم بطاعته[(١)].

بل يستفاد من الأخبار أنّ الاستغفار أيضاً أمان لأهل الأرض ببركة النبيّ وأهل بيته أيضاً.

ففي رواية سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في نفر من أصحابه: إنّ مقامي بين أظهركم خير لكم، وإنّ مُفارقتي إيّاكم خير لكم﴾ فقام إليه جابر بن عبد الله الأنصاري وقال: يا رسول الله! أمّا مقامك بين أظهرنا فهو خير لنا فكيف تكون مُفارقتك إيّانا خيراً لنا؟ فقال: أمّا مقامي بين أظهركم خير لكم لأن الله عزّ وجلّ يقول ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[(٢)] يعني يعذبهم بالسيف فإنَّ مفارقتي إيّاكم فهو خيرٌ لكم لأنّ أعمالكم تُعرَض عليَّ كل اثنين وخميس فما كان من حسن حمدتُ الله تعالى عليه، وما كان من سيّء استغفرت لكم﴾[(٣)].

وقريب منه ورد عن أبي عبد الله عليه السلام[(٤)].

---

(١) علل الشرائع: ج١، ص١٢٣، ح١؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص١٥٢، ح٨٦.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٣.
(٣) الأمالي (للطوسي): ص٤٠٨، ح٩١٧؛ البحار: ج٢٣، ص٣٣٨، ح٩.
(٤) الكافي: ج٨، ص٢٥٤، ح٣٦١.

وشهد القرآن الكريم وتواترت الأخبار على أنّ عرض الأعمال لا يختص بالنبيّ، بل تعرض على الأئمة عليهم السلام، ويشهدون عليها، ويستغفرون للمؤمنين الموالين منها.

وبهذا يتضح مدى اللطف والرحمة في وجود محمد وآل محمد عليهم السلام على أهل الأرض ولكن أكثرهم لا يعلمون.

اللطيفة الثانية: العذاب يسانخ السجايا

قوله: ﴿**لَمَسَخْنَاهُمْ**﴾(١) صريح في أنّ المسخ أحد أنواع العذاب الإلهي، ويجب أن يكون مطابقاً لسجايا المعذبين وصفاتهم النفسية دفعاً لمحذور العبثية، والترجيح بلا مرجح، فلو مسخ أهل النفاق قردة أو خنازير دون تناسب مع سجاياهم لأمكن أنْ يقال لماذا لم يمسخهم عقارب وأفاعي، أو يمسخهم حجراً، فالتناسب في المسخ واجب، وهذا ما تقتضيه قاعدة تجسّم الأعمال وتناسخها.

فمسخ البعض حيواناً لأن نفوسهم وقلوبهم كانت مطبوعة على سجايا الحيوان وصفاته، والذين قلوبهم قاسية ونفوسهم معاندة مكابرة يمسخون حجارة، وقد وصف القرآن بعض الناس بأنّ قلوبهم أقسى من الحجر؛ لأن من الحجر ما يتفجر منه الأنهار فيكون فيه خير وخصب ونفع، وأمّا قلوب هؤلاء فلا خير فيها ولا نفع. قال سبحانه: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا**

---

(١) سورة يس: الآية ٦٧.

يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ﴾[١] وبعض الآيات وصفت بعض بني آدم بأنهم كالأنعام وأضلّ؛ لأن سجاياهم ونفوسهم مجبولة على حب الشهوة والأكل والنكاح وليس لهم من هَمّ إلّا ذلك.

وكذلك في الأخبار الشريفة ما يكشف عن سجايا بعض الناس بصورتهم الحيوانية، فقد ورد أنّ الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب[٢] وحمل على معنيين:

أحدهما: الحيوان.

ثانيهما: الإنسان الذي يتّصف بصفات الكلب، ومن أبرز صفاته: القذارة والنجاسة والتهارش والصياح وسهر الليل ونوم النهار، فإذا اتصف الإنسان بذلك فكان لا يبالي بالنظافة والطهارة، ويتخاصم مع الناس على الدنيا، وإذا دخل البيت يملؤه صراخاً وصياحاً، وإذا تكلَّم يسمع الجيران كلامه لعلوِّه وارتفاعه، وفي الليل يكون جالساً في لهوه ولعبه، وفي النهار نائم، فإنه لا يفترق عن الكلب إلّا في الشكل والصورة.

وفي وصف بني أمية وأمثالهم قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كان أهل ذلك الزمان ذئاباً، وسلاطينه سباعاً، وأوساطه أكّالاً، وفقراؤه أمواتاً»[٣] والتوصيف لكل فئة منهم تسانخ سجاياهم.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٧٤.

(٢) المحاسن: ج٢، ص٦١٥، ح٣٨، ح٣٩؛ الكافي: ج٣، ص٣٩٣، ح٢٧؛ الخصال: ص١٣٨، ح١٥٥.

(٣) نهج البلاغة: ج١، ص٢٠٩، الخطبة ١٠٨.

ومن هنا وسع بعض أهل اللغة معنى المسخ ليشمل التشويه الخلقي والأخلاقي.

وفي المفردات: المسخ تشويه الخَلق والخُلُق وتحويلهما من صورة إلى صورة[١]، ويتميزان في أنّ المسخ الخلقي يحصل بين الفينة والفينة بحسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية، وأمّا المسخ الأخلاقي فهو دائم الحصول في كل زمان، والأول غير قابل للتبدل؛ لأن مصيره الهلاك. أمّا الثاني فيمكن تبديله بتبديل الأخلاق وإصلاحها.

ويتحصل: أنّ المسخ نوع عقوبة إلهية تنال بعض العباد بسبب سوء أفعالهم وسجاياهم، فإذا استحق العباد ذلك ولم يمسخهم كان رحمة بهم وإمهالاً لهم لعلهم يبدلون جواهر نفوسهم وأعمالهم، فإنّ المسخ حدوثاً وبقاءً بيد الإنسان نفسه عبر اختيار مقدماته.

اللطيفة الثالثة: الفرق بين القدرة والإستطاعة

قد يقال في قوله تعالى: ﴿**فَمَا اسْتَطَاعُوا**﴾[٢] نسب العجز إلى الاستطاعة دون القدرة، فلم يقل (فما قدروا) لأن الأوفق هو الاستطاعة، والفرق بينهما أنّ القدرة أعمّ من الاستطاعة[٣]؛ لذا عرِّفت بأنها هيئة يتمكن بها الإنسان من فعل شيء ما وتركه[٤]. أمّا الاستطاعة فهي قدرة خاصة، ولا

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٦٨، (مسخ).

(٢) سورة يس: الآية ٦٧.

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٤٨،(١٦٥).

(٤) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٥٧، (قدر).

تقال إلّا في البشر، وتتوقَّف على انقياد للمقدور لحصول التأثير به، مأخوذة من الطوع أي الانقياد، ولذا لا يوصَف الباري عزّ وجلّ بالاستطاعة؛ لأن قدرته مطلقة ولا تتوقف على شيء غيرها، ولا يمنع من تأثيرها مانع، كما أنها تقال في الأفعال القصدية لا الجبرية ولا الإكراهية، ولذا تقيد بالقدرة والتمكين، كما عرَّفها البعض بأنها عرض يخلقه الله في الإنسان كي يتمكن من أداء أفعاله الاختيارية على سبيل السهولة[١].

ومن هنا جعل أهل المعقول قاعدة استحالة التكليف تدور مدار القدرة لا الاستطاعة، فقالوا باستحالة التكليف بغير المقدور لا غير المستطاع، والآية الشريفة قيَّدت الأحكام بالوسع والإتيان فقال: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾[٢] وإلّا ﴿**ما آتاها**﴾[٣] لأن التكليف لا يكون في غير المستطاع.

والممسوخون بالمسخ الخَلقي أو الخُلقي قد يملكون القدرة ولكنهم يعجزون عن الفعل، بل يعجزون عن تحريك أقدامهم التي لهم قدرة وولاية عليها، ولو أرادوا ذلك لا تنقاد لهم ولا تستجيب؛ لذا قال: ﴿**فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ**﴾[٤] لأنَّ وجود القدرة وحدها لا تكفي في فعل البشر، بل لابد من استجابة الأشياء وانقيادها لإرادتهم، وبهذا يتّضح

---

(١) انظر تفسير الثعالبي: ج٤، ص٢٧٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٧.

(٤) سورة يس: الآية ٦٧.

الفرق الكبير بين قدرة الباري عزّ وجلّ وقدرة غيره، ويظهر السر في أن قوة الحيوان لا تسمى استطاعة ولا قدرة بل طاقة؛ لأنّ التمكن من الفعل والترك شرط في صدق القدرة، والقصد والانقياد شرط في الاستطاعة، والحيوان فاقد لذلك، والمقصود الملازمة الدائمة، فلا ينقض على ذلك بسلوك بعض الحيوانات الذكية أحياناً عن قصد، كما يظهر مدى عجز الملوك والسلاطين وكل مَن له قدرة ونفوذ، فإنّ كل هذه القدرة أمام قدرة الله وإرادتهِ فَناء فلا ينبغي أنْ يغترَّ إنسان بماله أو قوَّته أو سلطانه، ولا يركن إلّا إلى قدرة الله وحوله وقوَّته.

اللطيفة الرابعة: فرق المضي والرجوع

الآية قدّمت المضيّ على الرجوع؛ إذ قالت: ﴿**فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ**﴾[1] وفي عين الحال أطلقت المضيّ (مضيّاً) ونَفَت الرجوع ونسبته اليهم ﴿**وَلَا يَرْجِعُونَ**﴾ ولم تقل (ولا رجوعاً).

والسرّ في تقديم المضيّ بيان الترتيب في عجزهم من الأصعب إلى الأسهل لإفادة شدة العجز فيهم، فإنّ المضي في الطريق أصعب من الرجوع فيه؛ لأنه يتوقف على عزم أكيد ومعرفة بالغاية وتذليل للعقبات، بخلاف الرجوع.

---

(١) سورة يس: الآية ٦٧.

فالمضيّ لا ينبيء عن سلوك الطريق من قبل، بخلاف الرجوع فإنه ينبِّئ عن ذلك[١]، وقال ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ لبيان النفي المطلق في القدرة؛ لأنهم إنْ مُسخوا جماداً فقدوا القدرة على الحركة، وإنْ مُسخوا حيواناً فإنّ الحيوان لا يرجع في طريقه، بل يتيه ويضلّ الطريق؛ لأنّ الرجوع يتوقَّف على معرفة وإدراك، والحيوان تحرّكه الغرائز، وعلى كل تقدير فإنّ الإطلاق في قوله: (مضيّاً) والنفي في قوله: ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ يفيدان النفي المؤبَّد، وأنّ عجزهم عن ذلك مستمر في جميع الأزمنة والأحوال لو شاء الله ذلك، لكنه لم يشأ لرحمته بخلقه وحكمته في عدله.

هذا كله إنْ قيل بأنّ المضيّ والرجوع في المشي، وأمّا إذا قيل بأنّ المقصود المضيّ في المسخ والعود عنه فالمعنى أظهر؛ لأن غير القادر على الفعل غير قادر على تركه أو إزالته.

---

(١) انظر تفسير الرازي: ج٩، ص٩٦.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: مصير الإنسان بيده

إنّ شخصية الإنسان وجوهره ومصيره بيده، والمسخ في الآخرة وإنْ كان من فعل الله سبحانه إلّا أنه بُنيَ على مقدمات اختيارية، وما كانت مقدماته اختيارية كانت نتائجه كذلك.

ومنشأ المسخ الصفات النفسية والسجايا الأخلاقية، فإذا هذّبَ الإنسان نفسه وأصلحها وملكها بالصفات الفاضلة أظهرها بالشكل الراقي والمظهر الحسن، ولو أهملها وشهواتها ومكابراتها وجعلها تتلبّس بالصفات القبيحة ألبسها الشكل القبيح، ومنه يعرف أنّ المسخ ليس محدوداً بأشخاص أو بأفعال أو بأزمنة، بل هو مفتوح على حسب الصفات والسجايا، كما أنه قابل للتبدل إلى الأسوأ أو التحسُّن إلى الأفضل، فهو ليس بأمر ثابت بل متغيّر بحسب منشئه وسببه، وهنا تظهر أهميّة التربية والتعليم

في صناعة جواهر البشر وتقويم شخصياتهم، وهذا أحد معاني الأحاديث الشريفة التي حثَّت الناس على طلب العلم من المهد إلى اللّحد[١].

التعليم الثاني: ربك يختبرك بما لديك

إنّ ما لدى الإنسان من قوّة ونفوذ وسلطة ومال وجمال هو مجرَّد وسيلة اختبار يضعه الله سبحانه بين يديه لينظر كيف يعمل، فلا ينبغي أنْ يغترَّ به؛ لأنه على كل تقدير مسؤول ومُحاسَب عليها، ويأتي يوم تزول عنه أو يزول عنها، فعليه أنْ يصحو من غفلته، ويوظِّف ما لديه من نِعَم وقوى وطاقات لصناعة شخصيّة راقية له وحياة طيّبة في الدنيا والآخرة.

التعليم الثالث: فكر في طريق الرجوع

يجب على الإنسان إذا مشى في طريق أو أقدم على مشروع أن يفكِّر في طريق الرجوع والعودة كما يفكِّر في طريق المضيّ، وأنْ يُهيّء نفسه للرجوع كما هيّأ نفسه للذهاب؛ لأن الطريق ليس دائماً مفتوحاً أمامه، أو الأسباب طوع إرادته، فلو مضى دون أنْ يفكِّر في العودة أصابه الفشل، وكانت خسارته كبيرة، فإن الرجوع عن الخطأ والإقرار بالفشل والعودة منه أرقى وأفضل من التمادي فيه؛ لأن الإقرار والعودة يكون خطوة للتصحيح والبدء من جديد، بينما التمادي خطأ فوق خطأ وخسارة بعد أخرى.

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٤٠، الهامش.

التعليم الرابع: لا تغتر بما عندك

لا ينبغي أنْ يغترَّ الإنسان بما يُعطيه الباري عزّ وجلّ من نِعَم، فإنها لا تخلو من احتمالين:

الأول: اختبار له لينظر كيف يعمل، فعليه أنْ ينجح في اختباره.

الثاني: إمهال واستدراج ليأخذه أخذ عزيز مقتدر، فينبغي أنْ يتحذَّر منه، فلابد وأنْ ينتبه لهذه الحقيقة، ولا نجاة له إلّا أنْ يوظِّف النِعَم الإلهية في الطاعة والمحبّة والعمل الصالح لكي يكون شاكراً لا جافياً ناكراً، ومرضيّاً عند ربّه لا مُستدرجاً مأثوماً.

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ
أَفَلَا يَعْقِلُونَ

يس/ ٦٨

حكمة العطف على ما سبق

قد تكون (الواو) استئنافية، فكأنها جملة مستقلة عمّا مضى، ومفادها أنْ تكون الآية جملة خبرية، أو خبرية في مقام الإنشاء غايتها إلفات نظر الناس إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ كل ما عندهم من قوّة في أبدانهم أو عقولهم أو طاقاتهم وقدراتهم فإنّه إلى زوال، وفي عين الحال تحثهم على أخذ الأمر بعين الجد، وأنّ القضيّة حقيقية لا تقبل الخطأ ولا التعليق كما في الآية السابقة؛ إذ علّق المسخ وهدّدهم به. أمّا في هذه الآية نَفّذ المسخ، فكل إنسان في أي مستوى يكون عليه أن يأخذ أهبة الاستعداد في زمان قوَّته لزمان ضعفه، وكل عاقل وحكيم ينبغي أن يلتفت إلى أنّ من نعمّره ننكسه في الخلق، فلابد وأن يستعدّ لذلك الإنسان، فكما أنّ القوّة حقيقة حتمّية في البشر فالضعف كذلك.

وقد تكون عاطفة على ما مضى وهو الأظهر، ويوافقه الأصل -فإنّ الأصل في الواو العطف- والقرينة الداخلية، فإنه لو كانت (الواو) استئنافية لتعيَّن أن يكون الخطاب بالتاء (تعقلون) ليشمل كل من يقرأ ويسمع لا بضمير الغائب (يعقلون) الظاهر في عوده على جماعة تقدم الخطاب عنهم سابقاً وهم أهل النار، فالحق أنّ (الواو) عاطفة، والغاية منها بيان أمور:

الأول: تقريب المسخ الذي لم يقع في الآيتين السابقتين، وإنما هدَّد به؛ إذ لعلَّ البعض يتوهَّم العجز عنه فلم يوقعه، فجاء بمثال حسّي يدركه كل

إنسان في نفسه وفي غيره، وهو صورة حيّة للتنكيس في الخلق؛ إذ يتبدَّل خلق الإنسان من القوة إلى الضعف والأضعف حتى يتبدّل إلى تراب، وهذا نوع مسخ؛ لأنه يبدِّل حقيقة الجسم عبر تبديل خلاياه، وكذا قواه وطاقاته، وقد أثبتت الدراسات العلمية أنّ خلايا الجسم تتبدّل في كل برهة من الزمن ماعدا خلايا المخّ.

وقد مرَّ أنّ المسخ هو تبدّل الشيء إلى شيء آخر أشد منه قبحاً وشكلاً ورتبة، وإذا انتبه الإنسان إلى هذه الحقيقة وأدرك مفادها أدرك كيف يمسخ الله سبحانه الأشياء، وعلى هذا فالمسخ مسخان مسخ العذاب وهذا خاص ببعض الناس، ومسخ الخلق والتكوين وهو عام يجري على الجميع على حدٍّ سواء.

الثاني: بيان لفشل مساعي الكفار في المكابرة والإنكار وتكذيب الرسل ومحاربتهم مستندين إلى قدراتهم ونفوذهم؛ لأنه سبحانه قادر على إزالة ما يملكون من قدرات ذاتية في أبدانهم ونفوسهم وعقولهم، فما بالك بالقوة العرضية الناشئة من المال والجاه، ولذا حفَّز فيهم قوة التفكير والتعقُّل في ذلك فقال: ﴿**أَفَلَا يَعْقِلُونَ**﴾(١) فالعطف على المعنى.

الثالث: إثبات قدرته على مسخهم على مكانتهم الأولى وإرجاعهم إلى التراب بعد أن عمَّرهم وجعلهم ذوي أبدان قويّة نشطة يعيدهم إلى خلقهم الأول، فيكون الشاهد الحسي دليلاً على المطلوب غير الحسّي، فالعطف على هذا المعنى يكون على ﴿**عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ**﴾(٢).

---

(١) سورة يس: الآية ٦٨.

(٢) سورة يس: الآية ٦٧.

الرابع: ربما يتضمَّن الإجابة عن سؤال مقدَّر يدور في نفوس أهل العناد والمكابرة، وهو أنه لو أمهلهم أكثر وأطال أعمارهم في الدنيا ربما تابوا ورجعوا؟ فيجيب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: أنّ الإمهال وإطالة الأعمار أكثر مما أعطاهم من العمر لا يغيّر منهم شيئاً؛ لأن الهداية والصلاح لا علاقة لها بطول العمر وقصره، بل بالعقل والقلب، فإذا كانوا لا يعقلون وبقلوبهم لا يبصرون لا يهتدون ولو أمدهم بعمر مديد، والذي يملك العقل النيّر والقلب السليم يوصله فكره وهداية الرسل إلى المطلوب.

ثانيهما: أنهم وإن أعطاهم العمر المديد فإنهم سيؤولون إلى الضعف والانتكاسة في الخلق، وهذا قانون تكويني حاكم على الكل، فالذي لم يؤمن وكان في ذروة قوته ونفوذه وسلامة عقله وقواه لا يؤمن وقد بلغ من العمر عتيّاً وضعفت قدراته وملكاته، فإطالة العمر لا تجديه، ولذا من شبَّ على خلق شاب عليه[1].

الخامس: أن يكون قوله: ﴿**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ**﴾[2] من عطف الجملة على الجملة أي: ﴿**وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ**﴾[3] والمعنى أنّ الذي شملته الرحمة الإلهية فلم نمسخه ولم نستأصله وأمهلناه، فإنه لا ينبغي أن يعتبر

---

(١) المنجد: ص٩٩٣.

(٢) سورة يس: الآية ٦٨.

(٣) سورة يس: الآية ٦٧.

ذلك ميزة له، ولا يتخذ عمره فرصة لجمع القوة والنفوذ والتسلُّط على العباد؛ لأنه وهو في عزّ قوَّته ونفوذه محكوم بقانون إلهي قهّار وهو الانتكاس في الخلق، فينبغي أن يتعلَّم البشر ويتعظ، فإنّ كل ما يجمعه من قوّة هي إلى ضعف، وكل ما يحصّله من طاقات هي إلى فناء، وإذا انتكس الأصل وهو البدن والروح وما بهما من طاقات وشهوات ورغبات فإنّ ما يجمع له من قوى وطاقات لا تقدر أنْ تردّ شبابه ولا قوّته، فعليه أنْ يستيقن بالقادر الحقيقي والوجود الذي لا يضعف ولا يعجز.

والخلاصة: أنّ العطف في الآية يتضمَّن غايات عديدة بعضها يحاكي العقول لكي تدرك ما تتعقله بالحس، وبعضها يحاكي القلوب لكي تستجيب لنداء الله سبحانه والتخلي عن المكابرة والعناد، وتدرك أنّ لولا رحمة الله وحكمته لكانوا من الهالكين، وهذه بحد ذاتها نعمة من أعظم النِعَم التي تستحق الشكر في الاهتداء إليه والطاعة له.

وبهذا يتضح الترابط الموضوعي لهذه الآية مع الآيات السابقة، والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾

(مَن) من أدوات العموم الاستغراقي الذي ينطبق على جميع أفراده بالتساوي، والضمير في (نعمره) يعود إليه، ونسبة التعمير إليه سبحانه بصيغة الجمع يشير إلى جمعية الصفات الإلهية والعلل التوسيطية كما بيناه غير مرة.

و: ﴿نُعَمِّرْهُ﴾ مأخوذة من العمارة وهي نقيض الخراب. يقال عمَّر أرضه يُعمِّرها بالبناء والزراعة عليها بما يجعلها محياة وليست يباباً.

والعمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة، فهو دون البقاء، ونقيضه الخراب، والفناء نقيض البقاء؛ لذا يوصف الباري عزّ وجل بالبقاء ولا يوصَف بالعمر والعمار[1].

والإعمار قسمان: مادي ومعنوي، واليهما يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[2] والمراد إعمارها بإقامة بنائها

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٥٩-٣٦٠، (عمر).

(٢) سورة التوبة: الآية ١٨.

وحفظها من الخراب، وبحضورها وإقامة الصلاة والذكر فيها، وفي مجمع البحرين: فسرِّت بمعنيين:

الأول: رمّها وكنسها والإسراج فيها وفرشها.

الثاني: شغلها بالعبادة وتنحية أعمال الدنيا واللهو واللغط عنها وإكثار زيارتها[1].

ولعلّ من وجوه عمارتها بحضور الناس والأرواح الملكوتية فيها كالملائكة، فإنّ إعمار كل شيء بحسبه، وعلى هذا يكون معنى إعمار الإنسان دائماً ومستمراً على مدة حياته، وأهم مراحل إعماره خمسة:

الأولى: إعماره من التراب بإحيائه وتكوينه حيّاً بعد أنْ كان ميتاً، وتكونه من ثمار الأرض وطعامها وشرابها.

الثانية: إعماره من الطعام بتصييره نطفة تحمل الخصائص الحيوانية والنباتية.

الثالثة: إعمار بدنه وتكوينه الجسدي بتصييره جنيناً في الرحم، ثم يولد طفلاً لا يقوى على شيء، فنصيره مستوياً، ونجعله قائماً يمشي على قدميه، ويؤدي أعماله بنفسه.

الرابعة: إعطاؤه قوة النمو والازدياد في الخلق حتى يقوى ويشتد ويبلغ مراحل المراهقة والشباب والكهولة، وفي التحقيقات العلمية أنّ البدن

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٢٨٤، (عمر).

يستمر في زيادة إلى سن الخامسة والعشرين طولاً، ثم يأخذ بالنمو العرضي، وأمّا عقله وقلبه فيكبران إلى الأربعين؛ لذا كلما كبر الإنسان ازداد حكمة ورشداً وتروّياً في الأمور بعكس الشباب، وفي هذه المرحلة يكتمل الإنسان ويرتقي في المقامات العالية.

الخامسة: يعطيه العمر المديد، ويعمره معنويّاً أكثر، فيصيِّره أباً وجداً وصاحب وجاهة واعتبار في الناس وعند الله سبحانه، فإنّ أبناء الأربعين والكهول والشيوخ لوجودهم ولعباداتهم وأذكارهم اعتبار خاص، وهم بركة لأهل الأرض.

فعن النبي صلى الله عليه وآله : «البركة مع أكابركم، والشيخ في أهله كالنبيّ في أمته»[١] لأنه يهدي ويُعلِّم ويعِظ بقوله وبعمله، فإنّ الصغار يقتدون بكبارهم، ويتعلمون منهم، فوجود الكبير في السن بين الناس في البيوت والشوارع والمحافل له أثر كبير معنوياً.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «فمن إجلال الله إجلال شيبة المؤمن»[٢].

ومنه يعرف أنّ توقير الكبار واحترامهم وتجليلهم من العبادات العظيمة التي يتقرَّب بها إلى الله سبحانه.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٨، الباب ٥٦ من أبواب أحكام العشرة، ص٣٩٤، ح٩٧٧٥؛ البحار: ح٧٢، ص١٣٧، ح٤.

(٢) الأمالي (للطوسي): ص٦٩٩، ح١٤٩٢؛ مستدرك الوسائل: ج٨، الباب ٥٦ من أبواب أحكام العشرة، ص٣٩٢، ح٩٧٧١؛ البحار: ح٧٢، ص١٣٨، ح٦.

والإمام السجادعَلَيْهِالسَّلَامُ في رسالة الحقوق يبيّن كيف يتمّ إجلال الكبير فيقول: ﴿وأمّا حق الكبير، فإنّ حقه توقير سنِّه، وإجلال إسلامه إذا كان من أهل الفضل في الإسلام بتقديمه فيه، وترك مقابلته عند الخصام، ولا تسبقه إلى طريق، ولا تؤمّه في طريق، ولا تستجهله، وإنْ جهل عليك تحمَّلتَ وأكرمته بحق إسلامه مع سنّه، فإنما حق السنِّ بقدر الإسلام ولا قوة إلّا بالله﴾[1].

ويتلخص منه: أنّ إجلال الشيبة يتمّ بجملة تصرفات:

منها: أن لا تقابله في مجادلة أو خصومة، ومعناه أنْ تسكت وتسعى للتعلُّم منه؛ لأن الأكبر أكثر حكمة ومعرفة منك.

ومنها: أن لا تسبقه إلى الطريق إذا اتفق لكما طريق واحد.

ومنها: أن لا تتقدم عليه في المشي، بل امش خلفه.

ومنها: أن تعتني به، فإذا رأيته سلِّم عليه وأبد احترامك له.

ومنها: إذا أبدى لك بعض ما يُشعرك بالأذى تحمَّل واصبر واحترمه إكراماً له، فإنّ ذلك كله من إجلال الله واحترام الإسلام وحبه.

وعن الصادقعَلَيْهِالسَّلَامُ عن النبيصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ قال: ﴿إذا بلغ المرء أربعين سنة آمنه الله من الأدواء الثلاثة: من الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ الخمسين خفَّف الله عليه حسابه، فإذا بلغ الستين رزقه الله الإنابة إليه، فإذا بلغ

(١) تحف العقول: ص٢٧٠، ح٤٣؛ البحار: ج٧١، ص١٩، ح٢؛ وانظر رسالة الحقوق: ص٧٥٦.

السبعين أحبّه الله وأهل السماء، فإذا بلغ الثمانين أمر الله عزّ وجلّ بإثبات حسناته وإلقاء سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله عزّ وجلّ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وكُتِبَ أسير الله في الأرض»[١] والمراد من عاش في الإسلام والإيمان بشهادة الأدلة الأخرى.

المفردة الثانية: ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾

وفيها أكثر من قراءة غير صحيحة كما ذكرنا[٢]. والتنكيس قلب الشيء بجعل عاليه لسافله أو مقدّمه مؤخرّه، ومنه نكس الولد إذا خرجت رجله قبل رأسه عند الولادة[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾[٤] أي مطرقون مُطأطئون عند ربهم خوفاً وحياءً وحزناً من مساوئهم، والطأطأة قلب الرأس من العلو إلى السفل.

ويطلق النكس معنويّاً على الرجوع من الحالة الحسنة إلى السيئة، فلذا يقال للمريض إذا أخذ بالتعافي ثم رجع إلى حالته الأولى، ويقال لمن كان عزيزاً ثم ذل وهكذا، والخلق هو التكوين، والتنكيس في الخلق له مرتبتان:

---

(١) مشكاة الأنوار: ص٢٩٤-٢٩٥؛ وانظر الخصال: ج٢، ص٥٤٥، ح٢١-٢٨.

(٢) انظر تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٥؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٢٣، ص٤٧؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٥٥.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٢٧، (نكس)؛ مجمع البحرين: ج٤، ص١١٩، (نكس).

(٤) سورة السجدة: الآية١٢.

الأولى: قلبه من قوة إلى ضعف، فكما طوى مراحل عديدة في الإعمار حتى اكتمل تنقلب المعادلة فيطوي مراحل تراجعية يفقد فيها ما اكتسبه، فكل مرحلة إعمارية تعود خربة ضعيفة فاقدة للخصوصيات حتى يعود الإنسان إلى أرذل العمر فلا يعلم من بعد علمٍ شيئاً، ويكون كأنه طفل صغير. ووصفه في آية أخرى بأنه أرذل العمر لوجود ميزة بين الطفل الصغير الذي يعتمر ويكبر وبين الكبير إذا انتكس وتراجع، فإنّ الصغير يكبر وهو مالك قلوب أهله وذويه، فيكون عزيزاً جميلاً بينهم، وعقله وقلبه مثله. أمّا الكبير إذا انتكس يكون في سوء ورداءة حال كبير البدن وعاجز القوى فقدَ خصال الجمال وكمال العقل والقلب، وربما أصيب بالعجز والخرف[1]، وتبتدئ هذه المسيرة التراجعية من سقوط القوى فتموت بعض شهواته التي عبدها أيام قوته، ويضعف نظره وسمعه وذوقه وشمّه وربما زالت بكاملها.

الثانية: قلبه من ذي منزلة ووجاهة إلى العكس، ثم سقوط فاعلية أعضائه، فلا يقوى على المشي والحمل والنطق الكامل، فلو كان رئيساً عزلوه، ولو كان طبيباً أجلسوه في داره، ولو كان ذا منزلة استغنوا عنه واستبدلوه، ولو كان عالِماً نسيَ عِلمه، ولو كان أديباً زالت ملكته، فيعود كما كان صغيراً بلا قدرات مادية ولا وجاهة معنوية فاقداً لكل وسائل القوة والقدرة فينقلب عاليه سافله.

---

(١) انظر المعجم الوسيط: ج١، ص٣٤٠، (رذل).

وكل ذلك يحصل بإذن الله وبأمره وإرادته، ولذا نسب الإعمار والانتكاس إليه، ورغم ذلك يكابر الإنسان ويتكبَّر ويطغى بما لديه، فشبابه وجماله وماله وسلطانه يطغيه، وكل ذلك ليس منه، وهو مؤقت بيده الله أعطاه وأمهله ليختبره وسوف يستعيده منه ولكنه في غفلة؛ لذا ذمَّه وقال: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾(١).

والنكتة اللطيفة أنّ التنكيس يقع في الخلق وهو الإيجاد التكويني في البدن والنفس، وأمّا الروح والجوهر فلا يتبدّل ولا ينتكس؛ لأن الروح من الله سبحانه ينفخها في البدن بعد تكوينه وتكامله، فهي ملكوتية النشأة، والملكوت مدار التكامل والارتقاء لا انتكاس فيه.

ويشهد له أنّ الإنسان بعد الموت وخروج الروح من البدن تعود إلى ربها كاملة، ويتسع عقلها وبصيرتها، وترتقي ملكاتها، بخلاف البدن فإنه يكمل مسيرة التسافل حتى يتبدّل إلى تراب.

وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أنّ ما يقدّمه الإنسان لروحه وما يصنعه لرُقيّها لا يفقده، بل يكتسب المزيد، بخلاف ما يقدّمه لبدنه ونفسه فإنه يفقده ويزول عنه، ولذا حثت الأدلّة على تحصيل العلم والعبادة؛ لأنهما غذاء الروح، وهما يبقيان يلازمان حياة الإنسان في الدنيا والآخرة، بخلاف غيرهما فإنه يفقدهما ولا ينفعان إلّا في فترة وجيزة. وهذا النحو من الفهم لا يدركه إلّا مَن زكا عقله وصفا، وأمّا غيره فيحتاج إلى تنبيه، فلذا قال: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ .

---

(١) سورة يس: الآية ٦٨.

المفردة الثالثة: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾

﴿أَفَلَا﴾ تفيد التحريض والتوبيخ على عدم اتعاظهم وتعقلهم، فإنّ الإنسان قد يغفل عن بعض الأشياء الخارجة عن ذاته، أو الأشياء التي تحدث في بعض الأوقات، وأمّا إذا كان الحدوث في ذاته وهو ملازم له ورغم ذلك لا يتدبّره ولا يتعقلّه فإنّ ذلك يدل على غفلته وإهمال عقله، وأكثر الهفوات التي يقع فيها الناس ناشئة من ذلك، فتوبيخهم يعود إلى تجميد العقل من جهات عديدة:

الأولى: إهمال العقل وتجميده فلا ينتفع به، فمثلهم مثل الذي يدخل إلى المعركة ولديه السلاح ولا يستعمله في الدفاع عن نفسه حتى يهلكه العدو.

الثانية: أنّ في الإعمار والانتكاس في الخلق شاهداً حسّياً وجدانياً لكل عاقل بأنّ التبدلات والتغيرات بيد الله سبحانه، ومع ذلك يتغافل عن ذلك ولا يؤمن ولا يستند إلى قوة الله وقدرته، وإنما يستند إلى قوته وقدرته هو، فإنّ مَن يفعل هذا يكون قد جمَّد عقله.

الثالثة: أنّ القادر على التبدلات والتغيرات وإعمار الخلق وتضعيفه وإزالته قادر على إعادة الخلق وإيجاده مرة أخرى. هكذا يحكم العقل، إلّا أنهم جحدوا وأنكروا المعاد، ومعنى ذلك أنهم لا يعقلون.

فيتحصل: أنّ العاقل إذا التفت إلى ما يجري عليه من قوانين للمسخ التكويني وتبدُّل في الخلايا والقوى والقدرات من الضعف إلى القوة ومن القوة إلى الضعف يجب أن يؤمن بوجود موجد لهذا القانون، ومدبِّر له؛ لأنه

بوجدانه يدرك أنه ليس منه، فلابد وأن يكون من غيره وليس إلّا الله سبحانه، فبدن الإنسان وحوادثه أقوى برهان وأسرع طريق للإيمان لو التفت الإنسان وتعقَّل، ولعلّ هذا أحد معاني الحديث الشريف: «مَن عرفَ نفسَه فقد عرفَ ربَّه»[1].

(١) مصباح الشريعة: ص١٣؛ عوالي اللآلئ: ج٤، ص١٠٢، ح١٤٩؛ البحار: ج٢، ص٣٢، ح٢٢.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: لماذا يعمرّه ثم ينكسه في الخلق؟

لو سأل سائل لماذا يعمِّر الباري الإنسان وينكسه في الخلق.

فالجواب: لوجوه عديدة:

الأول: لأداء واجب الاختبار والامتحان وقد مرَّ الكلام فيه.

الثاني: لأجل تطويع الإنسان وتذليله للإيمان لكيلا يطغى ولا يتجبَّر، فإنّ الإنسان مع وجود المرض والجوع والفقر والموت يطغى فيما لديه من قوى وطاقات، وبعضه ادّعى الألوهيّة بلسانه، وبعضه أظهرها بأفعاله، فكيف إذا لا يبتليه بالضعف والانتكاس في الخلق؟

الثالث: لأجل دوام الحياة وحفظ التكافل الاجتماعي، فإنه إذا لا يعمر البدن والعقل والقلب تتأخر الحياة الإنسانية وتتوقف عن التقدم، ولولا المرض والضعف لا تتبدل الأدوار وتنتقل القدرات من جيل إلى جيل، وتتوقف الكثير من الصناعة والأعمال، فلولا المرض ماذا يصنع الطبيب؟ ولولا الجوع والحاجة ماذا يصنع العامل والمزارع والمعلِّم؟ فبالتكافل تدوم الحياة، وبالإعمار والانتكاس في الخلق يدوم التكافل.

الرابع: لأجل تقوية الأواصر الاجتماعية داخل الأسرة والمجتمع، فالأبناء حين صغرهم وضعفهم كان الآباء أقوياء يرعونهم ويفدونهم وينشئونهم ويبذلون الغالي والنفيس لأجلهم، والآباء حينما يكبرون ويضعفون تتبدل المعادلة فيرعاهم الأبناء، ويضحون لأجل سلامتهم.

الخامس: لولا الانتكاس في الخلق والضعف لتعطلت الحياة وصارت في مشقة عظيمة، ولملَّ الناس بعضهم بعضاً، فيكون في البيت الواحد آباء وأبناء كثيرون، ولكان فيه الكثير من كبار السن والكثير من التصادم في المصالح والرغبات، فالمرض والشيخوخة والموت رحمة لبني آدم يحفظ عواطفهم ومحبتهم لبعضهم، ويمنح كل جيل فرصته الكافية للاستمتاع بحياته.

اللطيفة الثانية: تدبروا في أبدانكم

في قوله تعالى: ﴿نُعَمِّرْهُ﴾[1] نسب الإعمار إلى الله سبحانه للإشارة إلى أن خلايا جسم الإنسان وقواه وأعضاءه كلها ليست بيده، وإنما بيد الله تعالى، وهذه قضيّة لا ينبغي أن يختلف عليها اثنان، ولا يكذبها إلّا مُكابر، فعلى الطبيعيين والملاحدة أنْ يتدبروا في أبدانهم كيف تعمل هذه الخلايا في نظام متوازن وعادل؟ وكيف كل خلية مسؤولة عن وظيفة لا تخطأ ولا تشتبه مع غيرها؟ وكيف لا يحصل تصادم ولا تضارب؟ فلا إعمار الأبدان بأيديهم، ولا انتكاسها بأيديهم، كلاهما بيد الله يجري عليهما قانونه وسلطته، والعلم

(١) سورة يس: الآية ٦٨.

الذي يدعي البعض أنه قادر على فعل الكثير عاجز عن الإعمار والانتكاسة، فلو بذل العلماء كل جهدهم لأجل إحياء شخص على وشك الموت يعجزون عنه، وكذا العكس.

ولو كانت قوانين الطبيعة التي وجدت صدفة كما يقولون أو تفاعلت دون سبب واضح لوجب أنْ ينتفي الانتكاس في الخلق، ويكون الإنسان دائماً في زيادة؛ لأن قانون النشأة واحد في الحدوث والبقاء، لكن الوجدان يشهد بتبدّل ذلك وتغيّره، وهذا ما تؤكده رواية القمّي في معنى الآية:

قال: (فإنه – أي الآية ومَن نعمره ننكسه في الخلق – ردّ على الزنادقة الذين يبطلون التوحيد ويقولون: أنّ الرجل إذا نكح المرأة وصارت النطفة في رحمها تلقته الأشكال من الغذاء، ودار عليه الفلك، ومرَّ عليه الليل والنهار، فيولد الإنسان بالطبائع من الغذاء ومرور الليل والنهار، فنقض الله عزّ وجلّ عليهم قولهم في حرف واحد فقال جلّ ذكره: ﴿**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ**﴾[(١)] قال: لو كان هذا كما يقولون لكان ينبغي أنْ يزيد الإنسان أبداً مادامت الأشكال قائمة والليل والنهار قائمين والفلك يدور، فكيف صار يرجع إلى النقصان كلما أزداد في الكبر إلى حد الطفولية ونقصان السمع والبصر والقوة والعلم والمنطق حتى ينتكس، ولكن ذلك من خلق العزيز العليم وتقديره)[(٢)].

(١) سورة يس: الآية ٦٨.

(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٢١٧؛ البحار: ج٩، ص٢٣١، ح١٢٣.

ولهذا شاهد يقيني وهو أنّ جماعة من المؤمنين أبقاهم الباري ولم يعمل فيهم قانون الانتكاس إلّا بطيئاً مثل نوح عاش أكثر من ألفي سنة، وسلمان المحمدي عاش ثلاثمائة وستين أو خمسمائة سنة، وغيرهما من المعمرين، وكانوا في كامل قواهم الجسمية والعقلية.

ومن الأنبياء مَن تعطل قانون الانتكاس فيهم، ولم يعمل فيهم. اثنان منهم يعيشون في السماء، واثنان في الأرض. الأولان عيسى وإدريس، والثانيان الخضر وإلياس[1]، وكذا سيّدهم حجة الزمان وإمامه عجل الله تعالى فرجه الشريف تعطل قانون الانتكاس فيه لذا يظهر في سن الأربعين مع أنّ عمره الشريف لا يعرف له مدى، وهكذا سيكون أهل الجنة في عمر الشباب فلا يكبرون ولا يضعفون، فلو كان ما يقوله الطبيعيون صحيحاً لما كان لهذا القانون استثناء لكنه موجود، فدل على بطلان ما يقولونه.

اللطيفة الثالثة: بين التعقّل والتفكّر

الآية حثَّت على التعقل دون التفكر، ولعل السبب في ذلك يعود لأمرين:

أحدهما: أنّ العقل يزجر عن القبائح، وكلّما أكتمل العقل كان الزجر أقوى، بخلاف الفكر فإنه لا يحكم بل يرى الأشياء و يتصورها، وحيث إنّ القضية تتعلق بالإيمان وبناء الاعتقاد عليها بترك عبودية الذات والشهوات والتوجه إلى عبودية الخالق، فإنّ القضية فيها أمر ونهي وهو أنسب بالعقل[2].

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٤١٤، (عمر).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٣٦٦، (١٤٧٢).

ثانيهما: أنّ الموضوع الذي حثت الآية عليه وجداني حسّي لا يحتاج إلى صور ذهنية ولا مقدمات سابقة يعرفها الإنسان حتى يتوصل إليها، فلا يحتاج في دركه إلّا إلى التفات العقل، بخلاف الفكر فإنه إعمال للعقل في المعلوم للوصول إلى معرفة المجهول(١)، ويقوم على الصور الذهنية والنتائج الحدسية، فلا يناسب الأمور المحسوسة الحاضرة لدى العاقل.

والخلاصة: أنّ العقل أنسب بغرض الآية من الفكر؛ لأن الموضوع حسّي وجداني يحتاج إلى زاجر، وهو من شؤون العقل لا الفكر.

---

(١) انظر المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٩٨، (فكر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٤٤، (فكر).

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: كل قوة وراءها ضعف

هذا قانون عام حاكم على البشر على اختلاف مستوياتهم ومقاماتهم، فالعاقل منهم مَن يستثمر زمان القوة ليهيء له حياة طيبة في زمان الضعف، وإلّا فاته العمران: عمر القوة وعمر الضعف وكان من الهالكين، ومن هنا تشير الأحاديث الكثيرة إلى لزوم اغتنام فرص الخير، وفي وصية النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: «اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[1] وفي الأمر بالاغتنام إشارة لطيفة إلى أنها غنيمة يجب أنْ يستثمرها الإنسان ويستمتع بها.

وفي رواية أخرى عنه صلى الله عليه وآله: «إنّ الله ينظر في وجه الشيخ المؤمن صباحاً ومساءً فيقول: يا عبدي! كبر سنُّك، ودقَّ عظمك، ورقّ جلدك، وقربَ

---

(١) الدعوات: ص١١٣، ح٢٥٧؛ مكارم الأخلاق: ص٤٥٩؛ البحار: ج٧٤، ص٧٥، ح٣.

أجلُك، وحان قدومك عليَّ فاستح مني فأنا أستحي من شيبتك أنْ أعذبك في النار﴾[١].

وفي رواية أخرى عن الصادقعليه السلام: ﴿وإذا بلغ العبد ثلاثاً وثلاثين سنة فقد بلغ أشدّه، وإذا بلغَ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه، وإذا طعن في إحدى وأربعين فهو في النقصان، وينبغي لصاحب الخمسين أنْ يكون كمَن كان في النزع﴾[٢].

أي يبالغ في التوبة والإنابة والاستعداد للآخرة.

التعليم الثاني: انتكاس المجتمعات والحضارات

إنّ الإعمار والانتكاس في الخلق كما يقع في الأفراد يقع في المجتمعات، والحكومات والدول والحضارات كلها محكومة بهذا القانون، فكما أنّ الأفراد يجب أن يتهيؤوا في زمان القوة لزمان الضعف كذلك الدول والحكومات، ومن عوامل الاستعداد العدل في الحكم، والإنصاف في الرعيّة، وحسن السيرة، والأمانة على مصالح الناس، فإنّ الحكم يزول، والحاكم كذلك يزول بالموت أو بالعزل ونحوهما، فإذا لم يكن الحاكم قد فعل ما يستحق الاحترام والتمجيد في زمان العزل ساقه إلى الهلاك، ولذا ورد عن أمير المؤمنينعليه السلام: ﴿تكبُّرُك في الولاية ذل في العزْل﴾[٣].

(١) معارج اليقين: ص٢٤١، ح٦١٤؛ جامع الأخبار: ص٥٢؛ وانظر الخصائص الفاطمية: ج٢، ص٢٥٨.

(٢) مشكاة الأنوار: ص٢٩٦؛ وانظر الخصال: ص٥٤٥، ح٢٣؛ البحار: ج٧٠، ص٣٨٩، ح٦.

(٣) عيون الحكم والمواعظ: ص١٩٩؛ غرر الحكم: ص٣٢٤، ح١١٣.

وهذا لا يختصّ بالحاكم، بل يشمل أصغر موظف وعامل وصاحب متجر، فإنّ العاقل هو الذي يتهيأ للعيش الحر الكريم في جميع أحواله.

التعليم الثالث: لا انتكاس في الروحانيات

إنّ الانتكاس يكون في الماديات فيزيل ذاتها وآثارها، وأمّا الروحانيات فلا تخضع للانتكاس؛ لأنها دائماً في صعود وتكامل، فكلما طال عمر العلماء يزدادون قوة ومكانة، وكذا الصالحون من العباد، ولو لوحظ طرو الضعف على العلماء فذلك ضعف جسدي لا روحي، ومثله يقال في الأخلاقي والتربوي، فالروح دائماً في إعمار، بخلاف البدن فإنه ينتكس بعد الإعمار؛ لذا قالوا: كل منتكس الخلق ذليل إلّا العالم والعابد، كما قالوا: إنّ المتصلين بالله والذاكرين لا تؤثّر فيهم تقلبات الأحوال؛ لأنّ حياتهم متصلة بذكره، وذكره سبحانه حياة للقلوب والأرواح، وهذا فضلاً عن كونه أثراً وضعيّاً ملازماً للذكر فإنه وعد إلهي لعباده الصالحين أن يحييهم حياة طيّبة ويجزيهم بالأحسن، ومنه دوام الإعمار.

قال سبحانه: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾[1].

ولعل من الحياة الطيبة والجزاء الحسن تخفيف وطأة الانتكاس في الخلق عليهم، فيميتهم ميتة عزّ وجلال، ولا يوصلهم إلى أرذل العمر فيذلّوا. ولعلَّ هذا أحد وجوه التمييز بين المؤمن وغيره.

---

(١) سورة النحل: الآية٩٧.

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي
لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ

يس/ ٦٩

القرآن والشعر

(الواو) تحتمل معنيين:

الأول: أن تكون استئنافية تبدأ كلاماً جديداً يتعلق بوصف النبيﷺ والقرآن وتنزيههما من الشعر، فلا القرآن شعر، ولا النبيّ شاعر، فيكون مفادها بيان وصف آخر لما ابتدأت به السورة من وصف النبيﷺ بأنه من المرسلين، وأنّ قرآنه حكيم، وأنه على صراط مستقيم. أضافت وصفاً آخر للقرآن بأنه ذكر وليس بشعر، وأن النبيّ منذر وليس بشاعر، وقرآنه مبين أي يحاكي العقول والفطر، ويبرهن حكم ما يخبركم به.

الثاني: أن تكون عاطفة على ما سبق، فإنّ الآيات السابقة تناولت الأصول الأساسية للعقيدة وهي التوحيد، كقوله: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى**﴾[(١)] وقوله: ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا**﴾[(٢)] وقوله: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا**﴾[(٣)] والنبوّة كقوله: ﴿**إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[(٤)] والإمامة كقوله: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[(٥)] والمعاد وأحواله

(١) سورة يس: الآية ١٢.

(٢) سورة يس: الآية ٣٣.

(٣) سورة يس: الآية ٣٦.

(٤) سورة يس: الآية ٣.

(٥) سورة يس: الآية ١٢.

كقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[١] وحقيقة الخلق ونشأته وعبوديته كقوله: ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٢] وحياة القبر والبرزخ والعود ثانية فكان لابد من بيان حقيقة القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وآله؛ لأنّ كل العقائد مبنيّة على إخباراتهما.

ولأنّ بعض الأذهان المشوَّشة قد تتوهَّم أنّها مفاهيم خاصة من النبي صلى الله عليه وآله، وبعضهم يتوهَّم أنها من تصوراته وأفكاره ومشاعره، أو أنها من إيحاءات غير إلهية كان لابد من دفع هذا التشويش عنهما ووصفهما بما يستحقانه، فنفت الآية عنه الشعر وأثبتت أنه ذكر وقرآن.

هذا وقد اختلف المفسرون في المعطوف عليه ما هو؟ فبعضهم قال هو: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٣] وبعضهم قال هو عطف على قوله: ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾[٤] لبيان الأصل الثالث وهو الرسالة والرسول، وبعضهم قال أنها معطوفة على جملة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾[٥] من عطف القضية على القضية والغرض على الغرض[٦]، وقال بعضهم أنّ المعطوف عليه مجموع ما

---

(١) سورة يس: الآية ٥١.
(٢) سورة يس: الآية ٦١.
(٣) سورة يس: الآية ٣؛ وانظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٧ ؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٧؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٩.
(٤) سورة يس: الآية ٦٤؛ وانظر تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٦٧؛ تفسير المراغي: ج٢٣، ص٢٩.
(٥) سورة يس: الآية ٤٨.
(٦) التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٥٦

تقدم لوحدة السياق[1]، ولا تنافي بينها؛ لأن المقصود واحد، ولا تنافي بين المعاني، والأخير أقوى للظهور.

ولقرينة العقل فإنّ وحدة المعنى في محاورة الكفار وإبطال مدعياتهم في العقيدة لا يتمّ ولا يكتمل إلّا بتنزيه القرآن والنبيّ عن النواقص الشعرية، فثبوت التوحيد والنبوّة والمعاد وكل ما يتعلّق بالعقيدة متوقف على هذا، فلو ساورتهما الشكوك لم يثبت شيء مما تقدَّم، وهذا ما تقتضيه قواعد الاستدلال المنطقية في الأمور العقلية والنقلية، ففي النقليات لو أخبر المخبر بحدوث حدث ما كنزول المطر فإنّ تصديق خبره يتوقَّف على معرفة المخبِر، وإنه ثقة؛ لذا يكون العطف بينهما لازماً، فيقال فلان أخبرَ بنزول المطر وهو ثقة، ومعناه أنّ خبره يصدَّق.

وفي العقليات كذلك، فإنّ النبيّ والقرآن أخبرا الناس عن عالَم الغيب والأطوار التي يمر بها الناس في عالَم الدنيا ثم البرزخ والمعاد، وأخبرا عن العهد الإلهي مع بني آدم في عالَم الذر وغير ذلك من أخبار، وألفتهم إلى جملة من الحوادث الوجدانية كإحياء الأرض وإحداث الليل والنهار وسريان الشمس والقمر، ونسبها إلى فاعل حكيم، فقد يتوهم متوهم أنّ هذا قد يكون مجرَّد أحاسيس أو مشاعر أو خيالات يتوهَّمها، ولو سَرَتْ هذه الشبهات لأبطلت النبّوَّة والرسالة، فكان لابد من إثبات أنّ كل ما

(١) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٨؛ تفسير الميزان: ج٢٣، ص١٠٨؛ تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٦٧.

يقوله ليس من الشعر بمفهومه العام، أي ما ينشأ من الشعور والمشاعر، بل هو واقع حقيقي، وهو ذكر؛ لأنه يذكر فطر الناس التي هي الأخرى تذعن لوجود الخالق ووحدانيته ووجوب العبودية له، وهو في عين الحال قرآن مبين يشرح لكم الحقائق، ويطابقها مع موازين العقل والمنطق السليم؛ ليؤمن الناس عن وعي وفهم لا تعبُّد وانصياع.

وربما يكون العطف على الآيات الأخيرة التي أشارت إلى الطمْس والمسْخ والانتكاسة، فإن وصف أهل الجاهلية القرآن بالشعر هو محاولة لطمس حقيقتهِ ومسخ وجوده بإنزال مراتبه ومقامه والانتكاسة في تأثيره لكنها محاولة فاشلة كما سيتّضح في البحث.

هذا من حيث الترابط الموضوعي للآية، وأمّا التفاصيل فالبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾

(ما) نافية، والشعر معروف سمي بذلك لنشوئه من الشعور[1]، وصار في التعارف اسماً للكلام الموزون المقفّى، والشاعر هو المختص به؛ لأنه يتفطَّن بإحساسه وشعوره لدقيق المعاني[2]، فالشعر حقيقة عرفية، وهو أخصّ من معناه اللغوي[3].

واختلفوا في ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾ على قولين، فبعضهم ولعلَّ الأكثر قالوا: علّمناه أي أوحيناه[4] أو أنزلناه[5]، واستدل له بشاهدين:

الأول: أن يكون مرجع الضمير في علّمناه القرآن وليس النبي صلى الله عليه وآله.

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٣٤٩، (شعر).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٣٧٢-٣٧٣، (١٥٠٠)، (١٥٠١).

(٣) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٥٥-٤٥٦، (شعر).

(٤) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٧؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٩؛ روح البيان: ج٧، ص٤٢٧؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٦٤؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٥٧.

(٥) التبيان: ج٨، ص٣٥٩.

الثاني: قوله تعالى في آية أخرى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[١] وهو ضعيف؛ لأن الوحي والإنزال غير التعليم، والأصل حمل الألفاظ على معانيها الحقيقية، فالأصل الحقيقة لا المجاز.

والشاهدان فيهما مصادرة؛ لأن إرجاع الضمير إلى القرآن في الآية أول الكلام، بل ممتنع؛ لاستلزامه التكرار القبيح، بل تعريف الشيء بنفسه؛ لأن لازمه أن يكون المعنى: (إن القران إلّا ذكر وقران مبين).

والحق أنّ مرجع الضمير هو النبيﷺ للظهور ولوصفه بالمبين، فإنّ القرآن في نفسه ومن دون رسول الله ليس بمبين، وهو ما يقتضيه السياق العام؛ إذ ابتدأت السورة بوصف النبي ولكونه مرسلاً لقومه لينذرهم وليعلمهم، ولأن القوم ما اتهموا القرآن بالشعر؛ لأنهم يدركون بوجدانهم أنه مخالف موازين الشعر، وإنما اتهموا النبي به فوصفوه بالشاعر كما في آيات عديدة[٢].

وكذا الكلام في قوله: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾[٣] فإنه ظاهر في وصف النبيﷺ لبيان أنّ كله صلوات الله عليه وحي إلهي ووجود رباني في قوله وفعله وجميع شؤونه، ومعصوم من القبائح والأخطاء والجهالات والسفاهات التي يُبتلى بها الناس عادة.

---

(١) سورة النجم: الآية ٣ – ٤.

(٢) انظر سورة الأنبياء: الآية٥؛ سورة الصافات: الآية٣٦؛ سورة الطور: الآية٣٠؛ سورة الحاقة: الآية٤١.

(٣) سورة النجم: الآية ٣.

وقال: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ**﴾[١] ولم يقل (ما أوحينا له الشعر) لتنزيه القرآن من الشعر، وكذلك النبيﷺ، وكما لا يليق الشعر بالباري عزّ وجلّ -لذا لا يقال له شاعر وإنما عالِم- كما لا يليق بمن يمثله وهو خليفته في عباده وبلاده، واللائق به التعليم لا الشاعرية، فإنّ قواعد التعليم تقتضي أن تنتقل صفات المعلِّم إلى التلميذ، فإذا لا يليق الشعر بالمعلّم فإنه لا يليق بالمتعلِّم منه، وما يليق به سبحانه الوحي والتعليم؛ لذا قال في آية أخرى: ﴿**الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ**﴾[٢].

وأما الشعر فلا، لأنّ الشعر مبني على أوهام وخيالات ومبالغات وأكاذيب في الأهاجي والمدائح والتفاخر والتنافر، ويتغيّر بحسب أحوال الشعراء وانفعالاتهم، والواقع الخارجي شاهد على أنّ بعض الشعراء إذا غضبوا أقذعوا في القول، وبالغوا في الذم، وإذا استرضوا بعد قليل رفع مَن ذَمَّه وانتقص منه إلى السماء العليا، وصيَّره من نجوم الأرض، وإذا وصف حالة بالغ فيها وقد أشتهر القول: (بأنّ أعذب الشعر أكذبه)[٣] وقد ورد أنّ إبليس قال ربِّ اجعل لي قرآناً. قال تعالى: قرآنك الشعر، فالشعر قرآن إبليس وكلامه[٤]، والمقصود الشعر الباطل؛ لأنه مبني على الأكاذيب والأباطيل، وأمّا شعر الحق فيدخل في الحكمة والموعظة ونصرة الحق.

---

(١) سورة النجم: الآية ٣.

(٢) سورة الرحمن: الآيتان ١ - ٢.

(٣) الإصابة: ج١، ص٣.

(٤)روح البيان: ج٧، ص٤٢٧.

وهذه الأوصاف كلها تتنافى مع مقام القرآن وغاياته، فإنّ القرآن رسالة الله سبحانه لعباده إلى يوم القيامة، ويتضمَّن الآداب والأخلاق والأحكام والأنظمة والتعاليم التي ترتقي بعقول الناس وقلوبهم ومشاعرهم، ويعلمهم الحقائق والمعارف العالية ليكونوا راقين في أفكارهم وأعمالهم، ويليقوا بخلافة الأرض وسعادة الآخرة، وأين هذا من الشعر وسلوك الشعراء؟

ولكن الخصوم لمّا عجزوا عن مقابلة مفاهيم القرآن العالية وحججه الدامغة أشاعوا عنه أنه شعر، وأنّ الآتي به شاعر، وأهل العقول فيهم ما صدقوا ذلك واختبروه بأنفسهم وكذبوا ما ادَّعاهُ الخصوم، فقد ورد في الأخبار أنّ أنيس بن جَنادة الغفاري أخا أبي ذر - وكان شاعراً - قال له أبو ذر: (اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ يأتيه الخبر من السماء، وأسمع قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتى قَدِمَ وسمعَ من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر. قال أبو ذر: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر كاهن ساحر. قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر – طرقه وبحوره - فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون)[١].

---

(١) انظر صحيح مسلم: ج٧، ص١٥٣، ص١٥٦؛ عمدة القارئ: ج١٦، ص٨٦؛ الاستيعاب: ج٤، ص١٦٥٣؛ المصنف: ج٨، ص٤٥٠؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٥٨.

ومثله خبر الوليد بن المغيرة - الذي كان من أفذاذ العرب - لما جمع قريشاً عند حضور الموسم ليتشاوروا في أمر النبيﷺ فقال لهم: إنّ وفود العرب ترد عليكم فأجمعوا فيه رأياً لا يكذب بعضكم بعضاً، فقالوا: نقول كاهن؟ فقال: والله ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكاهن وسجعه.

قالوا: نقول مجنون؟ فقال: والله ما هو بمجنون، ولقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا وسوسته(١).

والزمزم: الصوت له دوي غير واضح لتتابعه وسرعته(٢)، والخنق داء يمنع نفوذ النَفَس إلى الرئة والقلب(٣)، ولعله أراد الكناية عن نوع من أنواع الجنون كالصرع ونحوه- فذكر ترددهم في وصفه إلى أن قالوا: نقول شاعر؟ قال: ما هو بشاعر قد عرفت الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه. إنّ لقولهِ - أي القرآن – لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمُغدق، ويعلو ولا يُعلى عليه(٤).

---

(١) الدر المنثور: ج٤، ص١٠٦؛ تاريخ الإسلام: ج١، ص١٥٥.

(٢) المعجم الوسيط: ج١، ص٤٠٠، (زمزم).

(٣) مجمع البحرين: ج٥، ص١٦٠، (خنق)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٢٦٠، (خنق).

(٤) انظر الدر المنثور:ج٤، ص١٠٦؛ تاريخ الإسلام: ج١، ص١٥٦؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٥٨؛ تفسير الكاشف: ج٦، ص٣١٢.

ومثل ذلك ورد في موقف آخر له[١]، وكذا موقف عتبة بن ربيعة[٢]، وشهادة أصحاب العقول والخبرة في نفي الشعر عنه يؤكد معنى الآية في أنه سبحانه لم يُعلِّمه الشعر، وهذا يؤكد ما ذكرناه من أنّ الآية وافقت الميزان المنطقي للاستدلال؛ إذ لا يكفي في إبطال الشاعرية عنه أن تخبر به؛ لأنهم لا يؤمنون بها فلا يتم الاستدلال إلّا إذا ثبتت الصغرى من وجدانهم، ومن الخبراء فيهم، فحيث نفوا عنه أن يكون شعراً تتم دلالة الآية: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ**﴾[٣] فلابد وأن يكون تعليمه شيئاً آخر وهو القرآن، وبها تتم الحجة عليهم، وتدعوهم إلى الإيمان به.

ويستفاد من منطوق الآية أمران مهمان:

الأمر الأول: أنّ الشعر له لب ومظهر، روح وجسد. لبّه الشعور والإحساس بالمعاني الدقيقة والصور الجميلة، ومظهره النظم في القوالب والألفاظ، وتارةً يطلق ويراد به الأول، وتارةً يراد به الثاني.

وكثر التعبير بالشعر عن الكلام الموزون المقفّى إلّا أنه عند العرب والحكماء وفي الاعتبارات الحديثة قد يراد بالشعر الأعم، فالعرب لم يقيِّدوا الشعر بالوزن والقافية، بل كل تعبير فني جميل كانوا يعدُّونه شعراً؛ لأنه ينشأ من شعور المتكلم به، ويُحرِّك مشاعر مستمعيه، وكانوا يصفون الكذب

---

(١) انظر البحار: ج١٧، ص٢١١، ح١٧؛ أعلام الورى: ص٤١.

(٢) السيرة النبوية: ج١، ص٢٩٣؛ سيد المرسلين: ج١، ص٤٣١.

(٣) سورة يس: الآية ٦٨.

الوارد بألفاظ جميلة شعراً، والشاعر عندهم الكاذب المُغلِّف، وبهذا الاعتبار سمّوا الأدلة الكاذبة بالشعرية؛ لأن الشعر مقر الكذب، وقالوا: أعذب الشعر أكذبه[(١)]، وقال بعض الحكماء: لم يُرَ متديّن صادق اللهجة مغلفاً في شعره، ولو دخل الصدق والحق الشعر برد وخفت عن الإثارة والتحريك الكبير كما يزعمون[(٢)]، وعلى هذا حملوا قوله تعالى: ﴿**وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ**﴾[(٣)] والإغواء لا يكون إلّا بتصديق الكاذب.

ولعل مما يعززه ما ورد في تفسير علي بن إبراهيم في معنى الآية المزبورة قال: نزلت الآية في الذين غيَّروا دين الله بآرائهم، وخالفوا أمر الله، هل رأيتم شاعراً قط تبعه أحد؟ إنما عنى بذلك الذين وضعوا ديناً بآرائهم فيتبعهم الناس على ذلك، ويؤكد ذلك قوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ**﴾[(٤)] يعني يناظرون بالأباطيل، ويجادلون بالحجج المضلّة، وفي كل مذهب يذهبون[(٥)].

وكذلك الشعر عند الفلاسفة القدامى، فإنّ الشعر عندهم ليس على وزن وقافية، ولا هما ركن من أركانه عندهم، وهو على مذهبهم العام؛ لأنهم يبحثون عن المعاني لا الألفاظ والتراكيب.

---

(١) الإصابة: ج١، ص٣.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٥٦، (شعر).
(٣) سورة الشعراء:الآية٢٢٤.
(٤) سورة الشعراء: الآية ٢٢٥.
(٥) تفسير القمي: ج٢، ص١٢٥؛ وانظر مجمع البحرين: ج٢، ص٥١٦، (شعر).

وشاعت هذه الفكرة اليوم في الدراسات الأدبية والنقدية، وآمن بها كثير من أساتذة الأدب الحديث، وصار لها مدرسة وروّاد وأتباع، وهو ما يعبر عنه بالشعر الحر، وميزته أنه مُجرَّد عن الأوزان المعروفة والقوافي[1].

ولعلَّ العرب وصفت القرآن بالشعر بهذا الاعتبار؛ لوضوح آياته عندهم أنها غير موزونة بالأوزان الشعرية، ولا مقفَّاة بقوافيها، فلابد وأن تحمل الآية على الشعر بمعناه العام، أي الكلام الفني الجميل الذي يأخذ مجامع القلوب والمشاعر، أو على الكلام الكاذب؛ لتضمنه للإخبارات الغيبية التي يصعب دركها على صغار العقول أو ضعافها، والذين اعتادوا على الإيمان بالحسّ والمحسوس، وحيث يجهلونها يكذبونها؛ لأن الناس أعداء ما جهلوا.

ولمّا تصدى عقلاؤهم كأبي ذر وأخيه أنيس والوليد بن المغيرة وغيرهم إلى تكذيب دعاية الكذب سكتوا ولم يجدوا جواباً، ولو لم يصدقوا قولهم أو كان لهم شاهد على صحة مدعاهم لأتوا به لأجل إفحام النبيﷺ وتثبيت مدعاهم، فعدم الإتيان بذلك مع توفُّر الدواعي عليه شاهد على فشلهم، ولم يبقَ أمامهم إلّا الحرب أو الإيمان.

الأمر الثاني: أنّ الشعر يباين الوحي مباينة تامة، فإنّ الوحي عِلم يفيضه الباري على قلب النبيﷺ، وهو حقائق واقعية وتعاليم غير مشوبة بخيال أو أباطيل، ولذا كل من يتلقاه أو يستمعه بفطرته السليمة وعقله

---

(١) انظر تفسير الكاشف: ج٦، ص٣١٢.

الصافي فإنه يفهمه ويتفاعل معه ويتأثر به؛ لأنه يحاكي وجدانه وأحاسيسه وفطرته، لذلك كان الحضور يضعون أصابعهم في آذانهم لكيلا يستمعوه، أو يصنعوا جوّاً من الضجيج حوله لكيلا يستمعوه، أو يتهموه بالتُّهم الباطلة لينفِّروا النفوس منه؛ لأن كل من يسمع له بصفاء يتأثر؛ لأن الحقيقة والنور والصواب تتطابق مع جبلَّة الأشياء وتكوينها، بينما نرى بعض الناس من غير العرب وربما لا يعرفون اللغة العربية ساعة يسمع القرآن أو يقرأه يتفاعل معه، وربما يلين قلبه وتدمع عيناه؛ لأن القرآن يحرِّك فيه الطُهْر والنقاء والفطرة.

وهو بديهي؛ لأن الباري عزّ وجلّ حيث أوحى إلى الجماد انفعل لكلامه، وحتى الحجر خشع وانفجر منه الماء، وأوحى إلى الحيوان ففهم منه واستجاب، فما بالك بما إذا أوحى إلى قلب الإنسان وعقله وضميره؛ فإنه لابد وأن يذعن ويؤمن.

وهذه واحدة من آيات القرآن وإعجازه المستمر في طول الأزمنة ومع مختلف الأقوام وأهل اللغات والثقافات إلّا المعاندين المكابرين لأنهم لا يريدون الهداية به لا يهتدون.

المفردة الثانية: ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾

العطف والنفي فيها ظاهران، و (ما ينبغي) فعل مطاوع لبغى وهو طلب الشيء بتجاوز الحد، وهو مذموم وممدوح، ومن الأول البغي في الأرض؛ لأن فيه تجاوزاً عن الحد، ومن الثاني قوله: ﴿ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾[1] وأكثر الاستعمال في الأول[2]، وإذا دخلت عليه أداة النفي دل على عدم حسن الشيء وصلاحه، والمعنى في الآية أن الشعر لا يحسن ولا يصلح له صلى الله عليه وآله، ونفي ذلك يمكن أن يقع بنحوين:

الأول: نفي الملكة، فيكون من سلب المقتضي، وهو امتنان عليه وعلى الناس بتنزيهه من ملكة الشعر؛ لأنه تطهير وارتقاء يعصمه من الاتهام والرسالة من التشويه، فعدم تعليمه ملكة الشعر ليس نقصاً فيه ولا عجزاً منّا في التعليم، ولا منه في التعلُّم، وإنّما لأنّ الشعر لا يليق بشأنه؛ فإنَّ هذه المَلَكَة ملازمة للخيالات والأكاذيب والمبالغات الفارغة، فليس فقدانها نقصاً بل تعلّمها؛ لأنّ معرفة الناقص القبيح نقص وقباحة، كالشخص الذي يتعلّم الغناء والسحر وأمثالها من فنون وصناعات قبيحة[3].

الثاني: نفي الفعل، فيكون من وجود المانع، وهو دفع التهمة عن نفسه وعن كتابه لاقتضاء المصلحة، فالنفي يكون عملياً إمّا لمبغوضية الشِعْر أو

---

(١) سورة الليل: الآية ٢٠.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٣٦، (بغى)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٥٥، (بغى)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٦٤، (بغى).

(٣) انظر تفسير الميزان: ج٢٣، ص١٠٩؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٦٣.

لملازمته للإضرار به أو بأهدافه ومهامِّهِ، فإنّ كل عاقل إذا كان يحمل رسالة عظيمة يجب أنْ يعمل على صونها وتنزيهها ممّا يشينها ويشوِّه صورتها أو مبادئها، وربما يكون النفي في مقام النهي فيفيد تحريم الشِعْر عليه لذلك الغرض كما نسب قولاً إلى البعض(١).

والنتيجة: أنه يملك ملكة الشعر، ولو أراد إنشاءه لأنشأه على أحسن صيغة ومضمون، لكنه لا يفعله لأنه لا يليق به، ويجري ذلك مجرى القراءة والكتابة، فإنه صلوات الله عليه لم يكن يكتب ولم يقرأ ليس لأنه قاصر عنهما، بل لدفع الشبهة عنه وعن رسالته، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾(٢) والحق هو الثاني لوجوه:

الوجه الأول: أنّ الشعر كاشف عن شدة الفطنة والإرهاف بالحس والمشاعر، وهي صفات كمال لا نقص. نعم يمكن أنْ يستعمل الشعر في الحق وفي الباطل، والمذموم منه الثاني لا الأول، ولو كان أحد مصاديق الشيء مذموماً لا يدلّ على ذمّ الأصل.

ولذا مدح الباري عزّ وجلّ الشعراء الذين يدافعون عن الإيمان والعمل الصالح، ويجاهدون الظلم والظالمين في قوله تعالى: ﴿**وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا**

(١) انظر روح المعاني: ج٢٣، ص٦٥.
(٢) سورة العنكبوت: الآية٤٨.

يَفْعَلُونَ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾[١].

وقد ورد أنه لمّا نزلت الآيات الذامّة للشعراء قال حسان بن ثابت وابن رَواحة وجمع من شعراء الصحابة: يا رسول الله! إنّ الله يعلم أنّا شعراء ونخاف أنْ نموت على هذه الصفة ونُحْسَب من أهل الغواية والضلالة، فقالﷺ: «إنّ المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه»[٢].

فكان بعضهم يمدح النبيّﷺ ودين الإسلام ويهجو الكفر، ويذكر الله بأشعاره ذكراً كثيراً؛ لما فيها من إثبات التوحيد وصفات النبيّ والعقائد الحقَّة والدعوة إلى الفضائل ومحاسن الأخلاق.

وفي بعض الأخبار أنّ المشركين لمّا هجوا النبيﷺ قال الصحابة: ما منع المؤمنين الذين ينصرون النبيﷺ بسيوفهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان وابن رواحة: يا رسول الله! إنّا نكفيهم، فقالﷺ: «أهجوهم وروح القدس معكم»[٣] وفي رواية أخرى قالﷺ لحسان: «اهجو المشركين فإنّ جبرئيل معك»[٤] وفي رواية أخرى قال لحسان: «اهجوهم فو الذي نفسي

(١) سورة الشعراء: الآيات ٢٢٤- ٢٢٧.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٧، ص٣٦٠؛ تفسير الصافي: ج٤، ص٥٧؛ نفحات الرحمن: ج٤، ص٥٥٦؛ الدر المنثور: ج٦، ص٣٣٤.

(٣) انظر مجمع البيان: ج٧، ص٣٦٠، قال رسول اللهﷺ لحسان بن ثابت: «أهجهم، أوهاجهم وروح القدس معك»؛ نفحات الرحمن:ج٤، ص٥٥٦.

(٤) نفحات الرحمن: ج٤، ص٥٥٦؛ روح البيان:ح٦، ص٣١٧.

بيده لهو أشد عليهم من رشق النبل﴾[١]. وقوله ﷺ لحسان: ﴿لا تَزَال يا حسان مؤيَّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك﴾[٢] يعزّز أن حسن الشعر ينشأ من غايته.

ويدل على أنّ في الشعر ما هو ممدوح سيرة النبي ﷺ، فكان في كثير من الموارد ينشد الشِعْر، ويغيرّ من بعض صيَغهِ لفظاً إلّا أنّ السامعين يعلمون أنه شعر غيره؛ لأن الشعر لا ينبغي له، كما كان يقرب الشعراء ويستحسن بعض أشعارهم، وخلع بردته على كعب بن زهير تكريماً له حين مدحه بقصيدته التي عُرِفَتْ بالبردة، وكان يقول ﷺ: ﴿إنّ من الشعر لحكمة وإنّ من البيان لسحراً﴾[٣] وقد ذكر المفسرون جملة من الأبيات الشعرية التي أنشدها رسول الله ﷺ، وربما غيَّر في أسلوب بعضها[٤]، ولو كان الشعر في نفسه مبغوضاً لما صحّ إنشاده كما لم يصحّ إنشاؤه.

الوجه الثاني: ما قامت عليه قواعد وأصول المذهب من أنّ نفس النبي ﷺ والمعصومين عليهم السلام كاملة الملكات والسمات ليس فيها نقص أو خلل أو اضطراب، وأنهم أفضل الخلق وأعلمهم وأعلاهم في الكمالات، ومن

(١) نفحات الرحمن: ج٤، ص٥٥٦؛ تفسير الرازي: ح٢٤، ص١٧٦.

(٢) مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٧؛ التفسير الصافي: ج٤، ص٢٦٠؛ تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٣٩٣، ح٧٩.

(٣) الفقيه: ج٤، ص٣٧٩، ح٥٨٠٥؛ الغدير: ج٢، ص٩؛ وانظر تفسير الكاشف: ج٢٣، ص٣١٣. البحار: ج١، ص٢١٨، ح٣٩.

(٤) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٧؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٧.

ذلك مَلَكَة الشعر والشاعرية الحقة؛ بداهة أنه لو كان في الناس من هو أفضل منهم في مَلَكَة أو قدرة كان أولى بالاتّباع منهم من هذه الحيثية والجهة.

الوجه الثالث: أنّ الأميّة التي نسبت إلى النبيﷺ وفسَّرها البعض بعدم معرفته القراءة والكتابة خطأ لا تصلح شاهداً لعدم معرفته بالشعر؛ لأن الأمية بالمعنى المذكور لا تناسب صفات الكمال و علوّ مكانتهﷺ، فلابد أن تفسَّر بمعنى يليق بمقامه، فنقول:

الأمية النسبة إلى الأم، وهي في اللغة والعُرف كل ما كان أصلاً لوجود الشيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه[١]، وبهذه الاعتبارات يمكن أن تفسر الآية بتفاسير عديدة:

الأول: أميّ أي مكيّ، سُمّيَ بذلك لأنّ مكة أم القرى، وقد فسَّرتها بعض الأخبار بالنسبة إلى أمّ القرى.

الثاني: أنه منسوب إلى أمَّة أميّة لم تكتب، أو الأمَّة التي لا كتاب لها[٢].

الثالث: الأميّ أي الذي لم يتعلَّم عند أحد من البشر، وعلمه مأخوذ من أصوله النورية ومقاماته الإلهية.

الرابع: أنه أمّي لأنه أمّ ومرجع لجميع العلوم والمعارف، بل ومرجع لوجودات الأشياء؛ لأنه أول ما خلق الله سبحانه وهو واسطة الفيض الإلهي على العالم، ولا تنافي بين المعاني الأربعة؛ لاختلاف الرتبة، وأمّا القول

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧١، (أم).

(٢) لسان العرب: ج١٢، ص٣٤، (أمم)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٢، (أم)؛ وانظر تفسير ابن زمنين: ج١، ص٢٨١.

بأنه لا يعرف القراءة والكتابة فهو باطل؛ لأنه نقص شديد لا يليق بمقامه، ولازمه أن يكون محتاجاً إلى غيره، وإنّ مَن يعرفهما يكون أولى بالاتّباع منه من هذه الجهة.

نعم هو لم يكن يمارس ذلك لمصلحة حفظ الرسالة من التشويش والاتهام، والآية المباركة التي نفت عنه التلاوة والخط دلَّت على عدم فعلهما، ولا تنفي وجود القدرة عليهما.

الوجه الرابع: أنّ الآية الشريفة: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ**﴾(١) دلت على نفي تعليمه الشعر ولم تنف علمه والقدرة عليه، بداهة أنّ التعليم يقوم على ركنين أساسيين:

الأول: وجود الجهل بالشيء لدى المتعلِّم.

الثاني: التكرار في التعليم، وهي من خصائص العلم الحصولي الاكتسابي، وبهذا يتنافى مع علومه اللدنية. قال الراغب: التعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلِّم، وقال بعضهم: التعليم تنبيه النفس لتصوّر المعاني(٢).

ونلاحظ أنّ الآية نفت عنه التعليم ولم تنف عنه العلم وهو الأليق بمقامه العالي ﷺ؛ لأن التعليم يكون لفاقد النباهة والجاهل بالأمور والذي لا يتعلم إلّا بتكرار التعليم عليه، وهذا لم يقع لرسول الله ﷺ، ولكن نفي

---

(١) سورة يس: الآية ٦٩.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٨٠، (علم).

التعليم لا يعني نفي العلم؛ لأن طرق العلم غير منحصرة بالطرق الاكتسابية، فإنّ العلوم اللدنية والحضورية والإلهامية كثيرة، وهي الأوفق بمقام النبي صلى الله عليه وآله.

والخلاصة: أنّ الآية نفت عنه تعليم الشعر ولم تنف عنه علمه، وشتّان بين المعنيين.

وعلى هذا الأساس قال في المفردة التالية بأنّ ما عنده ذكر وقرآن.

ويتحصَّل: أنّ النبي صلى الله عليه وآله يعرف الشعر ويملك القدرة عليه لكنه لا يزاوله لوجود المانع.

المفردة الثالثة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾

(إنْ) نافية بمعنى (ما) أو توكيدية تضمَّنت جواباً لسؤال مقدَّر يأتي بعد نفي تعليم الشعر عنه، ونفي لياقته به، فربما يخطر في الأذهان إن لم يكن كذلك فما هو إذاً؟ فجاء الجواب بصيغة النفي وبعده الإثبات ليفيد الحصر بأنه ذِكْر وقرآن لنفي كل ما عداهما من أقاويل الخصوم كالشعر والكهانة والسحر ونحوها، وقد وقع الخلاف بين المفسرين في أنّ مرجع الضمير (هو) وظاهر الأكثر أنه القرآن[1] وربما يقال هو

---

(١) التبيان: ج٨، ص٣٥٩؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٩؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٧؛ بيان السعادة: ج٣، ص٢٩١؛ تفسير الميزان: ج٢٣، ص١٠٩؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٩؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٩٨؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٢٣، ص٥٠؛ روح البيان: ج٧، ص٤٢٩؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٦٥؛ تفسير المراغي: ج٨، ص٣١؛ تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٧٣.

النبيﷺ، وقيل هو علم النبيﷺ[١]، والحق الثاني؛ لتضافر القرائن عليه:

الأولى: أنّ منطوق الآية يحكي عن النبيﷺ وينفي عنه تعليم الشعر ونفي حسنه عنه، فلابد وأنْ يكون الإثبات بعد النفي له، فإرجاع الضمير إلى القرآن قبيح لعدم وجود ذكر سابق عنه.

الثانية: أنّ إرجاعه إلى القرآن ممتنع؛ لاستلزامه تعريف الشيء بنفسه؛ إذ يكون المعنى (إنَّ القرآن إلّا قرآن مبين) بخلاف إرجاعه إلى النبيّﷺ فإنه موافق للقواعد الأدبية والعقلية، ومفاده أنّ النبيّ يكون قرآناً، وتعززه القرينة الداخلية أي وصفه بالمبين وهو الذي يبيّن، فيدل على كونه مظهراً آخر للقرآن وهو القرآن الناطق، والقرينة الخارجية التي وصفتهﷺ بأنه قرآن، وأنّ قلبه وخلقه وفعله القرآن.

الثالثة: الآية التي تليها وهي قوله: ﴿**لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا**﴾[٢] فإنها صريحة في النبيﷺ؛ وقد وصفﷺ في أول السورة بأنه نذير، وأرسل لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون، فوحدة سياق الخطاب تقتضي حمله على شخصه لا القرآن و لا العلم على أنَّ هذا المعنى مشتمل على المعنيين الآخرين؛ لأنهﷺ متحد بالقرآن وبالعلم وجوداً، ومادام الإطلاق يتحمَّله ولا توجد قرينة على المنع فيجب حمله عليه.

وكون النبيﷺ ذكراً لأنه مذكِّر ومعلِّم ومرشد، وتعليمه وتذكيره وإرشاده هو القرآن، فلا يختلفان في المضمون وإن اختلفا في الشكل، وقد

---

(١) تفسير الفرقان: ج٢٤، ص٦٤.

(٢) سورة يس: الآية ٧٠.

وصف النبيﷺ بالذكر في آيات عديدة[١]، وإنّما قال ذكر وقرآن لأن الذكر يتم باللسان والقلب والمشاعر، وهو ضد الشعر؛ لأنّ الشعر ناشئ من الخيالات والأوهام، وأمّا الذكر فناشئ من الحقائق، وقال قرآن لأنّ القرآن وحي إلهي نازل من الملكوت على قلبه، بخلاف الشعر فإنه ناشئ من تصوّرات النفس وأحاسيسها تنبعث منه إلى الآفاق.

فالتقابل بين الذكر والقرآن وبين الشعر يدل على التفاوت الكبير بينهما، وكل عاقل يلتفت إلى هذه الحقيقة يدرك أنّ اتّهامه بالشعر من العداوة والدعايات الباطلة.

فيتحصَّل: من مجموع المفردات أنَّ النبيّ المصطفىﷺ يملك ملكة الشعر وهو قادر عليه بالفطرة والتكوين الجِبلّي؛ لأنه حاوٍ لجميع صفات الكمال وملكاته، لكنه لا يفعله لابتلائه بالمانع، وهو صون نفسه وقرآنه ورسالته من اتّهام الأعداء والمغرضين، فعدم الإتيان بالشعر يكون واجباً لتوقف الواجب عليه.

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٢٨، (ذكر).

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: الشعر موهبة إلهية

يدل قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾[1] على أنّ إنشاء الشعر والشاعرية موهبة إلهية تعطى لبعض الناس؛ لذا يعبَّر عنها بالموهبة الشعرية، وأكثر الشعراء لم يدخلوا في المعاهد والمدارس لتعلم الشعر أولاً، بل كانت لهم القابلية وتعلموا تنميتها وتطويرها؛ لأن الشعر يعود إلى الملكات النفسانية وأصولها مودعة في النفوس، والتعليم والممارسة والخبرة الطويلة تساهم في تهذيبها وتقويمها وتطويرها، ومن هنا ينبغي أنْ يعرف الشعراء أنّ شاعريتهم ليست منهم، بل من الله مثل نطقهم وقدرتهم على الكلام، وهي نعمة إلهية جعلها الله سبحانه فيهم يختبرهم الله سبحانه بها، وسيحاسبهم عليها، وحتى تنمو وتثمر لابد وأن يشكروا هذه النعمة، وشكرها يكون بأمرين:

الأول: أنْ ينمّوا هذه الموهبة الساحرة في بني البشر.

---

(١) سورة يس: الآية ٦٩.

الثاني: أنْ يوظفوها في خدمة الإنسان وتحريره من الشهوات والشيطنات والظلم والطغيان، فإذا وقف الشاعر موقف المتفرِّج من القضايا العادلة ولم ينصرها هذا كفر بالنعمة، ولو وظَّف الشعر لمدح الظَلَمَة أو نشْر الفساد وإثارة الغرائز فهو كفر بهذه النعمة، بل لعلّ بعض الأدباء يقول إنّ الشعر لا يكون شعراً حقيقياً إلّا إذا وظِّفَ لخدمة الحق والقضايا العادلة لأنَّ أصل الشعر من الشعور، والشعور لا يمكن أن يكون كاذباً، فإذا نبع الشعر منه كان صادقاً، وإذا صدق الشعر كان ناصراً للحق ورافضاً للظلم والفساد، ولذا وصف في الأخبار بأنه مؤيَّد بروح القدس[1].

وأمّا إذا وظِّف الشعر لمدح الظالمين وتزييف الحقائق وإثارة الغرائز فهو كاذب، ولم ينبع عن الشعور الإنساني، بل الغرائز الحيوانية، فلم ينبع عن أنبل ما في الإنسان وهو الشعور الإنساني، بل من أتفه ما فيه، فالأولى أنْ يُسمَّى بالكذب وليس الشعر. نعم هو كذب مؤطَّر بقوالب وأوزان شعرية.

وباختصار: أنّ القدرة على الشعر نعمة إلهية لدى الشاعر يختبر فيها ويُمتحَن في صِدقه وشكره، فلابد وأنْ يوظفها الشاعر في سبيل النجاح والفلاح، وإلّا كانت وبالاً عليه، وفي التأريخ مرّ شعراء كثيرون صاروا أعواناً للظلمة، وعرِفوا بنشر الفاحشة والفساد، وشعراء آخرون مورد فخر واعتزاز لبلدانهم وأهلهم ومواطنيهم.

---

(١) الغدير: ج٢، ص٣٧؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٧؛ تفسير الصافي: ج٤، ص٢٦٠.

اللطيفة الثانية: طرق علم النبي صلى الله عليه وآله

في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾[1] إثبات أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله معلَّم ومعلِّمه الله سبحانه لا غير، ولهذا التعليم طرق ثلاثة:

أحدها: جِبلّي تكويني؛ لأنّ حقيقته نوريّة اشتقّها الله سبحانه من نوره، والنور والعلم متساوقان؛ لأنّ العلم كشف الأشياء ومعرفتها والنور كذلك، والعلم نور في نفسه ومنوِّر لغيره، وكذلك شأن النور، وهذا النحو من العلم يعبَّر عنه بالعلم اللدنّي أي المودع في لدن الشيء وذاته، والذي خلق الذات أودع فيها العلم، وبهذا الاعتبار يقال علَّمه أي جعله يعلَم.

ثانيها: إلقائي إفاضي بواسطة الإلهامات والمحادثات وإرسال الملائكة ونحوها، وهو طريق خاص بين الله تعالى وبين رسوله صلى الله عليه وآله، وهذان الطريقان ثابتان لرسول الله صلى الله عليه وآله ولخلفائه المعصومين عليهم السلام؛ لذا لم يتعلَّم النبي صلى الله عليه وآله عند أحد من البشر، ولم يتعلم بالتجارب والممارسات؛ لأنه لا يحتاج إلى ذلك، وهو أحد معاني أميّة النبي صلى الله عليه وآله، وكذلك الإمام عليه السلام، ولولا ذلك لم يكن وجه لنبوّة النبيّ وإمامة الإمام دون غيره.

ثالثها: توارثي، وهو العلم الإلهي المودع عند الأنبياء والأولياء يتوارثونه فيما بينهم، فلا يرحل نبيّ من الدنيا إلّا ويورِّث علمه لمن بعده في المقام والرتبة لكيلا تخلو الأرض من عالم رباني، وهو ما تواتر في الأخبار الشريفة[2].

---

(١) سورة يس: الآية ٦٩.

(٢) انظر الكافي: ج١، ص٢٢١- ٢٢٣، الأحاديث١-٨.

ولذا أشار الباري إلى ذلك وألفتَ اليه بقضيّة عقلية بديهيّة، وهي أنّ الأفضل والأكمل أولى بالاتّباع والاقتداء من غيره. قال سبحانه: ﴿**أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾[1] والاستفهام الاستنكاري والذم على تقديم المفضول دليل على أنّ من يجب اتّباعه هو المهتدي، والهادي بنفسه لا بحاجة إلى غيره من البشر، وهذا ما يقضي به العقل البديهي، فإذا خالفه الناس يكونون قد خالفوا عقولهم وفطرهم، وكان حكمهم من التناقض بين العقل والعمل، وهذه حقيقة هامة يجب أن يلتفت إليها كل مسلم، وينظر في إيمانه وطاعته، فهل الصحيح أن يتبع من هو جاهل ويحتاج إلى من يعلِّمه ويهديه ويرشده ويقول كل الناس أفقه منّي حتى المخدرات في الحجال[2]، أم يتبع من لا مرشد له ولا معلِّم له إلّا الله سبحانه، وعلى جميع أهل الأديان كالنصارى واليهود وغيرهم أنْ يلتفتوا إلى هذه الحقيقة أيضاً، وينظروا أنهم من بعد عيسى وموسى عليهما السلام هل يتبّعون الأحبار والرهبان الذين يفتقرون إلى عِلم وتعليم وما أكثر ما يجهلونه بالقياس إلى ما يعلمونه أم يتّبعون من علَّمهم الله سبحانه؟ ولو كان عيسى وموسى لدَعَوا إليهم والإيمان بهم، ولازال طريقهم مع الله مفتوحاً بوليّ الزمان وحجته صلوات الله عليه، فإنّ باب

(١) سورة يونس: الآية ٣٥.

(٢) عوالي اللآلئ: ج١، ص٢٢٩، الحاشية؛ كتاب الأربعين: ص٣٤٢؛ البحار: ج٤٨، ص٩٧؛ انظر ذخائر العقب: ص٨١؛ خلاصة عبقات الأنوار: ج٣، ص١٨٤.

العلوم الإلهية لوليّ الله مفتوح، وهذا ما تؤكده الروايات المعتبرة وهي كثيرة.

منها: رواية سدير عن أبي جعفرعليه السلام قال: قلت له: جُعِلتُ فِداك ما أنتم؟ قال: «نحن خُزّان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله، ونحن الحُجَّة البالغة على مَن دون السماء ومَن فوق الأرض»(١).

وخزّان علم الله يعني أنّ الله سبحانه أودعَ فيهم علمه مباشرةً بلا حاجة إلى تعلُّم وتعليم، فإنّ الخازِن في الماديات يجمع ما هو ثمين عنده ويودعه في مخزنه، فكذلك في المعنويات.

ومنها: رواية عبد الله بن أبي يعفور قال: قال أبو عبد اللهعليه السلام: «يا ابن أبي يعفور! إنّ الله واحد متوحِّد بالوحدانية، مُتفرِّد بأمره، فخَلَقَ خلقاً فقدَّرهم لذلك الأمر، فنحن هُم. يا ابن أبي يعفور! فنحن حجج الله في عباده، وخزّانه على عِلمه، والقائمون بذلك»(٢).

وأضافت هذه الرواية على الأولى دلالتين:

الأولى: أنها نصَّت على أنهم خزّان الله على عِلمه بينما الأولى وصفتهم بأنهم خزّان عِلم الله، والفرق أنّ الأولى تفيد أنهم خُزّان العلم الإلهي، فهم علماء به، وأمّا هذه وبقرينة (على) فتفيد جهة المنح والعطاء أيضاً، أي أنّ بيدهم أن يفيضوا بهذا العلم على الناس فيمنحوا من يشاؤون منحه، ويمنعوا من يشاؤون منعه.

---

(١) الكافي: ج١، ص١٩٢، ح٣؛ وانظر بصائر الدرجات: ص١٢٤، ح٦.

(٢) الكافي: ج١، ص١٩٣، ح٥.

الثانية: أنّ بيدهم تنفيذ أمر الله في المقدَّرات الإلهية والتدبير، وهو نتاج طبيعي للعلم، فإنّ المقدَّرات الإلهية تنشأ من العلم، والذي بيده العلم بيده الأمر والقدرة، وهذه باب من أبواب المعرفة الإلهية فتحتها هذه الرواية.

ومنها: رواية المفضَّل قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ سليمان ورِثَ داود، وإنّ محمداً ورِثَ سليمان، وإنّا ورِثنا محمداً، وإنّ عندنا عِلم التوراة والإنجيل والزبور وتبيان ما في الألواح» قال: قلت: إنَّ هذا لهو العِلم؟ قال: «ليس هذا هو العِلم. إنّ العِلم الذي يَحْدُث يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة»[1].

أي جريان المقدَّرات الإلهية في العالم وما يحدث من الوقائع والأحداث فإنها كلها بعلم الله سبحانه، وهم خزّان علمه.

ومما يحدث يوماً بعد يوم أعمال العِباد فإنها تعرض عليهم[2]، ونفي العلم عن علم الكتب السماويّة لا يراد به النفي المطلق؛ لأنّ ما فيها من علوم محدودة بحدود الرسالة والأنبياء الذين جاؤوا بها؛ لأنَّ حجيتها محدودة بزمانهم إلّا القرآن فإنه حجة الله إلى يوم القيامة، وقد أودعَ الله فيه علمه وآيات جماله وجلاله، فعِلمه غير محدود.

---

(١) الكافي: ج١، ص٢٢٥، ح٣.

(٢) الكافي: ج١، ص٢٢٠، ح٦.

اللطيفة الثالثة: القرآن تنزيلي لا تعليمي

قوله ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾[(١)] نفى تعليم الشعر له صلى الله عليه وآله، والنفي يتحقق بنحوين:

النحو الأول: نفي تعليم الشعر بتعليمه القرآن، فيكون المنطوق من قبيل نفي موضوع بإثبات موضوع مضاد له، كما يقال ما علّمته الجهل لأنه عَلَّمه العِلم، وبهذا البيان تثبت حقائق:

الأولى: أنّ القرآن من الله سبحانه وليس من الرسول.

الثانية: أن القرآن ليس شعراً، بل هو آيات بيّنات، ولا أحد من الناس مهما بالغ في كفره وجحوده يزعم أنّ كلام الله شعر أو ينسب إليه سبحانه الشعر، وإنّ غاية ما ينسبوه إلى الرسول صلى الله عليه وآله.

الثالثة: أنّ الرسول ليس بشاعر بل هو نبيّ من عند الله سبحانه، وما دام ليس شاعراً فهو صادق، والصِدْق يدعو إلى الإيمان.

النحو الثاني: نفي التعليم عنه، وخصَّ التعليم بالشعر؛ لأنهم اتهموه به، فيكون نفي المصداق الأجلى فيدل على نفي الأضعف أيضاً، فالنفي طريق لنفي كلي التعليم، كما يقول القائل ما علَّمت الطالب القراءة، والغرض نفي التعليم عنه مطلقاً، أو يكون من باب اطلاق الخاص وإرادة العام.

والغاية من هذا النفي بيان حقيقة هامة، وهي أنّ القرآن ليس تعليمياً بل تنزيلياً، وأنه ليس عِلماً تحصيلياً اكتسابياً بل هو علم إلهي إفاضي، وبهذا

---

(١) سورة يس: الآية ٦٩.

ينفي عن أذهانهم السؤال أين تعلَّمه؟ وكيف تعلّمه؟ لأنه نزل من الله سبحانه إليه مباشرة جملة واحدة. قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[١] فدل على أنّ للقرآن أكثر من نزول، نزول دفعي وهو لمعانيه نزل على قلب رسول الله ﷺ دفعة واحدة، وهو نزول إفاضي بلا لسان ولا ألفاظ، ثُمَّ به أنذرَ الناس بلسان عربيّ، وفي ليلة القدر نزلَ نزولاً آخر بألفاظه، وفي الأيام والليالي وبحسب الحوادث والوقائع كان يتنزَّل بألفاظه ومعانيه كما هو معروف من شأن نزول الآيات، وهناك نزولات أخرى تتعلّق بتأويل القرآن وبيان معانيه الخفيّة سنأتي إلى بيانها في شرح معارف سورة القدر إن شاء الله تعالى، والنزولات الثلاثة الأُوَل مختصّة برسول الله ﷺ، ونزول المعاني والتأويلات من شؤون الأئمة عليهم السلام؛ لذا لا يعرف تأويله إلّا هُم، وقد وصَفَهم القرآن بالراسخين بالعِلم.

وبهذا البيان يتّضح وجه الجمع الدلالي بين الكثير من الروايات الواردة في بيان معاني القرآن واختلاف مضامينها، وأنه ليس من التعارض والاضطراب، بل من اختلاف اللحاظ والاعتبار والمراتب والنزولات، وفي الأخبار المعتبرة ما يُعزِّز هذه الحقيقة.

ففي رواية بُرَيد بن معاوية عن أحدهما عليهما السلام: في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[٢] فرسول الله ﷺ أفضل

---

(١) سورة الشعراء: الآية ١٩٣-١٩٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية٧.

الراسخين في العِلم، وقد علَّمه الله عزّ وجلّ جميع ما أنزَلَ عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله ليُنزِل عليه شيئاً لم يُعلِّمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه، والذين لا يعلمون تأويله إذا قال العالِم فيهم بعِلمٍ فأجابهم الله بقوله: ﴿**يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾[١] –أي التنزيل والتأويل– والقرآن خاص وعام، ومُحكم ومُتشابَه، وناسِخ ومنسوخ، فالراسخون في العِلم يعلمونه»[٢].

وفي رواية عبد الرحمن بن كثير: «الراسخون في العِلم أمير المؤمنين والأئمة من بعده عليهم السلام»[٣].

وفي معنى قوله تعالى: ﴿**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**﴾[٤] إنها صدورهم عليهم السلام خاصة[٥].

وبهذا تبطل نظرية تفسير القرآن بالقرآن إذا أريد بها الاستغناء عن الروايات؛ لأنه لا يعدو عن كونه عملاً بالرأي والظنون والاستحسانات العقلية، كما تبطل نظرية القدرة على التفسير والتأويل دون الاستعانة بالروايات الشريفة، وتبطل معها نظريات الحكماء والمتكلمين والعرفاء والصوفيّة الذين لا يستقون معارفهم من المعصومين عليهم السلام، وتبطل أيضاً

---

(١) سورة آل عمران: الآية٧.
(٢) الكافي: ج١، ص٢١٣، ح٢.
(٣) المصدر نفسه: ص٢١٣، ح٣.
(٤) سورة العنكبوت: الآية٤٩.
(٥) الكافي: ج١، ص٢١٤، الأحاديث ١-٥.

نظرية بعض أصحابنا الإخباريين في دعوى الاستغناء عن عِلم أصول الفقه واتّهامه بأنه مأخوذ من العامّة.

اللطيفة الرابعة: بين الإعجاز والسحر

الآية المباركة خصَّت الشعر بنفي التعليم مع أنّ الكفار كانوا ينسبون إلى النبي ﷺ أوصافاً أخرى من جملتها السِحْر، لكنه لم يقل: (وما علّمناه السِحْر) كما كانوا ينسبون إليه الكهانة، ولم يقل: (وما علَّمناه الكهانة) ولعلَّ السر في ذلك يعود إلى وجهين:

الوجه الأول: أنهم كانوا ينسبونه إلى السِحْر حينما يلحظون صدور المعاجز والكرامات منه كشقّ القمر، وتكلُّم الحصى، وحنين الجذع إليه ونحوها من آيات تكوينية يعجزون عن مثلها، فينسبونه للسِحْر لتجريد الإعجاز عن حقيقته، ويتّهمونه بأحد أمرين: بيان أنه غير صادق وإنما يُخيل لهم ذلك كما هو شأن السحر والسحرة، أو أنه يسخِّر له الجن والشياطين فيعملون له ما يريد، وهذه التُهَم قد يصدّقها الجهلاء وضِعاف العقول؛ لأنهم يجهلون أسبابها.

ولكن خواصهم يعرفون الفرق الكبير بين السحر والإعجاز، فإنّ الإعجاز فعل منتسب إلى الله، والنبيّ ينسبه إلى الله سبحانه، ولا يُراد من ورائه المال والشُهرة والمنافِع الدنيوية، وإنه يتصرّف في الأشياء حقيقةً وواقعاً، والغاية منه هداية الناس وترقّيهم في المعارف المعنويّة، والقدرة فيه لا محدودة، ولا يمكن التغلُّب عليه، ويحدث بإرادة الله لا بوسائط وأدوات، بخلاف السحر فإنه يتصف بصفات كلها تتنافى مع الإعجاز:

الأولى: أنّ الساحر يدعو لنفسه وليس إلى ربِّه، وغايته من ذلك كسب الشُهرة وتحصيل المال والمنافع الدنيويّة.

الثانية: أنه يتضمَّن الكذب والخديعة وتغرير الناس وتضليلهم بواسطة التصرف في عيونهم حتى يخيّل إليه الشيء الكاذِب صحيحاً، أو يساعده الجنّ ويفعل له الغرائب من دون أنْ تراه العيون.

الثالثة: أنّ القدرة على التضليل وسحر العيون محدودة في بعض الأشياء إذا كان من سحر العيون، أو من إخفاء الأشياء أو إظهار خلافها إن كان من سحر التسخير، فيدَّعي الساحر أنه ينقل الكتاب من هذا المكان، أو يخبر الناس بأنّ هناك عملاً سحرياً معقوداً عليكم، والسحر موجود في كذا زاوية من الدار، فيذهبون ويجدون بعض الأشياء فيتصوَّرون أنه عالم بالغيب، والحقيقة أنه سخَّرَ الجنّ والشياطين لوضعه في المكان الذي أخبرهم به، وقدرته السحرية والتسخيرية محدودة، ولذلك لا يقدر إلّا على بعض الأشياء التي هو يدَّعيها، فالسحر مبني على الخداع والكذب وليس التصرُّف الحقيقي في الأشياء.

الرابعة: أنّ السحر مغلوب بسحر مثله أو أقوى منه، ومغلوب بالإعجاز، كما التهَمَتْ عصا موسى كل ما فعله سحرة فرعون الذي وصف القرآن سحِرِهِم بأنه عظيم[1].

---

(١) انظر سورة الأعراف: الآية ١١٦.

الخامسة: أنّ السحر لا ينعقد إلّا بالوسائط والآلات كالكلمات أو استخدام أسماء الناس وأسماء أمهاتهم أو ألبستهم أو بعض الأدوية لسقيهم وإطعامهم ونحوها.

وهذه الأمور حينما تكون لابد أن يعرف الناس أنه سحر وهو كاذب، والعمل به والرجوع اليه مُحرَّم، وأنّ السَحَرَة يكذبون على الناس ولا يفلحون كما قال تعالى: ﴿**وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى**﴾[1] وأنّ الناس لو التجؤوا إلى الدعاء والعبادة وقراءة القرآن حصلوا على المنافع الحقيقية؛ لأنه سبحانه يقول: ﴿**مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ**﴾[2].

ونلاحظ أنّ الفرق كبير بين السحر والإعجاز، وزعماء الكفار كانوا يعلمون الفرق لكنهم كانوا يتّهمون النبيّ به لتنفير النفوس منه، وإظهار ما يأتي به من الإعجاز بالأمر الميسور المقدور عليه من قِبَل الناس.

وكانوا أيضاً يتّهمونه بالكهانة لسببين:

أحدهما: أنه كان يخبرهم عن عالَم الغيب، ويحدِّثهم عن الموت والقبر والعذاب والثواب والملائكة وحياة الآخرة.

ثانيهما: أنه كان يخبرهم عن الحوادِث والوقائع المستقبلية أو حياة الماضين وما مرَّ عليهم من الأحوال، وكلها كانت تطابق الواقع، فيعلمون

---

(١) سورة طه: الآية ٦٩.

(٢) سورة يونس: الآية ٨١.

صِدْق الماضي منها من تواتر النقل وما يقره علماء الأديان والحكماء أو ممّا هو مسطور في الكتب القديمة، وصدق المستقبل من حدوث ما يخبر به ﷺ.

فكانوا يتّهمونه بالكهانة؛ لأنّ صناعة الكاهن الإخبار عن المغيبات.

وأمّا الشعر فكانوا يتّهمونه به حينما يتلو عليهم القرآن ويدعوهم إلى الإتيان بمثله، ويعجزهم ذلك؛ لأنهم كانوا يُدركون عذوبة ألفاظه وجزالة معانيه وقوَّة سَبْكه وبلاغته، وهذه تقارب وصْف الشعر، ولذا قال هنا: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾[1] لأن الحديث عن القرآن، ومن أول السورة قرِن القرآن بالرسول، ووصف بأنه حكيم، والرسول بأنه منذر.

ولمّا تحداهم الباري عزّ وجلّ أن يأتوا بمثله أشار إلى أنّ الاتهام كان للقرآن، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[2] وقد وصف اتهامهم له بالريب وليس الشك؛ لأنهم ما كانوا شاكّين به، وهم يعلمون أنه في غاية الرقّة والجمال والأثر، لكنهم كانوا مرتابين منه، والريب هو الشكّ مع التُّهمة، فإنّ الشكّ هو التردّد الذهني بين أمرين على حدّ سواء، وأمّا الريب فهو شكّ مع اتّهام؛ لأنّ المشركين كانوا يتّهمون النبيّ ﷺ بأنه هو الذي جاء به، وأعانه عليه قوم آخرون، وأنه شعر ونحو ذلك[3].

---

(١) سورة يس: الآية ٦٩.

(٢) سورة البقرة: الآية٢٣.

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٢٦٤، (١٠٤٠).

وتحدِّيه لهم ليس في أن يأتوا بقرآن؛ لأنهم أعجز من ذلك، بل ويستحيل أنْ يأتي أحد من البَشَر بقرآن، وإنما تحدَّاهم في أنْ يأتوا بسورة من مثل القرآن، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن فهم عن الإتيان به أعجز.

ويتحصَّل: أنه سبحانه قال: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ**﴾ لأنه علمَّهُ القرآن، ولما أعجزهم القرآن وصفوه بالشعر؛ لأنه يقترب منه في عذوبة الألفاظ، وما أتهّموه بالسحر والكهانة للمغايرة الموضوعية بينه وبينهما.

الوجه الثاني: أنه خصَّ الشعر بالذكر؛ لأن المشركين كانوا يعرفون أصوله وأسراره، وكانوا قادرين على تمييزه عن غيره، ويعرفون أسبابه وأدواته وهي الحروف والكلمات والصياغات اللفظية، وهي متاحة للجميع.

وأما السحر والكهانة ونحوهما فالأكثر يجهلون أسبابها، والذين يعرفونها يُخْفُون أسبابها، والقرآن يستعمل ذات الأدوات التي يستعملها الشاعر في قصائده إلّا أنّ السبك والصياغة ودقَّة التعبير تفوق ذلك كثيراً وتغلبه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۞ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ**﴾[1] وقد أذهلَ هذا التعبير أدباء العرب وبلغاءهم وامتلك قلوبهم.

---

(١) سورة القمر: الآيتان١-٢.

بين الذكر والشعر

ومما يذهل العقول أنّ الآية أجابت على زعمهم بأنه: ﴿ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ﴾[١] فأوردت لفظ الذكر وهو يجاري الشعر في الهيئة لبيان أمرين:

الأول: أنّ الألفاظ والأدوات قد تشترك في الصورة لكنها تختلف في اللب والجوهر، فالشعر والذكر من حيث الصياغة اللفظية والأداة واحد، فإنّ الذكر قد يقع باللسان كما يقع الشعر، ولكن أين الشعر وأين الذكر؟ كما أنّ السحر والإعجاز قد يتشابهان في الشكل ولكن أحدهما حقيقة صادقة والثاني خيال ووهم.

الثاني: أنّ الشعر ناشئ من الشعور وله خصوصيات:

الأولى: أنه ناشئ من انفعالات نفسانية فلا ثبات له ولا استقرار، بل يتقلَّب بحسب أحوال النفس.

الثانية: أنه قد ينشأ من الأوهام والتخيلات والوساوس النفسية، فللشيطان فيه سهم كبير، وقد كان بعض العرب يعدّون الشعر من إفاضات الجنّ على الشاعر، ويرون أنّ الشاعر يعجز عن قول الشعر إلّا أنْ يحضر جنِّي الشعر في رأسه.

بخلاف الذكر فإنه مقابل النسيان، ويتعلَّق بالمعارف الفطرية والعقلية البديهية فيحضرها في القلب والعقل، وهي إفاضات رحمانية، والمعارف

---

(١) سورة يس: الآية ٦٩.

القلبية والعقلية ثوابت لا تتبدَّل ولا تنقلب - كما أنها حقائق واقعية وليست تخيُّلات وأوهاماً، وليس للشيطان عليها سبيل -.

ووصف النبيّ صلى الله عليه وآله بالذكر لبيان أنّ وجوده الجسدي بين الناس يُذكِّرهم بالله سبحانه، وأقواله وأفعاله تُذكِّرهم بالمنسيّ من القيم الموْدعة في فطرهم من حب الخير والمحبَّة للناس، وطهارة القلب والضمير في الأقوال والأفعال.

وفي عين الحال هو قرآن مبين، ووصف بالقرآن لأنه جمع جميع العلوم، أو جمع ثمرتها، مأخوذ من قرأت الشيء قرآناً أي جمعته وضممت بعضه إلى بعض[١]، وقد جمع القرآن الآيات والسور وضمَّها لبعضها، أو هو من القراءة لبيان أنه ضد الشعر، فإنّ الشعر إنشاء من النفس بينما القرآن إفاضة من الله على عبده فيقرؤها عليهم، ولذا وصفه بالمبين، وبهذا الاعتبار يقال له فرقان، لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر، ولذا وصفَ الصادق عليه السلام الفرقان بالمحكم الواجب العمل به[٢].

أمّا القرآن فهو جملة الكتاب كما في رواية عبد الله بن سنان[٣]، وهذا فرق آخر بين الشعر وبين القرآن، وهو أنّ الشعر يراد به إشعار الناس

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٦٩، (قرأ)؛ بصائر ذوي التمييز: ج٤، ص٢٦٢.

(٢) الكافي: ج٢، ص٦٣٠، ح١١؛ معاني الأخبار: ص١٩٠، ح١؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ص١٨٣، ح٣٣٥٥٢.

(٣) الكافي: ج٢، ص٦٩٠، ح١١؛ معاني الأخبار: ص١٩٠، ح١؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ص١٨٣، ح٣٣٥٥٢؛ معجم الفروق اللغوية: ص٤٢٤، (١٧٠٩).

والتأثير فيهم، ولأنه مبني على خيالات ومبالغات الشعراء فهو لا يفيد علماً ولا عملاً، بخلاف القرآن فإنه يتضمَّن الحقائق والآيات التي تهدي البشر للتي هي أقوم، فالفرق كبير بين الشعر والشاعر وبين النبيّ والقرآن.

اللطيفة الخامسة: هل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنشد الشعر وأنشأه؟

ربما ينقض على مدلول الآية بناقضين:

الناقض الأول: إنشاء النبيّ للشعر وإنشاده واستشهاده به في جملة من الموارد. فمن الإنشاء.

قوله:

أنـــا النبـــيّ لا كَـــذِبْ   أنـــا بـــن عبـــد المطلـــب[(١)]

ومن الإنشاء ما ورد إنه تمَثَّل ببيت أخي بني قيس:

ستُبدي لك الأيام ما كُنتَ جاهلاً   ويأتيك بالأخبارِ مَن لم تزوَّد[(٢)]

فجعل يقول: (يأتيك مَن لم تزوَّد بالأخبار) ولمّا قيل له إن البيت ليس هكذا قال: إنّي لستُ بشاعر وما ينبغي لي، فتغييره لصياغة البيت لا ينفي عنه صفة الشعرية؛ لأنّ السامعين يعلمون بأنه شعر وأنه غيَّره لوجود المانع منه، وهذا يتناقض مع قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾[(٣)] وأجابوا عن ذلك بأجوبة عديدة:

---

(١) الفقيه: ج٣، ص٨٩، الهامش؛ مناقب الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: ج١، ص٤٦٦، ح٣٦٩؛ الإرشاد: ج١، ص١٤٣.
(٢) البحار: ج١٥، ص٢٢٩، ح٥٢؛ كنز العمال: ج٣، ص٨٦١، الهامش.
(٣) سورة يس: الآية ٦٩.

منها: أنّ هذا اتفاق منه وليس بشعر، وماهيّة الشعر تتقوَّم بالقصد والإرادة كما نسب إلى أكثر الأدباء(١)، والكثير من الكلام البليغ قد يقع على الأوزان الشعرية ولا يُراد به الشعر، فلا يُقال له شعر(٢)، كما لا يعلم أنه قرأها بصيغة الشعر، كقولهم: العسل قيء النحل، إنَّ الطيور على أشكالها تقع، وحصانك لسانك إنْ صِنْته صانك، وإنْ هِنتَه هانك، ولذا عرَّفه المناطقة بقول مؤلف من أمور تخيلية يقصد به الترغيب أو التنفير، فالقصد مقوِّم لماهية الشعر(٣).

ومنها: أنه حتى وإن كان شعراً في الأسلوب إلّا أنه لا يقال له شعر في المعنى؛ لأنه خال من الخيالات والمبالغات والانفعالات النفسية، بل هو بيان لحقيقة فيها تعليم وعظة، والشعر لا يطلق على الحكم والعلوم المسبوكة بقالب الأوزان الشعرية، وقد تعاهد عند العلماء صياغة المطالب العلمية والنحويّة والتأريخية ونحوها بقوالب الشعر ولا يقال لها شعر، فإنّ للشعر مفهوماً خاصاً عند أهل الفن لا ينطبق على الكلام الموزون إذا أريد منه بيان العلوم والمعارف والحقائق والعظات كما في البيتين المذكورين. ولذا اشتهر إنَّ أعذب الشِعر أكذبه(٤).

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٦٠.

(٢) مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٧؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٥٨.

(٣) المعجم الوسيط: ج١، ص٤٨٤، (شعر).

(٤) الإصابة: ج١، ص٣.

ومنها: أن الآية نفت تعليم الشعر ولم تنف العلم به، ونفت عن القرآن الشعر ولم تنف عن النبيﷺ ذلك، وما نعته هو مداخلة الشعر للقرآن، فلذا لا تُعد خطبه ورسائله ومواعظه قرآناً، فليكن ما يذكره من الشعر إنشاءً أو إنشاداً من ذلك مادام يعرف أنه ليس من القرآن، ونصب القرينة عليه. نعم لم يكن يزاوله كثيراً دفعاً للاتهام.

ومنها: أنّ الكفار وصفوهﷺ بالشاعر، وهذا الوصف لا يقال إلّا لمن اتخذ الشعر صناعة له، نظير العالم والخطيب والكاتب ونحوهم، فإنه لا يُقال لمن يعلم معلومة واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً بأنه عالم؛ لعدم خلوّ كل إنسان عاقل عن معلومة يدركها بنفسه، ولا يقال لمن خطب مرَّة أو مرَّتين بأنه خطيب، ولا يقال لمن كتب أسطراً بأنه كاتب، كذلك الشاعر، فاستشهاد النبيّﷺ ببعض الأبيات القليلة أو إنشاء بعضها لا يصحح إطلاق صفة الشاعر عليه، فما نفته الآية اتخاذ الشعر صناعة له، وهذا لا يمنع أن يستشهد أحياناً بالشعر.

ومنها: أنّ الآية نفت تعليمه الشعر، أي أن قوله وما يأتي به للناس ليس شعراً، وهو يتضمَّن معنيين:

الأول: أن تنفي عنه الكذب.

الثاني: أن تنفي عنه الشعر بمعناه الخاص، وهو الكلام المبني على الخيالات، وكلاهما لا ينطبقان على ما استشهد به النبيّﷺ من الكلام الموزون؛ لأنه يتضمَّن بيان الحقائق الصادقة بقالب موزون.

والخلاصة: أنّ استشهاد النبي صلى الله عليه وآله بالشعر أحياناً إنشاءً أو إنشاداً لا يتنافى مع منطوق الآية، إمّا لأنه ليس من الشعر موضوعاً، أو لأنه ليس منه حُكماً.

الناقض الثاني: أنّ العديد من الآيات الشريفة وردت مطابقة للأوزان الشعرية، بل قيل إنّ ما ورد يطابق جميع البحور الشعرية[(١)]، فتنقض مفاد الآية المباركة.

منها: ما ورد من بحر الطويل: ﴿**فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾[(٢)].

ومنها: ما ورد من بحر الكامل: ﴿**وَاللَّه يَهْدِي مَن يَشَاء إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[(٣)].

ومنها: ما ورد من بحر الرمل: ﴿**وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ**﴾[(٤)].

ومنها: ما ورد من بحر السريع: ﴿**نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ**﴾[(٥)] و ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ**﴾[(٦)].

ومنها: ما ورد من بحر المتقارب: ﴿**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾[(٧)] إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٥٩.
(٢) سورة الكهف: الآية ٢٩.
(٣) سورة النور: الآية ٤٦.
(٤) سورة سبأ: الآية ١٣.
(٥) سورة الأنبياء: الآية ١٨.
(٦) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.
(٧) سورة الأعراف: الآية ١٨٣.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: بعض ما ذكرناه في جواب الناقض الأول يرد هنا كعدم القصد إلى الشعر.

الوجه الثاني: أنّ أصل الدعوى باطلة؛ لأن الآيات المذكورة لم ترد على الوزن العروضي الكامل، بل مشتملة على زحاف الوزن، فلا تطابق الوزن إلّا بتسريع في القراءة أو تسكين أو بتر الكلام والتوّقف فيه ونحوها من تكلّفات، خاصة وأن بعضها واردة على وزن شطر من الوزن لا كل البيت، والشعر يطلق على الكلام الموزون المقفّى بشطرين صدْر وعجز.

الوجه الثالث: أنّ الإتيان بمثل هذه الآيات لبيان أنه غير عاجز عن الإتيان بالشعر وقوالبه وأساليبه ولكنه لا يفعله؛ لأنه لا يليق بمقامه ولا بمبادئه وأهدافه خصوصاً، وأنّ الشعراء في ذاك الزمان كانوا معروفين بالخلاعة والمجون والتعصّب للمبادئ الباطلة، وشعرهم لم يعدُ الغزل والهجاء والافتخار بما يتوهمون أنها مفاخر، ولم يكن فيهم شعر ممدوح، ولا شاعر يقول ما يستحق المدح والثناء.

وأصدق بيت قاله فيهم لبيد كما ورد عنه صلى الله عليه وآله وهو قوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ   وكل نعيم لا محالة زائلُ(١)

---

(١)انظر التحرير والتنوير: ح٢٣، ص٦٤؛ تفسير السمعاني: ج٤، ص١٨٧؛ أحكام القرآن: ج٣، ص٨؛ تفسير الألوسي: ج٤، ص١٧٧؛ أضواء البيان: ج٣، ص٣٠٧.

وفي مثل هذا الجو الفاسد لابد من إلفات الناس إلى أنه لا يعجز عن الشعر الذي كان مالئاً الأندية والمحافل ويشكِّل ثقافة الزمان وعقلية أهله، إلّا أنه لا يقوله ترفعاً من قبحه ونواقصه، والشاهد أنه قادر على الإتيان بمثله ولكن لا يفعله.

الوجه الرابع: لأجل تحدي الشعراء والبُلغاء وقد كان الشعر والبلاغة أهم صناعة لأهل ذلك الزمان، فإنه جاءهم بكلام ثالث ليس من الكلام المعهود بينهم، فلا هو شعر ولا هو نثر، ويحمل خصائص الاثنين معاً، وهذه قضيّة كانت جديدة على الناس، لأن كلام العرب لا يخلو إمّا أنْ يكون شعراً أو نثراً، وخصوصية الشعر أنه موزون مُقفًّى وقابل للتلحين، وخصوصية النثر أنه غير موزون ولا مُقفًّى ولا يقبل التلحين، فجاءهم النبيﷺ بكلام ليس موزوناً ومُقفًّى ويقبل التلحين، فجمعَ بين خصوصية الشعر وخصوصية النثر، وهذا كان إعجازاً؛ لذا أبهرهم وتحيّروا في وصفه، وأقرَّ كبار أدبائهم بأنه ليس من الشعر، وأقرَّوا جميعاً أنه ليس من النثر المعهود فاحتاروا في وصفه، ووصفه بعضهم بالسحر.

فيتحصَّل: أنّ الآيات الشريفة ليست ناقضة لهذه الآية؛ لأنها ليست بشعر، وتحمل أسلوب الشعر وليست منه. أريد بها إفحام الأدباء والشعراء وإثبات أنه كلام فوق كلام البشر، ويعجز الناس على الإتيان بمثله.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: يجب العمل بالأهم دائماً

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾[1] يتضمَّن تعليمين هامّين في الحياة الاجتماعية: أحدهما عام والآخر خاص. أمّا العام فهو وجوب مراعاة تزاحم المصالح والمفاسد في جميع المواقف والسياسات والعمل فيها بقانون الأهم والمهم، ويعلمنا القرآن ذلك بنفي تعليم الشعر للنبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ونفي لياقته عنه؛ لدفع التهمة عن القرآن وما جاء به النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، فإنّ الشعر من الفنون الجميلة، وبعضه من الحكمة، وبعض بيانه سحر، ويمكن أنْ يكون هادياً ومعلِّماً، وهو من هذه الجهة يوافق أغراض القرآن وغاياته إلّا أنه ليس كل شعر هكذا، وقد راج في مجتمع ثقافته العامّة كانت قائمة على الشعر الكاذب وتسخيره للأغراض والدواعي التافهة كالغزل والهجاء والتفاخر ونحوها، إلّا أنّ مكانة النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ والقرآن أهم قيمة، ولها حرمة إلهية كبيرة يجب أنْ تُحْفَظ على كل حال، ولأجل هذه القيمة منع من الشعر ونفي عنه.

---

(١) سورة يس: الآية٦٩.

فالنفي عنه ليس لعدم المقتضي، بل لوجود المانع، وهو ابتلاؤه بالمفسدة العظيمة، وبهذا يعلّمنا قانوناً عامّاً في الحياة، ويعطينا ضابطة لتقويم الأمور إذا تزاحمت واختيار الموقف الصائب فيها عبر النظر في الأهم والمهم منها، والأخذ بجانب الأهم وإن أدّى ذلك أحياناً إلى بعض الضرر، ولو أخذ الناس بهذا التعليم انحلّت الكثير من المشاكل الشخصيّة والاجتماعية.

مثلاً تتحدَّث التقارير في هذه البرهة بازدياد نسبة الطلاق في المجتمع المسلم، وباتت تهدد الأسرة بأسباب عديدة، وبالرغم من أنّ الطلاق في الإسلام أبغض الحلال ويهتز له عرش الرحمن إلّا أنّ المسلمين وقعوا به كثيراً، وفي بعض الأحيان يصطف أهل الزوجة وأهل الزوج كلٌّ مع طرفه، ويحثّون على الانفصال بدلاً من محاولة الإصلاح، وذلك ناشئ من تصوّر الزوجين أو أهلهما بأنّ سعادة الزوجة في انفصالها، وكذلك سعادة الزوج، وغفلوا عن الأضرار الكثيرة الناجمة عن الطلاق خاصّة لو كان لهما أولاد، ولو أخذوا بهذا القانون أي تقديم الأهم والمهم وملاحظة المفاسد والمصالح والأخذ بالغالب منهما لَمَا وقعَ الكثير من الطلاق.

ومثله يقال في المشاكل الاجتماعية بين الأرحام والجيران والعشائر ونحوها، وفي بعضها يقع أطراف النزاع في محرمات كثيرة، وأحياناً يُسفَك فيها الدم المحرَّم، وإذا راعوا قانون الأهم لتجنبوا ذلك، والبحث مفصّل في هذا المجال موكول إلى الأبحاث الفقهيّة.

وجوب العمل بشرائط القدوة

وأمّا الخاص فهو موجَّه لأهل العلم والزعماء وأصحاب الوجاهة، وهو أنّ أهم رأس مال لهم في المجتمع يمكِّنهم من تحقيق الغايات والإنجازات والانتصارات هو المصداقية والوثاقة والسمعة الحسنة، وهذا لا يكون إلّا بالترفع عن سفاسف الأمور والتوافه وما يوجِب التهمة، فإنه لا يمكن للعالم والزعيم والوجيه أن يكون قدوة إلّا بتنظيف باطنه وظاهره، وتنظيف الباطن يكون بالعلم والتقوى وحسن الأخلاق، وتنظيف الظاهر يكون بالزهد ومواساة الناس وخدمتهم والتواضع لهم، وتنظيف ثالث يتعلَّق بالأنصار والمقربين منه، فإنه قد يكون الزعيم نزيهاً إلّا أنّ بعض من يعمل معه لا يتمتَّع بتلك النزاهة اللائقة به فيوجب له التشويه وسوء السمعة والخدش بالمصداقية، فلابد وأن يراقب أنصاره ويسعى لتهذيبهم والارتقاء بمستوياتهم الفكرية والأخلاقية إلى درجات جيدة تليق بمقامه ومقامهم.

فإنّ القيادات الناجحة مَن تترفع عن الدنيا ومغرياتها، وتكون في خدمة الناس، ولا تترفع عليهم أو تنعزل عنهم، وتتجنَّب كل مواطِن التهمة التي تسقط المكانة من القلوب والنفوس، فإنّ محبة الناس واستجابتهم للقائد لا تكون إلّا لحسن سمعته وثقتهم به، ولا يمكن أن تتعزز الثقة إلّا بحسن الباطن والظاهر، ولذا اتفق الإمامية على أنْ الأنبياء والأولياء وفي مراتب أدنى العلماء القادة الذين يمثلون النبيّ والإمام عليهما السلام يجب أنْ يتميزوا بالنزاهة وأن يكونوا أفضل الناس؛ لأن الناقص لا يمكن أنْ يكون إماماً لغيره، وهذا النهج هو نهج أنبياء الله وأوليائه.

فقد حكى أبو ذر رضوان الله عليه عن تواضع النبي صلى الله عليه وآله وكان بحكم رئيس دولة مترامية الأطراف في جزيرة العرب، وهو حجة الله على خلقه، وبيده خزائن السماوات والأرض والناس طوع أمره ونهيه: (أنه كان يجلس بين ظهراني أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيّهم هو حتى يسأل، فطلبنا إلى النبي صلى الله عليه وآله أنْ يجعل مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه، فبنينا له دكاناً –مرتفعاً– من طين، وكان يجلس عليه ونجلس بجانبيه)[١]

خصائص سيرة النبي صلى الله عليه وآله

وفي ذلك دلالة على أمور:

الأول: أنه صلوات الله عليه كان مع الناس وفيهم ولا يتميَّز عليهم. ليس معزولاً ولا يمكن اللقاء به إلّا بإجراءات صعبة.

الثاني: لم يكن له حُجّاب يعزلون الداخل عليه، ولا يدخل عليه داخل إلّا بإذنهم.

الثالث: لم يكن مجلسه يتميَّز عن مجالس الآخرين.

بمثل هذه المزايا والخصوصيات صار رسول الله صلى الله عليه وآله الشخصيّة الأولى في العالَم الذي يفتخر به كل بني آدم ويستجيبون له.

وفي رواية أخرى أنه كان يمشي في الطرقات مع الناس وفيهم، وكان يسلِّم على الصبيان والنسوة، وذات مرة أتاه رجل يكلّمه فأرعد، فقال عليه السلام:

---

(١) مكارم الأخلاق: ص١٦؛ البحار: ج١٦، ص٢٢٩، ح٣٥.

﴿هوِّن عليك، فلستُ بملِك إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القدّ﴾[١] فلم يجعل لمشيه خصوصية، ولم يجعل هيبته فيمن يمشي معه، أو بضجيج الأقدام حوله، ولم ينسه واقعه وماضيه حينما يبلغ المكانة والمقام، فهو حجة الله على أرضه، ويقول أنا ابن امرأة كانت تأكل القدَّ، وهو اللحم المجفف في الهواء والشمس[٢]، أي لشدة الفقر كانوا يدخرون طعامهم بهذه الكيفية، وكان إذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس إليه حين يدخل[٣]، أي لا يتصدَّر جلوس المجلس، فإنّ هذا من النقص، والعاقل يدرك أنّ المكان بالمكين، والجالس هو الذي يزين المجلس وليس مكان الجلوس.

وعن أنس بن مالك قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعود المريض، ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار[٤].

وفي المحاسن عن الحسن الصيقل: قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿مرَّت امرأة بذيّة برسول الله صلى الله عليه وآله وهو يأكل وهو جالس على الحضيض –هو قرار الأرض[٥] – فقالت: يا محمد! والله إنك لتأكل أكل العبد، وتجلس جلوسه، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: ويحك وأيّ عبد أعبد

(١) مكارم الأخلاق: ص١٦؛ البحار: ج١٦، ص٢٢٩، ح٣٥.
(٢) المعجم الوسيط: ج٢، ٧١٨، (قّد).
(٣) الكافي: ج٢، ص٦٦٢، ح٦؛ الوسائل: ج١٢، الباب ٧٥ من أبواب أحكام العشرة، ص١٠٨، ح١٥٧٧٧؛ جامع أحاديث الشيعة: ج١٦، ص٣، ح٢.
(٤) مكارم الأخلاق: ص١٥؛ البحار: ج١٦، ص٢٢٩، ح٣٥.
(٥) معجم مقاييس اللغة: ج٢، ص١٣، (حض)؛ النهاية في غريب الحديث: ج١، ص٤٠٠، (حضض)، وفيه: ((الحضيض: قرار الأرض وأسفل الجبل)).

منى؟ قالت: فناولني لقمة من طعامك فناولها، فقالت: لا والله إلّا التي في فيك، فأخرج رسول الله اللقمة من فمه فناولها فأكلتها. قال أبو عبد الله عليه السلام: فما أصابها داء حتى فارقت الدنيا روحها﴾[١].

وكذا كان أمير المؤمنين عليه السلام وهو رئيس أكبر دولة وأعظم قائد عسكري، فقد وصفه صعصعة بن صوحان لمعاوية فقال: كان فينا كأحدنا في لين جانب، وشدة تواضع وسهولة قياد[٢].

وقال معاوية لقيس بن سعد: رحم الله أبا حسن، فلقد كان هشّاً بشّاً ذا فكاهة. قال قيس: نعم كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزح ويبتسم إلى أصحابه ... أمّا والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذي لبدتين قد مسَّه الطوى. تلك هيبة التقوى، وليس كما يهابك طغام أهل الشام، وقد بقي هذا الخُلُق متوارثاً متناقلاً في محبيه وأوليائه إلى الآن، كما بقي الجفاء والخشونة والوعورة في الجانب الآخر، ومَن له أدنى معرفة بأخلاق الناس وعوائدهم يعرف ذلك[٣].

واستمرَّ نهجه حتى بعد تكوين الدولة، وسع مخالفيه، فقد ورد أنّ أعرابياً من بني سليم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وكان كافراً ومعادياً، فلمّا وقف

---

(١) المحاسن: ج٢، ص٤٥٧، ح٣٨٨؛ وانظر الكافي: ج٦، ص٢٧١، ح٢ وفي الهامش: ((الحضيض: قرار الأرض وأسفل الجبل)).

(٢) الصراط المستقيم: ج١، ص١٦٢؛ وانظر كتاب الأربعين: ص٤٢٠؛ البحار: ج٤١، ص١٤٧.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج١، ص٢٥-٢٦؛ المعصومون الأربعة عشر عليهم السلام: ص١٣٦.

بإزائه ناداه: يا محمد يا محمد! أنت الساحر الكذاب الذي ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء على ذي لهجة هو أكذب منك، إنك أنت الذي تزعم أنّ لك في هذه الخضراء إلهاً بعث بك إلى الأسود والأبيض، والّلات والعزى لولا أنّي أخاف أنّ قومي يسمونني العجول لضربتك بسيفي هذا ضربة أقتلك بها، فأسُود بك الأولين والآخرين، فوثبَ إليه أحد أصحابه ليبطش به، فقال النبيﷺ: ﴿اجلس فقد كادَ الحليم أن يكون نبيّاً، ثم التفت النبيﷺ إلى الأعرابي فقال له: يا أخا بني سليم! هكذا تفعَل العرب؟ يتهجّمون علينا في مجالسنا يجابهوننا بالكلام الغليظ؟ يا أعرابي! والذي بعثني بالحقِّ نبيّاً إنّ مَن ضرَّ بي في دار الدنيا هو غداً في النار يتلظّى﴾.

وقد روي أنّ الرجل بعد هذا الموقف أسلم ورجع إلى قومه يدعوهم إليه حتى أسلم منهم الكثير[(١)].

بمثل هذا النهج ساد السِلْم الأهلي والاستقرار السياسي والتطوّر الاقتصادي والعُمراني في المدينة المنوَّرة، وقد كان أهلها على أديان ومذاهب منهم اليهود والنصارى والمسلمون، وبعضهم كانوا منافقين ويتآمرون على الإسلام والمسلمين، ولم يذكر التأريخ وقوع حوادث في المدينة فيها ظلم من الحاكم، أو عدوان من الناس على بعضهم بسبب عصبيّة أو اختلاف فكري أو سياسي، ولم يكن لحكومة النبيﷺ شرطة ولا وزراء وقوة تنفيذية ولا مجلس وطني ولا جيش جرّار، وكل ما كان عندهم قوة الدين والعقيدة والقيادة الربانية الصالحة، وإذا كانت تحصل منازعة في الحقوق الشخصيّة

(١) انظر البحار: ج٤٣، ص٧٠؛ السبيل إلى إنهاض المسلمين: ص٣١٧.

كان النبيﷺ يقضي بينهم بالحقّ بلا إجراءات معقدة وصعبة تضيع فيها الحقوق أكثر مما تنال

ولو قارنا هذا مع ما يجري في العصر الحديث وما تقوم عليه الدول والحكومات من أنظمة ووزارات وأجهزة ضخمة وقضاء منتشر مع ملاحظة ازدياد نسبة الجرائم والمفاسد والظلم والعدوان لأدركنا هذه الحقيقة بجلاء، وهي:

أنّ القيادة الصالحة هي أساس التقدُّم والتطوّر والأمن والسلام، وليس تعقيدات الأنظمة وتكثير المؤسسات وضجيج القوانين والأجهزة، ولذا تنصُّ الروايات النبوية على أنّ صنفين من الأمّة إذا فسدا فسدت الأمّة، وإذا صلحا صلحت الأمّة، وهما العلماء والأمراء[١]، واطلاق العلماء يشمل ذوي الاختصاص في كل علم وفن، والأمراء الذين يملكون زمام الأمر والنهي من أبسط الوظائف إلى أعلاها.

التعليم الثاني: لطلبة العلم وأهل الحِرَف

وهو أنّ كل عِلم نظري أو عملي أو تجريبي يعود إليه سبحانه، ويتم بتعليمه، فلا ينبغي أنْ يغترَّ الإنسان بما يعلم؛ لأنه ليس منه بل من ربِّه. فعليه أن يشكر هذه النعمة، وشكرها يتم بتوظيفها في طاعة ربِّه. إنْ قال قائل: كيف كل علم يكون بتعليمه؟ فالجواب بطريقين:

---

(١) انظر الخصال: ص٣٦، ح١١؛ جامع أحاديث الشيعة: ج١٥، ص١٦٠، ح٥٢٨؛ عجائب الآثار: ج١، ص١٨.

أحدهما: التعليم المباشر، فمنذ أول الخليقة علَّم آدم الأسماء كلها، وكان ممّا علَّمه أسماء الجبال والبحار والأودية والحيوان والنبات وأسماء حجج الله على خلقه وهم محمد وآل محمد عليهم السلام[1]، وكان تعليمه واسعاً، فعلمه ما لا تعلم به الملائكة، وفي الصناعات علَّم داود عليه السلام صنعة لبوس، وحتى الشعر والأدب كله بإفهام منه سبحانه.

ثانيهما: التعليم بالواسطة، فأول تعليم تمَّ للملائكة عبر آدم عليه السلام؛ إذ أنبأهم بأسماء الحجج والآيات والأشياء، وعلّم قابيل كيف يدفن أخاه هابيل بعد أن قتله بواسطة الغراب، وعلّم موسى بالخضر وهكذا، ولا يزال الباري عزّ وجلّ يُعلِّم كل إنسان بالمباشرة عبر الإلهام أو عبر الأساتذة والمربِّين، فلا عِلم من دون تعليمه سبحانه إمّا بالمباشرة أو بالواسطة، فأصل العلوم منه سبحانه، وتطويرها بيد البشر، بل وحتى تطويرها منه سبحانه؛ لأنه الذي يلهمهم الأفكار والإبداعات لكي يطوّروها، ولولاهُ لتعذَّرَ ذلك، فإنّ الشاعر قد يعصي عليه تكوين بيت من الشعر ولو عالجه أياماً وليالي، وفي أحيان القصيدة الكاملة تنظم عنده في ساعة، ولو كان الشعر منه وليس بالإلهام لَمَا افترق حاله من وقت لآخر، وكذا العالِم والصانع والباحث والرسّام والفنان. كل ذلك إلهامات منه سبحانه يفيضها على عباده، فأذهان الناس وقلوبهم محل لإفاضة العلوم والمعارف والصور وليست أسباباً.

---

(١) انظر كمال الدين: ص١٣-١٥؛ مجمع البيان: ج١، ص١٨٠.

خصائص العلوم الإلهية

ومن هذا تتفرَّع حقائق هامة:

الحقيقة الأولى: أنّ العلم هبة إلهية لأبناء البشر، فكلما ازداد الإنسان عِلماً يجب أنْ يزداد شكراً لله سبحانه، وكلما ازداد شكراً أفاض عليه العلوم والمعارف الربانية.

الحقيقة الثانية: أنّ العلوم ثلاثة:

الأولى: العلوم الأصيلة، وهي التي ترتقي بالإنسان في بُعدي الروح والجسد، ووجه الأصالة فيها أنها تتعلَّق بالإنسان، والإنسان هو الأصل في الوجود بعد الله سبحانه، وعليه تدور غايات الخلق تكويناً وتشريعاً، وأما العلوم التي تتعلَّق بروح الإنسان أو جسده فهي أصيلة، والأولى هي المعارف والفقه والأخلاق، والثانية الطب ولواحقه فإنّ الأولى تُزكي نفسه وتهذبها، والثانية تشد بدنه وتجعله مستوي المزاج، وعلى هذا نصَّت الأخبار الشريفة كقوله صلى الله عليه وآله: «العِلم علمان: عِلم الأديان وعِلم الأبدان»(١) وفي حديث آخر: «الفقه للأديان والطبّ للأبدان»(٢) وفي مصطلح أهل المعرفة الفقه ما يشمل المعارف والأحكام والأخلاق.

---

(١) البحار: ج١، ص٢٢٠، ح٥٢؛ كنز الكراجكي: ص٢٣٩؛ الرواشح السماوية: ص٣١٧.

(٢) تحف العقول: ص٢٠٨؛ مستدرك الوسائل: ج٤، الباب ٢٣ من أبواب قراءة القرآن، ص٢٧٨، ح٤٦٩٤؛ كنز الكراجكي: ص٢٤٠؛ معدن الجواهر: ص٤٠؛ البحار: ج١، ص٢١٨، ح٤٢.

الثانية: ما تكون كالأصيلة؛ لكونها مبادئ للأصيلة إذا لا تُعْرَف يصعب معرفة غيرها مثل أصول الفقه للفقه، والمنطق للكلام والعقائد وصون الذهن من الخطأ في التفكير، والنحو للسان، والصناعات والزراعات والتجارات ونحوها تدخل في هذا القسم بالمقدار الذي يقوُم حياة الإنسان الجسدية والروحية، وهذان القسمان بعضهما واجب بالوجوب العيني على الناس مثل المعارف الأساسية من العقيدة الحقّة كالتوحيد والنبوّة والإمامة والمعاد بمقدار ما يقوم به الإيمان، وكذا معرفة الأحكام التي تقع في محل ابتلاء المُكَلَّفين مثل الطهارة والنجاسة والعبادات والمعاملات التي يحتاجها الإنسان في حياته اليومية، وكذلك الأخلاق التي تقوِّم سلوكه الإنساني والاجتماعي، وبعضهما واجب بالوجوب الكِفائي، وتفصيل ذلك في الأبحاث الفقهيّة.

الثالثة: العلوم غير الأصيلة، وهي التي لا تدخل مباشرةً في خدمة الإنسان، ولا تكون من مبادئها، فمعرفتها وعدم معرفتها لا يخلّ بعقيدة الإنسان ولا بنظامه الاجتماعي ولا بسلوكه الأخلاقي، فإنّ هذه تُعدّ من فضول العلوم مثل عِلم الأنساب وعلم الفلك وأصول الكواكب ونحو ذلك مما لا يرتبط بحياة البشر كما دلت عليه بعض الأخبار[1].

وبعض هذه العلوم قد تكون محرَّمة لما فيها من أضرار بالإنسان جسدياً أو روحياً مثل السِحْر وصناعة الأسلحة المدمِّرة والطب الضار والإعلام

---

(١) انظر الكافي: ج١، ص٣٢، ح١؛ الأمالي (للصدوق): ص٣٤٠، ح٤٠٣؛ معاني الأخبار: ص١٤١، ح١.

الكاذب والبرمجيات المضلِّلة أو التي تعلِّم على العنف والانحلال الأخلاقي والتشويه الفكري ونحو ذلك.

ولا يقال: كيف نجمع القول بأنّ العلم والتعليم كله يعود إلى الله سبحانه وأنّ بعض العلوم محرَّمة؟

والجواب: نقضاً بسائر النِعَم الإلهية بما فيها الطعام والشراب والشهوات فإنها من الله سبحانه واستعمال بعضها محرَّم.

وحلاً من وجوه:

الوجه الأول: أنّ الباري عزّ وجلّ يعطي ويجيز ويحرِّم لأجل اختبار الإنسان وامتحانه في استثمار النِعَم والمواهب الإلهية في أي طريق.

الوجه الثاني: أنّ العطاء من الله سبحانه والاستعمال من الإنسان فلا تنافي.

وتوضيح ذلك: أنّ الباري عزّ وجلّ يعلِّم الإنسان العلم مباشرة أو بالواسطة، وأعطاه العقل والضمير والاختيار، وأرسل إليه الأنبياء، وأنزلَ الكتب، وأوجب عليه أنْ ينتفع بالعلم في ارتقائه الروحي والجسدي، فإذا استخدمه الإنسان في النهج الباطل كان ذلك عليه نظير عِلم الطب الجراحي الذي يُعلِّم الطالب قواعد هذا العِلم ومعادلاته، وهو يستخدمه في قتل الناس وسرقة أعضائهم ونحوه.

الوجه الثالث: أنّ التعليم الإلهي للبشر غايته نفعه والارتقاء به، وهو لطف ورحمة إلهيّة، فلو كان الإنسان مستحقاً لا يحرمه الباري عزّ وجلّ منه لأنّ حرمانه إمّا بخل أو جهل باستحقاقه، أو تشف وإضرار به، والكل ممتنع، ولا يناسب مقامه سبحانه وحكمته، ومن لطفه أن يمنع تعلُّم هذه

العلوم فيأذن بتعلّمها بالإذن التكويني لأجل الوصول إلى غايتها، فإذا أراد الإنسان أن ينتفع منها الانتفاع الضار به لا يأذن بالإذن التشريعي به فيحرِّمه ويحاسبه عليه، وهذا هو وجه الجمع بين ثلاثة أمور هي:

١- الاختيار في الإنسان وكونه فاعلاً مختاراً.

٢- فتح أسباب التقدُّم والارتقاء والتطوُّر له.

٣- الاختبار الإلهي له بفتح أسباب التقدُّم والارتقاء.

وبذلك يتّضح أنّ كل طالب علم ومعرفة يجب أن يميّز العلوم النافعة والضارّة فيأخذ بالأول ويترك الثاني.

في الحياة ما يليق وما لا يليق

الحقيقة الثالثة: أنّ على المحصلين وطلبة العلوم وطلّاب الجامعات وعموم الشباب أن يلتفتوا إلى أمور:

أحدها: أنّ العلوم فيها ما يليق بالشأن وفيها مالا يليق، وبعض العلوم قد تليق بالبعض أكثر ممّا تليق بالبعض الآخر، مثلاً عِلم توليد النساء فإنه يليق بالنساء أكثر ممّا يليق بالرجال، وكذلك عِلم تربية الأولاد وتدبير المنزل ونحوها، بينما علم الميكانيك والبناء والصناعات والعلوم العسكرية ونحوها تليق بالرجال أكثر، بل لا تليق بالنساء، فلو دخلت البنات في تخصصات من هذا القبيل في دراساتهن الجامعية يكون من قبيل حمل الشيء فوق طاقته.

ثانيها: أنّ ما يتعلَّق بشخص الإنسان وشخصيَّته من طعام وشراب ولباس وسكن وأسلوب معاملة كله فيه ما يليق وينبغي وفيه ما لا يليق ولا ينبغي، فالشخص المتوازن صاحب المكانة يجب أنْ يظهر توازنه على شكله وأسلوبه الشخصي حتى في طعامه ولباسه ومظهره، وحتى في طرز لباسه وألوانه وقصاص شعره وشكل وجهه، ولذا يحرِّم الفقهاء لباس الشهرة وتشبُّه الرجال بالنساء وبالعكس.

فلو أنّ الشاب اليافع لبس ملابس البنات أو اختار أزياءها أو جعل شعره كشعَرهن ووجهه كوجههن هل يليق بمقامه ومكانته كشاب؟ ومستقبلاً كرجل تقوم عليه الأسرة ويُبنى المجتمع؟

ولو أنّ الرجل الكهل وهو في سن الأربعين والخمسين لبس ملابس الشباب وتزيا بألوانهم فإنه لا يليق بمقامه، ويوقعه في التُّهمة.

وحتى بعض المأكولات والمشروبات قد تُناسب الطفل الصغير ولا تناسب الشاب والرجل الكبير، والعكس صحيح أيضاً، والصديق أيضاً منه ما ينبغي ويليق ومنه ما لا ينبغي.

فعن الصادق عليه السلام: ﴿أصحب مَن تتزيَّن به﴾[1] وعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿عجبت لِمَن يرغب في التكثُّر من الأصحاب كيف لا يصحب العلماء الألبّاء الأتقياء الذين يغتنم فضائلهم، وتهديه علومهم، وتزيّنه صحبتهم﴾[2].

---

(١) الفقيه: ج٢، ص٢٧٨، ح٢٤٤٠؛ مكارم الأخلاق: ص٢١٥؛ عوالي اللآلئ: ج٤، ص٣١، ح١٠٧؛ البحار: ج٧٣، ص٢٦٧، ح٩.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ص٣٣٠؛ غرر الحكم: ج٤، ص٣٤٤، ح٦٢٧٧.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أسعد الناس مَن خالط كِرام الناس»[(١)] وبعكسه مَن صاحَبَ شِرار الناس، ويعرفون من أفكارهم و مواقفهم.

فلابد وأن يلتفت الشباب إلى أنفسهم، ويبصروا طريقهم، وفي أي موضِع يضعون أنفسهم في ملابسهم وأكلهم وشربهم ومجالسهم وطريقة تعاملهم.

ليس كل لباس يصحُّ لبسه، ولا كل طعام يؤكل، ولا كل صاحب يكون صديقاً لائقاً إذا أرادوا السعادة والتوفيق في حياتهم، لاسيّما في هذه الأيام التي يتعرَّض فيها المجتمع والإنسان إلى هجمات معادية كبيرة وخطيرة تسعى لهدم قيَم الدين والأخلاق، وتشيع الانحلال الأخلاقي، وتهدم الشخصيّة الاجتماعية لكيلا تبقى ثوابت وحدود وأصول يلتزم بها الناس.

ثالثها: أنّ حلول المعارف والعلوم الإلهية في الإنسان لا تناسب الانفعالات النفسية والخيالات، فإنّ الروح التي تتحسس وتبالغ في خيالاتها وتصوراتها لا يمكن أنْ تكون محلاً لفيوضات العلوم والمعارف ما لم تتخلّ عن الأوهام والوساوس والخيالات لتستعد لتلقّي العلوم والمعارف؛ لذا نادراً ما يجتمع العلم مع الشعر، ولو اجتمعا عند شخص فلم يكن الشعر بمعناه المعهود، وإنما كان من شعر الحكمة ونحوه.

---

(١) الأمالي (للصدوق): ص٧٣، ح٤١؛ البحار: ج٧١، ص١٨٥، ح٢؛ نهج السعادة: ج٧، ص٢٥١.

التعليم الثالث: ما ينبغي في الحوار وما لا ينبغي

إنّ للكلام وتبادل الحديث والحوار فيه ما ينبغي وما لا ينبغي، خصوصاً إذا كان الكلام يتعلّق بالأخيار والصالحين من العباد، فإنه لا ينبغي أن يصدّق كل كلام يقال، ولا كل متكلِّم يستحق التصديق، فإنّ الكثير من الكلام الذي ينتقص من الآخرين قد يكون بدوافع وأغراض دنيوية، خصوصاً إذا صدر هذا الكلام ضدّ العلماء الأتقياء، فإنّ أعداء الدين وأهله يسعون لهدم القيَم وتحطيم مرتكزات القوة في المجتمع، وأهم مرتكزات القوة وجود العلماء والمدارس العلمية والحوزات المباركة، فإنها بصيرة المجتمع وبصره، وبوجودهم يهتدي الناس إلى مصالحهم الدينية والدنيوية، ويسعى الأعداء لاتهامهم وتشويه سمعتهم لفكّ ارتباط الناس بهم، ويسهل استعمارهم فكرياً وحضارياً، فإذا عُرِفَ الإنسان بالتقوى والصلاح لا ينبغي أن تصدَّق الدعايات المضلِّلة والمشوِّهة من صورته، فإنّ ذلك يؤذي المؤمن، وايذاؤه محرَّم، بل إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وآله.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿مَن آذى مؤمناً فقد آذاني، ومَن آذاني فقد آذى الله عزّ وجلّ، ومَن آذى الله فهو ملعون في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان﴾(١) أي تلعنه الكتب السماوية، ومعنى ذلك أنه محرَّم في جميع الشرائع، ومن الأذى الاتِّهام والقدح باللسان والكلام والقول بغير عِلم.

---

(١) مشكاة الأنوار: ص١٤٩؛ البحار: ج٦٤، ص٧٢، ح٤٠؛ مستدرك الوسائل: ج٩، الباب ١٢٥ من أبواب أحكام العشرة، ص٩٩، ح١٠٣٣٥.

وفي رواية المفضَّل قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «مَن روى على مؤمن رواية يريد بها شَيْنَهُ وهَدْم مروّتهِ لِيَسْقُط من أعين الناس أخرجهُ الله من ولايتهِ إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان»[1].

وفيها دلالة على أنْ الشيطان يتبَّرأ من بعض الذنوب والمذنبين لشدة قباحتها عنده، ومنها تسقيط المؤمن والتشهير به، والقدح بمكانته، وجزاؤه شديد.

ففي رواية المفضَّل قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الصدود لأوليائي؟ فيقوم قوم ليس على وجوههم لحم فيقال: هؤلاء الذين آذوا المؤمنين، ونصبوا لهم، وعاندوهم، وعنَّفوهم في دينهم، ثم يُؤمَر بهم إلى جهنّم»[2] والصدّ المنع والهجران، والنَصَب المعاداة، والتعنيف القدح والتعيير واللوم[3].

ولعلّ سلخ الوجوه من اللحم من باب مسانخة الجزاء للعمل؛ لأنّ هؤلاء أراقوا ماء وجوه المؤمنين، وهدموا كرامتهم في المجتمع، فيكون جزاءهم المسانخ هذا.

وهذا الجزاء في الآخرة، وأمّا في الدنيا فله آثار سيئة أخرى، فإنّ بركات المؤمن على أهل الأرض عظيمة، ففي الأخبار أنّ الله سبحانه ليدفع بالمؤمن الواحد عن القرية الفناء[4].

---

(١) الوسائل: ج١٢، الباب ١٥٧ من أبواب أحكام العشرة، ص٢٩٤، ح١٦٣٤١؛ البحار: ج٧٢، ص١٦٨، ح٤٠.

(٢) الكافي: ج٢، ص٣٥١، ح٢؛ وانظر ثواب الأعمال: ص٢٥٧.

(٣) النهاية: ج٣، ص١٥؛ مرآة العقول: ج١٠، ص٣٧٩.

(٤) الكافي: ج٢، ص٢٤٧، ح١؛ البحار: ج٦٤، ص١٤٣، ح١.

وورد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نظر إلى الكعبة وقال: ﴿مرحباً بالبيت ما أعظمك! وما أعظم حرمتك على الله! والله لَلمؤمن أعظم حرمة منك؛ لأنّ اللهَ حرَّم منك واحدة ومن المؤمن ثلاثة: ماله ودمه وأنْ يُظَن به ظنّ السوء﴾[(١)].

وخصوصاً إذا كان المؤمن فقيهاً عالماً تقيّاً ورعاً، فإنّ وجود العالم الفقيه بين الناس أمان لأهل الأرض، وحرمته من حرمة الله والنبي وأوليائه الطاهرين عليهم السلام، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: ﴿فضْل العالِم على الشهيد درجة، وفضل الشهيد على العابد درجة، وفضل النبيّ على العالِم درجة، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، وفضل العالم على سائر الناس كفضلي على أدناهم﴾[(٢)].

وفي رواية أخرى أنّ العالم أفضل من ألف عابد وألف زاهد وألف مجتهد[(٣)].

ولو قلنا: إنّ العدد لبيان الكثرة فإنّ التفاوت لا يقدَّر، ولذا ورد في خبر آخر عنه صلى الله عليه وآله أنّ فضل العالم على العابد كفضل الشمس على الكواكب[(٤)]، وكفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر[(٥)].

---

(١) مشكاة الأنوار: ص١٤٩؛ وانظر البحار: ج٦٤، ص٧١، ح٣٩.

(٢) مجمع البيان: ح٩، ص٤١٨؛ تفسير الصافي: ج٥، ص١٤٨.

(٣) البحار: ج٧٥، ص٢٤٧، ح٧٦، تحف العقول: ص٣٦٤.

(٤) بصائر الدرجات: ص٢٨، ح٨؛ البحار: ج٢، ص١٩، ح٤٩.

(٥) الأمالي (للصدوق): ص١١٦، ح٩٩؛ الكافي: ج١، ص٣٤، ح١؛ بصائر الدرجات: ص٢٣، ح٢.

والسر في هذا الفضل يكشفه رسول الله ﷺ بقوله: «إنّ الشيطان يضع البدعة للناس فيبصرها العالِم فيَنهى عنها، والعابد مقبِل على عبادته لا يتوجَّه لها ولا يعرفها»(١) ولذا يَصِفُهُ الرضا عليه السلام بالكافِل لأيتام آل محمد عليهم السلام.

فقد وردَ عنه عليه السلام: «يُقال للعابد يوم القيامة: نِعمَ الرجل كنتَ، همّتُكَ ذات نفسك، وكفيتَ مؤونتك، فادخل الجنة، إلّا إنّ الفقيه مَن أفاضَ على الناس خيره، وأنقذهم من أعدائهم... ويُقال للفقيه: يا أيُّها الكافل لأيتام آل محمد الهادي لضعفاء محبيهم ومواليهم قِفْ حتى تَشفع لكل مَن أخذَ عنك أو تعلَّم منك»(٢).

وإطلاقه يشمل من يحضر عند العالم ويأخذ منه مباشرة أو بالواسطة، ولو بواسطة الاستماع لكلامه، أو قراءة كتابه، أو الأخذ من تلامذته.

ولذا ورد بطرق الفريقين عن رسول الله ﷺ: «موت العالِم مصيبة لا تُجْبَر، وثُلْمة لا تُسَد وهو نجم طمس»(٣).

وما يهمّ الإلتفات إليه أنّ موت العالم على قسمين:

أحدهما: الموت بالأجل، وهو موت الشخص، ومنطوق الحديث دال عليه ودال على أثره.

---

(١) روضة الواعظين: ص١٢؛ كنز العمال: ج١٠، ص١٧٥، ح٢٨٩١٤.

(٢) الاحتجاج: ج١، ص٩؛ وانظر عوالي اللآلئ: ج١، ص١٩، ح٧.

(٣) مجمع الزوائد: ج١، ص٢٠١؛كنز العمال: ج١٠، ص١٥٩، ح٢٨٨٢٤؛ تاريخ مدينة دمشق ج٣٨، ص٣١٨، ح٤٥٧٥؛ وانظر الكافي: ج١، ص٣٨، ح٢؛ التهذيب: ج١، ص٤٣، مقدمة الكتاب.

ثانيهما: الموت للشخصية، ويتم بالدعايات الكاذبة وتسقيط المكانة، وهذا أبلغ أثراً من الأول؛ لاجتماع عدة عناوين مُحُرَّمة فيه، وهذا الثاني هو الذي يسعى له الأعداء للإسلام والمسلمين، وهذا ما لا ينبغي أنْ يقع فيه المسلمون ويصيروا ضحاياه، ويحققوا أغراض الأعداء بتصديقهم الدعايات الكاذبة وخذلان العلماء الاتقياء ونصرتهم.

التعليم الرابع: لأصحاب الشأن

أي للمحاورين وأهل الجدل في مواطن المحاورة والنقاش، وكذلك للساسة في مواقع التفاوض، وللإداريين ولكل مَعني بالحوار والتفاوض بأنْ يتمّوا الحجة على الطرف الآخر، وتتمّ بأمرين:

أحدهما: إقامة الدليل والبرهان على مدّعاهم.

وثانيهما: إسقاط الحجج والأعاذير عند الطرف الآخر لكيلا يتحجج ويخالف الحجة، فقد مُنِعَ الله رسولهﷺ من القراءة والكتابة لتكون الحجة الأتم في القرآن، ومنعه من الشعر حتى لا يكون لهم حجة ويدَّعوا أنه خيالات وأشعار تُملى عليه، أو من عندياتهِ وليست من الله سبحانه، فلا يكفي في مقام المحاجحة أن تكون حجتك قوية ما لم تزل موانع القبول والتُهَم التي قد يتمسّك بها الخصم للرفض.

التعليم الخامس: في الأصول والفقه

إنّ الآية المباركة وصفت النبيصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بالذكر وبالقرآن، وبه تثبت عدة حقائق هامّة:

الأولى: أنّ قول النبيّصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وفعله وتقريره حجة كحجية القرآن، بل تدل على أنّ القرآن له مظهران تكويني وتدويني، وواقعهما واحد، وكلاهما ذكر وقد اجتمعا في رسول اللهصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ.

الثانية: صحة قول الأصوليين بأنّ السُنَّة تُخصِّص القرآن وتقيِّده، وتبيِّن مجملاته، وترفع متشابهاته، وتنسخ أحكامه إنْ قلنا بوجود النسخ، ولا خلاف في غير النسخ، وأما فيه فلاتفاق كلمتهم على أنّ القرآن ينسخ بعضه بعضاً، وإذا أثبتت الآية أنّ النبيّ قرآن أيضاً - موضوعاً - شمله حكمه، وللمسألة تفاصيل تبحث في علم الأصول.

الثالثة: كما أنّ تكذيب القرآن كفر فإنّ تكذيب النبيّصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ كذلك، وكما أنّ الباري عزّ وجلّ يتجلَّى لعباده في كتابه فإنه يتجلَّى في نبيّهصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، ولذا وُصِفَ بأنه ذِكْر، وكما أنه سبحانه تكفَّل بصيانة القرآن من الخطأ والباطل يكون كذلك للرسولصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، فهو معصوم كعصمة القرآن، وهو مخزن العِلم، كما أنّ القرآن كذلك، وبه يبطل قول العامّة بأنهصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ غير معصوم قبل البعثة، وبعضهم ذهب إلى عصمته بعد البعثة فقط في تلقي الوحي وتبليغ الرسالة.

الرابعة: بطلان قول بعض الصحابة إنّ النبيّ يهجر[1]، فإنّ هذا القول مساوق لنسبة الهجر إلى القرآن، وهو الآخر يساوق نسبته إلى الله سبحانه.

---

(١) مدينة المعاجز: ج٢، ص٩٢؛ البحار: ج٣٠، ص١٣٠؛ ج١٠٨، ص٣٠٩.

الخامسة: أنّ حصر بعض المفسرين تفسير القرآن بالقرآن إن كان مراده تفسير القرآن بالقرآن المكتوب فهو مخالف لذات القرآن؛ لشهادته بأنّ النبيّ قرآن، فلا يمكن الاستغناء عن السنّة في تفسير القرآن وفهم معانيه ومضامينه.

التعليم السادس: المعارف الإلهية في القرآن والسنّة

إنّ الآية أشارت إلى أن التعليم من الله سبحانه، وأمّا الشعر فليس من تعليمه، ولازمه أن يكون العِلم الرباني منحصراً بالله سبحانه وبرسوله، فلا ينبغي لأهل الفضل أنْ يستقوا علومهم من غير القرآن والسنّة، وكل طريق يسلكه العلماء للوصول إلى المعارف الإلهية غير هذا الطريق فإنه ليس من تعليم الله ولا رسوله، ونتيجته أن يكون في جانب كبير منه خيالات وتوهمات لا حقائق، ويندرج في الشعر موضوعاً.

وبذلك تبطل الكثير من المناهج والمدارس إلّا ما أخذت منهما.

وبضميمة الأدلة العقلية وتواتر الأدلة النقلية تشمل السنّة العترة الطاهرة عليهم السلام، فلا يعذر من أخذ علومه الربانيّة من غيرهم، وهذا ورد في الأخبار الكثيرة[1]، وقد تقدَّم بيان ذلك في أبحاث سابقة.

---

(١) انظر مستدرك الوسائل: ج١٧، الباب ٧ من أبواب صفات القاضي، ص٢٧٤، ح٢١٣٢٤؛ بصائر الدرجات: ص٣٠، ح٤؛ الكافي: ج١، ص٣٩٩، ح٣؛ الوسائل: ج٢١، الباب ٨٤ من أبواب أحكام الأولاد، ص٤٧٧، ح٢٧٦٣٢.

الفهرس

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ........................ ٩
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ١١
المفردة الأولى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾........................ ١١
المفردة الثانية: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾........................ ٢٣
المفردة الثالثة: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾........................ ٢٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................ ٣١
اللطيفة الأولى: التنعم في ظلال الجنة........................ ٣١
اللطيفة الثانية: لماذا الأزواج دون الأرحام؟........................ ٣٤
اللطيفة الثالثة: كيف يلتذون بالأرائك؟........................ ٣٥
المبحث الثالث : في تعاليم الآية........................ ٣٧
التعليم الأول: بماذا تضمن حياة سعيدة؟........................ ٣٧
التعليم الثاني: يجب الإمعان في اختيار الزوجة والزوج........................ ٣٨
مقومات الأسرة السعيدة........................ ٣٩
التعليم الثالث: لنجعل البيوت ظِلالاً........................ ٤١
التعليم الرابع: الأرائك أفضل وسيلة للجلوس........................ ٤٢
لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ........................ ٤٣
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ٤٧
المفردة الأولى: ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾........................ ٤٧

المفردة الثانية: ﴿فَاكِهَةٌ﴾ ٤٩
المفردة الثالثة: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ٥١
المبحث الثاني: في لطائف الآية............................ ٥٩
اللطيفة الأولى: لماذا ذكرت الفاكهة دون غيرها؟ ٥٩
اللطيفة الثانية: معارف أهل الجنّة.......................... ٦١
اللطيفة الثالثة: لأهل الجنة ما يدّعون ٦٦
اللطيفة الرابعة: النعيم المادي في الجنة.................... ٦٧
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٦٩
التعليم الأول: تشريف المجالس بالفاكهة.................... ٦٩
التعليم الثاني: الفاكهة ضرورة للبدن ٦٩
التعليم الثالث: الاستماع واجب على المسؤول............... ٧٠
سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ٧١
السلام قلب سورة يس....................................... ٧٣
المبحث الأول: في مفردات الآية........................... ٧٧
المفردة الأولى: ﴿سَلَامٌ﴾ ٧٧
المفردة الثانية: ﴿قَوْلًا﴾ ٨٠
المفردة الثالثة: ﴿مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾........................ ٨٥
المبحث الثاني: في لطائف الآية............................ ٩٥
اللطيفة الأولى: مراتب السلام وأصنافه..................... ٩٥
اللطيفة الثانية: آثار السلام في الجنة ١٠٠
اللطيفة الثالثة: سلام الجنة امتداد للدنيا................... ١٠٢

المبحث الثالث: في تعاليم الآية ١٠٥
التعليم الأول: الرحمة والسلام في الشخصيّة الإلهية ١٠٥
التعليم الثاني: ١١٢
التعليم الثالث: سلامة الدنيا والآخرة عند آل محمد عليهم السلام ١١٣
التعليم الرابع: للقضاة والمعنيين بالحكم ١١٦
التعليم الخامس: تحية السلام ١١٦
وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ١١٧
المبحث الأول: في مفردات الآية ١٢١
المفردة الأولى: ﴿وَامْتَازُوا﴾ ١٢١
المفردة الثانية: ﴿الْيَوْمَ﴾ ١٢٦
المفردة الثالثة: ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ١٢٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية ١٣١
اللطيفة الأولى: السلسلة الطولية لملوك الوجود ١٣١
اللطيفة الثانية: بماذا يمتاز المجرمون؟ ١٣٣
اللطيفة الثالثة: لماذا أمروا بالامتياز؟ ١٤٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ١٤١
التعليم الأول: الدين الحق يقوم على أركان ١٤١
التعليم الثاني: الظلم لا يدوم ١٤٤
التعليم الثالث: المجرمون صنفان ١٤٦
التعليم الرابع: قاعدة أصولية ١٤٩
أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ١٥١

لماذا الاستفهام؟...١٥٣
المبحث الأول: في مفردات الآية...................................١٥٥
المفردة الأولى: ﴿أَلَمْ﴾...١٥٥
المفردة الثانية: ﴿أَعْهَدْ﴾.......................................١٥٦
المفردة الثالثة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾.................................١٦٢
المفردة الرابعة: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾....................١٦٥
المفردة الخامسة: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.......................١٧١
المبحث الثاني: في لطائف الآية...................................١٧٣
اللطيفة الأولى: علاقة الرحمن والشيطان ببني آدم ١٧٣
اللطيفة الثانية: لماذا يعادي الشيطان بني آدم؟ ١٧٧
اللطيفة الثالثة: ما هي الأحوال التي يوسوس فيها الشيطان؟..١٨٣
أساليب الشيطان وطرقه.......................................١٨٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية....................................١٨٧
التعليم الأول: للحكماء و المقننين وأصحاب الفكر ١٨٧
التعليم الثاني: صحة قواعد الإمامية في الفقه والكلام ١٩٠
التعليم الثالث: للتربويين والمعلمين ١٩٣
التعليم الرابع: عبادة الإنسان بين محورين.........................١٩٤
التعليم الخامس: عداوة الشيطان اجتماعياً وسياسياً ١٩٧
كيف تحارب الشيطان؟...١٩٨
التعليم السادس: بعض القواعد الفقهية والأصولية والكلامية ١٩٩
وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ..................................٢٠١

المبحث الأول: في مفردات الآية.. ٢٠٣
المفردة الأولى: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾.. ٢٠٣
المفردة الثانية: ﴿هَذَا﴾ ٢٠٧
المفردة الثالثة: ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ٢٠٨
المبحث الثاني: في لطائف الآية... ٢١٣
اللطيفة الأولى: من الذي أخذ عهد الله؟ ٢١٣
اللطيفة الثانية: عبادة الله باتباع النبي والإمام عليهما السلام............... ٢٢٠
اللطيفة الثالثة: عداوة الشيطان خاصة بأولياء علي عليه السلام......... ٢٢١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية... ٢٢٥
التعليم الأول: الإصلاح يقوم على الهدم والبناء......................... ٢٢٥
المنهاج العملي للإصلاح... ٢٢٧
القدوة ضرورة في المجتمع والدولة.. ٢٣٤
التعليم الثاني: كيف الخلاص من ضيق المعيشة؟ ٢٣٨
التعليم الثالث: كيف تتحرز من الشيطان؟ ٢٤٤
التعليم الرابع: فقهي... ٢٤٧
وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ٢٤٩
أفلا يعقلون؟.. ٢٥١
المبحث الأول: في مفردات الآية.. ٢٥٥
المفردة الأولى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ﴾... ٢٥٥
المفردة الثانية: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾... ٢٥٦
المفردة الثالثة: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ ٢٥٩

المبحث الثاني: في لطائف الآية.. ٢٦٣
اللطيفة الأولى: الغرب والشيطان نهج واحد.............................. ٢٦٣
اللطيفة الثانية: لماذا وصف بنو آدم بالجبلة؟................................ ٢٦٦
اللطيفة الثالثة: العقل أم العلم؟.. ٢٦٩
العقل والشيطنة.. ٢٧١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.. ٢٧٣
التعليم الأول: حضارة الشياطين... ٢٧٣
شيطنة الغرب والشرق... ٢٧٨
التعليم الثاني: العقل قائد الإنسان.. ٢٨١
التعليم الثالث:.. ٢٨٢
التعليم الرابع: تعاضد العقل والشرع... ٢٨٢
هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ... ٢٨٥
هذا ما توعدون.. ٢٨٧
المبحث الأول: في مفردات الآية... ٢٨٩
المفردة الأولى: ﴿هَذِهِ﴾.. ٢٨٩
المفردة الثانية: ﴿جَهَنَّمُ﴾... ٢٩٠
المفردة الثالثة: ﴿الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.. ٢٩٣
المبحث الثاني: في لطائف الآية... ٢٩٥
اللطيفة الأولى: ما هي النار ومن هم أصولها؟............................... ٢٩٥
اللطيفة الثانية:... ٢٩٧
اللطيفة الثالثة: تكامل النبوّات والرسالات.................................... ٢٩٧

ثلاث حقائق في النبوات.. ٢٩٩
المبحث الثالث : في تعاليم الآية.. ٣٠٥
التعليم الأول: الناس صنفان.. ٣٠٥
العلم نوعان والغيبي أعظم.. ٣٠٦
التعليم الثاني: يجب تقديم النموذج الحسي للأفكار............ ٣١٠
التعليم الثالث: الوفاء بالوعيد حسن ٣١٢
اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣١٥
المبحث الأول: في مفردات الآية.. ٣١٧
المفردة الأولى: ﴿اصْلَوْهَا﴾.. ٣١٧
المفردة الثانية: ﴿الْيَوْمَ﴾.. ٣٢١
المفردة الثالثة: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾................................ ٣٢٢
المبحث الثاني: في لطائف الآية.. ٣٢٥
اللطيفة الأولى: أحوال أهل النار.. ٣٢٥
اللطيفة الثانية: كلّمهم بمنطقهم.. ٣٢٦
اللطيفة الثالثة: تنوّع العذاب بتنوّع الكفر ٣٢٦
خلاص أهل النار بمحمد وآله.. ٣٣٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٣٣٣
التعليم الأول: التوبة قبل الموت.. ٣٣٣
التعليم الثاني: لماذا يخلَّدون في النار؟ ٣٣٤
التعليم الثالث: للتربويين والمعنيين بتطبيق العدالة ٣٣٥
التعليم الرابع: للقضاة والفقهاء.. ٣٣٦

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
....٣٣٧
المبحث الأول: في مفردات الآية........................٣٤١
المفردة الأولى: ﴿الْيَوْمَ﴾........................٣٤١
المفردة الثانية: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾........................٣٤٤
المفردة الثالثة: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾........................٣٤٨
المفردة الرابعة: ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾........................٣٥٤
المفردة الخامسة: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾........................٣٥٧
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................٣٦١
اللطيفة الأولى: لماذا الختم على الأفواه والقلوب؟ ٣٦١
حقيقتان في الختم والطبع ٣٦٤
اللطيفة الثانية: شهادة الجوارح على أهلها........................٣٦٥
اللطيفة الثالثة: الجوارح تتكلّم........................٣٦٩
اللطيفة الرابعة: فرق الكسب عن العمل والذنب ٣٧١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................٣٧٣
التعليم الأول: للمحاورين والساسة والقضاة ٣٧٣
التعليم الثاني: بالحوار لا بتكميم الأفواه ٣٧٤
التعليم الثالث: وصايا للحياة........................٣٧٤
التعليم الرابع: للمتكلمين والفقهاء........................٣٧٥
وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ........٣٧٩
الجزاء بالاستحقاق........................٣٨١

المبحث الأول: في مفردات الآية.................................. ٣٨٥
المفردة الأولى: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾............ ٣٨٥
المفردة الثانية: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾.............................. ٣٩١
المفردة الثالثة: ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾................................. ٣٩٣
المبحث الثاني: في لطائف الآية.................................. ٣٩٥
اللطيفة الأولى: مفهوم المشيئة والإرادة........................ ٣٩٥
اللطيفة الثانية: أسلوب الباري مع أهل النار.................... ٣٩٨
اللطيفة الثالثة: طمس العقول والقلوب ٤٠٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.................................. ٤٠١
التعليم الأول: لماذا لم يعاجلهم بالعقوبة؟....................... ٤٠١
التعليم الثاني: ثلاثة مبادئ للنجاح ٤٠٦
التعليم الثالث: فلسفة التنافس والاستباق........................ ٤٠٧
التعليم الرابع: كل شيء يوجد بسبب وحكمة ٤٠٨
وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ.... ٤١٣
المسخ قسمان.. ٤١٥
المبحث الأول: في مفردات الآية.................................. ٤١٧
المفردة الأولى: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ ٤١٧
المفردة الثانية: ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾................................. ٤١٩
المفردة الثالثة: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ٤٢٤
المبحث الثاني: في لطائف الآية.................................. ٤٢٩
اللطيفة الأولى: لماذا لم يمسخهم؟............................... ٤٢٩

اللطيفة الثانية: العذاب يسانخ السجايا ٤٣٣
اللطيفة الثالثة: الفرق بين القدرة والإستطاعة..................٤٣٥
اللطيفة الرابعة: فرق المضي والرجوع ٤٣٧
المبحث الثالث: في تعاليم الآية...................................٤٣٩
التعليم الأول: مصير الإنسان بيده................................٤٣٩
التعليم الثاني: ربك يختبرك بما لديك...............................٤٤٠
التعليم الثالث: فكر في طريق الرجوع ٤٤٠
التعليم الرابع: لا تغتر بما عندك......................................٤٤١
وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ.......................٤٤٣
حكمة العطف على ما سبق ٤٤٥
المبحث الأول: في مفردات الآية.....................................٤٤٩
المفردة الأولى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾ ٤٤٩
المفردة الثانية: ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾..٤٥٣
المفردة الثالثة: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ٤٥٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية.......................................٤٥٩
اللطيفة الأولى: لماذا يعمرّه ثم ينكسه في الخلق؟ ٤٥٩
اللطيفة الثانية: تدبروا في أبدانكم.......................................٤٦٠
اللطيفة الثالثة: بين التعقّل والتفكّر ٤٦٢
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٤٦٥
التعليم الأول: كل قوة وراءها ضعف ٤٦٥
التعليم الثاني: انتكاس المجتمعات والحضارات...........................٤٦٦

التعليم الثالث: لا انتكاس في الروحانيات.................... ٤٦٧
وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ.......... ٤٦٩
القرآن والشعر...................................... ٤٧١
المبحث الأول: في مفردات الآية.............................. ٤٧٥
المفردة الأولى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ ٤٧٥
المفردة الثانية: ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾.............................. ٤٨٤
المفردة الثالثة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ ٤٩٠
المبحث الثاني: في لطائف الآية.............................. ٤٩٣
اللطيفة الأولى: الشعر موهبة إلهية ٤٩٣
اللطيفة الثانية: طرق علم النبي صلى الله عليه وآله.......................... ٤٩٥
اللطيفة الثالثة: القرآن تنزيلي لا تعليمي...................... ٤٩٩
اللطيفة الرابعة: بين الإعجاز والسحر ٥٠٢
بين الذكر والشعر ٥٠٧
اللطيفة الخامسة: هل النبي صلى الله عليه وآله أنشد الشعر وأنشأه؟ ٥٠٩
المبحث الثالث: في تعاليم الآية............................. ٥١٥
التعليم الأول: يجب العمل بالأهم دائماً................... ٥١٥
وجوب العمل بشرائط القدوة.......................... ٥١٧
خصائص سيرة النبي صلى الله عليه وآله................................. ٥١٨
التعليم الثاني: لطلبة العلم وأهل الحِرَف..................... ٥٢٢
خصائص العلوم الإلهية............................ ٥٢٤
في الحياة ما يليق وما لا يليق.......................... ٥٢٧

التعليم الثالث: ما ينبغي في الحوار وما لا ينبغي ٥٣٠
التعليم الرابع: لأصحاب الشأن....................................٥٣٤
التعليم الخامس: في الأصول والفقه ٥٣٥
التعليم السادس: المعارف الإلهية في القرآن والسنّة ٥٣٦
الفهرس ٥٣٧